

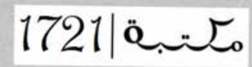
الـرواية الأكثـر مبيعـًا في الولايات المتحـدة الأمـريكيـة
THE TEN THOUSAND
DOORS OF JANUARY
مكتبة
1721
جانيوري
والأبواب
العشرة الآلاف
أليكس إي. هارو
عصير الكتب
ترجمة: زينب أبو علي

الرواية الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة الأمريكية

THE TEN THOUSAND DOORS OF JANUARY



جانيوري والأبواب العشرة الآلاف



أليكس إي. هارو



ترجمة: زينب أبو علي



لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Ten Thousand Doors of January
- العنوان العربي: جانيوري والأبواب العشرة الآلاف
- طُبِع بواسطة: Redhook, Hachette Book Group
- طُبِع بواسطة: ريد هوك، مجموعة هاتشيت للكتب

- ترجمة: زينب أبو علي
- تحرير: محمد المتيم
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر/ 2022م
- رقم الإيداع: 2021/25917م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-81-7

2 4 2024



چانيـوري والأبــواب العشـرة الآلاف



إهداء المترجم

إلى أمي وأبي وأصدقائي وكل أبواب المحبة التي قادتني نحو الأبواب العشرة الآلاف.

إلى نيك، رفيقي وبوصلتي.



الباب الأزرق

عندما كنت في السابعة من عمري، عثرت على باب، وأظن أنني يجدر بي تكبير تلك الكلمة، حتى تفهم أنني لا أتحدث عن باب حديقة أو أحد الأبواب المعتادة التي تقود مباشرة إلى مطبخ مفروش ببلاطات بيضاء أو إلى خزانة غرفة نوم.

عندما كنت في السابعة من عمري، عثرت على **باب، الآن،** انظر كيف تقف الكلمة منتصبة شامخة في الصفحة، حرفها الأول «D» يشبه قنطرة سوداء تؤدي إلى هاوية بيضاء. عندما ترى تلك الكلمة، يُخيل لي قليلًا من وخز الألفة التي تجعل شعيرات مؤخرة رقبتك تنتصب. أنت لا تعرف شيئًا عني، فلا يمكنك رؤيتي بينما أجلس إلى هذا المكتب الخشبي أصفر اللون، والنسيم الرقيق المالح يعبث بهذه الصفحات عبث قارئة تبحث عن فاصل الكتب خاصّتها، ولا يمكنك أيضًا رؤية الندوب التي تلتفُّ وتنعقد عبر جلدي،

حتى إنك تجهل اسمي -أنا جانيوري سكالر، إذًا أعتقد أنك الآن تعرف شيئًا عني ولقد أفسدت وجهة نظري-.

ولكن أنت تعلم ما تعنيه رؤية كلمة **باب**، ربما لمحت واحدًا بنفسك، قائمًا مواربًا متعفِّنًا في كنيسة قديمة، أو يلمع طلاؤه في حائط صخري. أو إذا كنت أحد هؤلاء الأشخاص واسعي الخيال الذين تندفع خطاهم نحو الأماكن الغريبة، ربما عبرت خلال أحد الأبواب لتجد نفسك في مكان غير متوقع حقًّا.

أو ربما لم يقع نظرك من قبل على **بابٍ** في حياتك، فلم يعد يوجد الكثير منها كما كانت الحال في السابق.

ولكن ما زالت لديك فكرة عن **الأبواب**، أليس كذلك؟ لأن هناك عشرة آلاف قصة عن عشرة آلاف **باب** نعرفهم كما نعرف أسماءنا. تقود هذه **الأبواب** إلى عالم الجنّ، فالهالا[1]، وأتلانتس[2] وليموريا[3]، والجنة والنار، وإلى كل الاتجاهات التي يستحيل أن تأخذك البوصلة إليها، ستقودك الأبواب إلى العالم الآخر.

والدي، وهو باحث حقيقي، لم يكن مثلي؛ مجرد شابة في جعبتها قلم حبر وبعض الأشياء التي لا تستطيع السكوت عنها، يصف الأمر على نحو أفضل، قائلًا: «إذا تعاملنا مع القصص كأنها مواقع أثرية، وأزلنا الغبار عن طبقاتها بعناية بالغة، سنكتشف في مرحلة ما أن هناك دومًا مدخلًا لباب. النقطة الفاصلة بين هنا وهناك، نحن وهُمْ، العادي والسحري. فعندما تُفتح الأبواب، وتنساب الأشياء بين العوالم، تحدث القصص».

لم يُكبِّر والدي أحرف كلمة باب قط، ربما لا يُكبِّر الباحثون أحرف الكلمات فقط بسبب الأشكال التي ترسمها على الورق.

---

(1) فالهالا: باللغة النوردية القديمة تعني قاعة الشهداء، وفي الأساطير الإسكندنافية هي قاعة ضخمة في العالم الآخر يذهب إليها من مات في المعارك ويعيش بسعادة في ضيافة أودين أبي الآلهة. توازي الجنة في الديانات الإبراهيمية.

(2) أتلانتس: مدينة أسطورية لم يثبت وجودها حتى الآن، ذكرها أفلاطون في محاورتين له، ويقال إن موقعها في جنوب إسبانيا.

(3) ليموريا: قارة مفقودة تقع في المحيط الهادئ والهندي، يعتقد العلماء أنها كانت موجودة في عصور ما قبل التاريخ ولكنها غرقت بسبب التغيرات الجيولوجية.

كان صيف عام 1901، أتذكره، على الرغم من أن ترتيب الأرقام الأربع على أيّ صفحة لم يعنِ لي الكثير في ذلك الوقت، والآن عندما أفكر فيه أجده عامًا مختالًا مغرورًا، يشع وعودًا مذهَّبَة لقرن جديد. لقد تخلَّص من كل فوضى وجلبة القرن التاسع عشر، كل تلك الحروب والثورات والشكوك وآلام الإمبراطورية المتنامية، أمّا الآن فلا يوجد سوى الرخاء والسلام أينما ولَّيْت وجهك.

فمؤخرًا أصبح السيد جي بي مورجان[1] أغنى رجل في تاريخ العالم بأسْرِه، وتوفّيَت الملكة إليزابيث تاركةً الحكم لابنها ملكيّ الهيئة، وفي الصين خضع هؤلاء الملاكمون[2] الجامحون، كما أصبحت كوبا تحت جناح أمريكا المتحضِّر. لقد ساد العقل والمنطق، ولم يعد هناك مجالٌ للسحر أو الغموض.

كما اتَّضَح أنه لا يوجد مكان للفتيات الصغيرات اللائي تجوَّلن عند حافة العالم، وأفصحن عن حقيقة الأشياء المجنونة التي عثرن عليها هناك.

عند الحافة الغربية الجرداء لـولاية كنتاكي، وجدته، في النقطة التي تتلاقى فيها الولاية مع نهر المسيسيبي، وتلك ليست بالبقعة التي قد تتوقَّع أن تعثر فيها على أيّ شيء غامض أو ما قد يوصف بأنه مثيرٌ للاهتمام، فهو مكان مسطَّح وَعْر يسكنه أشخاص تافهون متجهمون. تشرق الشمس عليه بحرارةٍ تساوي ضِعفيْ ما تشهده البلاد، وثلاثة أضعاف السطوع في سائر الولايات، حتى في ختام أغسطس، يبدو كل شيء رطبًا ولزجًا مثل رغاوي الصابون المتبقية على جسدك عندما تكون آخر شخص يستخدم الحمام.

لكن وجه الشبه بين **الأبواب** والمشتبه بهم في قصص التشويق الرخيصة، هو أنها توجد حيث لا تتوقّعها.

لقد ذهبت فحسب إلى كنتاكي لأن السيد لوك اصطحبني معه في إحدى رحلات عمله، كما قال إن الأمر سيكون ممتعًا حقًّا وفرصة لرؤية كيفية إنجاز الأمور، لكن في الواقع ذهبت في الرحلة لأن جليستي كانت على شفا الإصابة

(1) جي بي مورجان: هو جون بيربونت مورجان رجل أعمال أمريكي ساهم في حدوث عدة عمليات دمج لشركات كبرى في بداية القرن العشرين.

(2) ثورة الملاكمين: انتفاضة وقعت في الصين ضد الإمبريالية والتدخل الأجنبي في الصين بين عامي 1899 و1901.

باضطراب عصبي، وهدَّدَتْ بالاستقالة أربع مرات خلال الشهر الماضي. ففي ذلك الوقت، كنت طفلةً صعبة المراس.

أو ربما لأن السيد لوك كان يُحاول التخفيف عني، إذ وصلت بطاقة بريدية من والدي الأسبوع الماضي، بها صورة لفتاة سمراء تعتمر قبعة مدببة ذهبية وتعلو وجهها علامات الاستياء، وإلى جانبها خُتمت عبارة «الزي البورمي الوطني».

وفي الخلف، كُتِبت ثلاثة أسطر بحبر بنّي منمَّق، «سأمدّ إقامتي»، «سأعود في أكتوبر»، و«أفكر فيك»، وتوقيع جيه إس. قرأ السيد لوك البطاقة من فوق كتفي، وربَّتَ ذراعي في ارتباكٍ وكأنما يقول لي أبقي رأسكِ مرفوعًا.

بعد أسبوع، كنت مُحنطة في النعش الخشبي المخملي لعربة النوم في القطار، أطالع كتاب «روفر بويز في الغابة»[1] بينما يقرأ السيد لوك قسم الأعمال في جريدة التايمز ويحملق السيد ستيرلينج إلى الفراغ بالتبلد الذي يليق بخادم.

ربما يتحتم عليَّ التعريف بالسيد لوك بطريقة لائقة، لأنه سيكره أن يدخل إلى القصة دخولًا عابرًا ملتويًا ما سمح لي أن أقدم السيد ويليام كورنيليوس لوك، شخص عصامي على وشك أن يصبح بليونيرًا، يترأس شركة (دبليو سي لوك وشركاؤه)، ويملك ما لا يقل عن ثلاثة بيوت فخمة على طول الساحل الشرقي، وهو نصير فضيلتي **النظام** و**اللياقة** -كلمتان سيفضل بالتأكيد رؤيتهما كبيرتين، فحرف الـ P يُشبه امرأة تضع يدها على خصرها-. ويترأس السيد لوك أيضًا جمعية (نيو إنجلاند الأثرية)، وهو نوع من الأندية الاجتماعية للرجال الأغنياء ذوي النفوذ الذين يهوون تجميع الأشياء، وأقول «هواة» لأنه كان من الشائع أن يشير الرجال الأثرياء إلى شغفهم بمثل هذا التجاهل مع نقرة خفيفة من أصابعهم وكأن الاعتراف بمهنة أخرى غير جمع المال قد يلطخ سمعتهم.

في الحقيقة، كان ينتابني أحيانًا الشك أن المال الذي يجمعه السيد لوك الهدف منه هو تغذية هوايته في تجميع الأشياء. وعلى النقيض من البنايتين

(1) روفر بويز: سلسلة روايات مغامرات للأطفال من تأليف إدوارد ستراتماير.

الأخريين اللتين لا تشوبهما شائبة وتهدفان إلى إقناع العالم بأهميته، كان منزله في فيرمونت حيث كنا نقيم بالفعل، متحفًا خاصًّا شاسعًا، ومجهزًا على أعلى مستوى لدرجة أنه كان يبدو مبنيًّا بالقطع الأثرية وليس بالطين والحجارة.

تخلل المنزل بعض التنظيم، فكانت التماثيل من الحجر الكلسي للنساء ذوات المؤخرات العريضة برفقة الستائر الإندونيسية المنحوتة فيما يشبه الدانتيل، وتتقاسم نصال الأسهم المصنوعة من العقيق صندوقًا زجاجيًّا مع يد محنطة لمحارب من الإيدو[1]، لقد كرهت هذه اليد ولكنني لم أستطع مقاومة النظر إليها، متسائلة عن هيئتها عندما كانت تنبض بالحياة ولها بنية عضلية، وكيف سيشعر صاحبها حيال فتاة صغيرة من أمريكا تحملق إلى جسده المحنط دون حتى أن تعرف اسمه.

كان والدي واحدًا من العملاء الميدانيين للسيد لوك، حصل على وظيفته عندما كنت لا شيء سوى صرة بحجم حبة باذنجان ملفوفة في معطف سفر قديم. أحب السيد لوك أن يروي لي الأمر كالتالي: «كانت أمك قد ماتت للتو، كما تعرفين، قصة حزينة، ووالدك، الرجل ذو مظهر الفزاعة والبشرة غريبة اللون، واليدين اللتين تغطيهما الوشوم -فليساعده الرب-. كان هائمًا في اللاشيء ومعه طفلة. فقلت لنفسي، يا كورنيليوس هناك رجل يحتاج إلى القليل من الإحسان!».

حصل والدي على وظيفة قبل حلول الظلام. والآن يتسكع حول الكرة الأرضية ليجمع أشياء -ذات قيمة فريدة- ثم يرسلها إلى السيد لوك ليضعها في صناديق زجاجية وصفائح نحاسية، يصرخ عليّ عندما ألمسها أو ألعب بها أو أسرق العملات الآزتيكية[2] لأعيد تمثيل مشاهد من جزيرة الكنز[3]. وبينما أنتظر عودة أبي، أجلس في غرفتي الرمادية الصغيرة في بيت لوك وأضايق الجليسات اللاتي يُعَيِّنهن السيد لوك لتهذيبي.

(1) الإيدو: الاسم القديم لمدينة طوكيو، وذلك في أثناء فترة حكم أسرة توكو غاوا.

(2) الآزتيكية: نسبة إلى حضارة الآزتك وهي من الشعوب الأصلية في الأمريكتين.

(3) جزيرة الكنز: رواية مغامرات من تأليف الكاتب الإسكتلندي روبرت ستيفنسون.

في سن السابعة، كنت على نحو ملحوظ قد قضيت وقتًا أطول مع السيد لوك أكثر من والدي الحقيقي، ونظرًا إلى إمكانية أن تحب شخصًا فمن الطبيعي وبارتياح أن أقول في كلمتين: لقد أحببته.

وكعادته، حجز لنا السيد لوك غرفًا في أفضل مبنى موجود في كنتاكي، وهو فندق مبني من خشب الصنوبر مترامي الأطراف على حافة نهر المسيسبي، ومن الواضح أن الشخص الذي صممه أراد بناء فندق ضخم لكنه لم ير واحدًا في حياته. تزين الفندق بورق حائط مخطط ملون وثريات كهربائية، ولكن رائحة سمك سلور نتن فاحت من الألواح الأرضية.

لوّح السيد لوك للمدير متجاوزًا إياه بإشارة تشبه اصطياد حشرة، وقال له:

- راقب هذه الفتاة، إنها رفيقة صالحة.

ثم اندفع إلى البهو برفقة السيد ستيرلينج الذي يتعقبه مثل كلب له هيئة إنسان. ألقى لوك التحية على رجل متأنق ينتظر على إحدى الأرائك ذات النقوش الوردية:

- الحاكم دوكري! يسرني لقاؤك. اطمئن لقد قرأت رسالتك بتركيز بالغ، وكيف يجري جمع الجماجم؟

أوه، حسنًا، لقد جئنا إذًا لهذا السبب، كان السيد لوك يقابل واحدًا من أصدقائه في الجمعية الأثرية في أمسية من أمسيات احتساء الشراب وتدخين السجائر والتفاخر. إنهم يلتقون في اجتماع سنوي للجمعية، كل صيف في منزل لوك، والاجتماع عبارة عن حفلة فاخرة تليها فعالية خانقة للأعضاء فقط، لم يكن مسموحًا لي ولوالدي حضورها، لكن بعض الأشخاص الذين يأكلهم الحماس لم يستطيعوا الانتظار عامًا بأكمله وطالبوا بحفلة أخرى في أي مكان ممكن.

اصطنع المدير ابتسامة مرعبة -في وجهي- يفتعلها البالغون الذين لم ينجبوا أطفالًا، فعاودته بابتسامة كشفت عن أسناني.

أخبرته واثقة:

- سأخرج.

ابتسم بجهد أكبر، وعيناه ترمشان في شك. دائمًا ما يرتاب الناس بشأني، فبشرتي لونها يميل إلى الأحمر النحاسي، كما لو تغطيها نشارة شجرة الأرز، لكن عينيَّ دائريتان ولامعتان وملابسي غالية. فهل أنا حيوان أليف مدلل أم خادمة؟ هل يجب على المدير المسكين أن يقدم لي الشاي أم أن يرميني في المطبخ مع الخادمات؟ كنت أنتمي إلى ما أطلق عليه السيد لوك الأشياء التي تنتمي إلى معسكر (بين- بين).

تعثرت في مزهرية طويلة، وأصدرت شهقة مصطنعة:

- يا إلهي!

تسللت بعيدًا بينما تحلق المدير حول الفوضى مرتديًا معطفه، والسباب ينطلق من فمه. خرجت عبر الباب. هل تلاحظ كيف تنسل كلمة باب في أكثر القصص مللًا؟ أحيانًا أشعر أن هناك أبوابًا مختبئة في ثنيات كل جملة، ونقاطًا ترمز إلى المقابض، وأفعالًا تشير إلى المفصلات.

الشوارع لم تكن سوى خطوط تحمصت تحت وهج الشمس، تتقاطع مع بعضها بعضًا قبل أن تفضي إلى النهر الموحل، لكن سكان مدينة نيلي بولاية كنتاكي لم يعتبروها شوارع مدينة لائقة، فعزفوا عن السير فيها، وأخذوا يحدقون إليَّ ويتمتمون عندما أسير بجانبهم.

أشار عامل ميناء كسول ونبَّهَ زميله:

- أراهنك أن هذه فتاة صغيرة من تشيكاساو[1].

هزَّ زميله رأسه، مستشهدًا بخبرته الشخصية الواسعة مع الفتيات الهنديات، وخمَّنَ:

- من الهند الغربية، ربما، أو هجينة.

تابعت السير، دائمًا ما كان الناس يلقون بتخميناتهم هكذا، ويصنفونني كشيء أو آخر، لكن السيد لوك طمأنني أنهم جميعًا على القدر نفسه من الخطأ. ووصفني بأنني فصيلة بالغة الندرة. وذات مرة، على إثر تعليق من إحدى الخادمات، سألته إن كنت من ذوي البشرة الملونة، فتذمر:

- ذات لون مختلف ربما، ولكن بالكاد ملونة.

---

(1) تشيكاساو: هي قبيلة هندية في أمريكا الشمالية، يستقرون الآن في غرب أوكلاهوما.

لم أكن أعرف حقًّا معنى شخص ملون أو غيره، ولكن الطريقة التي قالها بها جعلتني سعيدة أنني لست ملونة.

يزداد التخمين سوءًا عندما يرافقني والدي، فبشرته أغمق من بشرتي، برّاقة سوداء يشوبها احمرار، وعيناه سوداوان للغاية حتى بياضهما يختلط بلون بنيّ. وبمجرد أن تضع الوشوم في الحسبان، وهي دوائر من الحبر ملتَفَّة حول رسغيه، مع البدلة الرثة والنظارة واللهجة المشوشة، يحدق الناس.

وما زلت أتمنى وجوده برفقتي.

انشغلت بالسير عن النظر إلى الوراء إلى كل تلك الوجوه البيضاء حتى اصطدمتُ بإحداهن.

– آسفة يا سيدتي، أنا...

عبست في وجهي امرأة عجوز منحنية الظهر، تشبه حبة جوز شاحبة. حدقت إليَّ تحديقًا له طابع الجدات الأصيل، مُعد خصيصى للأطفال الذين يندفعون في مشيتهم ويصطدمون بالآخرين.

اعتذرتُ مرة أخرى:

– آسفة.

لم تجب، لكن شيئًا ما تغير في نظرتها مثل صدع ينشق مفتوحًا. وفغرت فاها، وانفتحت عيناها الغائمتان على اتساعهما.

همست لي:

– من... أنتِ بحق الجحيم؟

أظن أن الناس لا يحبون الأشياء التي تستعصي على التعريف.

كان لا بد أن أهرول عائدةً إلى الفندق الذي تفوح منه رائحة السمك، وألتحف بظل السيد لوك الآمن الثري حيث لا يستطيع أحد من هؤلاء الملاعين الوصول إليّ، كان هذا ليكون التصرف المناسب، ولكن كما تذمّر السيد لوك كثيرًا، ففي بعض الأحيان أتصرف بصورة غير لائقة وعنيدة وطائشة -كلمة توقعت أنها قاسية بسبب الأثر الذي تتركه-.

لذا هربت.

ركضت حتى ارتعشت قدماي النحيلتان والتصق صدري بخيوط فستاني الرفيعة. ركضتُ حتى تحوَّلَ الشارع إلى ممرات متعرجة وابتلعت الوستارية[1] والعسلة[2] المباني من خلفي. ركضت وحاولت ألا أفكر في عينَي السيدة العجوز على وجهي، أو الورطة التي سأقع فيها بسبب اختفائي.

توقفت قدماي عن الحركة فقط عندما تنبهتا إلى أن القذارة التي تحتهما تحولت إلى عشب منبسط. وجدت نفسي في حقل موحش مكسوٍّ بالعشب تحت سماء شديدة الزرقة ذكرتني ببلاطات أحضرها والدي من إيران، لها زرقة فخمة خلّابة، قادرة على ابتلاعك. تحت السماء، انبسط عشب طويل لونه يشبه الصدأ، وتحلق تجاهها عدد قليل من أشجار الأرز المتفرقة.

شيء ما في هيئة الأفق، الرائحة القوية للأرز الجاف في الشمس، والعشب المتأرجح قبالة السماء الذي يشبه أنثى نمر ملونة بالبرتقالي والأزرق، جعلني أود التكوّر في العشب الجاف مثل ظبية تنتظر أمها. توغلت أكثر، متجولة، أطلق يدي تعبر خلال الأطراف المزركشة للحبوب البرية.

كدتُ أغفل وجود **الباب** تمامًا، فكل **الأبواب** على هذه الشاكلة، أبواب جانبية ونصف مظلمة إلى أن ينظر إليها أحدهم بالطريقة الصحيحة.

لم يكن هذا الباب سوى إطار من أخشاب قديمة مرتبة في شكل مقدمة بيت من ورق، تلطخها بقع صدأ خلفتها المفصلات والمسامير حيث بهتت ألوانها، في حين تحتفظ بعض ألواح الباب بصلابتها، ولا يزال الدهان المتقشر ملتصقًا به، ذلك الدهان الذي له لون السماء الأزرق الفخم.

في تلك اللحظة، لم أكن أدرك وجود **الأبواب**، ولم أكن لأصدقك حتى لو قدمت لي مجموعة مفصلة من ثلاثة مجلدات تضم تقارير لشهود عيان، لكن عندما رأيت الباب الأزرق المتهالك ينتصب وحيدًا للغاية في الحقل، وددت لو يقودني إلى مكان آخر. مكان آخر غير مدينة نيلي في ولاية كنتاكي، مكان جديد غير مألوف، شاسع ليس بوسعي بلوغ نهايته.

---

(1) الوستارية: نبات من فصيلة البقوليات.

(2) العسلة: نبات زينة معمر، دائم الخضرة.

دفعت براحتيَّ الباب الأزرق، فأنَّت مفاصله أنينًا يشبه أبواب المنازل المسكونة في كل الصحف الشعبية وقصص المغامرات التي قرأتها. خفق قلبي في صدري، وحبس جانب ساذج من روحي أنفاسه متوقعًا ومترقبًا حدوث شيء ساحر.

بالطبع، لم يكن هناك شيء على الجانب الآخر من **الباب**، فقط ألوان القرفة والكوبالت من عالمي والسماء والحقل، والرب وحده يعلم لِمَ كسَرَ منظرُ الأفق قلبي. جلست مرتدية فستاني الكتاني الجميل وبكيت مع رحيله. ماذا توقعت؟ واحدًا من تلك الممرات السحرية التي يتعثر فيها الأطفال دائمًا في الكتب التي أقرؤها؟

إذا كان صامويل معي هناك، لكُنّا على الأقل لعبنا لعبة التظاهر. صامويل زابيا كان صديقي غير الخيالي الوحيد، فتى ذو عينين داكنتين وإدمان مرضيٍّ للقصص الشعبية الرخيصة، يعلو وجهه التعبير الحالم لبحار يشاهد الأفق. يزور منزل لوك مرتين أسبوعيًّا في عربة مطليّة باللون الأحمر مكتوب على جانبها بحروف ذهبية مزخرفة «بقالة عائلة زابيا المحدودة»، وعادةً يُهرِّب صامويل لي أحدث الإصدارات من مجلة أرجوسي الأسبوعية[1] أو هاف بيني مارفل[2] مع الدقيق والبصل.

في نهاية الأسبوع، كان يهرب من محل عائلته ليشاركني ألعابًا تخيُّلية مدروسة تتضمن الأشباح والتنانين على شاطئ البحيرة. سونياتور أو Sognatore، هكذا تطلق عليه والدته، وهي كلمة إيطالية قال صامويل إنها تعني فتى عديم الفائدة يكسر قلب والدته لأنه يحلم طوال الوقت.

لكن صامويل لم يكن برفقتي في ذلك اليوم، فأخرجت مفكرة الجيب الصغيرة خاصتي وكتبت قصة عوضًا عن ذلك.

عندما كنت في السابعة من عمري، كانت تلك المفكرة أثمن شيء امتلكته على الإطلاق، على الرغم من أن امتلاكي لها فعليًّا، كان أمرًا مشكوكًا في قانونيته؛ فأنا لم أشترِها، ولم يُهدِني إياها أحد، إنما عثرت عليها في أثناء

---

(1) مجلة أرجوسي: من أولى المجلات الشعبية الأمريكية.

(2) هاف بيني مارفل: قصة ورقية، صدرت بثمن زهيد في أواخر القرن التاسع عشر بهدف منافسة قصص بيني دريدفول.

لهوي في الحجرة الفرعونية قبل بلوغي سِنّ السابعة، فبينما أعبث في الجرار وأجرب المجوهرات، فتحت بالصدفة صندوق كنز أزرق جميلًا -غطاؤه محدب، مزخرف بالعاج والأبنوس وخزف الطِحنة[1] المصري، وله زوج متطابق الأصل- وفي قاع الصندوق استقرت هذه المفكرة، لون غلافها المصنوع من الجلد يشبه لون الزبدة المحترقة، وصفحاتها تتلون بالقشدي الفاتح خالية مُرحبة مثل الثلج النقيّ.

تركها السيد لوك على الأرجح لكي أجدها، هدية سرية، فقد كان أقسى من أن يمنحها لي مباشرة، لذا أخذتها دون تردد وكتبتُ فيها كلما شعرت بالوحدة أو التبلد أو عندما يغيب والدي وينشغل السيد لوك وتسيء المربية معاملتي. وكثيرًا ما كتبت.

غالبًا ما كتبت قصصًا تشبه ما أقرؤه في نسخ صامويل من مجلة أرجوسي عن أطفال صغار شجعان لهم شعر أشقر وأسماء مثل جاك أو ديك أو بادي. قضيت وقتًا طويلًا أفكر في العناوين المرعبة وأقلدها كلها مع إضافة جمل ملتوية -«لغز المفتاح العظمي»، و«جمعية الخنجر الذهبي»، و«الفتاة اليتيمة الطائرة»-، بينما لم أستغرق وقتًا كبيرًا في القلق حيال الحبكة. في ذلك الوقت بعد الظهيرة، عندما كنت أجلس في الحقل الموحش إلى جانب **الباب** الذي لم يؤدِّ إلى أي مكان، أردت كتابة قصة من نوع مختلف، قصة حقيقية، شيئًا يمكنني التسلل إليه، لو أمكنني فحسب تصديق الأمر بما يكفي.

ذات يوم، كانت هناك فتاة شجاعة ومتهورة عثرت على **باب** سحريّ، حروفه كبيرة، وفتحت الفتاة **الباب**.

للحظة، قطعة منبسطة من الزمن، بدأت عند المنحنى المتعرج لحرف الـ «s» وانتهت عندما صنع قلمي دورته النهائية قبل النقطة، صدقت الأمر، وليس كما يتظاهر الأطفال جزئيًّا أنهم مؤمنون بسانتا كلوز أو الجنيات، ولكن إيمانًا حتى النخاع مثلما تصدق في وجود الجاذبية أو المطر.

---

(1) فاينس: أو طِحنة هو نوع من الخزف كان يصنعه قدماء المصريين ويهتم به علماء الآثار المصرية القديمة. كان المصريون القدماء يستخدمونه في صناعة الحليّ والأواني والتماثيل الصغيرة مثل تماثيل فرس النهر.

تبدَّلَ شيءٌ في العالم، أعرف أن ذلك وصف مزرٍ، اعذر لهجتي غير المتحضرة، ولكن لا أعرف طريقة أخرى للتعبير عن الأمر. كان مثل زلزال، لم تهتز له شفرة واحدة من العشب، كسوفٌ لم يُلقِ بظلٍّ وحيدٍ، تغيير كبير لكنه خفيّ. انتزع طرفَ المفكرة نسيمٌ مفاجئٌ، تفوح منه رائحة الملح والحجر الدافئ ودزينة روائح غريبة لا تنتمي إلى الأرض الوعرة المجاورة للمسيسيبي.

خبّأتُ المفكرة في فستاني مجددًا ثم وقفت، ارتعشت قدماي مثل أشجار القضبان[1] في الرياح، تنتفضان مرهقتين، ولكنني تجاهلتهما لأن **الباب** بدا وكأنه يتمتم بلغة ناعمة مبعثرة، قوامها خشب عفن ودهان متقشر.

مشيت ناحيته مرةً أخرى، وترددت...

ثم فتحت **الباب** وعبرت خلاله.

كنت في اللامكان، ضغطت البينية المترددة طبلتَي أذنيَّ، كأنما غطست إلى عمق بحيرة واسعة. واختفت يدي الممدودة في الفراغ، وتأرجح حذائي على شكل قوس بلا نهاية.

أطلقت على ذلك المكان البيني، الحاضر الفاصل، حرف الـ «T» في كلمة «Threshold» يشق مكانين فارغين. العتبات أماكن خطيرة، سواء هنا أو هناك، والعبور خلالها يشبه نزول حافة الهاوية، بإيمان ساذج أن أجنحتك ستنبت في منتصف الطريق نحو الأسفل، لا يجب أن تتردَّد أو يخالجك الشك، لا يجب أن تخاف في الأماكن البينية.

وطئت قدمي الجانب الآخر من الباب، تبدلت رائحة شجر الأرز وضوء الشمس بطعم نحاسي في فمي، فتحت عينيَّ...

كان عالم من الماء المالح والحجر، وقفت على جرف عالٍ محاط من كل الاتجاهات ببحر فضي بلا نهاية. وفي الأسفل، في مكان بعيد عني، يضمه شاطئ الجزيرة المتعرج مثل حصاة في راحة اليد، أطلت مدينة.

على الأقل، افترضتُ أنها مدينة، لا تملك أيًّا من مظاهرها المعتادة، فلا توجد سيارات تطن وتطلق نوافيرها في الشوارع، ولا يشكل ضباب دخان الفحم ساترًا فوقها.

---

(1) أشجار القضبان: أشجار نفضية، يعود تاريخها إلى أكثر من 30 مليون سنة.

عوضًا عن ذلك، كانت هناك مبانٍ حجرية مطلية باللون الأبيض، مرتبة في دوائر مصنوعة بحرفية منقطة بنوافذ مفتوحة مثل عيون سوداء، ورفعت عدة أبراج رؤوسها فوق الحشود وصواري السفن الصغيرة، صانعة غابة مصغرة بمحاذاة الساحل.

بكيت مجددًا، بلا افتعال أو حماسة، فقط أبكي، كما لو أن هناك شيئًا أريده للغاية ولا أستطيع الحصول عليه، كما فعل والدي أحيانًا عندما يظن أنه وحيد.

- جانيوري! جانيوري!

بدا اسمي كأنه صادر من جرامافون رخيص على بعد عدة أميال، لكنني ميزت صوت السيد لوك يتردد صداه خلفي عبر الباب. لم أعرف كيف عثر عليَّ، لكنني أدركت أنني في ورطة.

أوه، لا يسعني إخبارك كم كنت أريد البقاء، وكيف فاحت من البحر رائحة مشبعة بالوعود، وكيف شكلت الشوارع الملتفة في المدينة التي أطلت من تحتي ما يشبه المخطوطات. ولولا نداء السيد لوك عليَّ، الرجل الذي يسمح لي بركوب عربات القطار الفارهة، ويشتري فساتين جميلة من الكتان لأجلي، الرجل الذي ربّتَ ذراعي عندما خذلني والدي، ومن ترك دفتر يوميات لأعثر عليه، لربما بقيتُ في المدينة.

لكنني عدت إلى **الباب**، لقد بدا مختلفًا من هذه الجهة، قوسًا محطمًا من البازلت المتأثر بالعوامل الجوية، يفتقد حتى وقار الألواح الخشبية ليؤدي دوره كباب، وبدلًا منه تطايرت ستارة رمادية في المدخل، سحبتها جانبًا.

وقبل أن أخطو عائدةً عبر القوس، لمع وميضٌ من الفضة قُرْبَ قدمي، كانت عملة دائرية ترقد نصف مدفونة في التربة، مطبوعًا عليها عدة كلمات بلغة أجنبية وصورة جانبية لامرأة ترتدي تاجًا. شعرت بدفئها في راحة يدي، ثم دسستها في جيب فستاني.

هذه المرة، تخطتني العتبة مثل ظل جناح طائر سريع. وعادت رائحة العشب والشمس الجافة.

- جانيو... حسنًا، ها أنتِ ذي.

وقف السيد لوك مرتديًا قميصه وصدريته، ينفخ قليلًا، وشاربه منفوش مثل ذيل قطة تشعر بالانزعاج.

- أين كنتِ؟ بقيت في الخارج أناديكِ حتى بُحَّ صوتي، اضطررتُ إلى قطع اجتماعي مع ألكسندر، ما هذا؟

كان يحدق إلى **الباب** الأزرق المنقط، ثم انسحبت الحيوية من وجهه.

- لا شيء يا سيدي.

تحركت عيناه من **الباب** إليّ، حادتين وباردتين.

- جانيوري، أخبريني بما تفعلينه.

كان لا بد أن أكذب، لأنقذني ذلك من ألم شديد، لكن يجب أن تفهم، عندما ينظر إليك السيد لوك بطريقته تلك، وعيناه بياضهما كالقمر، ستنتهي بك الحال تفعل ما يأمرك به. وأظن أن ذلك هو السبب خلف الأرباح التي تحققها دبليو. سي. لوك وشركاؤه.

ابتلعت ريقي:

- كنت... كنت ألعب، ودخلت من هذا الباب، وقادني إلى عالم آخر. كانت هناك مدينة بيضاء بجانب البحر.

لو كنت أكبر سنًّا، لقلت *فاحت منها رائحة الملح والزمان والمغامرة، رائحتها مثل عالم آخر وأود العودة في تلك اللحظة لأمشي في هذه الشوارع الغريبة*. وبدلًا من ذلك، أضفت بوضوح تام:

- أعجبتني.

- قولي الحقيقة.

عيناه ضغطتاني تمامًا.

- أقسم إنني أقول الحقيقة!

حدق لفترة طويلة أخرى، رأيت عضلات فكِّه تنقبض وتنبسط.

- ومن أين أتى هذا الباب؟ هل... هل بنيته؟ جمعته من هذه القمامة؟

أشار ولاحظتُ الكومة المتضخِّمَة من الخشب المتعفن خلف **الباب**، العظام المتناثرة لمنزل.

- لا يا سيدي، لقد عثرت لتوّي عليه، وكتبت قصةً عنه.
- قصة؟

يمكنني ملاحظة أنه يتعثر في كل التواءة غير متوقعة في حديثنا، ويكرهها، فهو يحب أن يكون متحكمًا في أي حوار. تحسستُ مفكّرتي ثم وضعتُها بين يديه.

- انظر، هناك، أترى؟ كتبت قصة صغيرة ثم... انفتح الباب نوعًا ما. هذا ما حدث أقسم لك.

تحركت عيناه في الصفحة عدة مرات أكثر من المطلوب لقراءة قصة من ثلاثة أسطر. ثم أخرج عقب سيجار من جيب معطفه وأشعل عود ثقاب، ونفخ حتى توهجت نهايته في وجهي مثل عين تنين برتقالية متوهجة.

تنهد السيد لوك بالطريقة التي يفعلها عندما يكون مجبرًا على نقل أخبار سيئة إلى مستثمريه، ثم أغلق مفكرتي.

- ما هذا الهراء الخيالي يا جانيوري، كم مرةً حاولت أن أشفيك منه؟

وحرَّكَ إبهامه على غلاف مفكّرتي ثم بتعمُّد -وبالكاد بدا حزينًا- ألقى بمفكرتي في كومة الخشب الفوضوية خلفه.

- لا! لا يمكنك...
- أنا آسف يا جانيوري، حقًّا.

نظر إلى عينيَّ وصنع بيده حركة لم تكتمل، كأنما أراد الاقتراب مني:

- لكن ببساطة هذا ما يجب فعله، لأجلك، سأنتظرك على العشاء.

أردت مقاتلته، أن أجادل، وأنتزع مفكرتي من القمامة، ولكنني لم أستطع.

هربت بدلًا من ذلك، عدت إلى الحقل، وإلى الشوارع الملتوية القذرة، وإلى داخل ردهة الفندق عِفِن الرائحة.

إذًا بداية قصتي شهدت فرار فتاة نحيلة القدمين مرتين في غضون ساعات قليلة. إنها ليست مقدمة بطولية للغاية، أليس كذلك؟ لكن، إذا كنت مخلوقًا عالقًا في المنتصف بلا عائلة ومال، ولا تملك شيئًا سوى قدميك وعملة فضية، يكون الهروب أحيانًا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع القيام به.

وعلى أي حال، إن لم أكن الفتاة التي هربت، لما عثرت على **الباب** الأزرق، ولما كان هناك أي قصة لأحكيها.

الخوف من الرب والسيد لوك أبقياني هادئة حتى المساء واليوم التالي. حظيت برقابة لصيقة من السيد ستيرلينج ومدير الفندق المضطرب الذي راقبني بأسلوب التحكم في حيوان خطير لكنه نفيس. تسليت قليلًا بصفع المفاتيح على البيانو الكبير ورؤيته يرتجف، لكن في النهاية اقتادوني إلى غرفتي وأُمرت بالنوم.

خرجتُ من النافذة السفلية وتملَّصتُ من الممر قبل أن تغرب الشمس كليًا. تناثرت الظلال عبر الممر مثل مسابح قاتمة ضحلة، وحالما وصلت الحقل، كانت النجوم تلمع عبر ضباب الدخان الحار والسجائر المعلق فوق مدينة نينلي. تعثرت فوق العشب، أحدق إلى العتمة بحثًا عن ذلك الشكل الذي يشبه بيت الورق، **الباب** الأزرق لم يكن موجودًا.

بدلًا منه، وجدت دائرة سوداء شعثاء. كان الرماد والفحم كل ما تبقَّى من **بابي**. رقدت مفكرتي بين الجمر مجعدة استحالت سوادًا. تركتها هناك. تلونت السماء باللون الأسود الفاحم، وجوربي الطويل تلطخ بالبقع عندما تخبطت عائدة إلى الفندق المترهل مُدّعي الفخامة. كان السيد لوك يجلس في سحابة دخان زيتية زرقاء في الردهة مع سجلاته والأوراق متناثرة أمامه وكأسه الخضراء المفضلة ممتلئة بشراب السكوتش المسائي.

- وأين كنتِ هذا المساء؟ هل عبرتِ ذلك الباب ووجدتِ نفسك على كوكب المريخ؟ أو ربما القمر؟

لكن نبرته كانت لطيفة. ما يميز السيد لوك أنه يعاملني بطيبة جمة، حتى في أحلك الأوقات، دائمًا ما عاملني بلطف.

قلت معترفة:

- لا، لكن أظن أن هناك المزيد من **الأبواب** المشابهة، أراهن أنه يمكنني العثور عليها والكتابة عنها، عندها ستنفتح كلها. ولا يهمُّني إذا لم تصدِّقني.

لماذا لم أُبْقِ فمي الغبي مغلقًا؟ لماذا لم أهزّ رأسي وأعتذر ومسحة من الدموع تغلب على صوتي، ثم أنسل خلسةً إلى سريري برفقة ذكرى **الباب** الأزرق كتعويذة سرية في جيبي؟ لأنني كنت في السابعة من عمري وعنيدة، ولم أفهم بعدُ ثمن القصص الحقيقية.

– هكذا إذًا؟

كان كل ما قاله السيد لوك، ومشيت إلى غرفتي بانطباع أنني تجنبتُ عقابًا أشدّ.

لم أدرك أنني كنت مخطئةً إلا بعد مرور أسبوع عندما عُدْنا إلى فيرمونت.

كان منزل لوك قلعةً ضخمةً من الحجر الأحمر تجثم على حافة بحيرة شامبلين، تعلوها غابة من المداخن والأبراج ذات الأسطح النحاسية. وأحشاء المنزل عبارة عن ألواح من الخشب ومتاهات، وتعج بالأشياء الغريبة والنادرة والنفيسة. ذات مرة، وصف كاتب مقالات في صحيفة بوسطن هيرالد المنزل بأنه «مدهش معماريًّا، يعيد إلى الأذهان قصة إيفانهو[1] أكثر من كونه مسكن رجل عصري». وترددت شائعات أن رجلًا إسكتلنديًّا مجنونًا أمر ببنائه خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر، وعاش فيه لمدة أسبوع ثم اختفى إلى الأبد. اشتراه السيد لوك في مزاد خلال العشرين عامًا الأخيرة من القرن التاسع عشر ثم بدأ يُعبئه بعجائب العالم.

حُشرت أنا وأبي في غرفتين بالطابق الثالث، حجرة مكتب مربعة مرتبة لأجله، بها مكتب كبير ونافذة وحيدة. ولأجلي، حجرة رمادية تفوح منها رائحة العفن، بها سريران ضيّقان لي ولمربّيتي.

أحدث مربياتي كانت مهاجرة ألمانية اسمها الآنسة ويلدا، ترتدي ثيابًا صوفية سوداء ثقيلة، ويعلو وجهها تعبير يفيد بأنها لم تر الكثير من القرن العشرين بعد، لكنها تستنكره من كل قلبها حتى الآن.

أحبت الآنسة ويلدا الترانيم والثياب المطوية حديثًا، وكرهت الضجة والفوضى والوقاحة. لقد كنا إذًا عدوتين بالفطرة.

---

(1) إيفانهو: رواية تاريخية من وحي الخيال للسير والتر سكوت في 1819.

فور عودتنا، خاضت ويلدا والسيد لوك محادثة سريعة في الردهة. تلألأت عيناها نحوي مثل أزرار معطف مبالغ في لمعانها.

– أخبرني السيد لوك أنكِ أصبحت مفرطة النشاط مؤخرًا، هستيرية تقريبًا، أيتها اليمامة الصغيرة.

كثيرًا ما كانت تناديني الآنسة ويلدا بـــ «اليمامة الصغيرة»، إيمانًا منها بقوة الإيحاء.

– لا يا سيدتي.

– أوه، يا صغيرتي المسكينة، ستصبحين في أفضل حال سريعًا.

علاج النشاط المفرط هو بيئة هادئة منظمة خالية من التشتيت، لذا ودون سابق إنذار، جُردت حجرتي من كل شيء ملون أو غريب الأطوار أو قريب إلى قلبي. انتُزعَت الستائر، وتخلَّص رف الكتب من كل ما هو أكثر إثارة من الإنجيل المصوَّر للأطفال. وغطاء السرير ذو اللونين الوردي والذهبي المفضل لديّ، الذي أرسله والدي من بنجلور العام الماضي، استُبدل به ملاءات بيضاء مُنشّاة كما مُنع صامويل من زيارتي.

انزلق مفتاح الآنسة ويلدا وأصدر قلقلة في ثقب الباب، وكنت وحيدة.

في البداية، تخيلت نفسي سجينة حرب تقاوم الجيش البريطاني أو متمردة وأعبر عن ذلك بمقاومة على الطريقة الرواقية. لكن بحلول اليوم الثاني، أصبح الصمت أشبه بإبهامين يضغطان طبلتَي أذنَيَّ، وارتجفت قدماي بالرغبة في الركض عائدةً إلى ذلك الحقل ذي أشجار الأرز المتحلقة، عبر رماد **الباب** الأزرق إلى عالم آخر.

في اليوم الثالث، تحوَّلَتْ غرفتي إلى زنزانة، صارت قفصًا، ثم كفنًا، اكتشفت أن أعمق المخاوف التي تسبح عبر قلبي مثل ثعابين في كهف تحت البحر، هو الحبس والحصار والوحدة.

تحطم شيءٌ ما في جوهر روحي، مزقتُ الستائر بأظفار كالمخالب، انتزعتُ المقابض من أدراج الخزانة، وضربت بقبضتي الصغيرة الباب المغلق، ثم جلست على الأرض وسالت أنهارٌ من الدموع متقطعةً ومفاجئةً حتى عادت الآنسة ويلدا بملء ملعقة من مشروب ما أخذني بعيدًا عن نفسي

لبرهة. تحولت عضلاتي إلى أنهار واهنة زلقة، ورأسي يتمايل بحرية على طول السطح. بات زحف الظلال على السجاد مأساةً فظيعةً مستنزفةً، إلى الحد الذي يفرغ رأسي من كل شيء آخر ريثما أغفو.

عندما استيقظت كان السيد لوك يجلس على جانب سريري يقرأ صحيفة.

- صباح الخير يا عزيزتي، كيف تشعرين؟

ابتلعت ريقي الحامضي:

- أفضل يا سيدي.

- يسعدني ذلك.

طوى صحيفته بدقة هندسية.

- أصغي إليَّ جيدًا يا جانيوري، أنتِ فتاة لديها إمكانات رفيعة بل هائلة، لكن يجب أن تتعلمي حسن السلوك. ومن الآن فصاعدًا لن يكون هناك المزيد من الهراء الخيالي، أو الهرب، أو الأبواب التي تقود إلى أماكن غريبة.

دفعني التعبير المرتسم على وجهه بينما يتفحصني للتفكير في رسوم الرب العتيقة، التي تتسم بالأبوية الشديدة، وتمنح ذلك النوع من الحب الذي يُتعبك قبل أن يعلنك جديرًا بالحب.

كانت عيناه كالحجر ضاغطتين.

- ستهتمين بشؤونك وتكونين فتاة مطيعة.

أردت بشدة أن أكون جديرة بعاطفة السيد لوك، فهمستُ:

- نعم يا سيدي.

وكنت كذلك.

لم يعد والدي حتى شهر نوفمبر، وبدا متغضنًا ومتعبًا كأمتعته، أعقب وصوله النمط المعتاد، إذ قطعت العربة طريقها إلى أعلى الممر، ثم توقفت قبل الحجر الفخم لمنزل لوك، وبعد ذلك خرج السيد لوك ليقدم تهنئته عبر تربيت ظهر والدي، بينما انتظرتُ مع الآنسة ويلدا أمام القاعة، أرتدي سترةً

صوفيةً جافةً جدًّا لدرجة جعلتني أشعر كسلحفاة مختبئة داخل صدفة ضخمة.

فُتح الباب، وقَفَ بينما تُحيط به الظلال، بدا داكنًا وغريبًا في ضوء نوفمبر الشحيح، توقف عند العتبة لأنها عادةً تكون لحظة اندفاع فتاة وزنها خمسون باوندًا نحو ركبتيه، لكني لم أتحرك، للمرة الأولى في حياتي، لم أركض تجاهه. تدلت الكتفان المحاطتان بالظلال.

يبدو الأمر قاسيًا بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

فتاة حاقدة تعاقب والدها على غيابه، لكن أؤكد لك أن نيتي في ذلك الوقت اعتراها التشويش تمامًا، كان هناك شيءٌ حيال شكله في الممر أصابني بالدوار والغضب. ربما لأن الرائحة التي فاحت منه تُشْبِه الغابات والبواخر والمغامرات، وأيضًا مثل الكهوف المظللة والعجائب المضمرة بينما كان عالمي مملًّا موحشًا. أو ربما لأنني حُبِسْتُ وهو لم يكن هنا ليفتح الباب.

تقدم ثلاث خطوات في تردد، ثم جثا أمامي في البهو، بدا أكبر سنًّا مما تذكرت، الشعر المتبقي على ذقنه يلمع بلون فضي باهت بدلًا من الأسود وكأن كل الأيام التي قضاها بعيدًا عني تعادل ثلاثة أيام في عالمه. وعلى الرغم من ذلك، كان الحزن نفسه يُشْبِهُ حجابًا يُغَطّي عينيه.

أراح يديه على كتفيَّ، كاشفًا عن وشوم أفاعٍ سوداء تلتف حول رسغيه.

– جانيوري، هل أنتِ بخير؟

كاد الصوت المألوف لاسمي بين شفتيه ولهجته الأجنبية غير الغريبة أن يطلقا سراحي، أردت إخباره بالحقيقة، *أنني تعثرت بشيء كبير وجنوني، شيء يحفر ثقبًا في شكل العالم، لقد كتبت شيئًا وكان حقيقيًا*. لكنني تعلمت الدرس، وأصبحت فتاة مطيعة الآن.

فأجبت:

– كل شيء على ما يرام يا سيدي.

وشاهدت نبرة النضج الهادئ في صوتي تنزل على وجه والدي كالصفعة.

لم أتحدث معه على طاولة العشاء في ذلك المساء، ولم أتسلل إلى حجرته تلك الليلة لأتسول القصص منه. ودعني أخبرك كم كان بارعًا في سرد

القصص، دائمًا ما قال إن تسعًا وتسعين بالمئة من عمله يقوم على تتبع القصص ثم يرى إلى أين ستأخذه.

ولكنني فرغت من ذلك الهراء الخيالي، لا مزيد من الأبواب أو **الأبواب**، لا مزيد من الأحلام ببحار فضية ومدن مطلية بالأبيض، لا مزيد من القصص. ظننت هذا واحدًا من الدروس المضمرة في عملية النضج، التي يتعلمها الجميع في نهاية المطاف.

ومع ذلك، سأطلعك على سر، كنت ما أزال أحتفظ بالعملة الفضية المرسوم عليها صورة الملكة الغريبة، احتفظت بها في جيب صغير في تنورتي التحتية، يدفئها لحمي المقابل لخصري، وعندما أمسكها يمكنني الشعور بالبحر.

كانت تلك العملة أغلى ما أملك لمدة عشر سنوات، حتى أصبحت في السابعة عشرة من عمري، وعثرت على الأبواب العشرة الآلاف.



الباب المُغلف بالجلد

لم أكن لأعثر على ذلك الباب لولا الطائر.

كنت في طريقي إلى المطبخ لأسرق القهوة المسائية من الطباخة السيدة برترام، عندما سمعت زقزقة وصوت اهتزاز، فتوقفت في منتصف الطريق عند الطابق الثاني. انتظرت حتى تكرر الأمر، الصمت المندفع من خفق الأجنحة والارتطام المجوف، ثم سكون.

تبعت الصوت إلى ردهة الطابق الثاني، المسماة بالحجرة الفرعونية، حيث يحتفظ السيد لوك بمجموعته المصرية الضخمة، وتتكون من توابيت حمراء وزرقاء، وجِرار رخامية لها أيدٍ على هيئة أجنحة، ومفاتيح حياة ذهبية صغيرة معلقة على خيوط جلدية، وأعمدة حجرية منقوشة انتزعت من معابدها. تشع الحجرة بأكملها بريقًا ذهبيًّا مصفرًّا حتى في الليالي الصيفية شبه المعتمة.

صدر الصوت من ركن الغرفة الجنوبي حيث لا يزال صندوق الكنز الأزرق الخاص بي موجودًا، اهتز عند قاعدته.

بعد أن وجدت مفكرتي، لم أعد قادرةً على التوقف عن أن أحوم حول الصندوق كل فترة لأختلس النظر إلى أعماقه المغبرة نفاذة الرائحة. قرب حلول عيد الميلاد، ظهرت دمية ورقية ملصق بأطرافها عصي خشبية صغيرة. وفي الصيف التالي، صندوق موسيقى صغير تصدر عنه أنغام فالس تشبه وقع الأنغام الروسية، ثم دمية بنيّة صغيرة مطرزة بألوان زاهية وبعد ذلك النسخة الفرنسية المصورة من «كتاب الأدغال».[1]

لم أوجه إليه السؤال مباشرة، ولكنني كنت متأكدة أن هذه الأشياء هدايا من السيد لوك، إذ كانت تظهر عندما تتملكني حاجة ماسة إليها أو إذا نسيَ والدي عيد ميلادٍ آخر لي أو فوّت عطلة أخرى. ففي أغلب الأحيان، شعرت بيد السيد لوك المرتبكة تواسيني في صمت.

لكن كان من المستبعد أن يخبئ طائرًا عمدًا في الصندوق. رفعت الغطاء، والدهشة تسيطر عليَّ، فانفجر بوجهي شيءٌ لونه رمادي وذهبي، كأنه انطلق من مدفع صغير وارتد في أرجاء الردهة.

كان طائرًا رقيقًا أشعث، ذا رأس بلون الهلام وأقدام طويلة نحيلة، حاولت البحث عنه فيما بعد، ولكنه لم يشبه أي طائر في كتاب السيد أودوبون.

كنت أبتعد تاركة غطاء الصندوق ليسقط، عندما أدركت أن شيئًا آخر لا يزال في الداخل. كتاب صغير مغلف بالجلد، زواياه مجعدة، وعليه علامات انبعاج حيث خُدش جزئيًّا العنوان الذهبي المطبوع، «*الأبواب العش...الآلا*»، تصفحت الكتاب بإبهام واحد.

أولئك الذين يألفون الكتب ألفة تفوق المعتاد، أولئك الذين يقضون ساعات فراغ ما بعد الظهيرة بداخل المكتبات كريهة الرائحة، التي تمنح فرصة اختلاس النظر وتصفح الفقرات المهمة من الكتب الشهيرة، أولئك يفهمون أن التصفح عنصر مهم عندما يُقدِم الشخص على كتاب جديد.

---

(1) كتاب الأدغال: مجموعة من القصص التي كتبها رديارد كيبلينج.

لا يتعلق الأمر بقراءة الكلمات، ولكن بقراءة الرائحة المنبعثة من الصفحات، في غيمة من الغبار والخشب الرخيص، ربما يفوح منها رائحة تعبّر عن ثمنها الغالي وتجليدها الجيد، أو رائحة ورق رقيق الأنسجة وطبعات بألوان غير واضحة المعالم، أو رائحة الانتظار على الرف لمدة خمسين عامًا في منزل رجل عجوز يدخن التبغ، قد تفوح من الكتب رائحة المتع زهيدة الثمن أو المنح الدراسية المضنية، وقد يكون لها رائحة الثقل الأدبي أو الألغاز الغامضة.

شممت رائحة من هذا الكتاب، لم أختبرها من قبل في أي كتاب أمسكته. فاحت منه رائحة القرفة ودخان الفحم وسراديب الموتى والطين. بالإضافة إلى الأمسيات الرطبة بجانب البحر، وأوقات الظهيرة ذات العرق اللزج تحت سعف النخيل. بدت رائحته وكأنه بقيَ في البريد لمدة أطول من أيّ طرد، يجوب العالم مراكمًا طبقات من الروائح، مثل متشرد يرتدي الكثير من الملابس.

كانت رائحته كأن المغامرة نفسها غُرست في البرية، ثم قُطرت إلى نبيذ فاخر، ونثرت عبر كل الصفحات.

لكنني أستبق الأحداث، فلا بد من رواية القصص بالترتيب، من البداية ثم الوسط إلى النهاية، أنا لست خبيرة ولكن عندي ذلك القدر من العلم.

قضيت السنوات التي تلت حادثة **الباب** الأزرق أقوم بما يتحتم على أي فتاة فِعْله، وهو أن تصبح أقل تمردًا.

بحلول خريف عام 1903، بلغت التاسعة من عمري، وكان العالم يتذوق كلمة «عصري» بلسانه. وفي كارولاينا، أجرى أخوان متحمسان تجربةً بأجهزة الطيران خاصتهما، ونصحَنا للتَّو رئيسُنا الجديد بالتحدث بهدوء بينما نحمل عصيًّا ضخمة، ومن الواضح أن هذه النصيحة تعني أنه لا بد أن نغزو بنما، وأصبح الشعر الأحمر الزاهي رائجًا لبعض الوقت حتى أبلغت النساء عن إصابتهن بالدوار وتساقط الشعر، وتبيَّن فيما بعد أن دواء السيدة فالنتين للشعر ما هو إلا سم فئران أحمر اللون.

كان أبي في مكان ما بأوروبا الشمالية، إذ أظهرت بطاقتي البريدية جبالًا جليدية وطفلين يرتديان مثل هانسل وجريتل[1]، وكتب على ظهر البطاقة عيد ميلاد متأخر سعيدًا! بينما وثق بي السيد لوك بما يكفي ليأخذني في رحلة أخرى.

أصبح سلوكي لا تشوبه شائبة منذ ما حدث في كنتاكي، فلم أضايق السيد ستيرلينج أو أبعثر مجموعات السيد لوك، وأطعت تعليمات الآنسة ويلدا حتى الأمور الغبية التي تخص طي الياقات مباشرة بعد كَيّها، ولم ألعب داخل منزل لوك مع الأطفال وضيعي الشأن الذين وصلوا لتوهم إلى البلاد ولكن معظم الوقت شاهدتُ صامويل يقود عربة البقالة من نافذة مكتب والدي بالطابق الثالث، لا يزال صامويل يُهرّب القصص لي أينما استطاع إخفاءها من السيدة برترام، حواف صفحاته المفضلة مثنية على هيئة أذن كلب، أعيدها ملفوفة بإحكام في زجاجات اللبن الفارغة بعد أن أضع دائرة على السطور الأفضل والأكثر دموية.

دائمًا ما نظر صامويل إلى الأعلى في أثناء مغادرته، ودائمًا ما حدَّقَ طويلًا بما يكفي لأعلم أنه رآني ثم يرفع يده، وأحيانًا، إذا لم تكن ويلدا منتبهة، وأشعر بالجرأة الكافية، كنت ألمس بطرف إصبعي زجاج النافذة لأرد تحيته.

كنت أقضي معظم وقتي في تصريف الأفعال اللاتينية وحل المسائل الرياضية تحت أعين معلمي الباهتة. وخلال الحصص الأسبوعية جلست برفقة السيد لوك أومئ برأسي في أدب بينما يتحدَّث عن الأسهم والمجالس التنظيمية التي لا تفقه شيئًا، ودراساته الشبابية في لندن، وأفضل ثلاثة أنواع من السكوتش. تدربت على اللباس اللائق مع كبيرة الخدم، وتعلمت كيف أبتسم بأدب لكل ضيف وزبون يقول لي «ألست طفلة رقيقة» ثم يبتسمون مجاملة «ولبقة جدًا أيضًا!»، ويمسحون على شعري كما لو كنت كلبًا مدللًا نال قسطًا وافيًا من التدريب.

أحيانًا، كنت أشعر بالوحدة لدرجة جعلتني أخال أنني سأتحول إلى رماد ثم أنجرف بعيدًا عند هبوب النسيم القادم.

---

(1) هانسل وجريتل: حكاية خيالية مشهورة للأطفال، من تأليف الأخوين غريم الألمانيين.

وأحيانًا أخرى، شعرت وكأنني عنصرٌ ضمن مجموعة السيد لوك حمل اسم جانيوري سكالر، *طوله 144.78 سم، لونه برونزي، أما غرضه فهو غير معروف.*

لذا عندما دعاني السيد لوك لأرافقه إلى لندن، على شرط طاعته في كل ما يقوله كأنها أوامر الربّ، وافقت بحماس شديد جعل السيد ستيرلينج يقفز.

تدور أحداث نصف القصص والروايات الرخيصة التي قرأتُها في لندن، لذلك كنت واثقةً من توقعاتي، شوارع معتمة ضبابية يسكنها صعاليك وأشرار يعتمرون قبعات مستديرة، ومبان ملطخة بالسواد تلوح في كآبة مرضية فوق رأس المرء، وصفوف صامتة من المنازل الرمادية. مزيج من رواية أوليفر تويست[1] وجاك السفاح[2] وربما القليل من سالي كروي[3].

ربما تشبه بعض مناطق لندن هذا الوصف حقًّا، ولكن المدينة التي رأيتها في عام 1903 كانت تقريبًا على النقيض، صاخبة ومضيئة ومزدحمة. بمجرد خروجنا من عربة قطار سكك حديد لندن والشمال الغربي في محطة يوستن، كادت أن تدهسنا مجموعة من أطفال المدارس يرتدون أزياء زرقاء داكنة متشابهة، ورجل يعتمر عمامة زمردية انحنى احترامًا في أثناء عبوره، بينما تتعارك عائلة من ذوي البشرة الداكنة بلغتهم، وملصق باللونين الأحمر والذهبي معلق على حائط المحطة يعلن عن «حديقة الدكتور جودفيلو المميزة تقدم أقزامًا، ومحاربي الزولو[4]، وزعماء هنود، وجوارٍ من الشرق».

قال السيد لوك متبرمًا:

– نحن بالفعل في حديقة حيوان بشرية لعينة.

---

(1) أوليفر تويست: رواية كلاسيكية شهيرة من تأليف تشارلز ديكنز.

(2) جاك السفاح: واحد من أشهر القتلة المتسلسلين في التاريخ، لم تُكشف هويته حتى الآن.

(3) سالي كروي: بطلة رواية الأميرة الصغيرة من تأليف فرانسيس هودسون برنيت.

(4) الزولو: مجموعة من القبائل بدأت خلال عشرينيات القرن الثامن عشر، يستوطن معظمهم جنوب إفريقيا وينتشر بعضهم في زيمبابوي وزامبيا وموزمبيق.

ثم نادى السيد ستيرلينج ليجد سيارة أجرة تأخذنا مباشرة إلى مقر الشركة الملكية للمطاط. كدّس الحمالون حقائب السيد لوك في مؤخرة سيارة الأجرة، ثم جررتها أنا والسيد ستيرلينج لأعلى الدرجات الرخامية البيضاء في مقر الشركة.

اختفى السيد لوك والسيد ستيرلينج في الممرات المعتمة برفقة عدة رجال تبدو عليهم الأهمية، يرتدون بزات سوداء، وكنت قد تلقيت تعليمات بالجلوس على كرسيٍّ ضيق الظهر في الردهة، وألا أزعج أي شخص، أو أتسبب في أي ضوضاء، أو ألمس أي شيء. تأملت الجدارية المعلقة على الحائط المقابل، ظهر فيها شخص إفريقي جاثٍ على ركبتيه ويمد إلى بريطانيا سلة من الكرمة المطاطية[1]. يرتسم على وجه الرجل الإفريقي تعبير خانع حالم.

تساءلت إذا كان الأفارقة يُعتبرون ملونين في لندن، ثم تأملت إذا كنت كذلك، فشعرت برجفة حنين صغيرة، أن أكون جزءًا من جماعة كبيرة، وألا يحدق إليَّ أحدهم، وأن أعرف مكاني بدقة، فعلى ما يبدو أن الانتماء إلى فصيلة نادرة تمامًا يجلب الوحدة.

كانت واحدة من السكرتيرات تتابعني بعينين ضيقتين متلهفتين، تعرف هذه النوعية، واحدة من السيدات القصيرات البدينات بيضاوات البشرة ذوات الشفاه الرفيعة اللائي من الواضح أنهن يعشن حياتهن في انتظار الفرصة لضرب أحدهم بمسطرة على أصابعه. رفضتُ منحَها تلك الفرصة، انتفضتُ متظاهرةً بأنني سمعتُ السيد لوك يناديني، وهرعتُ إلى القاعة خلفه.

كان الباب متصدعًا، وضوء المصباح الزيتي مشعًّا، وأصداء أصوات الرجال تتردد هادئة متعطشة عبر ألواح البلوط. تقدمت بما يكفي لأرى ما يوجد في الداخل، حيث تحلَّقَ ثمانية أو تسعة رجال ذوو شوارب حول مائدة طويلة تكدَّسَتْ عليها أمتعة السيد لوك، كما فُتِحَتْ الحقائب السوداء وتناثرت الصحف المجعدة والقش في كل مكان. وعند رأس الطاولة، وقف لوك حاملًا شيئًا لم أره، وقال:

(1) الكرمة المطاطية: كرم خشبي معمر موطنه الأصلي جنوب غرب مدغشقر.

– إنه حقًّا اكتشاف قيّم أيها السادة، قادم من سيام[1]، يتضمَّن ما قيل لي إنه قشور مطحونة من نوعٍ ما، قوية المفعول.

استمع الرجال، وحماسٌ في غير محلِّهِ بادٍ على وجوههم، ظهورهم منحنية تجاه السيد لوك كأنهم مجذوبون مغناطيسيًّا، كان هناك خطبٌ ما بشأنهم، شيء مشترك بينهم تشوبه الريبة، كما لو أنهم ليسوا بشرًا لكن أصناف من مخلوقات محشوة في بزات سوداء ذات أزرار.

أدركت أنني عرفت شخصًا منهم، رأيته في حفل الجمعية في يوليو الماضي، يتسكَّع حول الردهة بعينين مصفرَّتين مندفعتين. كان رجلًا مزعجًا ذا وجه مثير للقلق وشعره أكثر احمرارًا من أيّ أثرٍ قد يُنْتِجُه دواء السيدة فالنتين. كان منحنيًا نحو لوك مثل الآخرين، ثم اتسعت فتحتا أنفه مثل كلب يشم رائحةً لا تعجبه.

أعرف أن الأشخاص لا يمكنهم التقاط رائحة الفتيات الصغيرات المتمردات اللاتي يتجسَّسْنَ عليهم، وأصدق في ذلك، ثم ما هي المتاعب التي سأقع فيها لمجرد النظر؟ لكن كانت هناك هالة سريَّة تحيط بالاجتماع، هالة غير شرعية، وكان الرجل يحرِّك رأسه نحو الأعلى كأنما يحاول التقاط رائحة وتتبُّعها.

ابتعدت عن الباب وتسللتُ عائدةً إلى مقعدي في الردهة، وطوال الساعة التالية، ثبَّتُّ نظري على بلاط الأرضية، ساقاي متقاطعتان بأناقة، غير مبالية بأصوات التذمُّر الصادرة من السكرتيرة.

الأطفال ذوو التسعة أعوام لا يعرفون الكثير عن العالم، لكنهم ليسوا بأغبياء، خمنت سابقًا أن كل الكنوز والمنحوتات التي يعثر عليها والدي لا ينتهي بها الأمر في منزل السيد لوك، وعلى ما يبدو أن بعضًا منها يُشحن عبر المحيط الأطلنطي ثم يُطرح في مزادات علنية في حجرات اجتماعات خانقة. تخيلت بعض الألواح الطينية المسكينة أو المخطوطات المسروقة من مواطنها الشرعية بُعِثَتْ لتجوب العالم، منبوذة ووحيدة، فقط لينتهي بها الحال مصنفة ومعروضة للبيع أمام أشخاص لا يعرفون عنها شيئًا، ثم ذكَّرْتُ

(1) سيام: اسم تايلاند الرسمي حتى سنة 1939.

نفسي أن هذا ما يحدث في منزل لوك، وعلى أي حال، ألم يكن السيد لوك يقول دائمًا إن ترك الفرص بلا استغلال لون من الجبن الإجرامي؟

قررت أيضًا أن جزءًا آخر من كوني فتاة مطيعة يتمثّل في السكوت عن بعض الأمور.

لم أقل شيئًا للسيد لوك أو السيد ستيرلينج عندما عادا أو في أثناء استقلالنا لسيارة الأجرة نحو فندقنا، أو حتى عندما أعلن السيد لوك فجأةً أنه يريد التسوّق ووجّه السيارة إلى نايتسبريدج[1] بدلًا عن الفندق.

دخلنا إلى محل حجمه تقريبًا يوازي دولة قائمة بذاتها، مُغطى كليًّا بالرخام والزجاج. والخدم ذوو الأسنان البيضاء ينتشرون انتشار جنود مبتسمين في كل ركن.

اندفعت واحدةٌ من الخدم نحوه عبر الأرضية اللامعة وقالت:

- مرحبًا يا سيدي! كيف يمكنني مساعدتك؟ يا لها من طفلة جميلة!

كانت ابتسامتها تسبب العمى، لكن عينيها استجوبتا بشرتي وشعري وعينيّ. ولو كنت معطفًا، لقلَبتْني رأسًا على عقب بحثًا عن الشركة المنتجة في بطاقة تصنيعي.

- أين عثرتم عليها؟

أمسك السيد لوك بيدي ودسها تحت يديه كأنه يحميني.

- إنها... ابنتي، متبناة قطعًا. بيني وبينك أنتِ تنظرين إلى آخر شخص على قيد الحياة من العائلة الملكية في هاواي.

ونظرًا إلى فورة الثقة في صوت السيد لوك، ومعطفه الذي يبدو ثمينًا، أو ربما لأنها لم تقابل أي شخص من هاواي فعليًّا، صدقت البائعة السيد لوك، شاهدت ارتيابها يختفي ليحل محله الإعجاب والانبهار.

---

(1) نايتسبريدج: منطقة راقية في لندن.

- يا إلهي، يا له من أمر استثنائي! لدينا بعض العمامات من لاهور(1)، فريدة من نوعها للغاية، ستبدو رائعة مع شعرها، أو ربما تود إلقاء نظرة على المظلات؟ لتحميها من الشمس.

نظر إليَّ السيد لوك مقيّمًا الموقف، وقال:

- كتاب، على ما أظن، أي كتاب تريده، لقد أثبتت أنها فتاة مطيعة.

ثم ابتسم لي، بتعبير يمكن ملاحظته فقط من الانحناءة الطفيفة لشاربه. أشرقتُ، إذ قُيّمتُ، وثَبَتَتْ جدارتي.

في بداية صيف عام 1907، كنت على مشارف الثانية عشرة من عمري، عندما أطلقت آر إم إس لوسيتانيا(2) لتوها أكبر سفينة في العالم، وعدنا السيد لوك أنه سيحصل على تذاكر قريبًا، والصحف لا تزال ممتلئة بصور مشوشة للحطام في سان فرانسيسكو بعد الزلزال المروع، واستخدمت مصروفي للاشتراك في مجلة أوتينج(3) لأتمكن من قراءة قصة جاك لندن(4) الجديدة كل أسبوع، بينما كان السيد لوك مسافرًا في رحلة عمل من دوني، وفي هذه المرة، كان والدي بالمنزل.

كان من المفترض أن يغادر قبل ذلك بيوم، لينضم إلى رحلة السيد فاوسيت الاستكشافية في البرازيل، لكن حدث تأخير في ختم السلطات المسؤولة للمستندات، وكذلك بعض الأدوات الدقيقة التي تتطلب شحنًا حذِرًا. لم أهتم، لم يهمني سوى أنه كان بالمنزل.

تناولنا طعام الإفطار في المطبخ، حيث جلسنا إلى طاولة مشوهة تملؤها البقع الزيتية والحروق. كان قد أحضر معه إحدى مفكراته الميدانية

---

(1) لاهور: هي مدينة باكستانية، وعاصمة إقليم البنجاب.

(2) آر إم إس لوسيتانيا: سفينة بريطانية أدارتها شركة كونارد لاين وعملت في المحيط الأطلسي بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية.

(3) مجلة أوتينج: مجلة أمريكية صدرت في أواخر القرن التاسع عشر، واشتهرت بتغطية الأحداث الرياضية.

(4) جاك لندن: مؤلف وصحفي وناشط اجتماعي أمريكي، من أوائل مؤلِّفي الأعمال الخيالية الذين حققوا شُهرة عالمية وثروة طائلة من كتاباتهم.

لمراجعتها، وأكل بيضاته وقطعة خبز محمص بينما يعقد حاجبيه على هيئة حرف «V» طفيف. لم أمانع، فلديَّ أحدث نسخة من رواية «الناب الأبيض»[1]. اختفينا في عالمينا المنفصلين، كنا معًا لكن كلًّا منّا بمفرده، كان شعورًا هادئًا ومريحًا لدرجة أنني وجدت نفسي أدّعي أنه يحدث كل صباح، وأننا عائلة تقليدية صغيرة، وأن منزل لوك هو منزلنا وهذه الطاولة هي طاولة مطبخنا.

إنني أظن أننا لو كنا عائلة تقليدية، ستكون هناك أمٌّ معنا على الطاولة، ربما ستقرأ أيضًا، أو ستنظر إليَّ من فوق كعب كتابها، فتتغضّن عيناها، ثم ستنظِّف لحية والدي الشعثاء من بقايا الخبز المحمص.

من الغباء التفكير في أمور كهذه، لأنها تمنحك شعورًا أجوف بالألم بين ضلوعك، كأنك تشعر بالحنين إلى الوطن، على الرغم من كونك في منزلك وأنك لا تستطيع قراءة مجلّتك مرةً أخرى، لأن كل الكلمات مشوهة ومائعة كالماء.

جمع والدي طبقه وكوبه ثم وقف، مفكرته محشورة تحت ذراعه، وعيناه بعيدتان خلف نظارته الصغيرة ذهبية الإطار التي يستخدمها في القراءة، واستدار مغادرًا.

- انتظر!

أطلقت الكلمة، فرمش بعينيه لي مثل بومة مفزوعة.

- كنت أتساءل إذا كان... بإمكاني مساعدتك؟ في عملك؟

رأيته على وشك أن يقول لا، وشاهدتُ رأسَهُ يبدأ الاهتزاز معتذرًا، لكنه بعد ذلك نظر إليَّ. أيًّا كان ما رآه في وجهي، لمعان الدموع التي كادت أن تتشكَّل في عينيَّ، والألم الأجوف، جعلته يأخذ نفسًا حادًّا.

- بالطبع يا جانيوري.

كسفينة في البحر تقلَّبَتْ لهجته في أثناء نطقه لاسمي، ارتحتُ لسماعها.

قضينا اليوم في الأسفل داخل أقبية منزل لوك التي لا حصر لها، حيث تخزن كل السلع غير المصنفة أو المحطمة من مجموعة السيد لوك في صناديق محشوة بالقش. جلس والدي ومعه حزمة مفكرات، يتمتم ويخربش،

(1) الناب الأبيض: رواية للكاتب الأمريكي جاك لندن.

وأحيانًا يوجِّهُني لكتابة بطاقات صغيرة على آلته الكاتبة اللامعة السوداء، تظاهرتُ بأنني علي بابا[1] في مغارة العجائب، أو فارس في مطاردة عبر سرداب تنين العالم السفلي أو فتاة بصحبة والدها فحسب.

- حسنًا، المصباح، نعم، ضعي ذلك في الأعلى مع السجادة والعقد، من فضلك لا تفركيه، ولو أنه ما الضرر في ذلك؟

لم أكن متأكدةً أنه يتحدث معي، حتى أشار إليَّ بالاقتراب:

- أحضريه هنا.

ناولته الكتلة البرونزية التي أخرجتها من صندوق مكتوب عليه تركستان[2]، لم تكن تشبه المصباح، بدت أشبه بطائر ممسوخ، ذي منقار على هيئة صنبور طويل، ورموز غريبة محفورة على جناحيه. داعب أبي بلمسة رقيقة من إصبع واحدة هذه الرموز، بدأ دخان أبيض زيتي بالخروج من الفوهة. ارتفع الدخان يلتوي ويلتف مثل ثعبان باهت اللون صانعًا أشكالًا تشبه الكلمات في الهواء.

نفضت يد والدي الغبار، فرمشت:

- كيف... لا بد من وجود فتيلٍ في الداخل، ثم شرارة، كيف تعمل؟

أعاد المصباح إلى الصندوق، ونصف ابتسامة صغيرة تلوي فمَهُ، هزَّ كتِفَه لي، ثم اتَّسَعَتْ ابتسامتُه وبريق شيءٍ ما يُشْبِهُ الفرح خلف نظارته. ربما لأنه نادرًا ما يبتسم، أو لأنه كان يومًا مثاليًّا قلت شيئًا غبيًّا:

- هل يمكنني مرافقتك؟

حرَّكَ رأسه وخفتت ابتسامته.

- عندما تذهب إلى البرازيل، أو المكان الذي يليه، هل ستأخذني معك؟

كان واحدًا من تلك الأشياء التي ترغب بها حدّ الألم، لذا تدفنها في قلبك دفنَ الفحم المختزن، كم أتمنى أن أهرب من ردهات الفنادق والمحلات الفخمة ومعاطف السفر الأنيقة ذات الأزرار وأغوص كسمكة في تيارات العالم المضطربة، أسبح إلى جانب والدي...

---

(1) علي بابا: إحدى أشهر قصص وشخصيات ألف ليلة وليلة.

(2) تركستان: منطقة واسعة في آسيا الوسطى تقسمها الجبال التي في وسطها إلى قسمين تركستان الشرقية وتركستان الغربية.

- لا.

باردة وقاسية وحاسمة.

- أنا مسافرة جيدة، اسأل السيد لوك، لا أتدخل أو ألمس الأشياء التي لا تعنيني، أو أتحدث إلى أي شخص، أو أتجول...

قطب والدي حاجبيه مرةً أخرى:

- إذًا لم تريدين أن تسافري من الأساس؟

هز رأسه:

- الإجابة هي لا يا جانيوري، الأمر خطير للغاية.

صعد الإحراج والغضب إلى عنقي كأشواك حارة، لم أقل شيئًا لأنني عندها سأبكي وسوف يسوء كل شيء.

- أنصِتي، أعثر على الأشياء القيمة والنادرة، أليس كذلك؟ للسيد لوك وأصدقائه في نادي الجمعية؟

لم أومئ.

- حسنًا، إنهم ليسوا الأطراف الوحيدة المهتمَّة، على ما يبدو، هناك آخرون، أنا لا أعرف من هم.

وسمعته يبلع ريقه:

- أنتِ في أمان أكثر هنا، هذا المكان بيئة مناسبة لتنشئة فتاة صغيرة.

تردد الجزء الأخير بنبرة رنانة مُلقنة عرفت حينها أنه كلام مباشر من السيد لوك.

أومأت وعيناي على القش المتناثر على الأرض:

- حاضر يا سيدي.

- لكن، سآخذك معي يومًا ما، أعدك.

أردت تصديقه، لكنني قابلت في حياتي من الوعود الواهية ما يجعلني أكتشفها عندما أواجهها. غادرت دون أن أتكلم مجددًا.

تقوقعت بأمان في حجرتي، ألتف في غطاء السرير ذي اللونين الوردي والذهبي، الذي لا تزال تفوح منه رائحة جوزة الطيب وخشب الصندل، أخرجت

العملة من مكانها في داخل جيب تنورتي الصغير، وتأملت الملكة ذات العين الفضية. كانت لديها ابتسامة خبيثة، وكأنها تقول لنهرب معًا، وللحظة شعرتُ بقلبي يهوي كأنما يقاتل في معركة، مخلفًا في فمي مذاق الملح والأرز.

توجهت إلى خزانتي ودسستُ العملة في ثقب ببطانة صندوق مجوهراتي، فعلى أي حال، كنت أكبر من أن أتجول بمثل هذه الحليّ الفاخرة.

في شهر مارس من عام 1908، كنت في الثالثة عشرة من عمري، وكم هي سِنٌّ مربكةٌ وأنانيةٌ لدرجة أنني لا أتذكر من أحداث العام سوى أن طولي ازداد أربع بوصات، وأرغمتني ويلدا على ارتداء بدعة حديديّة بشعة فوق صدري.

كان والدي على متن باخرة متَّجِهَة إلى القطب الجنوبي، وكل رسائله فاحت منها رائحة الثلج وبراز الطيور، والسيد لوك يستضيف مجموعة مشحمة من رجال البترول بتكساس في الجناح الشرقي لمنزله، وأمرني بالابتعاد عن طريقهم، حينها كنت وحيدة وشقية كأي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، وهو أمر في غاية الوحدة والشقاء حقًّا.

كانت ويلدا رفيقتي الوحيدة، وزاد ولعها بي بشكلٍ لا نهائي مع الوقت، إذ أصبحت شابة مهذبة، لكن هذا الولع يعني فقط أنها كثيرًا ما تبتسم، وهو تعبير متعرج ذو صرير، يبدو كشيء اختُزن في صندوق عفن لمدة طويلة. وأحيانًا تقترح أن نقرأ «رحلة الحاج»[1] بصوت عال كمكافأة، وكان ذلك أشد وحدة من عدم وجود رفقة على الإطلاق.

لكن بعد ذلك حدث شيء يعني أنني لن أكون بمفردي ثانيةً أبدًا.

كنت أنسخ حزمة من دفاتر حسابات السيد لوك، وأنا منكبة على المكتب في حجرة والدي، فعلى الرغم من وجود مكتب في حجرتي، استخدمت مكتبه؛ فهو لا يوجد في البيت بما يكفي ليعترض، أعجبني هدوء الغرفة، وأيضًا، أن رائحة والدي عالقة في الهواء مثل ذرات الغبار، تفوح منها رائحة ملح البحر والتوابل والنجوم الغريبة.

---

(1) رحلة الحاج: قصة رمزية مسيحية، تعد واحدة من أهم الأعمال الدينية والخيال اللاهوتي في الأدب الإنجليزي، ألفها الكاتب جون بنيان.

كما أعجبني بشكل خاص أن للحجرة أفضل إطلالة على الممر، وهو ما يعني أنني يمكنني مشاهدة عربة صامويل زابيا تتأرجح قادمة تجاه المنزل. لم يعد صامويل يترك لي أوراق القصص كسابق عهده، بهتت العادة فيما بيننا، مثل أصدقاء المراسلة الذين تقصر رسائلهم شهريًّا، ولكنه دائمًا ما كان يلوّح لي. اليوم شاهدته ينفخ ريشة بيضاء فوق عربته، ثم ارتفع رأسه لأعلى تجاه شباك حجرة المكتب. هل كانت تلك ومضة من أسنان بيضاء؟

اختفت للتو عربته الحمراء في اتجاه المطبخ، وبينما أفكر وأتراجع عن طرقٍ يمكنني افتعالها حتى أخرج للتنزه على نحو عفوي خلال نصف الساعة القادمة، قرعت الآنسة ويلدا الباب، لتخبرني بنبرة تغمرها الشكوك أن السيد الشاب زابيا يود الحديث معي.

«حسنًا» تصنعتُ اللامبالاة «لماذا؟».

تبعتني ويلدا كظل أسود من الصوف عندما نزلت إلى الأسفل لمقابلته. كان صامويل ينتظر إلى جانب مُهوره، متمتمًا في آذانهم المخملية. ألقى التحية عليَّ.

- آنسة سكالر.

لاحظت أنه نجا من النكبات التي تصيب معظم الأولاد المراهقين، فبدلًا من أن يتضخم ساعداه أو يمشي مترنحًا مثل زرافة حديثة الولادة، صار صامويل أكثر رشاقة ووسامة.

- صامويل.

تفوهتُ بأكثر نبرات صوتي نضجًا، وكأنني لم أطارده في الحديقة مطالبة إياه بالاستسلام وإلا سأجعله يتناول أدوية سحرية مصنوعة من أشجار الصنوبر ومياه البحيرة. حاولتُ ألا أفكر في فستاني ذي الصوف المتكتل الذي أعجب ويلدا على وجه الخصوص، أو الطريقة الهوجاء التي تفكَّكَ بها شعري من مشابكه، سعلت ويلدا مهددةً مثل مومياء تنظّف حلقها من غبار المقبرة.

فتش صامويل في عربته عن سلة مغطاة.

- لأجلك.

اعتلت وجهه تعبيرات محايدة تمامًا، فيما عدا تجعيدة خافتة في زاوية فمه ربما كانت بدايات ابتسامة. لمعت عيناه ببريقٍ متلهفٍ مألوفٍ، يُشْبِه نظرته عندما يعيد رواية حبكة قصة رخيصة ويقترب من الجزء الأفضل حيث ينقضّ البطل لإنقاذ الطفل المخطوف في الوقت المناسب.

- تفضلي.

عند هذه النقطة، ستظن أن هذه القصة لا تتمحور حول **الأبواب**، ولكن عن تلك الأبواب الأكثر خصوصية وإعجازية التي تفتح بين قلبين. ويتصادف أنني أظن كل قصة هي قصة حب إذا التقطتُها في اللحظة المناسبة، بينما تميل ناحية ضوء القمر، وربما قصَّتُنا هي قصة حب في نهاية المطاف، لكنها لم تكن كذلك حينها.

ليس صامويل مَن أصبح أعز صديق لي في العالم، لكنه ذلك الحيوان الذي يشخر ويدور بأقدامه القصيرة البدينة في السلة التي ناولني صامويل إياها.

من رحلاتي النادرة التي تشرف عليها ويلدا إلى شلبورن[1]، عرفت أن عائلة زابيا تسكن شقة متكدسة فوق محل البقالة في المدينة، في هذا النوع من الأوكار مترامية الأطراف الصاخبة التي جعلت السيد لوك يزفر تحت شاربه ويشتكي من هؤلاء الناس. وكانت تحرس المحل كلبة ضخمة ذات فك متين تُدعى بيلا.

وكما أوضح صامويل، أنجبت بيلا مؤخرًا جراء ذوي لون برونزي لامع، وانشغل أطفال عائلة زابيا في بيع هذه الجراء للسائحين السُذّج بما يكفي ليصدقوا أنها من سلالة إفريقية نادرة للكلاب صائدة الأسود، ولكن صامويل احتفظ بواحد منها.

- احتفظت بأفضلهم من أجلك، هل تلاحظين كيف ينظر إليكِ؟

كان ذلك صحيحًا، توقف الجرو في سلتي عن التلوي ليحدق إليَّ بعينين دامعتين ذواتَي بريق أزرق، كأنما ينتظر أمرًا إلهيًا.

---

(1) شلبورن: بلدة تقع بولاية فيرمونت.

لم أعرف حينها ماذا سيصبح هذا الجرو بالنسبة إليَّ، لكن ربما تحرك داخلي شكٌّ في الأمر، لأنَّني عندما تطلعت إلى صامويل وخزني أنفي على نحو خطير يفيد بأنني على وشك البكاء..

فتحت فمي، لكن ويلدا أصدرت تلك الحشرجة مرة أخرى، وقالت:

- لا أظن ذلك أيها الفتى، ستعيد هذا الجرو من حيث أتيت به.

لم يعبس صامويل، لكن تجعيدة الابتسام في زاوية فمه اختفت، انتزعت ويلدا السلة من يدي المتشبثة بها، ليسقط الجرو ويتدحرج مجدفًا بقدميه في الهواء، ثم دفعتها نحو صامويل.

- الآنسة سكالر تشكرك على كرمك بلا شك.

واقتادتني إلى الداخل لتحاضرني لعدة سنوات عن الجراثيم، وعدم ملاءمة الكلاب الضخمة للسيدات، ومخاطر قبول هدية من رجالٍ أقل شأنًا.

قابل السيد لوك طلب استئنافي بالرفض بعد العشاء.

- لقد أشفقتِ على حيوان تعضُّه البراغيث، أليس كذلك؟

- لا يا سيدي، أتعرف بيلا كلبة عائلة زابيا، أنجبت...

- هجين إذًا، هذه الأشياء لا ينتج عنها خير يا جانيوري، ولن أسمح بوجود مخلوق هجين يحرك فمه بين الحيوانات المحنطة.

هزَّ شوكته في وجهي:

- ولكن دعيني أخبركِ شيئًا، واحد من مساعديَّ يربي كلاب داشهند فاخرة في ماساتشوستس[1]، ربما إذا تحسن مستواك في دروسك، سأقتنع بمكافأتك بهدية مبكرة لعيد الميلاد.

ابتسم لي ابتسامة لطيفة، وغمز، بينما تزمُّ ويلدا شفتيها، حاولت أن أرد الابتسامة.

عدت إلى مخدعي لأواصل النسخ بعد العشاء، يساورني شعور بالغضب والانتهاك على نحو غريب، كأن هناك سلاسلَ خفية تحك جسدي، تماهت الأرقام وأخذت شكل المنشور بينما احتشدت الدموع في عينيَّ، وانتابتني

(1) ماساتشوستس: واحدة من الولايات الأمريكية.

رغبة مفاجئة بلا جدوى في مفكرتي التي فقدتها منذ وقت طويل، وفي ذلك اليوم في الحقل عندما كتبت قصة وحولتها إلى حقيقة.

انزلق قلمي إلى هوامش دفتر الحسابات، وتجاهلت صوتًا في رأسي يقول إنها عدة خطوات سخيفة بلا قيمة ما هي إلا أمور واهية، ليذكرني أن الكلمات المكتوبة على الصفحة ليست تعويذات سحرية، وكتبت:

ذات يوم كانت هناك فتاة مطيعة قابلت كلبًا شريرًا، وأصبحا صديقين مقربين للغاية.

هذه المرة، لم يتغير شكل العالم في صمت، بل سُمع فقط زفير خافت، كأنما تنهدت الغرفة بأكملها. اهتزت النافذة الجنوبية قليلًا داخل إطارها، استولت حالة من الإعياء على أطرافي، ثقل، وكأنما سُرقت كل عظامي واستُبدل بها رصاص، وسقط القلم من يدي. أغمضت عينيَّ الغائمتين، وأنفاسي نصف محبوسة.

لكن لم يحدث شيء، ولم يتجسَّد الجرو، عدتُ إلى عملي في نسخ الدفاتر.

في الصباح التالي، استيقظتُ فجأة في وقت مبكر عن الميعاد الذي تستيقظ فيه شابة عاقلة طواعيةً. تردد صوت طنطنة ملحَّة في أرجاء الغرفة، شخرت ويلدا في أثناء نومها مقطبةً حاجبيها في استهجان غريزي.

اندفعت نحو نافذتي بينما تعم الفوضى ثياب نومي والملاءات.

كان صامويل واقفًا على العشب المتجمد في الأسفل، يلفه ضباب بلون اللؤلؤ في ساعات ما قبل الفجر، ووجهه المرفوع نحو الأعلى يجعّده شبحُ ابتسامة. وفي إحدى يديه يمسك صامويل زمام مُهره الرمادي الذي كان يؤدي حركات ماكرة على العشب، وفي اليد الأخرى يحمل السلة ذات القعر المدور.

خرجت من الباب ونزلت السلالم الخلفية قبل أن يتسنى لي فعل أي شيء اعتيادي كالتفكير المنطقي، في أفكار مثل ويلدا ستسلخك، أو يا إلهي إنك ترتدين ثياب نومك، خطرت ببالي فقط بعدما فتحت الباب الجانبي على مصراعيه واندفعت لمقابلته.

نظر صامويل إلى الأسفل نحو قدميّ الحافيتين اللتين تتجمدان في الثلج، ثم إلى وجهي اليائس المتلهف، ومد السلة للمرة الثانية، أخرجت الجرو

المتقوقع من البرد على شكل كرة، وقرَّبْتُه من صدري، حيث انجذب نحو الدفء تحت ذراعي.

- شكرًا يا صامويل.

همست، والآن أعرف أنه ردٌّ غير كافٍ على الإطلاق، لكن صامويل بدا راضيًا، أحنى رأسه، بطريقة نبيلة عتيقة كأنه فارس يقبل معروف سيدته، ثم امتطى مهره الذي يسيل لعابه، واختفى عبر أراضٍ يكسوها الضباب.

الآن، لنكن واضحين، أنا لست فتاةً غبيةً، لقد أدركتُ أن الكلمات التي كتبتُها في الدفتر تجاوزت كونها حبرًا وورقًا مصنوعًا من القطن وتغلغلت في العالم ثم غيرت شكله بطريقة خفية مجهولة جلبت صامويل تحت نافذتي.

لكن يوجد تفسير أكثر منطقية، أن صامويل رأى اللهفة على وجهي، فقرر أن يضرب بكلام تلك المرأة الألمانية القاسية عرض الحائط، واخترت تصديق هذا التفسير.

ومع ذلك، عندما عدت إلى غرفتي، ووضعت كرة الفراء البني بين مجموعة من الوسائد، أول شيء قمت به كان التفتيش في مكتبي عن قلم. عثرت على نسختي من كتاب الأدغال، وقلبت أوراقه حتى وصلت إلى الصفحات الخلفية، وكتبت: *باتت هي وكلبها متلازمين منذ ذلك اليوم فصاعدًا.*

في صيف عام 1909، كنت على مشارف بلوغ الخامسة عشرة من عمري، وبعض من الضباب الأناني لمرحلة المراهقة آخذٌ في التلاشي. صدر خلال ذلك الربيع الجزء الثاني من رواية آن في المرتفعات الخضراء[1]، والجزء الخامس من قصة أوز[2]، وقادت امرأة بيضاء خنساء تدعى أليس سيارة عبر أرجاء البلاد، وهو إنجاز ترجمه السيد لوك إلى فعل بالغ السخافة، كما كانت هناك بعض الجلبة حول انقلاب أو ثورة في الإمبراطورية العثمانية، ذهبت أدراج الرياح بالطبع، أما والدي فمرَّتْ أشهر دون أن يرسل بطاقة بريدية من مكانه في إفريقيا الشرقية، كان قد أرسل إليَّ في عيد الميلاد منحوتة عاجية

(1) آن في المرتفعات الخضراء: رواية صدرت عام 1908 للكاتبة الكندية لوسي مود مونتغمري.

(2) قصة أوز: سلسلة من القصص تتحدث عن التاريخ الخيالي لأرض أوز، ألفها ليمان فرانك بوم، وتمتد لأربعة عشر جزءًا.

مصفرة لفيل محفور على معدته كلمة «مومباسا»، مع بطاقة تفيد بأنه سيأتي إلى المنزل في عيد ميلادي.

وبالطبع لم يأت، لكن جاين جاءت.

حلت أوائل الصيف، حينما لا تزال الأوراق ندية وطازجة، والسماء تبدو كأنها حديثة الطلاء، كنت أنا وباد متقوقعين في الحدائق، نعيد قراءة كل أجزاء حكاية أوز الأخرى تحضيرًا للكتاب الجديد، وكنت بالفعل قد تلقيت دروس اللاتينية والفرنسية في ذلك اليوم، وحللت كل عملياتي الحسابية وأنهيت نسخ دفاتر السيد لوك، وصرت أتمتع بحرية كبيرة في أوقات الظهيرة بعد رحيل ويلدا.

أعتقد أن أغلب الفضل في رحيلها يعود حقًّا إلى باد، إذا أمكن تجسيد أحلك كوابيس ويلدا، فسيكون غالبًا جروًا أصفر العينين ذا مخالب ضخمة، وشعر بني غزير جميل، لا يحترم المربيات على الإطلاق.

كما هو متوقع، دخلت ويلدا في نوبة غضب هائلة عندما عثرت على باد في غرفتي للمرة الأولى، واجترتني لأعلى إلى مكتب السيد لوك وأنا لا أزال مرتديةً ملابس نومي.

– يا إلهي أيتها المرأة، توقفي عن الصراخ، لم أتناول قهوتي بعد، والآن، ما سبب كل ذلك؟ ظننت أنني كنت واضحًا تمامًا أمس.

حدق إليَّ السيد لوك بتلك النظرة الباردة الباهتة.

– لن أقبل بوجوده في البيت.

شعرت بإرادتي ترتعد وتتشوه وتضعف تحت نظرته، ولكنني فكرت في تلك الكلمات المخبأة في نهاية رواية «كيبلينج»، هي *وكلبها لن يفترقا أبدًا*. أحكمت ذراعي حول باد، والتقيت بعينَي السيد لوك، وفكي مغلق.

مرت لحظة ثم أخرى، والعرق ينزُّ من مؤخرة رقبتي كأنني أحمل شيئًا ضخمًا، ثم ضحك السيد لوك:

– احتفظي به إن كان يهمك للغاية.

بعد ذلك بدا وكأن الآنسة ويلدا تختفي من حياتنا مثل صحيفة مُخَلفة في الشمس، ببساطة لم تتمكن من منافسة باد الذي كبر بسرعة مذهلة، برفقتي؛

يكون محببًا ويتصرف مثل الجراء، ينام مرتاحًا بين قدميَّ، ويحشر نفسه في حضني متجاوزًا الوقت الذي يناسبه فعلًا، لكن تصرفاته مع باقي البشر كانت خطيرة صراحةً، وخلال ستة أشهر، نجح في طرد ويلدا من حجرتنا، ونفاها إلى أجنحة الخدم، وبعد ثمانية أشهر، احتللت أنا وهو الطابق الثالث.

آخر مرة رأيت ويلدا، كانت تعدو عبر العشب، محدقة خلفها إلى نافذة حجرتي في الطابق الثالث، وتعلو وجهها قسمات شخص مُطارد كأنها لواء يفر من ميدان معركة خاسرة. اعتصرت باد حتى صدر عنه نباحًا وقضينا وقت ما بعد الظهيرة نرش الماء على طول البحيرة، مبتهجين بالحرية.

في تلك اللحظة وبينما أرقد ورأسي مستند إلى ضلوعه التي دفأتها الشمس، سمعت جلبة سيارة قادمة من الممر. في منزل لوك الممر طويل متعرج، تصطف على جانبيه أشجار البلوط الفخمة. كانت سيارة الأجرة تبتعد لتوها عندما تحلقت أنا وباد أمام المنزل، بينما تجاهد امرأة غريبة في صعود الدرجات الحجرية الحمراء الفخمة، ورأسها مرفوع.

أول شيء خطر ببالي هو أن ملكة إفريقية كانت تحاول زيارة الرئيس تافت[1] في العاصمة ولكنها ضُلِّلَتْ ووصلت إلى منزل لوك بالخطأ، ولم يكن الأمر أنها ترتدي ملابس فخمة؛ بل كانت تلبس معطف سفر بيج له صف أنيق من الأزرار السوداء اللامعة، وتحمل حقيبة جلدية واحدة، وشعرها قصير للغاية، أو أنها بدت متغطرسة للغاية. كان هناك سرًا في خط كتفيها الذي لا ينحني، أو الطريقة التي نظرت بها إلى منزل لوك الفخم دون أدنى ذرة إعجاب أو رهبة.

رأتنا وتوقفت قبل تسلق الدرجات الأمامية، منتظرة على ما يبدو. تحلقنا مقتربين، ويدي على طوق باد في حال انتابته إحدى اندفاعاته المؤسفة.

- لا بد أنك جانيوري.

كانت لهجتها غريبة ومتناغمة:

- أخبرني جوليان أن أبحث عن فتاة لها شعر أشعث وكلب لئيم.

---

(1) الرئيس تافت: ويليام هاوارد تافت الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية من 1909 إلى 1913.

مدت يدها فصافحتُها، انعقد الجلد السميك في راحتها مثل خريطة طبوغرافية لبلد أجنبيّ.

من حسن الحظ أن السيد لوك خرج من الباب الأمامي في تلك اللحظة، متجهًا نحو سيارته بويك طراز 10 الملمعة حديثًا، لأن فمي انفتح وبدا من غير المحتمل أن يغلق نفسه مجددًا. وصل السيد لوك إلى نصف السلالم قبل أن يرانا.

- جانيوري، كم مرة أخبرتك أن تُلجمي هذا الحيوان المخبول... ومن هذه بحقّ السماء؟

من الواضح أن معايير السيد لوك عن اللباقة لم تنطبق على امرأةٍ ملونةٍ ظهرت على باب منزله.

- أنا الآنسة جاين إيريمو، كلفني السيد جوليان سكالر بمرافقة ابنته، ودفع لي من أمواله الخاصة، خمسة دولارات أسبوعيًّا، وأشار إلى أنك سوف تتكرم بتوفير الإقامة والطعام، أظن هذا الخطاب سوف يوضح موقفي.

ناولت السيد لوك مظروفًا ملطخًا ومهلهلًا، مزَّق غلافه ثم قرأه وعلى وجهه علامات الشك العميق، أفلتت منه بعض الهتافات «راحة ابنته، أليس كذلك؟» و«وظف...؟».

أغلق الخطاب فجأةً:

- تتوقعين مني أنني سأصدق أن جوليان أرسل مربية من نصف العالم الآخر إلى ابنته؟ التي أصبحت ناضجة؟

يختبئ وجه الآنسة إيريمو بين سلسلة أسطح في رقة النسمات، تبدو شكلًا هندسيًّا في كمالها، ومن غير المرجح أن يخل بها حركة ابتسامة أو عبوس:

- كنت في موقف لا أحسد عليه، كما يوضح الخطاب.

- القليل من الإحسان إذًا؟ دائمًا ما كان قلب جوليان أطيب من اللازم.

ضرب السيد لوك راحة يده بقفازات القيادة وتنهد في وجهنا.

- حسنًا يا آنسة أيًّا كان اسمك. ليس من شيمي الوقوف بين أب وابنته، ورغم ذلك، لتحل عليَّ اللعنة إذا شغلت واحدة من غرف الضيوف الجيدة. أرشديها إلى غرفتك يا جانيوري، يمكنها الحصول على سرير ويلدا القديم.

ثم انصرف مسرعًا، يهز رأسه.

أعقب رحيله صمتٌ خجولٌ متوارٍ، كأنه يريد أن يكون إثارة حالة من الارتباك ولكنه لم يجرؤ تحت عينَي الآنسة إيريمو الثابتتين.

- أوه.

ابتلعت ريقي:

- هذا باد، أعني سندباد.

أردت تسميته تيمنًا بمستكشف عظيم، لكن ولا واحد منهم بدا مناسبًا. دكتور ليفينجستون[1] والسيد ستانلي[2] كانا اختيارين بديهيين، أعجب السيد لوك بهما للغاية حتى جلب مسدس ستانلي الخاص وعرضه في مكتبه، مسدس ماركة إنفليد ذو فوهة ضيقة، ينظفه ويغمره بالزيت أسبوعيًّا، لكن الدكتور ليفينجستون والسيد ستانلي دفعاني إلى التفكير بتلك اليد الإفريقية المجعدة في صندوقها الزجاجي. وماجلان[3] كان مفرط الطول، ودريك[4] مملًّا للغاية، وكولومبوس[5] كثير التخبط، وفي النهاية أسميته تيمنًا بالمستكشف الوحيد الذي جعل العالم غريبًا وأكثر إثارة للدهشة مع كل رحلة.

---

(1) دكتور ليفينجستون: كان مستكشفًا إسكتلنديًّا لوسط إفريقيا. وأول أوروبي يرى شلالات فيكتوريا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم.

(2) دكتور ستانلي: صحافي ومستكشف ويلزي معروف باستكشافاته لإفريقيا وبحثه عن ديفيد ليفينجستون.

(3) فرناندو ماجلان: مستكشف برتغالي أول من عبر المحيط الهادئ. وهو قائد أول رحلة دارت حول الكرة الأرضية.

(4) فرانسيس دريك: نائب الأميرال الملاح الإنجليزي، تاجر الرقيق، السياسي والمدني ومهندس العصر الإليزابيثي. وكان الثاني في قيادة الأسطول الإنجليزي ضد الأرمادا الإسبانية في 1588.

(5) كريستوفر كولومبوس: رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا).

تابعته جاين بحذر.

طمأنتها:

- لا تقلقي، إنه لا يعض.

حسنًا، لم يعض أحدًا في كثير من الأحيان، ومن نظرتي إلى الأمر، الأشخاص الذين عضهم باد كانوا على الأرجح غير جديرين بالثقة، وهم من جنوا على أنفسهم، السيد لوك لم يقتنع بتلك الفرضية.

استهللت حديثي:

- آنسة إيريمو...

- جاين ستفي بالغرض.

- يا آنسة جاين هل يمكنني رؤية خطاب والدي؟

نظرت إليَّ بهدوء تحليلي، مثل عالِم يقيّم فصيلة جديدة من الفطريات.

- لا.

- إذًا هل يمكنك إخباري لماذا وظفك والدي؟ من فضلك.

- يهتم جوليان لأمرك كثيرًا، ولا يريدك أن تكوني وحيدة.

أردت قول الكثير من الأشياء الكريهة مثل «حسنًا، هذا أمر جديد بالنسبة إليّ»، لكنني أبقيت أقوالي محتجزة خلف أسناني. كانت جاين لا تزال تراقبني بينما يعتلي وجهها تعبير استكشاف الفطريات ذلك. وأضافت:

- والدك يريد أيضًا أن يبقيك في أمان، وسوف أضمن لك ذلك.

مسحت بعينيَّ العشب الأخضر الناعم في مقاطعة لوك وسكون بحيرة شامبلين الرمادية:

- أوه، حسنًا.

كنت أحاول التفكير في طريقة مهذبة لأقول إن والدي جن جنونه، ومن الأفضل أن ترحلي، عندما تمدد باد تجاهها، يشمها ليقيم موقفه، هل سيعضها أم لا. اتخذ قراره سريعًا، ثم وضع رأسه أمام يدها مطالبًا إياها بوقاحة أن تفرك أذنيه

قطعًا، وفي المطلق يقيّم الكلاب الأشخاص أفضل من البشر.

– أوه، مرحبًا بك في منزل لوك يا آنسة جاين، أتمنى أن يعجبك الوضع هنا.

أحنت رأسها «أنا متأكدة أنه سيعجبني» لكن خلال الأسابيع الأولى من إقامتها في منزل لوك، لم تمنح جاين أي إشارات توحي بإعجابها بالمنزل أو بي على الإطلاق.

قضت أيامها فيما يشبه الصمت، تجوب من غرفة إلى أخرى مثل مخلوق محبوس. تنظر إليَّ بإذعان متحجر وأحيانًا تلتقط إحدى نسخي المهملة من مجلة ستراند[1] أو كافاليير: قصص أسبوعية لمغامرات جريئة![2] بينما تعلو وجهها تعبيرات مريبة. ذكرتني بأحد الأبطال الإغريق الذي كان مصيره أن يؤدي مهمة واحدة بلا نهاية مثل الشرب من نهر مختفٍ أو دفع حجر إلى أعلى جبل.

كانت محاولاتي الأولى لخلق حديثٍ فاشلةً وشقية. سألتها بلطف عن ماضيها فتلقيتُ إجابات مقتضبة ثبّطت من عزيمتي في طرح المزيد من الأسئلة. عرفت أنها وُلِدَتْ في المرتفعات الوسطى في شرق إفريقيا البريطانية في عام 1873، باستثناء أنها لم تكن تُسمّى شرق إفريقيا البريطانية عندئذٍ، وعرفت أيضًا أنها قضت ست سنوات في مدرسة الجمعية الإنجيلية التبشيرية في نايرو، حيث تعلمت النطق البريطاني وارتدت القطن البريطاني وتضرَّعَتْ لربِّ الملكة. ثم وجدت نفسها في «ضائقة كبيرة» فالتحقت بفرصة العمل التي وفرها والدي لها.

– أوه، حسنًا.

قلت ذلك بمرح ممتزج بالألم.

– على الأقل، الجو ليس حارًا هنا! أقصد بالمقارنة مع إفريقيا.

لم تجب جاين على الفور، إذ كانت تحدِّق إلى البحيرة الذهبية المخضرَّة عبر نافذة حجرة المكتب.

– كل صباح في وطني، كانت تتساقط الثلوج.

---

(1) مجلة ستراند: مجلة بريطانية شهرية أسسها جورج نيونيس، وتتألف من مقالات قصيرة وخيالية ذات اهتمامات عامة.

(2) كافاليير: مجلة أمريكية شعبية.

أجابت بهدوء، وماتت المحادثة ميتة رحيمة.

لا أظن أنني رأيتُها تبتسم لمرة واحدة حتى حفلة الجمعية السنوية التي يقيمها السيد لوك.

كانت حفلة الجمعية متشابهة كل سنة مع بضع تحديثات في الملابس، إذ يَحشر ثمانون شخصًا من أصدقاء السيد لوك، هواة التحصيل الأكثر ثراءً، أنفسهم وزوجاتهم في الردهات السفلية والحدائق ليضحكوا بصوت عالٍ مبالغ فيه على نكات بعضهم بعضًا. وتتحول المئات من المشروبات إلى عرق برائحة الكحول، تتصاعد في دوامات من دخان السجائر تتعلق فوقنا في جو خانق مسكِر. وفي نهاية المطاف، يتسلل كل أعضاء الجمعية الرسميون إلى حجرة التدخين، ويلوثون رائحة الطابق الأول بالسجائر. أحيانًا، تظاهرت أمام نفسي أنها حفلة عيد ميلاد ضخمة لأجلي، لأنها دائمًا ما سبقته بأيام قليلة، لكن من الصعب التظاهر بأنها حفلة عيد مولدك عندما يستمر المدعوون السكارى في الخلط بينك وبين الخادمات مطالبين بالمزيد من النبيذ أو السكوتش.

كان فستاني في ذلك العام يشبه رغوة قبيحة من الشرائط الوردية والزخارف جعلتني أبدو كحلوى عابسة. ولسوء حظي، أمتلك برهانًا؛ ففي ذلك العام استأجر السيد لوك مصورًا كمفاجأة خاصة. في الصورة، أظهر متصلبة وعلى نحو غامض يبدو وكأن أحدهم يطاردني، وشعري مثبَّتٌ بقسوة إلى حدٍّ يجعلك تظنني صلعاء. وتحيط ذراعي بكتف باد، وليس واضحًا إذا كنت أتشبث به لأستمد منه القوة أم لأمنعه من التهام المصور. في عيد الميلاد، قدم السيد لوك نسخة مطبوعة مؤطرة من الصورة إلى والدي، ربما بناءً على الاعتقاد الساحر بأنه سيأخذها معه في رحلاته. أمسكها والدي بين يديه، عابسًا وقال:

– إنك لا تشبهين نفسك، لا تشبهين... لا تشبهينها.

أشبه والدتي على ما أظن.

وبعد مرور عدة أشهر، وجدت الصورة مقلوبة في درج مكتبه.

حتى وأنا مرتدية ذلك الفستان الذي يشبه كعكة الزفاف، ويحيط بي باد وجاين مثل حارسين مكتئبين، لم يكن من الصعب الاختفاء في حفلة الجمعية.

اعتبرني معظم الناس شيئًا غامضًا مثيرًا للفضول، وقد سمعت من لوك الشائعات القائلة بأنني ابنة عامل منجم ألماس من البوير[1] وزوجته التي تنتمي إلى قبيلة الخويخوي[2]، أو أنني وريثة ثروة هندية، أو مجرد خادمة متأنقة. ولم تُعِرْني أيُّ مجموعةٍ منهم أدنى اهتمامٍ.

كنت سعيدة، وخصوصًا لأنني رأيت هذا الرفيق الأنيق ذا الشعر الأحمر، السيد بارثولوميو إلفين، يتسلل عبر الحشد. أسندت ظهري إلى ورق الحائط، وتمنيتُ لبرهةٍ وبلا جدوى، أن يكون صامويل هناك معي، يهمس لي بقصة عن حفلة راقصة وتعويذة سحرية وأميرة تتحول إلى خادمة عند حلول منتصف الليل.

كان السيد لوك يُحيّي كل ضيفٍ بنشاطٍ مَرِحٍ تشوبه لكنة، فقد ارتاد مدرسة بمكان ما في بريطانيا في شبابه وشوَّه الخمرُ نُطْقَه لحرف الراء وحرَّفَ حروفه المتحركة.

– أوه السيد هافيميير! يسعدني أنك استطعت الحضور سعيد للغاية، قابلت جانيوري، الفتاة تحت وصايتي، أليس كذلك؟

أشار إليَّ لوك بإحضار كأسه الخضراء المفضَّلة الممتلئة حتى حافتها بالسكوتش.

السيد هافيميير مخلوق وهِن ذو بشرة شديدة البياض لدرجة أنه يمكنني رؤية عروقه الزرقاء تجري في رسغيه، وتختفي تحت القفازات الجلدية المبهرجة التي يرتديها الرجال ليذكروا الجميع بأن لديهم سيارة. لوّح السيد هافيميير بعصا ذات حافة ذهبية من دون أن ينظر إليَّ.

– بالطبع، لم أكن متأكدًا من أنني أستطيع الإفلات، في ظل ذلك الإضراب، ولكن وصلت إليَّ شحنة عمّال في الثواني الأخيرة، شكرًا للرب.

– السيد هافيميير يعمل في مجال السكر.

قال السيد لوك شارحًا:

---

(1) البوير: جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين الذين توغلوا في إفريقيا من الجنوب باتجاه الشمال.

(2) الخويخوي: مجموعة من البدو الأصليين الذين تنحدر أصولهم من جنوب إفريقيا.

– يقضي نصف العام في جزيرة موحشة بمنطقة الكاريبي.

– أوه، الأمر ليس بذلك السوء.

انزلقت عيناه إلى جاين وإليَّ، وتكوَّرَ فَمُه لتكوين ما يشبه الابتسامة الساخرة:

– لا بد أن ترسل هذا الثنائي ليزورا الجزيرة، إذا مللت منهما، فأنا دائمًا في حاجةٍ إلى المزيد من الأجساد الدافئة.

تجمَّدَ جسدي بالكامل وتصلَّبَ مثل البورسلين، لا أعلم لماذا، حتى في ظل النشأة في كنف السيد لوك الثري، كانت تلك المرة الأولى بالكاد التي يسخر فيها أحدٌ مني. ربما كان السبب الجوع العفوي الذي يحترق في صوت السيد هافيميير مثل طبقة فحم تحت الأرض، أو صوت جاين تسحب أنفاسها إلى جانبي. أو ربما الفتيات الصغيرات هن مِثل الجِمال، يستطعن حمل الكثير من القش قبل أن ينْهَرْنَ.

كل ما أعرفه أن جسدي فجأةً كان باردًا ينتفض، وباد يقفز على قدميه مثل جرجول أسنانه لامعة [1] دبت فيه روح مرعبة، وربما كانت هناك لحظة استطعت فيها الإمساك برسنه ولكنني لم أتمكن من الحركة، ثم انطلق السيد هافيميير يصرخ غاضبًا بصوتٍ عالٍ، ولوك يشتم بينما يزمجر باد حول قطعة من قدم السيد هافيميير، ثم سمعت صوتًا آخرَ منخفضًا ومتأرجحًا ومتناقضًا مع ما يحدث لدرجة أنني لم أصدِّقه، كان صوت جاين تضحك.

في النهاية، ربما كانت الأمور ستؤول إلى ما هو أسوأ من ذلك، فقد حظيَ السيد هافيميير بسبع عشرة غرزة وأربع جرعات من الأفسنتين[2] ثم أعيد إلى فندقه. وانحصر نطاق حركة باد داخل غرفتي إلى ما لا نهاية، التي استمرت لثلاثة أسابيع حتى رحل السيد لوك في رحلة عمل إلى مونتريال، وكنت معاقبةً بمحاضرة تستمر لعدة ساعات عن طبيعة الضيوف والأخلاق الحميدة والنفوذ.

---

(1) جرجول: أسطورة فرنسية عن مخلوق يمتلك شكل التنين التقليدي بأجنحته التي تشبه أجنحة الخفافيش وعنقه الطويل وقدرته على نفث النار من فمه.

(2) أفسنتين: نبات له أنواع متعددة وينتمي للفصيلة الأقحوانية، ويستخدم عادةً في الطب البديل لأغراض مختلفة.

- النفوذ يا عزيزتي، له لغته وموقعه الجغرافي وعملته، و... أنا آسف... لونه. وهذا ليس شيئًا تأخذينه على محمل شخصي أو تعترضين عليه، إنها ببساطة حقيقة العالم، وكلما أسرعتِ في تدريب نفسك عليها، كان ذلك أفضل.

عينا لوك كانتا تشفقان عليَّ، تسللتُ من مكتبه وأنا أشعر بالضآلة والتأثر.

في اليوم التالي، اختفت جاين لمدة ساعة أو اثنتين وعادت محملة بالهدايا، قطعة كبيرة من لحم الخنزير لباد، والإصدار الأحدث من مجلة أرجوسي لأجلي، ثم جلست في نهاية سرير ويلدا الضيق الصلب.

أردت قول شكرًا لكنها خرجت:

- لماذا أنتِ لطيفة معي إلى هذه الدرجة؟

ابتسمت كاشفة عن فراغ رفيع مزعج بين أسنانها الأمامية:

- لأنك تعجبينني، كما إنني أكره المتنمرين.

بعد ذلك أصبح قدري أنا وجاين محتومًا بصورة أو بأخرى عبارة لطالما جعلتني أتخيل القدر عجوزًا واهنة تدس مستقبلنا في مظروف، وتضغطنا بشمع الإغلاق. لقد نشأ بيني وبين جاين إيريمو ما يشبه الصداقة.

لمدة عامين، عشنا في الهوامش السرية لمنزل لوك، في طوابقه العليا وغرف التخزين المنسية وحدائقه المهملة. هرعنا حول حوافّ الطبقة العليا مثل الجواسيس أو الفئران، مختبئتين معظم الوقت في الظل، يلاحظنا لوك وأتباعه المختلفين وضيوفه فقط على نحو متقطع. كان لا يزال هناك شيء سريّ بشأنها، شيء يثير التوتر والترقب، لكن الآن على الأقل ساد شعور بأننا نتشارك القفص نفسه.

لم أفكر كثيرًا بشأن المستقبل، وعندما أفعل، ترافقه رغبة طفولية في مغامرات غامضة نائية، ويقين طفولي بأن كل شيء سيظل على حاله دائمًا. وبالفعل، حدث ذلك تقريبًا، حتى اليوم الذي يسبق عيد ميلادي السابع عشر. حتى عثرت على كتاب مغلف بالجلد في الدرج.

- آنسة سكالر؟

كنت لا أزال واقفةً في الحجرة الفرعونية، حاملةً الكتاب المغلَّف بالجلد في يدي وباد يراوده شعور متزايد بالملل، فتصدر عنه تنهيدات، أفزع صوت السيد ستيرلينج الرتيب كلينا.

- أوه... لم... مساء الخير.

استدرت لأواجهه بينما أخفي الكتاب خلف ظهري. لم يكن هناك أي سبب محدد لأخبئ رواية قديمة من السيد ستيرلينج، باستثناء أنه كانت له هالة حيوية خارقة للطبيعة، والسيد ستيرلينج بصورة أو أخرى هو النقيض البشري للنشاط والدهشة. نظر إليَّ، وعيناه تتحركان ناحية الدرج المفتوح في المنضدة، ثم أمال رأسه على نحو غير ملحوظ.

- السيد لوك يطلب حضورك إلى مكتبه.

وسكت، وتحرك شيء معتم في وجهه، ربما الخوف، إن كان السيد ستيرلينج قادرًا على إبداء أي تعبير ملموس أكثر من الجمود المتنبه.

- حالًا.

تبعته إلى الحجرة الفرعونية ومخالب باد تطقطق في أعقابي. خبأت كتاب الأبواب العشرة الآلاف في تنورتي، حيث بقي دافئًا ثابتًا على وركي، متخيلة إياه مثل درع، وتساءلت لم كانت الفكرة مطمئنة للغاية.

فاحت من مكتب السيد لوك الرائحة المعتادة لدخان السجائر والجلد الفاخر والخمور المختلفة المحفوظة في دوارق كريستال على الطاولة الجانبية، وبدا السيد لوك كعهده، أنيقًا وقصيرًا بعض الشيء، ورافضًا لعملية التقدم في السن باعتبارها مضيعة للوقت، وطوال حياته، امتلك في صدغيه العدد القليل نفسه من الشعر الأبيض الباعث على الاحترام، أما والدي ففي آخر مرة رأيته كان شعره قد تحوَّلَ بالكامل تقريبًا إلى اللون الرمادي.

عندما دخلت إلى المكتب، رفع السيد لوك بصره من رزمة مظاريف ملطخة ومجعدة. كانت عيناه جادتين ورماديتين مثل شاهد القبر، ومثبتتين عليَّ بطريقة نادرًا ما حدثت.

- هذا يفي بالغرض يا ستيرلينج.

سمعت الخادم ينسحب من الغرفة، والنقرة النحاسية لمزلاج الباب. رفرف شيءٌ ما داخل صدري، مثل أجنحة طائر في مقابل ضلوعي.

- اجلسي يا جانيوري.

جلست في مقعدي المعتاد، ونجح باد في حشر نصف جسده أسفله.

- آسفة حيال باد يا سيدي، ولكن بدا ستيرلينج في عجلةٍ من أمره، ولم أُعِده إلى غرفتي أولًا...

- لا بأس في ذلك.

ازداد الشعور بالهلع والرفرفة داخل صدري، مُنع باد من دخول مكتب السيد لوك، بالإضافة إلى كل السيارات والقطارات وغرف الطعام، منذ حفلة الجمعية التي أقيمت قبل عامين. عادة ما تحفز رؤيته فحسب لوك لإلقاء خطاب حول الحيوانات قليلة التهذيب والمُلاك المتساهلين، أو على الأقل يتنهد متذمرًا عبر شاربه.

حرك السيد لوك فكه إلى الأمام والخلف كأن كلماته التالية تحتاج إلى المضغ ليخفف من وقعها:

- الأمر يتعلق بوالدك.

وجدت من الصعب أن أنظر مباشرة إلى السيد لوك، وبدلًا من ذلك أمعنت النظر في صندوق العرض الموجود على مكتبه، ذي لوح العلامة التجارية النحاسي اللامع، المنقوش عليها مسدس إنفيلد إم كيه 1 عام 1879.

- لقد قضى الأسابيع القليلة الماضية في الشرق الأقصى، لا شك أنك تعرفين.

بدأ والدي رحلته من ميناء مانيلا ثم تجول بين الجزر في طريقه شمالًا نحو اليابان، كما أخبرني. ووعدني أنه سيكتب لي كثيرًا، ولكنني لم أسمع شيئًا عنه منذ أسابيع.

لاك السيد لوك جملته القادمة بتمعُّنٍ أكثر.

- كانت تقاريره عن هذه الرحلة الاستكشافية متقطعةً، أقصد أكثر تقطعًا من المعتاد، ولكن مؤخرًا... توقفت التقارير عن الوصول نهائيًّا. آخر تقاريره كان في شهر أبريل.

كان السيد لوك ينظر إليَّ الآن، مترقبًا ومركزًا، كما لو يدندن نغمة وتوقف حتى أنهيها. كأنه حريٌّ بي أن أعرف ما سيقوله بعد ذلك.

تابعت التحديق إلى المسدس، وظلامه المزيّت، والفوهة المربعة المملة، بينما يوجه باد أنفاسه الحارة ناحية قدمي.

- جانيوري هل أنتِ منتبهة؟ لم نسمع شيئًا عن والدك منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. تلقيتُ برقيةً من رجلٍ آخر في البعثة الاستكشافية تفيد بأنه لم يره أو يسمع عنه أحد. ووجدوا خيمته ممزقة ومهجورة عند سفح الجبل.

كان الطائر في صدري ينبش ويضرب أجنحته في رعب محموم، بينما أجلس هادئة تمامًا.

- جانيوري، إنه مفقود، على ما يبدو.

سحب السيد لوك نفسًا حادًّا قصيرًا:

- على الأرجح أن والدك لقيَ مصرعه.

جلست على مرتبتي الرفيعة، أشاهد الشمس تتسلل بسلاسة عبر غطاء فراشي ذي اللونين الذهبي والوردي، والخيوط المهترئة والحشو القطني تصنع ظلالًا وقبابًا قبالته مثل الفن المعماري لمدينة أجنبية. التف باد حول ظهري على الرغم من أن الجو كان حارًّا وغير مناسبٍ للعناق، مُصدرًا أصواتًا ناعمة ظريفة من أعماق صدره. فاحت منه رائحة الصيف والعشب المشذب حديثًا.

لم أرغب في تصديق الأمر، عويت وصرخت وطالبت السيد لوك باسترجاع كلماته أو إثباتها. حفرتُ أهلّةً وردية دامية في راحة يدي محاولةً الحفاظ على رباطة جأشي وألا أحطم صناديقه الزجاجية إلى ألف شظية لامعة.

في نهاية المطاف، شعرتُ بيدين على كتفي مثل حجارة رصف الطريق تسحبني نحو الأسفل:

- يكفي يا فتاة.

ثم نظرت إلى عينيه الباهتتين العنيدتين، فشعرت بنفسي أذوب وأتهاوى تحتهما.

– لقد توفيَّ جوليان، تقبَّلَي الأمر.

وفعلتُ كما قال لي لوك، فانهرتُ بين يديه، وأغرقتُ قميصه بالدموع. دوَّتْ همهمته الخشنة في أذني:

– لا بأس يا فتاة، ما زلت موجودًا معك.

الآن أجلس في غرفتي، وجهي متورِّمٌ وعيناي جافتان أتأرجح على حافة ألم بلا نهاية حد أنني لن أتمكن من رؤية حوافه تبتلعني إذا سمحت له بذلك.

فكرت في آخر بطاقة بريدية تلقيتها من والدي، التي تُظهر شاطئًا وعدّة نساء مظهرهن خشِن، وتحمل عنوان صيادات سوجاشيما، فكرتُ في والدي نفسه، لكن تخيَّلْتُه فقط يمشي مبتعدًا عني، متعبًا أحدب ثم يختفي عبر باب نهائي بشع. *لقد وعدتني أنك ستأخذني معك.*

أردت الصراخ مجددًا، شعرت بالصوت ينبش ويتلوى في حلقي. أردت التقيؤ، أردت أن أهرب بعيدًا وأواصل العدو حتى أسقط في عالم آخر أفضل.

ثم تذكرت الكتاب، وتساءلت إذا ما منحني السيد لوك إياه لأجل هذه اللحظة فحسب مدركًا مدى احتياجي إليه.

أخرجته من تنورتي، وتحسستُ بإبهامي العنوان المطبوع؛ انفتح أمامي مثل باب صغير مغلف بالجلد، مفصلاته مصنوعة من الغراء وخيوط الشمع.

عبرت خلاله.

الأبواب العشرة الآلاف:
دراسة مقارنة للممرات والبوابات والمداخل في الأساطير العالمية

صدر هذا النص عن يولي إيان سكولار لصالح جامعة مدينة نين في السنوات ما بين 6908 و... في استيفاء جزئي لحصوله على الأستاذية.

تختص الدراسة التالية بالأشكال المتغيرة لفكرة متكررة في الميثولوجيا العالمية، وهي الممرات والبوابات والمداخل. ففي البداية، دراسة كهذه ربما تبدو وأنها تعاني من الخطيئتين الأكاديميتين؛ الرعونة والتفاهة، لكن نية المؤلف هي توضيح أهمية الممرات باعتبارها حقائق ظواهرية[1]. لا يمكن حصر الإسهامات المحتملة في مجالات أخرى للدراسة مثل النحو، وعلم اللغات، والأنثروبولوجيا، ولكن ربما إذا كان المؤلف يعتمد على حدسه، فهذه الدراسة تعتزم تجاوز حدود معرفتنا الحالية. في الحقيقة، ربما تعيد هذه الدراسة تشكيل استيعابنا الجمعي لقوانين فيزياء الكون.

ببساطة، الادعاء الرئيسي هو: أن الممرات والبوابات والمداخل الشائعة في كل الأساطير تضرب بجذورها في انحرافات لها وجود مادي تسمح لمستخدميها بالسفر من عالم إلى آخر. أو لتبسيط الأمر أكثر؛ تلك الأبواب حقيقية.

---

(1) علم الظواهرية (أو الفينومينولوجيا) هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة بداية ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها. غير أنها لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجردة سواء في الميتافيزيقا أو في العلم بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم.

ستقدم الصفحات التالية أدلة وافية لتأييد هذا الاستنتاج، وسوف تسرد مجموعة من النظريات المتعلقة بطبيعة الأبواب وأصولها ووظيفتها. تضم الافتراضات الأكثر أهمية:

أ- أن الأبواب هي منافذ بين عالم وآخر، توجد فقط في أماكن ذات تردد معين لا يمكن تحديده، وهو ما يطلق عليه الفلاسفة الماديون «الاقتران الضعيف» بين عالمين.

وبينما يحيط الإنشاءات التي صنعها الإنسان -الإطارات والأقواس والستائر إلخ- بالباب؛ فالظاهرة الطبيعية نفسها تسبق في الوجود الديكور المُعد لها. كما يبدو أن تلك الأبواب يستعصي العثور عليها من خلال الخدع الفيزيائية أو الإنسانية.

ب- ينتج عن هذه البوابات درجة معينة من التسريب؛ إذ تنساب المادة والطاقة بحرّية خلالها، وينطبق الأمر على الأشخاص والمخلوقات الغريبة والموسيقى والاختراعات والأفكار، باختصار، سائر أنواع الأشياء التي ينتج عنها أساطير. إذا تتبع شخص القصص، سيعثر بصورة شبه مؤكدة على بوابة مدفونة في جذورها.[1]

ج - أن هذا التسريب والقصص الناتجة عنه كانت وستظل أمرًا ضروريًّا للتطور الاقتصادي والسياسي والثقافي والفكري الإنساني في كل العوالم. كما هو الحال في الأحياء، التفاعل بين الطفرات الجينية العشوائية والتغيرات البيئية هو ما يُفضي إلى التطور.

تستحدث الأبواب التغيير، ومنه ينبثق كل شيء، الثورة والمقاومة والتمكين والاضطراب والاختراع والانهيار والإصلاح، أي كل المكونات الحيوية للتاريخ الإنساني.

د - الأبواب هشة كسائر الأشياء الثمينة؛ إذ اكتشف هذا المؤلف أن بمجرد إغلاق الأبواب، لا يمكن إعادة فتحها بأي وسيلة.

---

(1) 1- نجح الباحثون السابقون في جمع وتوثيق مثل هذه القصص، ولكنهم فشلوا في تصديقها، لذا لم يتمكنوا من العثور على الأداة الوحيدة التي تجمع كل الأساطير: الأبواب.

انظر النسخة الثانية كتاب جيمس فريزر الغصن الذهبي: دراسة في الدين المقارن، صدر عام 1900 من دار نشر ماكميلان وشركاؤه.

انقسم الدليل المؤيد للنظريات الأربعة إلى ثماني عشرة فئة فرعية، تُقدم أدناه..

على الأقل، هذا الكتاب هو ما نويتُ تأليفه عندما كنت شابًّا مختالًا.

حلمت بدليل منيع، ينال احترامًا على المستوى الأكاديمي، ومنشورات ومحاضرات، ففي حوزتي عدة صناديق تحوي بطاقات ملاحظات مفهرسة بعناية، كل منها يصف لبنة في حائط بحثيٍّ ضخم:

قصة إندونيسية عن شجرة ذهبية شكَّلَتْ أغصانها قنطرة لامعة، وهي إشارة في ترنيمة غيلية[1] إلى الملائكة التي تطير عبر بوابة الجنة، وأطلال ممر خشبي منقوش في مالي، تآكل واستحال سوادًا بفعل قرون من الأسرار.

هذا ليس الكتاب الذي ألفته، وإنما كتبت شيئًا غريبًا، شخصيًّا وذاتيًّا للغاية، فأنا عالم يدرس روحه، ثعبان يبتلع ذيله.

لكن حتى إذا روضتُ رغباتي وكتبتُ شيئًا أكاديميًّا، أخشى أنه لن يكون ذا أهمية، لأنه من سيُبالي بادعاءاتي إذا كانت بلا دليل قاطع. دليل ليس باستطاعتي تقديمه، لأنه يختفي تقريبًا بمجرد عثوري عليه، يتسلل الضباب عبر قدمي مبتلعًا خطواتي ماحيًا دليلي؛ أي يغلق الأبواب.

إذن الكتاب الذي تحمله بين يديك ليس عملًا أكاديميًّا مرموقًا، ولم يحظَ بأيّ إشرافٍ تحريريٍّ، ويحوي عددًا قليلًا من الحقائق المؤكدة، إنه محض قصة. كتبتها على أي حال لسببين:

أولًا: لأن المكتوب حقيقي، الكلمات ومعانيها لها وزن في عالم المادة، تشكل وتعيد تشكيل الحقائق عبر أكثر أساليب الخيمياء قدمًا.

حتى كتاباتي الهزيلة ربما تمتلك القوة الكافية لتصل إلى الشخص المنشود وتفصح عن الحقيقة وتقلب موازين الأمور.

ثانيًا: علمتني خبرتي الطويلة في البحث أن كل القصص مهمة، حتى الحكايات الشعبية الأكثر وضاعةً إنها أعمال فنية وصحف وأحجيات وسجلات، إنها الخيوط الحمراء التي تقودنا خارج المتاهة.

وأتمنى أن تكون هذه القصة هي خيطك، وتعثر على باب في النهاية.

---

(1) الغيلية الإسكتلندية، ويشار إليها أحيانًا بالغيلية أو الغايلية، هي لغة كلتية يعود أصلها إلى إسكتلندا.

الفصل الأول

مدخل إلى الآنسة أديلايد لي لارسن واستكشافاتها التأسيسية.

أصلها ونشأتها، فتْحُ بابٍ، غلْقُ بابٍ، التغييرات التي لحِقَتْ بروح فتاة صغيرة.

وُلدت الآنسة أديلايد لي لارسن في عام 1866.

كان العالم قد بدأ لتوِّه يهمس لنفسه بكلمة «عصري»، إلى جانب كلمات مثل النظام وتجارة حرة بلا قيود. امتدت السكك الحديدية وخطوط التلغراف عبر الحدود الجغرافية مثل غرز على هيئة سطور طويلة. نخرت الإمبراطوريات في سواحل إفريقيا، ودمدمت محالج القطن واضطربت كأفواه فاغرة تبتلع العمال المجنية ظهورهم، وتطلق بخارًا غنيًّا بالألياف

لكن الكلمات الأخرى الأقدم مثل الفوضى والثورة، لا تزال متلكئةً على الهوامش؛ إذ تدلَّى المتمردون الأوروبيون الذين قاموا بثورات 1849 مثل بنادق تنفث دخانها في الهواء، ولا يزال السيبوي[1] الهنود يتذوقون طعم العصيان على ألسنتهم، النساء يتهامسن ويتآمرن ويحكين رايات ويؤلِّفْنَ منشورات، بينما يقف الرجال المحررون بلا قيود حول أيديهم تحت ضوء

(1) السيبوي: جندي مشاة هندي مُسلح عادة ببندقية قديمة.

أمتهم الجديدة الملطخة بالدماء. باختصار، كل الإشارات كانت تنبئ عن عالمٍ لا يزال مُخترقًا بالأبواب المفتوحة.

لكن بوجهٍ عام لم تكن عائلة لارسن تُلقي بالًا لما يحدث في بقية العالم، وبادلهم العالم هذه العواطف بلباقة، كانت مزرعتهم مختبئة في ثنية خضراء من أرض في منتصف البلاد، تحديدًا في قلب الدولة لو كانت جسدًا حيًّا، بقعة أهملها جنود طرفي الحرب الأهلية في أثناء مرورهم. زرعت العائلة ما يكفي من الذرة لإطعام أنفسهم وبقراتهم الأربع المدرّة للحليب، وحصدوا قنّبًا كافيًا ليبيعوه أسفل النهر لجامعي القطن القادمين من الجنوب، وملّحوا لحم غزال بما يكفي للحفاظ على أسنانهم من التساقط في الشتاء. لم تمتد اهتمامات عائلة لارسن أبعد كثيرًا من حدود الأفدنة السبع، ولم تتعقَّد آراؤهم السياسية قطّ بأكثر من مقولة ماما لارسن «من يملكون الثروة، يحصلون على الفرص». في عام 1860 عندما عانى الشاب لي لارسن من نوبة وطنية وهرع إلى المدينة مُدليًا بصوته لصالح جون بيل[1]، الذي خسر سريعًا ليس فقط أمام السيد لينكولن[2] ولكن أيضًا من دوغلاس[3] وبريكنريدج[4]، وهو ما أكد ببساطة الشك المتداول في عشيرتهم، أن التسييس هو حيلة مصممة لتشتيت الشعب الكادح عن أعماله.

لا يختلف جيران عائلة لارسن عنهم في هذه الأمور، فمن غير الممكن أن يكون أي كاتب سير أو مؤرخ أو حتى صحفي محلي قد كتب أسماءهم في

(1) جون بيل: سياسي ومحامٍ وصاحب مزرعة أمريكي. وهو أحد أبرز السياسيين في ولاية تينيسي قبل الحرب الأهلية.

(2) أبراهام لينكولن: الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين 1861م إلى 1865م.

(3) ستيفن دوغلاس: سياسي ومحامٍ أميركي من إلينوي. كان مرشح الحزب الديموقراطي للرئاسة في انتخابات عام 1860، لكنه هُزم أمام المرشح الجمهوري أبراهام لينكولن.

(4) جون بريكنريدج: محامٍ وسياسي وجندي أمريكي، أصبح النائب الرابع عشر لرئيس الولايات المتحدة في الفترة من 1857 إلى 1861 في عهد الرئيس جيمس بيوكانان، وهو أصغر من يتولى هذا المنصب.

مطبوعة قبل الآن. المقابلات التي أجريت لهذه الدراسة كانت شؤونًا فضفاضة مثيرة للشكوك تشبه استجواب الزرازير أو أيل أبيض الذيل.

لم تتميز عائلة لارسن سوى بواقعة وحيدة، وهي: عند ميلاد أديلايد لي، كان جميع أفراد العائلة المتبقين على قيد الحياة نساءً. بسبب الحظ السيئ والأزمة القلبية والجبن، خلّف رجال العائلة وأبناؤهم مجموعة من السيدات الصارمات اللاتي يشبهن بعضهن لدرجة تجعلك تشعر كأنك تشهد حياة امرأة واحدة تنبسط أمامك في كل المراحل الممكنة.

كان لي لارسن آخر المغادرين، فنظرًا إلى طبيعته التي تفتقر إلى التوقيت السليم، انتظر لي حتى أصبحت الولايات الكونفدرالية الأمريكية في مراحلها المرتبكة الأخيرة قبل أن يتجه جنوبًا لينضم إلى الميليشيات، وزوجته الجديدة؛ امرأة شابة شاحبة من البلدة المجاورة، انطوت على نفسها في بيت آل لارسن وانتظرت الأخبار، لكنها لم تأت، وبدلًا منها، بعد مرور سبعة عشر أسبوعًا، ظهر لي لارسن بنفسه في الليل مرتديًا زيًّا ممزقًا ومصابًا بطلقة في ردفه الأيسر. وبعد أربعة أيام، غادر متجهًا ناحية الغرب بينما يعلو وجهه تعبير مبهم كأنه مسَّه شَبَح. أطال لي البقاء بما يكفي لتحمل زوجته.

كانت أديلايد في الثالثة من عمرها عندما استسلمت أمها للإنهاك والاكتئاب، وتهاوت في الظلمة تمامًا، وبعد ذلك تربت على يد جدتها وعماتها الأربع، وبالتالي فإن أديلايد خرجت من رحم الحظ السيئ والفقر وتربَّتْ على يد الجهل والعزلة. لتتحوَّل هذه القصة عن الأصل الوضيع إلى درس ثمين لك يفيد بأن بدايات الإنسان لا تَبوح غالبًا بنهايته؛ فأديلايد لي لم تكبر لتصبح امرأة شاحبة أخرى من عائلة لارسن[1]، لقد أصبحت شيئًا مختلفًا تمامًا، شيئًا مشرقًا للغاية وجامحًا وشرسًا لا يحتمله عالمٌ واحدٌ، فاضطرت للعثور على عوالم أخرى.

---

(1) 2- كما أشار الباحثون الآخرون (كلاوس بيرجنون كتب مقالًا عن القدر وحق الدم في أعمال العصور الوسطى قُدم إلى الجمعية الأمريكية للآثار عام 1872) دور رابطة الدم والنسب هو افتراض كثير التكرار في العديد من الحكايات الخيالية والأساطير والخرافات.

أديلايد، اسم جميل أنثوي، مصدره جدَّتها الأولى، امرأة من أصول فرنسية ألمانية تُعاني من الانعزال الباهت ذاته الذي تكابده والدة أديلايد، الاسم الذي قُدِّرَ له الفشل، ليس لأن الطفلة نفسها أثارت اعتراضًا عليه، لكن ببساطة لأن الاسم انزلق عن ظهرها كما ينزلق الماء عن سطح صفيح؛ إنه اسمٌ لفتاةٍ رقيقةٍ تتلو صلواتها كل ليلة وتحافظ على نظافة سترتها وتلقي نظرها بعيدًا برزانة عندما يتحدَّث إليها الكبار، وليس اسمًا للكائن البري الدنس الهزيل الذي يسكن منزل عائلة لارسن مثلما يشغل سجين حرب معسكر العدو.

بحلول عيد ميلادها الخامس، اعترفت بالهزيمة كل امرأة في المنزل فيما عدا العمة ليزي، التي لا يمكن تغيير عاداتها بقوة أقل من نار المدافع، وأطلقن عليها أدي، كان اسم أدي أقصر وأقسى وملائمًا أكثر للصراخ بالتحذيرات واللوم، اسم يعلق بالذهن على عكس من التوبيخ.

قضت أدي طفولتها في الاستكشاف والتجول خلال أفدنتهم السبعة كما لو أنها أضاعت شيئًا ثمينًا وتأمل العثور عليه مجددًا، أو على نحو أدق، مثل كلب مقيد بسلسلة قصيرة تشدها بقوة من ياقتها. تعرفت أدي على الأرض بأسلوب الأطفال، بحميمية وخيال نادرًا ما تدبرهما الكبار.

عرفت الأماكن التي ضرب البرق فيها أشجار الجميز صانعًا مخابئ سرية، وعرفت أين يُحتمل أن يرفع عيش الغراب رؤوسه الشاحبة راسمًا دوائر خرافية، وأماكن لمعان الذهب الكاذب تحت سطح الجدول.

وعلى وجه الخصوص، عرفت كل عوارض ودعامات المنزل المتهالك في أفدنتهم الخلفية، وهي عبارة عن حقل قمح صغير كان عزبة ذات يوم، عندما اشترى آل لارسن الملكية، كان المنزل مهجورًا، وخلال السنوات التي تلت ذلك، غاص في الأرض مثل مخلوق من عصر ما قبل التاريخ عالق في حفرة قطران، ولكن بالنسبة إلى أدي كان ذلك المنزل هو كل شيء، قلعة متهالكة، وحصن استكشافي، وقصر قرصان، وعرين الساحرة.

ونظرًا إلى أنها كانت بداخل ملكيتهم، لم ترفض نساء آل لارسن ألعاب أدي صراحة، ولكنهن ضيَّقْنَ أعينهن في وجهها كلما عادت إلى المنزل تفوح منها رائحة خشب عفن وشجر الأرز، وأطلقن تحذيرات شديدة بخصوص المنزل، «إنه مسكون، الجميع يقولون ذلك»، وعن المصائر المحتملة لأولئك

الذين مضوا يتجولون، «والدك كان متجولًا»، هزت جدتها رأسها بإيماءة قاتمة «وانظري إلى الخير الذي جلبه لنا». كثيرًا ما طُلب من أدي أن تتأمل حياة والدها، زوجة مهجورة، وابنة يتيمة، كل ذلك إرضاءً لتململه، لكن ذلك التحذير أثبت فشله بالنسبة إلى أدي، إذ صحيح أن والدها هجرهم، لكنه أيضًا شهد الحب والحرب وربما بعضًا من العالم المسكر الذي يتجاوز المزرعة، ومثل هذه المغامرة بدت تستحق أي ثمن.

(بالنسبة إليَّ جرى تعريف حياة لي لارسن بالجبن والاندفاع أكثر من الروح المغامرة، لكن الابنة لا بد وأن تعثر على ما تقدره في والدها، وبالأخص إذا كان غائبًا).

في بعض الأحيان، تجولت أدي وفي رأسها هدف، مثلًا عندما اختبأت على متن قطار إيلينوي المركزي، وقطعت كل الطريق حتى بادوكا، قبل أن يمسكها رجل السكك الحديدية، وأحيانًا ببساطة، تحركت لأجل الحركة، كما تفعل الطيور. قضت أدي أيامًا تمشي إلى جانب ضفة النهر المتشابكة، وهي تشاهد البواخر تتجاوزها. وفي بعض المرات، ادَّعَتْ أنها ضمن طاقم البحارة متكئةً على الدرابزين، وغالبًا ما تخيلت أنها الباخرة نفسها، شيء صُنِعَ حصريًّا بغرض الوصول والمغادرة.

لو أردنا رسم مسارات تجوّلها في أثناء طفولتها على خريطة توضح استكشافاتها ومقاصدها في هيئة طبوغرافية، وأردنا تتبع طريقها المتعرج خلالها، سنراها كفتاة تحل لغز متاهة من منتصفها متجهة نحو الخارج، مثل مينوتور[1] يحاول تحرير نفسه.

قبل بلوغها الخامسة عشرة من عمرها، كانت أدي شبه غاضبة من رحلاتها الشخصية، ومحبطة من تكرار أيامها. ربما تغيرت داخليًّا في تلك اللحظة، ثناها ثقل المتاهة الخفية حولها، لكن أنقذها حدث في غاية الغرابة إلى حد أنه تركها ساخطةً للأبد على الأمور الروتينية وأقنعها بوجود الأمور الخارقة للعادة، لقد قابلت شبحًا في الحقل القديم.

---

(1) مينوتور: في الميثولوجيا الإغريقية مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

حدث الأمر في بداية الخريف، عندما تتلون الأعشاب الطويلة بالكستنائي والوردي، ويتردد نعيق الغربان حادًا عبر الهواء النظيف. كانت أدي لا تزال تتردد على المنزل القديم في الأفدنة الخلفية، على الرغم من أنها كبرت على لعبة التظاهر.

في اليوم الذي قابلت فيه الشبح، كانت تخطط لتسلق حواجز المدخنة الوعرة، حتى تجلس على السطح تشاهد الزرازير في سلوكهم الجنوني.

عندما اقتربت أدي من المنزل المتهالك رأت هيئة مظلمة تقف إلى جانبه، توقفت عن السير. قطعًا، عماتها كُنَّ سينصحنها أن تستدير في الحال وتعود إلى المنزل، فتلك الهيئة إما شخص غريب من الأفضل تجنبه بأي ثمن، وإما شبح من المنزل نفسه، وتجب معاملته مثل الغرباء.

لكن أدي وجدت نفسها منجذبة مثل سهم البوصلة.

قالت أدي:

- مرحبًا.

انتفض الشبح الذي كان نحيفًا وطويلًا وصبيانيًّا حتى عن بعد. صاح بشيء ما ردًّا عليها لكن الكلمات بدت مشوشة في شدقه.

صاحت مجددًا:

- المعذرة؟

لأن التهذيب مطلوب عند التعامل مع الغرباء أو الأشباح.

رد عليها بسلسلة أخرى من الكلمات غير المفهومة، أصبحت أدي الآن قريبة بما يكفي لتراه بوضوح، وتساءلت إن كان يفترض بها العودة على الرغم من ذلك، كانت بشرة الشبح سوداء تشوبها حمرة قاتمة، وهو أمر لم تعرف أدي له اسمًا.

لم يشترك آل لارسن لتصلهم الصحف على أساس أنهم يحصلون على الأخبار المهمة في الكنيسة، ولكن عادة ما كانت أدي تجمع الصحف المستعملة، لذا فهي تعرف خطر الرجال السود الغرباء، لقد رأت مقالات تصف جرائمهم، ورسومًا كاريكاتيرية تصور شهيّتهم في النساء البريئات البيضاوات. في الرسوم الكاريكاتيرية، بدا الرجال متوحشين أيديهم مشعرة،

وثيابهم رثة وتعبيراتهم بهلوانية، لكن الفتى في الحقل لم يكن يشبه الرسومات الموجودة في الصحف.

كان شابًّا، ربما في مثل عمرها أو أقل بقليل، وجسده أملس وأطرافه طويلة، هندامه غريب من القماش الصوفي الخشن، يلتف وينثني حوله على نحو متشابك يتلاعب به الهواء، كما لو أنه سرق شراع سفينة ولفَّه حول جسده، كانت ملامحه دقيقة ورقيقة الطلة، وعيناه صافيتين وقاتمتين.

تفوَّه مرة أخرى بسلسلة من الكلمات متعددة المقاطع مرتبة تقريبًا على هيئة أسئلة. افترضت أدي أنها ربما تكون لهجة من جهنم، تتقنها الأشباح والشياطين فقط. فجأة، تحولت الكلمات في فمه والحروف المتحركة المألوفة أصبحت في مكانها الصحيح.

- معذرة يا سيدتي؟ هل تستطيعين سماعي؟

كانت لهجته غريبة للغاية، لكن صوته تردد هادئًا ولطيفًا في حذر، كأنما يخشى أن يفزعها.

في تلك اللحظة، قررت أدي أن عمتها ليزي محقة فيما يخص الصحف وأنها لا تستحق الورق الذي تطبع عليه؛ فالفتى الواقف أمامها بعينيه المندهشتين وملابسه التي تشبه ملاءات السرير وصوته الرقيق، هو أبعدِ ما يكون عن إيذائها.

أجابت:

- أستطيع سماعك.

اقترب والذهول بادٍ على وجهه، داعب رؤوس العشب الثقيلة، متفاجئًا من الإحساس بالشعيرات في كف يده. ثم اتجهت يده إلى الأعلى، واستقرت راحة يده الشاحبة على عظام وجه أدي، جفل الشبح وأدي مبتعدَين في اللحظة نفسها، كأن كليهما لم يصدق أن الآخر سيكون شيئًا متماسكًا.

شيء ما حيال لطفه، وبراءة شعوره بالمفاجأة، ورقة يديه طويلتَي الأصابع حرر أدي من حذرها فجأة.

- من أنت؟ ومن أين جئت بالتحديد؟

إن كان شبحًا، فهو فرد ضائع ومتردد من الفصيلة، بدا وكأنه يبحث في خزانة مهملة بذاكرته عن الكلمات الصحيحة.

- جئت من... عالم آخر، ليس هنا، عبر باب في الحائط.

أشار إلى الخلف ناحية المنزل المتداعي، إلى الباب الأمامي الهابط العالق في إطاره منذ ما قبل ميلاد أدي، وهو ما يجبرها على الدخول عبر النافذة. الآن، صار الباب المثبت مفتوحًا بعرض يماثل عرض فتى نحيل.

كانت أدي فتاة عقلانية بما يكفي لتعرف أن الأولاد الغرباء الذين يتجولون في ملكيتك مرتدين ملاءات، ويدعون أنهم من عالم آخر، من الأفضل التعامل معهم بحرص، كان الشبح إما مجنونًا وإما كاذبًا، وكلاهما لا يستحق وقتها، لكنها شعرت بشيء ينتفض في صدرها عندما يتحدث، شيء في خطورة الأمل؛ وربما يكون ذلك حقيقيًّا.

- تفضل.

تراجعت أدي إلى الخلف وبسطت على العشب المتيبس ملاءتها القطنية الملونة بالأحمر والأبيض فيما يشبه خيمة السيرك. ثم داست عليها لتسويها وجلست مشيرة إلى جانبها.

نظر إليها بتلك النظرة المفاجئة الساحرة مجددًا، بينما يفرك ذراعيه العاريتين في برد الخريف.

- يبدو أن الجو أدفأ في العالم الآخر، أليس كذلك؟ خذ هذا.

خلعت معطفها الخيشي الجاف، قطعة ملابس توارثتها الأجيال حتى فقدت لونها وشكلها، ناولته إياه، وضع أكمام المعطف فوق ذراعيه مثل الحيوان إذا طُلب منه ارتداء طبقة ثانية من الجلد.

كانت أدي واثقة أنه لم يرتد معطفًا في حياته، وعلى الدرجة ذاتها من الثقة أن ذلك مستحيل.

- حسنًا، هيا، اجلس وأخبرني عن الأمر أيها الفتى الشبح، عن العالم الآخر.

وحدق الفتى الشبح.

إن كنت ستسمح بالإطالة، دعني أتوقف هنا، لأعيد تقديم المشهد من منظور الفتى، لقد جاء من مكان مختلف تمامًا عن حقل القمح القديم، حينما كانت عيناه ترمشان تحت شمس العالم الغريب، رأى فتاة لا تشبه أي شيء وقعت عيناه عليه من قبل. تقدمت نحوه بخطوات واسعة، مرتدية فستانًا له أزرار قاتمة يصدر حفيفًا بسبب احتكاكه بالعشب، وشعرها يشبه القمح الشتوي المتشابك تحت قبعة كبيرة. الآن، تجلس الفتاة في مستوى أقل منه وجهها مرفوع نحو الأعلى وعيناها صافيتان ربما طفوليتان قليلًا، وإذا طلبت منه أي شيء في العالم سوف يمنحها إياه.

لذا جلس الفتى وأخبرها عن العالم الآخر.

العالم الآخر هو مكان قوامه ملح البحر والرياح، هو مدينة أو ربما بلد أو ربما عالم (استخدامه للأسماء كان مبهمًا في هذه النقطة) حيث يعيش الناس في منازل حجرية ويرتدون أثوابًا بيضاء طويلة، يعم العالم الآخر السلام، ازدهر بالتجارة على طول الساحل واشتهر سكانه بدراستهم الماهرة للكلمات.

- لديكم الكثير من المؤلفين في عالمكم؟

كانت الكلمة غير مألوفة بالنسبة إليه.

- من يؤلفون الكتب، الأشياء الطويلة المملة التي تدور حول أشخاص غير حقيقيين.

وجه إليها نظرة تملؤها الرعب الشديد.

- لا، لا، كلمات.

حاول أن يشرح باستفاضة عبر عدة جمل مبعثرة عن طبيعة الكلمة المكتوبة وشكل الكون، والكثافة النسبية للحبر والدم، أهمية اللغات ودراستها المتقنة، لكن بين العدد المحدود للأفعال التي يعرفها، وميلها إلى الضحك، أحرزا تقدمًا بسيطًا. استسلم الفتى الشبح وسألها عن عالمها.

أجابت أدي، ولكنها وجدت نفسها مقيدةً بحياتها المغلقة. عرفت القدر القليل عن المدينة القريبة وعرفت عن العالم الأكبر بقدر ما يمكن تدريسه في سنتين من التعليم في مدرسة مكونة من حجرة واحدة.

- أظن أنه ليس في إثارة عالمك، أخبرني عن المحيط، هل تعرف كيف تبحر؟ إلى أيّ مدىً أبحرت؟

تحدث هو واستمعت هي، واجتاحهما الغسق كجناح حمامة عملاقة. لاحظت أدي حلول هدوء اليوم وأصوات الطيور الليلية، فأدركت أنها تجاوزت موعد عودتها إلى المنزل لكنها لم تستطع حمل نفسها على العودة. شعرت أنها معلقة، تتأرجح بخفة في مكانٍ ما حيث يمكنها الإيمان بالأشباح والسحر والعوالم الأخرى، وبهذا الفتى الأسمر الغريب ويديه اللتين تومضان خلال العتمة.

- ولا يوجد من يشبهك في عالمي، هل حدث شيء لينتزع جلدك؟ هل... ماذا...

تحولت إنجليزية الفتى إلى سلسلة من صيحات التعجب الحلقية، شعرت أدي أنه يمكن ترجمتها عالميًّا إلى:

- ما هذا بحق الجحيم؟

التفت يمينًا ويسارًا محدقًا إلى الحقل الذي تنتشر فيه الظلال.

- هذه حشرات مضيئة أيها الفتى الشبح، ظهورها الأخير لهذا العام، ألا يوجد مثلها على الناحية الأخرى من بابكم؟
- حشرات مضيئة؟ لا، ليس لدينا مثلها، ما فائدتها؟
- ليس لها فائدة، سوى أنها تخبرك بحلول الظلام، وأنك ستقع في عشرات الورطات إن لم تعد إلى المنزل قريبًا.

تنهدت أدي:

- يجب أن أذهب.

كان الفتى ينظر إلى الأعلى نحو النجوم المسائية التي تشع لمعانًا مزعجًا فوقهما، ردَّ عليها بسلسلة أخرى من الكلمات التي لم تواجه أدي أي صعوبة في ترجمتها.

- يجب أن أذهب أيضًا.

التقت عيناه بعينيها القاتمتين اللامعتين:

- لكنك ستعودين؟



- اللعنة، في يوم أحد؟ بعد ما بقيت خارج المنزل حتى وقت متأخر؟ سأكون محظوظة إن لم يحبسنني في حظيرة القش حتى حلول عيد الميلاد.

كان جليًا أن الفتى لم يفهم عدة كلمات مهمة في هذه الجملة لكنه ألحّ عليها، واتفقا أنهما سيعودان خلال ثلاثة أيام.

- سآخذك معي، وسوف تصدقينني.

- حسنًا أيها الفتى الشبح.

ابتسم، ويا له من تعبير يُصيب بالدوار، تعبير ساحر كأن الفتى لم يتخيل شيئًا أجمل من ملاقاتها في هذا الحقل خلال ثلاثة أيام، إلى حدّ أن أدي لم تجد مفرًّا من تقبيله.

كانت قبلة غير متقنة، مسة ضعيفة كادت أن تخطئ فمه كليًا، لكن بعد ذلك، اهتز قلباهما بغرابة داخل صدريهما، وارتعشت أطرافهما وتخدرت، لذا ربما لم تكن القبلة محاولة بائسة على أي حال.

بعد ذلك غادرت أدي مرتبكةً بين تنورتها والملاءة الحمراء، ومرَّت عدة دقائق على الفتى قبل أن يتذكر بدقة أين هو وأين يفترض أن يذهب بعد ذلك.

في المنزل، قابلتها ماما لارسن بخطبة لاذعة من النواح حول مصير الفتيات اللائي يبقين خارج المنزل حتى وقت متأخر، والخوف والقلق اللذان أصابت بهما عمّاتها الحبيبات -قاطعتها العمة ليزي لتقول إنها غاضبة مثل أرنب بري، وليست خائفة، وماما لارسن تتحدَّث عن نفسها فقط-، وحتمية اضمحلال الأنوثة في هذا البلد.

- وأين معطفك أيتها الطفلة الخرقاء؟

تدبرت أدي:

- في مكان آخر.

أجابتها ثم اندفعت لأعلى السلالم.

وجدت أدي أنه يسهل تحمل العظة الأسبوعية لقدّاس يوم الأحد عندما يخفي الإنسان في قلبه سرًّا متوهجًا لذيذًا يتعذر تصديقه. سكان البلدة الذين ليسوا حقًّا بسكان البلدة، بل مجموعة من البربريين الذين عاشوا في المزارع

في عزلة ووحدة مثل آل لارسن، ويجتمعون فقط لأجل المزادات والجنائز والرب.

يختلطون في مقصورات الكنيسة وعلى وجوههم التعبيرات المتبلدة ذاتها التي يعكسونها كل أسبوع، وشعرت أدي أنها منفصلة عنهم بأسلوب جديد ولطيف إلى حد ما. غرد القس ماكدويل بعظته حولها مثل نهر يحاول اختراق الصخور.

دائمًا ما جلست نساء آل لارسن في الصف الثالث الخلفي لأن ماما لارسن أصرت أن الجلوس في الصف الأمامي فعل متكبر، بينما الجلوس في الصفوف الخلفية فظاظة، ولأن جميعهن استمتعن بلذة التفوق النابعة من مشاهدة الذين يصلون متأخرًا هائمين ينزلقون بداخل المقصورة الخلفية ورؤوسهم محنية.

في ذلك الأحد، شغل المقصورة الأخيرة عدة أفراد من قبيلة بوهلر ذوي البشرة الحمراء، وفتى عائلة هانسن الذي كان في الأربعينيات من عمره ولا يزالون يطلقون عليه «فتى» لأن الفترة التي قضاها في الحرب زعزعت قواه العقلية، لكن في نهاية العظة -كما تقاس بارتفاع صوت القس ماكدويل وزيادة تعرقه- دخل الكنيسة رجل لم تتمكن أدي من التعرف عليه، ودس نفسه في الصف الثاني قبل الأخير.

لم تكن أدي تعرف الكثير عن العالم الأوسع، لكنها كانت متأكدة أن هذا الرجل يعيش فيه، كل شيء بشأنه يتحدث عن الدقة والنظام، معطفه الصوفي كان قصيرًا وأنيقًا، يكشف عن بنطال أسود نظيف طويل، وشاربه الأشيب المقصوص بدقّة توازي دقة الجرّاحين.

صدرت ضوضاء غير محسوسة تقريبًا في كل مرة حاول فيها فردٌ من الجمهور النظر إلى الرجل الغريب دون أن يلاحظه أحد. انتهت العظة، وأخذت بعض العائلات التي تجلس في المقصورة الأمامية، على عاتقها مهمة التعارف والاستفسار، أملوا أنه استمتع بعظتهم الصغيرة، على الرغم من أن أدي كانت مقتنعة بأن المتعة هدف بعيد المنال حتى بالنسبة إلى القس ماكدويل، وتساءلوا عن وظيفته في المنطقة، ربما لديه أقارب في منطقة قريبة، أو مشروع على النهر.

- أشكركم على لطفكم، ولكن لا أيها السادة، لست مهتمًّا بالقوارب النهرية. أعترف أنني رجل عاشق للبر، أبحث عن ملكية محتملة.

سرى صوته عبر رؤوس جمهور العظة خارجًا من منخاره بلكنة أجنبية.

وزفرت ماما لارسن إلى جانب أدي، لا يجب أن يرفع أحدهم صوته تحت سقف الكنيسة فوق مستوى الهمهمة المهذبة.

– سمعت في مايفيلد أنه ربما يكون هناك بعض الأفدنة بأسعار معقولة على مقربة من هنا، على ما يبدو أنها مسكونة أو غير مستعملة كثيرًا، واستغللت هذه الفرصة لأعلن عن وجودي لكم أيها الرفاق.

تشكلت موجة إلى جانب الرجل الغريب، حالة انسحاب، افترضت أدي أن سكان البلدة لم تعجبهم فكرة اقتحام رجل من مدينة كبيرة في الشمال لكنيستهم، حتى يسلبهم أرضًا رخيصة. لم تكن البلدة ضاربة في عمق الجنوب، لذلك جل ما عرفوه عن الانتهازيين من سكان الشمال لم يتجاوز حفنة من الرسوم الكاريكاتورية السيئة المطبوعة في جرائد الأحد، لكنهم فهموا الإشارات. خمنت أدي من نبرة ردودهم المتمتمة أنهم يماطلونه:

«لا يا سيدي، لا توجد أراضٍ في الأنحاء، لا بد وأن تبحث في مكان آخر».

بدأ تجمع الناس في الرحيل، ولحقت أدي بعمتها ليزي بينما يسيرون على ممشى الكنيسة. كان الرجل الغريب لا يزال يبتسم باحتقار مرسل إلى الجميع غير عابئٍ، توقفت أدي.

– لدينا منزل في ملكيتنا يعرف الجميع أنه يعج بالأشباح، ولقد رأيت واحدًا بنفسي، بالأمس فحسب، لكنه ليس للبيع.

أخبرت أدي الرجل الغريب، ولم تعرف السبب، باستثناء أنها أرادت نفض العجرفة عنه وإثبات أنهم ليسوا قومًا فقراء ريفيين سيبيعون أرضهم بسعر رخيص بناءً على خرافات واهية، وربما لأنها فضولية ومتعطشة لاختلاف الرجل العالمي.

– أهو كذلك الآن؟

ابتسم الرجل لها بطريقة لا بد وأنه ظنها ساحرة، واقترب منها:

– في هذه الحالة، اسمحي لي أن أتمشى معك إلى الخارج.

وجدت أدي يدها معلقة في كُمّ بدلته، وقدمها تتعثر إلى جانبه، كانت عماتها قد خرجن بالفعل، ومن المحتمل أنهن يهوينَ على أنفسهن ويثرثرن.

- حسنًا، ما طبيعة تلك الأشباح؟ وماذا رأيتِ بالتحديد؟

لكن رغبتها في الحديث إلى الرجل كانت قد تلاشت، سحبت يدها بعيدًا، تهز كتفها متجهمة كما يفعل المراهقون. انسحبت دون أن تنبس ببنت شفة حتى لاقت عيناها عينيه، كانتا بلون الأقمار أو العملات المعدنية، باردة بوضوح لكن مغرية نوعًا ما، كما لو أنهما تمتلكان قوة الجاذبية الخاصة بهما.

حتى بعد مرور سنوات، وهي متكورة إلى جانبي في دفء شمس بعد الظهيرة الباعث على التراخي، لا تزال أدي تقشعر قليلًا عندما تصف نظرته.

وهو يقول: «أخبريني عن الأمر» تنهد الرجل الغريب، وأدي أيضًا.

- حسنًا، كنت في طريقي إلى الكوخ القديم دون سبب، ووقف هناك فتى شبح منتظرًا، أو على الأقل هذا ما ظننته في البداية. نظرًا إلى كونه أسود ويرتدي ملابس مضحكة ويتحدث بلغات غريبة، لكنه لم يأت من الجحيم أو أي شيء من هذا القبيل. لا أعرف من أين ينحدر بالضبط، باستثناء أنه انتهت به الحال خارجًا من باب كوخنا، وأنا سعيدة أن ذلك حدث، لقد أعجبت به، وأعجبتني يداه.

أغلقت أدي فمها وهي تترنح وتلهث.

ارتسمت الابتسامة التي تفتقر إلى السحر على وجه الرجل الغريب مجددًا في أثناء حديث أدي، باستثناء أن نوعًا من السكون المفترس يطل منها.

- شكرًا جزيلًا يا آنسة...

- أديلايد لي لارسن.

ابتلعت ريقها ورمشت عيناها:

- اعذرني يا سيدي، عماتي ينادينني.

خرجت من أبواب الكنيسة دون أن تنظر خلفها إلى الرجل الغريب في بدلته الأنيقة. شعرت أن عينيه تشبهان زوجًا من العملات المعدنية الملتصقتين بمؤخرة رقبتها.

ونظرًا إلى رقة القلب الحقيقية التي تتمتع بها عماتها، لم يتخذ عقاب أدي ألوانًا مختلفة قط، إذ احتجزت لليومين التاليين في الغرفة العليا حيث ينمنَ جميعًا -فيما عدا ماما لارسن التي لا تنام أكثر من قيلولة عشوائية في أوضاع

منبسطة متنوعة في الطابق الأسفل-. استقبلت أدي هذا الاحتجاز بضيق صدر، فنساء عائلة لارسن سيقضين تلك الأيام تسكنهن الجلبة والصياح، كأن منزلهن يستضيف روحًا شريرة غريبة الأطوار، لكن لم تبد أدي أي مقاومة حقيقية؛ ففي اعتقادها، من الأفضل تهدئتهن وجعلهن يشعرن بالرضا عن أنفسهن قبل أن تخرج من النافذة وتنزلق أسفل نبتة العسلة في مساء اليوم الثالث. في يوم الاثنين، زودنها بسلة من الملابس النظيفة لتطويها، وعدة رزم من الملابس الداخلية الممزقة لتصلحها، لأن العمة ليزي أصرت أن النوم في السرير طوال اليوم هو مكافأة وليس عقابًا، وقالت إنها ربما تهرب مساء الغد هي الأخرى، حتى يحبسْنها في الأعلى لتنال قسطًا من الراحة. في موعد الغداء، تصبح الشقة زلقة بسبب رائحة قلي اللحم المقدد والحبوب. أسقطت أدي الإنجيل على الأرض لتذكرهن بإحضار شيئًا لتأكله.

لكن لم تظهر أيٌّ من عماتها. كان هناك طرْقٌ سلطوي على الباب الأمامي، أعقَبَهُ صمتٌ مندهشٌ من خمس نساء لسنَ معتاداتٍ استقبال الزوار، لدرجة أنهن لم يعرفن ماذا يفعلن بعد أن يطرق أحدهم الباب، ثم تردد صوت سحب المقاعد على استحياء وبعض الجلبة وصرير الباب داخليًّا.

رقدت أدي على الأرض وضغطت بأذنها على الألواح المصنوعة من الصنوبر، لم تسمع شيئًا سوى رغاء رجل غريب في مطبخهم، وأصوات خمس نساء تعلو وتهبط حوله مثل سرب من طيور النهر المذعورة.

وبمجرد أن دوّى نحو الأعلى صوت ضحكة من القلب، جوفاء كأسطوانة تدرب عليها صاحبها جيدًا من قبل، فكَّرَتْ أدي في رجل المدينة الكبيرة الذي حضر القداس، وشعرت بظلمة غريبة؛ خوفًا من شيء بلا اسم يلوح في الأفق.

غادر الرجل، وأُغلق الباب، وتعاظمت زقزقة العمات إلى شيء يشبه النقيق. مرت ساعة أو أكثر قبل أن تُحضر العمة ليزي طبقًا من الحبوب الباردة.

سألت أدي:

- من كان يطرق الباب؟

كانت لا تزال راقدة على الأرض، بعدما وجدت نفسها مشلولة بسبب مزيج من التعب والقلق.

- لا تشغلي بالك أيتها المتطفلة، فقط بعض الأخبار الجيدة.

بدت ليزي متعجرفة قليلًا عندما قالت ذلك، مثل امرأة تخفي مفاجأة كبيرة، لو كانت واحدة من عماتها الأخريات، لتنمرت عليها أدي لتحصل على مزيد من المعلومات، ولكن التنمر على العمة ليزي أشبه بالتنمر على جبل، باستثناء أن الجبال لا تضربك عقابًا على وقاحتك. انقلبت أدي على ظهرها وشاهدت أشعة الشمس تمتد عبر سقف العلية، تملأ الأخاديد بين العوارض الخشبية. تساءلت أدي كيف ستبدو الشمس في عالم آخر، وإن كانت حقًّا هناك عوالم أخرى لتراها، وقد بدأت الأشياء التي أخبرها بها الفتى الشبح تتلاشى وتفنى بالفعل.

في صباح اليوم الثالث، استيقظت أدي على ثقلٍ في أطرافها ينذر بالشر، بينما لا تزال عماتها وجدتها يغطُطنَ في نوم عميق حولها في بحر من الألحفة والأجساد النسائية. أشرقت الشمس في تردد وكآبة، متباطئة في السطوع، جلست أدي متوترةً بين عمّاتها، بينما يرتدين ملابسهن، متمنيةً لو أنها خرجت من النافذة وذهبت إلى الحقل القديم بالفعل.

طقطقت أدي عظامها ونال منها الإجهاد ونقرت بقدميها على الألواح الأرضية، في حين كانت الألواح العليا مكتومة ورطبة بفعل تنفسهن في أثناء النوم.

قالت ماما لارسن معلنة:

- سنذهب إلى المدينة اليوم.

وأشارت إلى القبعة التي تعتمرها في المدينة، وهي قلنسوة بيضاء ضخمة ابتاعتها في وقت ما من خمسينيات القرن الثامن عشر، وعلى نحو متزايد كانت تشبه وتفوح منها رائحة أرنب محشو.

- لكنك ستبقين في مكانك يا أدي، على خلفية الأزمة القلبية التي أصبتِنا بها.

رمشت أدي ثم أومأت برأسها في خضوع، لأنه بدا من الأدب التمسُّك بخيال أنها ستنفِّذ تعليماتهنَّ.

كانت تنتفض بالرغبة في الوجود في عالم آخر، بحلول الوقت الفعلي لرحيل كل نساء آل لارسن، إذ يستغرق الأمر أمدًا طويلًا من إثارة الجلبة

بالفساتين والجوارب، يعقبه أمد أصغر في الحظيرة يقنعن خلاله البغال بارتداء اللجام ودفع العربة قبل أن يرحلن بالفعل. تناولت أدي تفاحة من ثمار شهر سبتمبر والمعطف الذي ترتديه عمتها ليزي في العمل، ثم غادرت في مراوغة تشبه الركض.

لم يكن هناك أحد ينتظر في الكوخ القديم، في الواقع، لم يكن هناك كوخ قديم لينتظر فيه أحد؛ كان الحقل فارغًا، ساكنًا، مقفرًا سوى من بعض الغربان العابسة بالإضافة إلى صفٍّ من الأوتاد الحديدية الجديدة المثبتة في الأرض.

أغلقت أدي عينيها في مواجهة دوار مربك مفاجئ متعثرة نحو الأمام، عثرت على ركام خام لخشب محطم حيث كان ينتصب الكوخ، كما لو أن يدًا عملاقة نزلت من السماء عرضيًّا لتطيح به. لم يتبق شيء من الباب سوى شظايا ملطخة بالأشنة.

كانت المصابيح مضاءة عبر النوافذ بحلول وقت وصولها إلى البيت، وعادت البغال إلى المرعى وقد بدا عليها التعب ولطخات العرق، ويمكن لأدي سماع ثرثرة وضحكات عماتها المفعمة بالرضا عن النفس، وبمجرد ما فتحت الباب توقف الضحك.

وقفت خمستهن مجتمعات حول طاولة المطبخ يبدين إعجابهن بحزمة من صناديق التسوق لونها قشدي مقلم، أنيقة، تناثرت أوراق التغليف حول أدي مثل غيوم مجعدة، وتورَّد خدًّا كلِّ امرأة منهن بفعل متعة سرية، وحملت ابتساماتهن هالة غريبة تليق بفتيات صغيرات.

- أديلايد لي، أين...

تساءلت أدي:

- لماذا توجد أوتاد مسح الأراضي في حقلنا؟

رأت أن كل واحدة من قريباتها ترتدي ملابس أكثر أناقة من المعتاد في ذلك الصباح، مع وفرة من الأوشحة المخملية وحتى الحدبات الغريبة للطيات تحت التنورات الملونة، في حين ترتدي أدي فستانًا ملطخًا بالطين وجديلتها متشابكة، شعرت فجأة أنها بعيدة عنهن كأنها وعمّاتها كن يقفن في طرفين متقابلين لحجرة ضخمة.

أجابت ماما لارسن:

- حالفنا بعض الحظ أخيرًا.

صنعت يدها إشارة ملكية عند طاولة المطبخ.

- جاء إلينا رجل المدينة الكبيرة وعرض علينا مبلغًا مناسبًا لقاء حقل القمح القديم، مبلغ جيد للغاية.

قهقهت العمات.

- ولم يكن هناك أي سبب منطقي لنرفض عرضه، لقد قدم الأموال نقدًا، كلها مخبأة في جيوبه، ووقعت العقد هنا وهناك، فعلى أي حال، ماذا يمثل لنا حقل مكسوٌّ بالعشب؟

بدت الجملة الأخيرة وكأنها قيلت عدة مرات بينهن خلال اليوم الأخير.

تقدمت العمة ليزي تحمل صندوقًا:

- لا تتجهمي يا أديلايد، انظري، كان في نيتي الاحتفاظ به لعيد ميلادك، ولكن...

فتحت الصندوق لترى أدي فستانًا قطنيًّا طويلًا باللون الأزرق الأرجواني الفاتح:

- ظننت أنه سيتماشى مع لون عينيك.

اكتشفت أدي أن صوتها قد خذلها تمامًا، ربتت يدَ ليزي، آملة أن يظنُنَّ أن الامتنان قد غلبها، واندفعت إلى أعلى قبل أن تحفر الدموع طرقًا غادرة على وجنتيها.

زحفت أدي مثل حيوان إلى القلب المهترئ لسريرها المعلَّق، شعرت كأن جراحها مكشوفة في الهواء الطلق، كأن عشب الحقل قد نمت له أطراف حادة، تقطع ذلك الجزء الطفولي منها الذي آمن بالمغامرات والسحر، أطالت البقاء إلى جانب ركام الكوخ طوال اليوم، تعرف أن الفتى الشبح لن يظهر ولكنها انتظرت على أي حال.

ربما لم يكن هناك أي عالم آخر، وهي محض فتاة صغيرة وحيدة خرقاء، ألفت قصة عن فتى شبح وعالم آخر لتخلق رفقةً لنفسها، ربما لم يكن هناك

أيّ شيء سوى عالم جدتها وعماتها الملتزم بالقواعد، محسوسًا مثل خبز الذُّرَة وقذرًا ومملًّا تمامًا.

كانت قد أوشكت على تصديق الأمر، لكنها عثرت على شيء جديد بداخلها، بعض البذور الجامحة المدفونة في صدرها، التي لا يمكنها تقبل العالم كما هو.

كما ترى، الأبواب تتكون من عدة أشياء، تصدعات وشقوق وطرق بينية، ومغامرات وحدود، لكن قبل كل شيء، الأبواب هي التغيير[1]، عندما تنسل الأشياء بينها، مهما كانت صغيرة أو بسيطة، يتعقبها التغيير مثل دلافين تلحق بأثر السفينة، لقد استحوذ التغيير على أديلايد لي بالفعل، ولم يعد في وسعها الهرب.

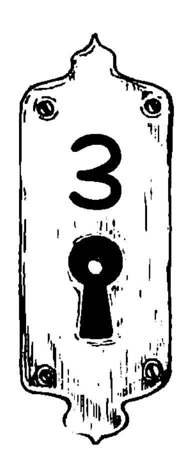
وفي تلك الليلة، بينما ترقد تائهة في سريرها بقلب نصف مكسور، اختارت أدي الإيمان، آمنت بأمر مجنون لا يشبه أي شيء آخر، بشفاه الفتى الجافة في مقابل شفاهها تحت الضوء الخافت، باحتمالية وجود أماكن متصدعة مفتوحة في العالم قد تتسرب من خلالها أشياء جميلة وغريبة.

عندما آمنت أدي، شعرت أن الشكوك المتفرقة التي ساورتها خلال صباها تتهاوى. كانت مثل كلب صيد عثر أخيرًا على الرائحة التي يتمناها، وبحار تائه تسلَّمَ بوصلة فجأة. إذا كانت الأبواب حقيقية، فستسعى خلفها، سواء كانت عشرة أم عشرة آلاف، حتى تسقط في عشرة آلاف عالم آخر شاسع.

ويومًا ما قد يقودها أحدها إلى مدينة بجانب البحر.

---

(1) هذه النظرية، موضحة في المقدمة باعتبارها الاستنتاج رقم ثلاثة، مبنية على عقود من البحث الميداني، لكنها أيضًا على نحو غير مباشر مدعومة بعدة أعمال في المعرفة الغربية. على سبيل المثال، تأمل يستوريا مونجالوروم، عمل مرموق عن الاكتشاف الأوروبي المبكر لرحلة جيوفاني دا بيان دل كاربين عن رحلته إلى الإمبراطورية المغولية في أربعينيات القرن الثالث عشر. يفترض كاربين أن تغييرًا كبيرًا حدث بين التتار على مدار العقود السابقة، ولا يمكن ردها إلى أسباب منطقية. نقل أسطورة مغولية شهيرة أن الخاقان اختفى لبعض الوقت في طفولته، بينما يعبر بابًا ملعونًا في كهف، ولم يعد سوى بعد مرور سبع سنوات. ربما يفترض كاربين أنه قضى وقتًا في عالم غير عالمه، وعاد حاملًا معه الحكمة الشنيعة اللازمة لاحتلال القارة الآسيوية. ربما لا يمكن للمرء العبور من باب، والعودة خلاله دون أن يغير العالم.



باب يقود إلى أي مكان

هل تعرف شعور الاستيقاظ في غرفة غير مألوفة، تجهل كيف وصلت إليها؟ لبرهة، تنجرف مع التيار فحسب، تتدلى في عالم مجهول سرمدي، مثل سقوط أليس اللانهائي في حفرة الأرنب.

لقد استيقظت في كل صباحات حياتي تقريبًا في تلك الغرفة الرمادية الصغيرة في الطابق الثالث من منزل لوك، الألواح الأرضية التي ذهبت الشمس بلونها، ورفّ الكتب الهزيل المكتظّ بحزم من الكتب الورقية، وباد ممدد إلى جانبي مثل مدفأة كثيفة الشعر، كل هذه الأمور مألوفة لدي مثلما آلف جلدي، لكن، لوهلة مطولة، لم أدرك تمامًا أين أنا، لا أعرف لماذا توجد آثار ملح متقشر أسفل خدَّيَّ، لا أدري لماذا أشعر بفراغ مؤلم تحت ضلوعي وكأنما اقتلع مني شيء حيوي في أثناء الليل، لا أعرف لماذا يوخزني طرف كتاب في ذقني.

تذكرت الكتاب أولًا، حقل مكسو بالعشب، فتاة وشبح، باب سحري يقود إلى عالم آخر، وصدى شعور بالألفة، كما لو أنني سمعت القصة من قبل ولا أستطيع تذكر النهاية، كيف انتهى الحال بمثل هذا الشيء في صندوقي الأزرق المصري؟ ومن كتبه في المقام الأول؟ ولماذا أشعر أن أدي لارسن شخص صادقته في طفولتي ثم نسيته؟ -يمكنني الشعور بذاتي أنجذب باستماتة تجاه هذه الألغاز الممتعة، كما لو أن شيئًا آخر يحوم على حدود بصري، ينتظر حتى ينقض إذا نظرت إليه مباشرة-.

صدر صوت حفيف من سرير جاين في طرف الغرفة:

- جانيوري، هل أنتِ مستيقظة؟

شيء ما حيال صوتها، تردد غير معهود، لين فزع، دفعني إلى التفكير، إنها تعرف.

ثم تعرف ماذا؟

ثم تذكرت، توفي أبي. نهض الشيء الجبار البارد من الظلال، والتهمني بالكامل، وبات كل شيء نوعًا ما رماديًّا ومملًّا وبعيدًا.

أصبحت قصتي عن المغامرة والغموض لا شيء سوى كتاب مغلف بالجلد مهترئ مجددًا، سمعت جاين تنهض، تبسط جسدها، وترتدي ملابسها استعدادًا لبدء اليوم، تملكني شعور غامض بأنها ستقول لي شيئًا، شيئًا للمواساة أو التعزية، والفكرة كانت مثل فرشاة من السلك تحك جلد مخدوش. أغلقت عينيَّ بقوة وضممت باد، ثم سمعت صوت صرير نافذة تُفتح، وتلاعب بشعري نسيم دافئ ثقيل الندى. قالت جاين بلهجة معتدلة:

- لنخرج، هيا، إنه صباح لطيف.

يا لـه من اقتراح عاديّ يليق بصباح يوم السبت، كان أحد طقوسنا المفضلة، الخروج إلى الحدائق بسلة بسكويت، وكمية من الكتب الورقية، ولحاف دائمًا ما فاحت منه رائحة العشب نظرًا إلى استعماله المستمر كبساط للنزهة.

التفكير في الأمر الآن، الهدوء المسالم، وصوت اليعسوب الدافئ الناعس، يشبه التفكير في ميناء آمن خلال العاصفة. فليباركك الرب يا آنسة جاين إيريمو.

اكتشفت أن بإمكاني الجلوس والوقوف والقيام بكل نشاطاتي الصباحية، فلقد اتضح أنك بمجرد أن تنطلق، تحافظ العادة والذاكرة على حركة جسدك في الاتجاهات الصحيحة، مثل ساعة أدير ملفها حتى النهاية، تدق بإخلاص عبر الثواني.

ارتديت ملابسي عشوائيًا، جوارب مرقعة عند الكعبين، تنورة سادة تميل إلى اللون البني، سترة بلون الفاوانيا لا تصل أكمامها إلى رسغي، تحاشيت قرصات باد الحماسية، وسحبت فرشاة في شعري الذي جن جنونه -راودني الأمل سرًّا أن يروِّضَ البلوغ شعري، ولكن بدلًا من ذلك ألهمه نحو ارتفاعات أعلى لم يصل إليها من قبل -.

بحلول لحظة خروجنا من الغرفة، كنت قد صرت في حالة طبيعية كاذبة وهشة، ثم تعثرت في طرد ينتظرني في الردهة.

كان صندوقًا مربعًا بياضه فائق، أدركت أن مصدره لا بد أن يكون واحدًا من المحلات الخاصة بالأغنياء في نيويورك التي تُكتب شعاراتها بخط ذهبي، ولها نوافذ زجاجية برّاقة. أُسنِدَت بأناقةٍ ملاحظةٌ أعلى الصندوق:

فتاتي العزيزة..

على الرغم من أنكِ ربما تشعرين بتوعُّك، طلبت حضورك إلى حفل الليلة. أود منحك هدية عيد ميلادك.

شُطبت عدة أسطر هنا، ثم:

تؤسفني خسارتك.

كورنوليوس لوك *(سي. إل)*

ملاحظة: صفّفي شعرَكِ.

لم يُملِ لوك هذه الرسالة على سكرتيرته، كانت تلك نقوشه الهندسية، رؤيتها أشبه بالشعور بعينيه الباردتين تضغطانني مجددًا، «اقبلي الدعوة»، وبدا أن الشيء الأسود البارد يلفُّ نفسَهُ بإحكام حولي.

قرأت جاين الملاحظة من فوق كتفي، هزلت شفتاها وتصلبت مثل سنتٍ.

- على ما يبدو، لا يمكن لأي شيء إنقاذك من حفل الجمعية.

الحفل السنوي، الذي كنت أخشاه لأسبوع أو اثنين، موعده الليلة، لقد نسيته، تخيلت نفسي أعبر خلال حشود من البيض الثمالى، متجاوزة رجالًا يضحكون بصوت عال للغاية، دلقوا كؤوس الشمبانيا الخاصة بهم على حذائي، متمنيةً لو أستطيع مسح أثر أعينهم النزقة عن جلدي. هل يعرفون بأمر والدي؟ هل سيهتمون؟ شعرت بالملاحظة ترتجف في يدي.

انتزعتها جاين مني وطوَتْها في جيب تنّورتها.

- لا عليكِ، ما زلنا نملك بعض الساعات.

ودست يدي تحت مرفقها، وقادتنا طابقين نحو الأسفل، عبر المطبخ حيث يكون الطهاة ضجرين ومتعرّقين للغاية ليلاحظوا أننا نخطف الهلام واللفائف وإبريق قهوة، ثم نخرج إلى مروج منزل لوك التي لا تشوبها شائبة.

أولًا كنا نتجول، عبر الحدائق المُحاطة بسياج، حيث ينشغل عمال الحدائق بقتل أيّ شيءٍ يبدو مفعمًا بالحيوية أو جامحًا، وبمحاذاة البحيرة الكدرة، حيث يصيح مالك الحزين بضيقه على باد، وتنقر الأمواج على الشاطئ. حتى ينتهي بنا الأمر على إطلالة عشبية بعيدة بما يكفي عن المنزل لدرجة أن مجزات العشب لم تمسها، وكقماشة خضراء مجعَّدة انبسط أمامنا الريف.

سكبت جاين القهوة لنفسها، وانغمست على الفور في الكتاب السابع من سلسلة توم سويفت[1]، -تحولت جاين من التشكُّك إلى الإدمان، فيما يخصُّ الخيال الرخيص التسلسُليّ، وبالتالي فذنب صامويل في فترة الصبا حصد ضحية جديدة-. لم أقرأ أي شيء، رقدت فحسب على اللحاف أحدق إلى قشر البيض الرقيق في السماء، تاركة أشعة الشمس تتجمَّع وتزحف على جلدي.

---

(1) توم سويفت: هو الشخصية الرئيسية في سلسلة خيال علمي وروايات مغامرات تركز على العلوم والاختراع والتكنولوجيا. نُشرت السلسلة أول مرة في عام 1910، وتضم أكثر من 100 مجلد.

أكاد أسمع السيد لوك يهمس في أذني: *لا تسدين لبشرتك أي صنيع يا فتاة*. والدي لم يبالِ قط، أردت ألا أفكر في والدي، أردت التفكير في شيء ما، تقريبًا كل شيء عداه.

- هل وددت الرحيل من قبل؟

قفز السؤال من فمي قبل أن يتسنّى لي الوقت لأفكر في مصدره.

وضعت جاين كتابها على اللحاف كأنه صقر متباعد الأرجل وتأملتني.

- الرحيل عن أي مكان؟

- لا أعرف، منزل لوك، فيرمونت، كل شيء.

ساد صمت لفترة قصيرة، أدركت خلالها شيئين في نفس الوقت: الأول، أنني أنانية للغاية، فلم أسأل جاين قط إذا أرادت العودة إلى وطنها، وثانيًا، لا يوجد في العالم ما يمنعها بعدما رحل أبي ومعه راتبها الأسبوعي. الفزع جعل نَفَسي ضيقًا ومتلاحقًا، هل سأخسر جاين أيضًا؟ هل سأصبح وحيدةً تمامًا؟ بأيّ سرعة؟

تنهدت جاين مليًّا.

- أشتاق إلى وطني... أكثر مما يمكن أن أقول. أفكّر فيه في كل لحظة استيقاظ، لكنني لن أتركك يا جانيوري.

بدا وكأن لفظ «لكنني» خفيٌّ معلَّقٌ بيننا فيما يُشْبِه الشبح، أو ربما كان لفظ «لن». وددت البكاء والتعلق بتنّورتها، متوسلة إليها أن تبقى إلى الأبد، أو أن أرجوها لأذهب بعيدًا معها.

لكن جاين أعفت كلتينا من الحرج وسألت بلطف:

- هل تودّين الرحيل؟

ابتلعت ريقي، مخفيةً رعبي بعيدًا حتى وقتٍ ما في المستقبل عندما أصبح قوية بما يكفي لأواجه الأمر.

أجبت:

- نعم.

وعندما تفوهت بها أدركت أنها حقيقية. أردت آفاقًا مفتوحة على مصراعيها وأحذية بالية وأبراجًا نجمية غريبة تلف فوقي مثل أحجيات منتصف الليل، أردت الخطر والغموض والمغامرة، مثل أبي من قبلي.

- أوه، حسنًا.

لقد بدا لي دائمًا أنني سوف أريد هذه الأشياء منذ كنت طفلةً صغيرةً تخربش في مفكّرتها الصغيرة، ولكنني هجرت تلك الأحلام الخيالية مع طفولتي، إلا أنه اتَّضَحَ أنني لم أهجرها بل نسيتُها فحسب تركتها تستقر في أعماقي مثل أوراق سقطت عن الشجر.

ثم ظهرت الأبواب العشرة الآلاف وأطلقها في الهواء مرة أخرى، فيما يشبه حالة من صخب الأحلام المستحيلة.

لم تقل جاين أي شيء، حسنًا، بالكاد احتاجت إلى ذلك، فكلانا يعرف مدى استحالة مغادرتي لمنزل لوك، فالشابات اليتيمات صاحبات البشرة مختلفة اللون لا يبلين بلاءً حسنًا في العالم الكبير بلا مال أو إمكانات حتى ولو كُنَّ «شخصًا من فصيلة نادرة تمامًا». وبرحيل والدي، كان السيد لوك ملجئي ومرساي الوحيد. ربما سيشفق عليَّ ويمنحني وظيفة سكرتيرة أو ناسخة في شركة «دبليو. سي. لوك وشركاؤه»، وسأتحول إلى شخصٍ مملٍّ خجولٍ وأضع نظارة سميكة العدسات على أنفي، ويصبح كلا رسغيَّ ملطَّخَين ببقع الحبر الدائم. ربما يسمح لي بالبقاء في غرفتي الرمادية حتى أصبح عجوزًا وأفنى ثم أتحوَّل إلى نصف شبح يسكن منزل لوك ويرعب الضيوف.

بعد مرور بعض الوقت، سمعت الصوت المعتاد لجاين تقلب صفحات كتاب «توم سويفت بين صانعي الألماس». حدقت في السماء وحاولت صرف تفكيري عن المغامرات التي لم أحظَ بها، أو الأب الذي لن أراه مجددًا، أو الشيء الأسود البارد الذي لا يزال ملتفًّا حولي، محولًا شمس الصيف إلى شيء قاتم يفتقر الحيوية. حاولت ألا أفكر في أي شيء على الإطلاق.

تساءلت إذا سبق وكانت هناك فتاة في السابعة عشرة من عمرها أقل رغبةً مني في حضور حفلٍ فخمٍ تلك الليلة.

وقفت عند حافة باب الردهة لعدة دقائق أو ربما لقرن، مشجعةً نفسي لأتقدم نحو الضباب الكيميائي المكون من العطر ودهان الشعر، اجتاح

المكان موظفو الخدمة بصينيات لامعة عليها كؤوس شمبانيا ومقبلات تبدو سمينة، لم يتوقفوا ليقدموا لي أي شيء، لكنهم ببساطة قاموا بمناورات حولي كأنني زهرية في غير موضعها أو مصباح غريب الشكل.

سحبت نفسًا، مسحت راحتي المتعرقة في فراء باد، ثم انسللت إلى الردهة، سيكون أمرًا مبالغًا في دراميته إذا ادعيت أن المكان بأكمله وقف بلا حراك، أو أن الصمت ساد كما يحدث في الكتب التي أقرؤها عندما تدخل أميرة قاعة الرقص، ولكن دوى حولي نوعٌ من الصمت كما لو كانت ترافقني رياح خفية، تعثرت بعض المحادثات عندما التفت المشاركون بها نحوي، بحواجب نصف مرفوعة وشفاه متكورة.

ربما كانوا يحدِّقون إلى باد الذي يقف ثابتًا واثقًا إلى جانبي. من الناحية التقنية، كان باد ممنوعًا من المناسبات الاجتماعية إلى آخر الزمان، لكنني راهنت أن لوك لن يثير جلبة علنًا وأن باد لن يصيب أحدًا بخطورة كافية تتطلَّب تقطيب الجرح. وعلى أي حال، لم أكن واثقةً أنني أستطيع حمل نفسي جسديًّا على مغادرة غرفتي دون وجوده إلى جانبي. أو ربما كانوا يحدقون إليَّ، لقد رأوني جميعًا من قبل أتتبع ظل لوك في كل حفلات الجمعية ووليمة عيد الميلاد، يتجاهلني الآخرون أو يدللونني بالتناوب. «ما أجمل فستانك يا آنسة جانيوري!» رددوا ذلك لي، ضاحكين بأسلوبٍ يُشْبِه الطيور، وهو أمرٌ يليق بزوجات موظفي البنوك الثريات.

«يا إلهي أليست لطيفة. أين عثرت عليها مجددًا يا كورنيليوس؟ زنجبار؟» لكنني كنت فتاة صغيرة حينها، شيء مسالم لا ينتمي إلى معسكر بعينه، محشور في ملابس دُمَى ومُدرَّب على الحديث اللبق. أما الآن أنا لست طفلة صغيرة، لذلك ذهب انبهارهم، طوال فصل الشتاء، مررت بكل التغيرات الغامضة الكيميائية التي تحول الأطفال فجأة إلى بالغين غريبي الأطوار، أصبحت أطول، أقل نعومة، كثيرة الشك، وجهي المنعكس في المرايا المذهبة كان غريبًا أجوف بالنسبة إليَّ. ثم جاء دور هدايا السيد لوك، قفازات حريرية طويلة، عدة حلقات من اللآلئ الوردية، ورداء منسدل من الشيفون باللونين العاجي والزهري كان باهظًا جدًّا لدرجة أنني رأيت نساءً يحدقن بينما هنَّ غارقات في حسابات مُشككة فيما يرينه. لقد شننت حربًا واجبةً على شعري

الذي لا يمكن هزيمته سوى باستخدام مشط ساخن أو علاج السيدة ووكر الترطيبي المذهل، لا تزال فروة رأسي تئزُّ قليلًا.

عادت المحادثات إلى الحياة مترنحةً متعثرةً، وعلى نحوٍ حاسمٍ استدارت الأكتاف والظهور، وبرزت المراوح المزركشة مثل دروع في مواجهة دخيل ما، انزلقت أنا وباد حولهم ونصبنا نفسينا تمثالين غير متناسقين في زاويتنا المعتادة، تجاهلنا الضيوف بلطف، وكنت أملك حرية الانخفاض والتراجع وأنا مرتديةٌ الفستان ضيق الأزرار لأشاهد الجمع المتلألئ.

كالمعتاد، كانت الحفلة عرضًا مذهلًا، لقد صقل موظفو المنزل كل مصباح وشمعدان حتى أشعت الغرفة بضوء ذهبي بلا مصدر، وشُمِّعَت أرضيات الباركيه حتى أصبحت نعومتها تشكّل خطرًا على الحياة، انبثقت زهور الفاوانيا من أوعية ضخمة مصقولة، وتكدست فرقة موسيقية صغيرة بين زوج من التماثيل الآشورية، تأنق وتألق كل أفراد العائلة المالكة المزيفة في إقليم نيو إنجلاند لبعضهم بعضًا، ويتأكدون من هندامهم مئات المرات في المرايا اللامعة.

لاحظت الفتيات في مثل سني يتفرقن عبر الحشد، متوردات الخدود، وشعورهن متدلية في تموّجات حريرية مثالية، عيونهن تندفع متأملة عبر الغرفة -صفحات النميمة في الصحف المحلية دائمًا ما تنشر عمودًا يضم العزاب المؤهلين للزواج وشائعات حول ثرواتهم قبل الحفلة-، تصورتهن يدبرن ويخططن لعدة أسابيع، ويتسوقن بحثًا عن الفستان المناسب مع أمهاتهن، ويصففن شعورهن ثم يعدن تصفيفها في المرآة. وها هن الآن، يتوهجن بالوعود والامتيازات، ومستقبلهن مفروش أمامهن في مسيرة لامعة منظمة.

كرهتهن أو كنت لأكرههن لولا ذلك الشيء القاتم عديم الشكل الذي لا يزال يلتف حولي، وكان يصعب الشعور بأي شيء سوى النفور المضجر.

دوى فوق الحشد صوت طقطقة خفيفة؛ فاستدارت الرؤوس مثل عرائس ماريونيت لها تسريحات شعر مهندمة. كان السيد لوك يقف تحت الثريا العملاقة، قارعًا كأسه بملعقة الحلوى ليجذب انتباه الحضور، وبالكاد كان

ذلك ضروريًا، فالسيد لوك دائمًا محط الأنظار وكلمته مسموعة كما لو أنه خلق مجاله المغناطيسي الخاص.

توقفت الأوركسترا في وسط عزف موسيقى منويت الكلاسيكية[1]، رفع لوك ذراعه في تحية ودودة.

- سيداتي سادتي، أعضاء الجمعية الكرام، دعوني في البداية أشكركم جميعًا على القدوم واحتساء أجود أنواع الشمبانيا الخاصة بي.

ضجت القاعة بضحك يطفو على فقاعات الشمبانيا الذهبية.

- بالطبع، نحن هنا للاحتفال بالذكرى الثامنة والأربعين لتأسيس جمعية نيو إنجلاند الأثرية، مجموعة صغيرة من الباحثين الذين -إذا غفرتم غطرستي- يبذلون ما في وسعهم للمساهمة في التطور النبيل للمعرفة الإنسانية.

دوى هذر من التصفيق الحتمي.

- لكننا هنا أيضًا للاحتفاء بشيء أعظم، وهو تطور البشرية نفسها، فمن الواضح بالنسبة إليَّ أن الناس الذين اجتمعوا هنا الليلة هم الشاهدون والأوصياء على حقبة جديدة من السلام والرخاء من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي. نرى سنويًّا انخفاض معدل الحروب والنزاعات، وارتفاع الأعمال والإيمان الصالح، وانتشار الحكومات المتمدنة على حساب الأقل حظًّا.

لقد سمعت الخطبة عدة مرات لدرجة أنني أستطيع إلقاء الباقي منها بنفسي، كيف أن العمل الجاد والتفاني الذي يقوم به أشخاص مثلهم -أثرياء وذوو نفوذ وبشرة بيضاء- طوَّرَ وضع الجنس البشري، وكيف أن القرن التاسع عشر لم يكن شيئًا سوى فوضى وارتباك، وكيف وعد القرن العشرون بالنظام والاستقرار، وكيف يجري اقتلاع عناصر الشقاء في الوطن وخارجه، وكيف يصبح البربريون متمدنين.

---

(1) موسيقى منويت الكلاسيكية: موسيقى راقصة عادة تكون مباشرة ومتناظرة في الشكل، وهي رقصة للنبلاء في وزن ثلاثي. بدأت المنويت في عصر الباروك كرقصة شائعة.

ذات مرة عندما كنت طفلة، قلت لوالدي لا تدع البربريين ينالون منك، كان على وشك المغادرة، حقيبته المتهالكة في يده، والمعطف البُنّي عديم الشكل يتدلَّى من كتفه المحنيَّة. ابتسم لي نصف ابتسامة، وقال:

- سأكون بأمان، لا يوجد ما يسمى بالبربريين.

كان بإمكاني إخباره أن السيد لوك وعدة أطنان من روايات المغامرات التي يكسوها الغبار تختلف مع رأيه، لكنني لم أقل شيئًا، لمس وجنتي بإصبعه ثم اختفى مجددًا.

والآن، اختفى للمرة الأخيرة. أغمضت عينيَّ، وشعرت بالشيء المظلم البارد يحكم قبضته حولي...

جعلني سماع اسمي أشعر بالنفور

- ... تأملوا آنستي جانيوري، إذا أردتم دليلًا.

كان ذلك السيد لوك المفعم بالحيوية والشباب.

انفتحت عيناي فجأة.

- عندما جاءت إلى هذا المنزل لم تكن سوى صرّة بلا أم، يتيمة من أصل غامض، فقيرة للغاية.

كانوا بالفعل ينظرون، التفتت إليَّ موجة عاجية من الوجوه، أعينهم تشبه أيدي تقطف كل اللآلئ. إلى أي شيء بالضبط من المفترض أن ينظروا؟ إلى أنني ما زلت بلا أم أو مال، باستثناء أنني أصبحت الآن بلا أب أيضًا.

أسندت ظهري إلى اللوح الخشبي، متمنيةً أن ينتهي الأمر، أن يفرغ السيد لوك من خطابه، وتعود الأوركسترا إلى العزف وينساني الجميع مرة أخرى.

قام لوك بإشارة آمرة تفيد بأن أذهب إليه:

- لا تكوني خجولةً يا فتاتي.

لم أتحرَّك، اتسعت عيناي فزعةً، وتلعثم قلبي «يا إلهي، يا إلهي»، تخيلتُ نفسي أهرب، أندَفِع متجاوزةً الضيوف لأصل إلى الخارج على المرج، لكن عندها نظرت إلى وجه السيد لوك متوهجًا فخورًا.

تذكرت دفء يديه عندما ضمني، هدير صوته اللطيف، الهدايا الصامتة التي يتركها في الحجرة الفرعونية طيلة هذه السنوات.

ابتلعت ريقي وابتعدت عن الحائط، متعثرة بين الحشد بقدمين أصبحتا في تصلب وثِقَل خشب منحوت. لاحقتني الهمسات، نقرت مخالب باد بصوت عال للغاية على الأرضية المصقولة.

وبمجرد أن أصبحت على مقربة منه، هبطت يد لوك وضمَّتني إليه.

– ها هي ذي! صورة التحضر، البرهان على قوة التأثير الإيجابي.

منح كتفي هزة منعشة.

هل تفقد النساء الوعي حقًّا، تساءلت، أم إن ذلك اختراع من روايات العصر الفيكتوري السيئة، وعروض الصورة مساء الجمعة؟ أو ربما ببساطة ابتدعت النساء الإغماء في اللحظات الملائمة لإرجاء عبء السمع والرؤية والإحساس، لفترة قصيرة فحسب. انتابني شعور بالتعاطف.

– ... يكفي حديثًا عن كل ذلك. شكرًا لكم على مسايرة تفاؤل وحماسة رجل عجوز، ولكننا هنا، كما أعرف، لنستمتع.

رفع كأسه في نخب نهائي، كأس اليشم المنقوشة المفضلة لديه ذات اللون الأخضر الشفاف، هل أحضرها إليه والدي؟ سرقها من مقبرة أو متحف ما، وعبأها في نشارة الخشب، وأرسلها عبر العالم لتمسك بها هذه اليد البيضاء القوية؟

– إلى السلام والرخاء، والمستقبل الذي سنبنيه!

تجرأت أن أرفع بصري إلى الوجوه الشاحبة المتعرقة التي تحيط بنا، وكؤوسهم اللامعة في ضوء الثريا الذي يأخذ شكل المنشور، وتصفيقهم المتكسر حولي مثل أمواج المحيط.

ابتعدت ذراع السيد لوك عن كتفي، وتحدث بصوت خفيض:

– فتاة مطيعة، قابلينا في حجرة التدخين الشرقية عند الساعة العاشرة والنصف، هلّا فعلت ذلك؟ أريد أن أعطيك هدية عيد ميلادك.

صنع بإصبعه دائرة بليدة ليشير إلى «نحن» التي قصدها، وأدركت أن أعضاء الجمعية تجمعوا حوله مثل حيوانات موظ ترتدي بزات، كان من بينهم

السيد هافيمير، يشاهدني مرتديًا قفازات في يديه المتكئتين على عصاه، ويبدو على وجهه اشمئزاز مهذب، تصاعد غضب باد تحت راحتي، وزمجر بصوت منخفض فيما يشبه زلزالًا تحت الماء.

بلا تفكير، ابتعدتُ سريعًا، يتبعني باد بأرجل متصلبة، اتجهت نحو زاويتنا الآمنة الخفية، ولكن يبدو أننا لن نستطيع الوصول، فالحشد يدور ويلتف في أنماط مصيبة بالدوار، بوجوه تزدريني، وابتسامات أوسع مما يجب.

تغير شيء ما، سحبني خطاب لوك لأتوسط المسرح، مثل فيل متبرم دُفِعَ إلى الحلقة الرئيسية في السيرك. شعرت بأصابع تغلفها قفازات تضرب بشرتي بينما أعبر، ثم سمعت قهقهات متقطعة عالية، وسخرية من شعري المشدود المحروق.

صوت ذكوري قريب جدًّا من أذني:

– آنسة جانيوري، أليس كذلك؟

لاح من فوقي وجه أبيض مزرق، شعره الأشقر مملس على جمجُمَتِه، وأزراره الذهبية لامعة.

– أي نوع من الأسماء هذا يا جانيوري؟

أجبت بعناد:

– اسمي.

ذات مرة، سألت والدي ماذا دهاه حتى يسميني تيمنًا بشهر، بل وشهر جامد ينهشه الصقيع مثل شهر يناير، وإذا كانت هناك أسماء أخرى وقعها معتاد يمكنني الحصول عليها بدلًا من اسمي. قال: «إنه اسم جيد» بينما يفرك وشومه. وعندما ضغطت وألححت عليه قال: «أعجب والدتك... معناه».

لا تزعج نفسك بالبحث عن المعنى، قاموس ويبستر يقول: الشهر الأول من العام، يضم واحدًا وثلاثين يومًا، في اللاتينية جانواريوس، وأصلها جانوس اسم إله لاتيني قديم. يا له من أمر تثقيفي.

– الآن لا تكوني فظة! لتذهبي معي في نزهة إلى الخارج، هلّا فعلت؟

نظر إليَّ الولد بشهوانية.

لم أقضِ وقتًا طويلًا مع أشخاص في مثل سنّي، لكنني قرأت ما يكفي من القصص المدرسية لأعرف أن الرجل المهذب لا يفترض أن يأخذ الشابات إلى الخارج بمفردهما خلال ليلة صيفية مظلمة حارة. لكن حينها لم أكن قد أصبحت سيدة بعد، أليس كذلك؟

قلت:

- لا، شكرًا لك.

طرف بعينيه وعلى وجهه تعبير رجل عرف بوجود كلمة لا، ولكنه لم يقابلها في الواقع من قبل. اقترب ومد يدًا رطبة ناحية مرفقي:

- هيا، الآن...

برزت صينية شمبانيا فضية بيننا، وقال صوت منخفض غير ودود:

- هل يمكنني أن أقدم لك شرابًا يا سيدي؟

كان صامويل زابيا مرتديًا زي النادل الأبيض والأسود المجعد.

نادرًا ما رأيته خلال العامين المنصرمين، على الأغلب لأن عربة بقالة زابيا الحمراء حلت محلها شاحنة أنيقة سوداء بكابينة مغلقة ولم يعد في إمكاني التلويح له من نافذة المكتب، مررت بجانب المحل مرة أو مرتين برفقة السيد لوك ولمحت صامويل على نحو مشوّش في الخارج خلف المحل يفرغ أربعة أكياس دقيق من مؤخرة شاحنة، ويحملق إلى البحيرة بنظرة بعيدة حالمة. تساءلت إذا كان لا يزال مشتركًا في مجلة أرجوسي أو إذا تخلَّى عن تلك الخيالات الطفولية.

الآن يبدو واضحًا وحادًّا، كما لو أصبح كليًّا في بؤرة تركيز عدسة كاميرا. لا تزال بشرته تحتفظ بذلك اللون الذهبي القاتم، الشهير على نحو غريب باللون الزيتوني، وعيناه لا تزالان سوداوين لامعتين مثل حجر مصقول.

كانت عيناه مثبتتين في تلك اللحظة على السيد الأشقر، يحدجه بنظرة ثابتة جريئة تحت حاجبين رُفعا في تساؤل مزيف، كان هناك شيء مربك حيال تلك النظرة، شيء غير متذلل على نحو سافر لدرجة أن الشاب تراجع نصف خطوة إلى الوراء، وحدَّقَ إلى صامويل بنظرة تحمل استياء الطبقة العليا التي عادة ما ترسل الخادمين عدوًا لإصلاح الوضع.

لكن صامويل لم يتحرك، لمعت عيناه ببريق طفولي، كما لو أنه يفضل أن يحاول الشاب تأديبه، لم أستطع إغفال الطريقة التي ضغطت بها كتفا صامويل خيوطَ معطف بدلته المتصلب، كيف بدا رسغه قويًّا بينما يحمل الصينية الثقيلة، إلى جانبه ظهر الرجل الأشقر شاحبًا ورخوًا كعجينة صلصال هابطة. فرَّ الفتى الأشقر هاربًا، بشفاه رقيقة متكورة، عائدًا إلى حماية رفاقه.

التفت صامويل نحوي بسلاسة، رافعًا كأسًا ذهبية لامعة:

- لفتاة عيد الميلاد، ربما؟

اعتلى وجهه تعبير لطيف للغاية.

لقد تذكر عيد ميلادي، فجأة أصابني فستاني بالحكة وشعرت بالسخونة.

- شكرًا لك، على، أوه، إنقاذي.

- أوه، لم أكن أنقذك يا آنسة سكالر، كنت أحمي ذلك الولد المسكين من حيوان مفترس.

أحنى رأسه تجاه باد، الذي لا يزال يشاهد الرجل المتقهقر بغضب متصاعد وشفاه متكورة إلى الخلف أعلى أسنانه.

- حسنًا.

ساد الصمت، تمنيت لو كنت على بعد ألف ميل، تمنيت لو كنت فتاة شقراء تدعى «آنا» أو «إليزابيث»، تضحك مثل طائر زنبرك ودائمًا ما تعرف ماذا ستقول.

تجعدت زوايتا عينَيْ صامويل، ثنى أصابعي حول ساق كأس الشمبانيا، كانت يداه جافتين ودافئتين من حرارة الصيف.

- ربما يساعدك هذا.

قال ذلك ثم تبخر بين الحشد. تجرعت الشمبانيا بسرعة لدرجة أن أنفي أزَّ منها. داهمت المزيد من الصينيات الفضية بينما أعبر خلال الردهة، وبمجرد وصولي إلى حجرة التدخين، كنت أطأ بقدمي على نحو دقيق وأحاول التغاضي عن الطريقة التي تدور بها الألوان وتنزُّ عند حافة بصري. حجابي القاتم، ذلك الشيء الخفي الملتف حولي طوال اليوم بدا مرتعشًا.

سحبت نفسًا خارج الباب.

- هل أنت مستعد يا باد؟

أطلق تنهيدة بلغة الكلاب.

كان أول انطباعاتي أن الغرفة انكمشت على نحو ملحوظ منذ آخر مرة رأيتها، لكنني لم أرها قط مزدحمة بمجموعة من رجال يرتدون تيجانًا من الدخان الأزرق ويتحدّثون بصوت منخفض.

اعتبرت ذلك واحدًا من تلك الاجتماعات المهمة الحصرية التي كنت ممنوعة من حضورها، تلك التجمعات الثملة التي يحضرها الرجال في وقت متأخر من الليل حيث تصنع القرارات الحقيقية. كان يُفترض أن أشعر بالسعادة أو الفخر، بدلًا من ذلك، تذوقتُ شيئًا مرًّا في نهاية حلقي.

عطس باد بسبب الدخان الذي تمتزج فيه رائحة السيجار مع الجلد، ثم التفت السيد لوك إلينا.

- لقد جئتِ يا فتاتي العزيزة، تعالي، اجلسي.

أشار إلى الكرسي ذي الذراعين عالي الظهر الذي يتوسّط الغرفة تقريبًا، وحوله يتجمع رجال الجمعية الأثرية كما لو يأخذون موضعهم لرسم بورتريه، حضر هافيمير والسيد إلفين المثير للقلق وآخرون عرفتهم من حفلات وزيارات سابقة، وامرأة ذات شفاه حمراء ووشاح أسود على رقبتها، وشاب بابتسامة متعطشة، ورجل أبيض الشعر ذو أظفار طويلة مموجة. أحاطت بهم هالة من السرية، كأنهم مفترسون يتعقبون ضحيتهم من خلف الأعشاب الطويلة.

جلست على الكرسي بينما أشعر وكأن أحدهم يلاحقني، هبطت يد السيد لوك على كتفي للمرة الثانية تلك الليلة:

- طلبنا حضورك هنا الليلة من أجل إعلان صغير، بعد الكثير من التفكير والمناقشة المتأنية، نود أنا وزملائي أن نقدم لكِ شيئًا نادرًا يسعى نحوه الكثيرون، إنه أمر غير تقليدي، ولكننا نشعر أنه مضمون بـ... أوه، موقفك الاستثنائي يا جانيوري -وقفة درامية- نود أن نقدم لك عضوية رسمية في الجمعية.

طرفت عيناي في وجهه، هل هذه هدية عيد ميلادي؟ تساءلت إن كان يُفترض أن أشعر بالسعادة، تساءلت إذا عرف السيد لوك كم أردت في طفولتي أن أنضمّ إلى ناديه السخيف لأجوب العالم وأخوض مغامرات بينما أجمع أشياء ثمينة ونادرة، تساءلت إذا أراد أبي الانضمام، عاودني مرةً أخرى ذلك الطعم المر، وشيء آخر يحرق لساني مثل جذوة ساخنة. بلعت ريقي:

– شكرًا يا سيدي.

خبطت يد السيد لوك كتفي مرتين في تهنئة نابعة من القلب، وبدأ في خطاب آخر حول العملية التعريفية الرسمية وطقوس معينة وقسم يجب أداؤه أمام المؤسس -انظر كيف يبدو حرف الـ F في كلمة Founder كجندي يلقي التحية-، لكنني لم أكن منتبهة.

تزايدت شدة الاحتراق في فمي، ولساني يغلي، وحجابي الخفي يتفتت إلى رماد وفحم من حولي، وبدت الغرفة كأنها تنبض بالحرارة. قاطعته:

– شكرًا لك.

تردد صوتي ثابتًا بلا نغمة استمعت إليه بانبهار مُنفصل عن الواقع.

– لكنني أخشى أنني يجب عليَّ رفض دعوتكم.

ساد الصمت.

صوت له عيون فضية في رأسي كان يهمس لي «كوني فتاة مطيعة، الزمي مكانك» لكن اضطراب الكحول في دمي أغرقه.

انهرت لاهثة:

– أعني، لماذا يُفترض أنني أريد الانضمام إلى جمعيتكم، حقًّا؟ مجموعة من الأرستقراطيين العجائز الذين يصعب إرضاؤهم، يدفعون المال لرجال أشجع وأفضل منهم حتى يذهبوا ويسرقوا أشياء لأجلهم، وإذا اختفى أحدهم، لا تدّعون حتى الحزن عليه، بل تتابعون طريقكم، كأنما لم يحدث شيء، كما لو كان غير مهم...

لا تدرك حقًّا عدد الأصوات الصغيرة التي يصنعها المنزل، تكتكة ساعة الجد، تنهّدات نسيم الصيف أمام ألواح زجاج النوافذ، تأوه عوارض الأرضية تحت مائة زوج من الأحذية باهظة الثمن، حتى يصيب الذهول حجرة بأكملها

إلى حد التزام الصمت التام. أمسكت بياقة باد كما لو كان هو من يحتاج إلى رادع، أحكم السيد لوك قبضته على كتفي وتحولت ابتسامته السخية إلى شيء يصدر صريرًا ويبدو عليه الألم.

- اعتذري.

قال ذلك وهو يتنفس بالقرب مني.

أطبقت فمي. جزء مني، فتاة السيد لوك المطيعة، الفتاة التي لم تشتك قط، والتزمت مكانها، وابتسمت ثم ابتسمت ثم ابتسمت، أرادت أن ترفسني عند قدمه وتتوسل طلبًا للسماح، لكن الجزء الأغلب مني يفضل الموت على ذلك.

التقت عينا لوك بعينيّ، باردتان بلون الفولاذ تضغطانني كأنهما يدان باردتان أمام وجهي.

- اعذرني.

بصقت. انطلق أحد رجال الجمعية في لحظة من الضحك الساخر.

شاهدت السيد لوك يقاوم ليرخي أسنانه.

- يا جانيوري، الجمعية عتيقة ونافذة ومرموقة...

- أوه، نعم، مرموقة للغاية.

قلت ساخرةً:

- أرقى من أن ينضم إليها أناس كأبي، بصرف النظر عن كمّ القمامة التي يسرقها لأجلكم، وبغض النظر عن كمّ المال الذي تجمعونه من عرضها في المزادات سرًّا، هل بشرتي بيضاء بما يكفي حتى أصبح عضوة، أهكذا يجري الأمر؟ هل يوجد مخطط يمكنني الرجوع إليه؟

كشفت عن أسناني أمامهم.

- ربما يمكن لأحدكم ضمي إلى مجموعة الجماجم خاصته عندما أموت، باعتبارها العنصر المفقود.

هذه المرة، ساد صمت مطبق، كما لو أن ساعة الجد شعرت بإهانة شديدة منعتها من إصدار أي صوت.

- يبدو أنك ربيت نفسًا ساخطةً للغاية يا كورنيليوس.

تكلم السيد هافيميير بينما يشاهد الموقف وتعلو وجهه ابتسامة تقطر خبثًا واضحًا، ويدور سيجار غير مشتعل بين أصابعه المغلفة بالقفازات.

- لقد حذرناك، أليس كذلك؟

شعرت بالسيد لوك يستنشق الهواء، ولم أعرف إذا كان ذلك للدفاع عني أو مهاجمتي، لكنني لم أعد مهتمة، لقد فرغت من الأمر، ومنهم، ومن كوني فتاة مطيعة تلزم مكانها وتشعر بالامتنان تجاه أي كسرة من الكرامة يلقونها في طريقي. وقفت وأنا أشعر بالشمبانيا تفور بشكل مثير للغثيان في جمجمتي.

- شكرًا لكم على هدية عيد ميلادي.

ثم استدرت وخرجت من الأبواب التي يلونها الظلام بينما يسير باد في أعقابي.

ازداد عرق وضجيج وثمالة الحشد، كان الأمر أشبه بالاحتجاز في لوحة لتولوز لوترك[1]، حيث تدور حولي وجوه مضاءة باللون الأخضر تعلوها تعبيرات تشبه الغيلان.

أردت إطلاق باد عليهم بأنيابه وفرائه البرونزي اللامع أردت الصراخ حتى أفقد صوتي، أردت رسم باب على الهواء، باب يقود إلى عالم آخر وأعبر خلاله، تجسدت الصينية الفضية مرة أخرى عند مرفقي، سمعت همسًا محملًا بهواء دافئ عند مؤخرة رقبتي:

- إلى الخارج، الجناح الغربي، بعد خمس دقائق.

ثم تبخَّرَتْ الصينية ورأيت صامويل ينسل عائدًا إلى الحشد الثرثار.

عندما تسللت أنا وباد من باب الجناح الغربي، يراودني شعور بأننا نشبه الهاربين من حفلة راقصة سحرية جحيمية، وجدنا صامويل بمفرده، يستند إلى حائط منزل لوك المحتفظ بحرارته، يداه محشورتان في جيبيه، ورداء النادل الأنيق الخاص به بدا وكأنه عانى مؤخرًا من محاولة هرب، فرابطة عنقه محلولة ومجعدة، وأزرار قميصه غير مربوطة، ومعطفه الأسود غير موجود.

---

(1) تولوز لوترك: رسام وطباع فرنسي، كان انغماسه في الحياة المسرحية الزاهية في باريس نهاية القرن قد أنتج وفرة من الصور المثيرة، الأنيقة والمستفزة للحياة المعاصرة وأحيانًا المنحلة لتلك الأزمنة.

- أوه، لم أكن أعرف إذا كنت ستأتين.

أخيرًا اتسع نطاق ابتسامة صامويل إلى ما بعد عينيه.

- نعم.

لحظات السكون تصبح أكثر احتمالًا في الخارج، استمعت إلى أصوات خنين باد يبحث عبر السياج عن مخلوق ما بائس، وكشط وفحيح إشعال عود ثقاب حيث أشعل صامويل سيجارة ملفوفة بصعوبة، جعلت عينيه تلمعان بلهيب مزدوج.

سحب نفسًا وأطلق زفيرًا من غيمة لؤلؤية.

- اسمعي، أنا... نحن سمعنا بما حدث، للسيد سكالر، أنا آس...

كان على وشك التعبير عن مدى أسفه، وكم كان الأمر تراجيديًّا ومباغتًا وما إلى ذلك، عندما أدركت بوضوح مفاجئ أنني لن أستطيع تحمل الأمر، أيُّ ثورة مخبولة تلك التي سمحت لي بالفرار من الجمعية، فلقد تجمدت وهدأت، لتتركني أشعر بوحدة جارفة.

قاطعته قبل أن يستطيع إنهاء كلامه، مشيرةً فجأة إلى باد:

- لماذا منحتني إياه؟ لم تقل قط.

كان صوتي عاليًا للغاية، يغلب عليه الزيف كممثل فاشل في مسرحية البلدة.

ارتفع حاجبا صامويل، ونظر إلى باد الذي ينهش بسعادة شيئًا في حجم فأر الحقل، ثم هز كتفًا واحدة:

- لأنك كنتِ وحيدة.

أطفأ سيجارته في القرميد الموجود إلى جانبه وأضاف:

- ولا أحب رؤية الناس يواجهون تفوقًا عدديًّا، السيد لوك وتلك المرأة الألمانية العجوز، يا للقرف، كنتِ في حاجة إلى شخص بجانبك، مثل روبن هود احتاج إلى ليتل جون، أليس كذلك؟

لمعت عيناه في وجهي، لطالما جعلته يؤدي دور ليتل جون في أثناء ألعابنا في غابة شيروود، بالتناوب عند الحاجة، بالإضافة إلى دور آلان-أ-ديل[1] أو دور فراير تاك[2].

أشار صامويل إلى باد الذي كان يصدر سلسلة من أصوات السحق المزعجة ليطرد عظام الفأر من حلقه.

- هذا الكلب إلى جانبك.

وتلقائيًّا وبلا تفكير، وجدت نفسي أقترب وأميل ناحيته مثل سفينة تائهة تميل تجاه فنار.

كان صامويل لا يزال يتابع باد.

- هل تمارسين السباحة كثيرًا هذه الأيام؟

رمشت عيناي بينما أنظر إلى وجهه.

- لا.

عندما كنا طفلين، قضيت أنا وهو ساعات نتخبط ونرش الماء في البحيرة، لكنني لم أطأ بقدمي الماء منذ سنوات، كان واحدًا من الأشياء التي فقدتُها بشكل ما، في طريق النضج.

لمحت الحافة المائلة من ابتسامته غير المكتملة:

- أوه، إذًا أنتِ غير مواظبة على التمرين، أراهنك على عملة معدنية أنني أستطيع هزيمتك الآن.

لطالما خسر سباقاتنا، ربما لأنه تعيَّنَ عليه مساعدة عائلته في المتجر، وعازه أوقات الظهيرة اللانهائية في الصيف حينما كنت أتدرب.

قلت باحتشام:

- السيدة لا تراهن.

- ولكن إذا راهنتك، سأكون أغنى منك بمقدار 25 سنتًا.

---

(1) آلان - أ- ديل: إحدى الشخصيات الموجودة في قصص روبن هود.

(2) فراير تاك: واحد من مرافقي روبن هود.

ضحك صامويل، بنبرة صبيانية طائشة لم أسمعها منذ طفولتنا، ورددت عليه بابتسامة أكثر سخفًا، ثم بطريقة ما أصبحنا نقف أقرب إلى بعضنا بعضًا، لدرجة أنني اضطررت أن أرفع رأسي إلى الأعلى حتى أرى وجهه، ويمكنني شم رائحة التبغ والعرق وشيء دافئ أخضر مثل عشب مشذب حديثًا.

فكرت على نحو جامح قليلًا في الأبواب العشرة الآلاف، وفي قبلة أديلايد للفتى الشبح تحت أبراج الخريف بلا رجفة شك واحدة. تمنيت لو كنت مثلها، شرسة وجريئة وشجاعة بما يكفي لأسرق قبلة.

«كوني فتاة مطيعة».

فليذهب حسن التصرُّف إلى الجحيم...

أصابتني الفكرة بالدوار والنشوة، لقد كسرت الكثير من القواعد سلفًا الليلة، تركتهم مهشمين لامعين في أثناء ثورتي، هل سيضر كسر قاعدة أخرى؟

ثم تخيلتُ وجهَ السيد لوك عندما اندفعت من حجرة التدخين، والخطوط المتصلبة التي حفرها الغضب حول فمه، والإحباط في عينيه الرماديتين الباردتين، فشعرت بشيء بارد في معدتي، لقد رحل والدي، ودون السيد لوك سأكون بلا قيمة في هذا العالم.

وجهت نظري إلى الأعلى وابتعدت مرتعشةً قليلًا في الليل البارد، وأظنني سمعت صامويل يطلق زفيرًا.

ساد صمت قصير حتى أعدت تعلم حيلة التنفس، ثم سأل صامويل بخفة:

- إذا استطعت الذهاب إلى مكان ما، فإلى أين ستذهبين؟

- أي مكان، ربما عالم آخر.

كنت أفكر في **الباب** الأزرق ورائحة البحر عندما قلت ذلك، لم أفكر فيه منذ سنوات، لكن قصة أديلايد أعادته مجددًا إلى مقدمة ذاكرتي.

لم يسخر صامويل مني.

– عائلتي تمتلك كوخًا عند النهاية الشمالية لشامبلان. اعتدنا قضاء أسبوع هناك كل صيف، ولكن بسبب صحة والدي، والمحل... لم نذهب منذ سنوات.

تخيلت صامويل كما عرفته من قبل، شابًّا قوي الذراعين، بشرته متشبعة باللون البرونزي لدرجة أنه يبدو وكأنه يشع ضوءًا بطريقة غير مباشرة.

– إنه ليس كوخًا ضخمًا أو فخمًا، فقط صندوقًا من خلاصة أخشاب الأرز تنبثق منه مدخنة صدئة، لكنه منعزل، على حافة جزيرته الخاصة، عندما تنظرين من النوافذ، لن تري شيئًا سوى البحيرة والسماء وأشجار الصنوبر، عندما أضيق بكل شيء...

لوّح بيديه على نحو واسع لم يقتصر فقط على منزل لوك بل كل شيء بداخله حتى زجاجات الخمر الثمينة المستوردة، وكل الكنوز المسروقة، وكل زوجة مصرفيٍّ مزعجة تتناول كأسًا من صينية صامويل دون النظر إليه مطلقًا:

– أفكر في ذلك الكوخ، بعيدًا جدًّا عن ربطات العنق ومعاطف البدلات، عن الرجال الأغنياء والرجال الفقراء والمسافة بينهم، هذا هو المكان الذي سأذهب إليه، إذا استطعت.

ابتسم.

– عالم آخر.

فجأة بتُّ واثقةً للغاية أنه لا يزال يقرأ قصصه وروايات المغامرات، ولا يزال يثبت عينيه على الآفاق البعيدة،

إنه لشعور شديد الغرابة أن تتعثّر في شخص تشكّلَتْ رغباته على مقربة منك، كأنك تمد يديك نحو انعكاسك في المرآة لتجد لحمًا حيًّا تحت أطراف أصابعك، إذا كنت محظوظًا بما يكفي لتعثر على ذلك النظير المفزع الساحر، أتمنى أن تمتلك شجاعة كافية لتنتزعه بكلتا يديك وألا تدعه يفلت منك.

لم أكن شجاعة حينها.

– لقد تأخر الوقت، سأدخل.

أعلنت ذلك، لتُمحي قسوة الأمر الدائرة الإعجازية التي رسمناها حول أنفسنا مثل حذاء يطمس خطًّا رُسِمَ بالطباشير، تخشب صامويل، لم أجرؤ على النظر إلى وجهه، هل كنت سأرى ندمًا أو تبادل اتهامات؟ رغبة أم يأسًا يُشْبِه شعوري؟ لكنه ببساطة أطلق صافرة إلى باد واستدار. ترددت عند الباب:

- تصبح على خير يا صامويل.

همست ثم دخلت.

كانت الغرفة مظلمة، رسم ضوء القمر حافاتٍ شاحبة حول الفستان العاجي الملقى على الأرض، وفوضى شعر جاين على مخدتها، انحناء عمود باد الفقري الملتصق بجسدي، رقدت في السرير، أشعر بتراجع موجة الشمبانيا تاركةً إياي على الشاطئ مثل مخلوق بحري بائس. في غياب الشمبانيا، عاد ذلك الشيء الثقيل القاتم الخانق، كأنه ينتظر طوال الليل لنصبح بمفردنا، انزلق بسلاسة على جلدي، وقد يملأ أنفي، متجمعًا في نهاية حلقي، ويهمس في أذني بقصص حول الفقدان والوحدة والفتيات الصغيرات اليتيمات.

ذات مرة، كانت هناك فتاة تُدعى جانيوري، يتيمة الأب والأم.

وجدت نفسي أرزح تحت وطأة منزل لوك، والحجر الأحمر النحاسي وكل تلك الأشياء الثمينة السرية المسروقة، بعد مرور عشرين أو ثلاثين عامًا تحت هذا العبء، ماذا سيتبقى مني؟

أردت أن أهرب وأواصل الهروب حتى أخرج من هذه الحكاية الخيالية الحزينة. توجد طريقة وحيدة للإفلات من حكايتك وهي التسلل إلى قصة شخص آخر. أخرجت الكتاب المغلف بالجلد من تحت مرتبتي واستنشقت مزيجًا من رائحة الحبر والمغامرة التي تفوح منه.

وعبرت خلاله نحو عالم آخر.

الفصل الثاني

عن اكتشاف الآنسة لارسن للمزيد من الأبواب ورحيلها استنادًا إلى التاريخ الموثق.

موت في الوقت المناسب، مخلوقات بو هاج[1] الأسطورية في سان أور، سنوات التعطش وانتهاؤها.

توفيت ماما لارسن خلال شهر مارس الأليم من عام 1885، بعد أسبوع من موجة صقيع شديدة قضت على زهور النرجس التي تفتحت قبل أوانها، وقبل ثمانية أيام من عيد ميلاد حفيدتها التاسع عشر، بالنسبة إلى الأخوات لارسن، كان رحيل والدتهن مأساة في حجم سقوط إمبراطورية عظيمة أو انهيار سلسلة جبال، شيء يتجاوز القدرة على الفهم ولفترة من الزمن انحدر المنزل إلى حالة حداد عشوائية متفرقة.

---

(1) بو هاج: أسطورة من التراث الشعبي للأمريكيين الأفارقة الذين يعيشون في ولاية جورجيا وكارولينا الجنوبية، وتقول الأسطورة إن بو هاج مشابه لمصاصي الدماء، لكن بدلًا من العيش على دماء الضحايا، يمتص النفس البشري عن طريق الركوب أو الجثوم فوق صدر الضحية، يدخل بو هاج إلى بيت الضحية من خلال شق صغير، بعدها يتجه إلى غرفة الضحية ويركب فوقه في أثناء النوم ويبدأ في مص أنفاسه فتبدأ الضحية في الشعور بالاختناق وكأنها في كابوس.

الحداد هو فكرة أنانية، لذا لا يجب أن نتفاجأ أن نساء المنزل فشلنَ في الاهتمام بأديلايد لي، وأدي كانت ممتنة لإهمالهن، لأنهن إذا تأملن ملامح وجهها، سيدركن مدى بعدها عن اليأس أو الحزن.

بينما تقف أدي إلى جانب فراش موت جدتها، وما يزال يفوح من فستانها الصوفي رائحة صبغة خشب البقم السوداء، شعرت بما قد ينتاب شجيرة إذا شهدت سقوط واحدة من أشجار الغابة العملاقة بمهابة، كانت مذهولة وربما خائفة قليلًا، لكن عندما لفظت ماما لارسن نفسها الأخير من ضلوعها، اكتشفت أدي ما ستكتشفه الشجيرة؛ أنه في غياب الشجرة العملاقة، يوجد ثقب في المظلة التي فوقها.

للمرة الأولى في حياتها، بدأت أدي تشكُّ في أنها حرة، ليس صحيحًا أنها كانت سجينة طيلة السنوات الماضية، في الواقع، مقارنة بالشابات الأخريات في ذلك الزمن، عاشت أدي حياة بلا قيود أو مسؤوليات؛ فقد سُمح لها بارتداء السراويل القماشية وقبعات العمل الرجالية، في الأساس لأن عماتها في نهاية المطاف يئسنَ من الحفاظ على تنانيرها في صورة لائقة، وليس من المتوقع أن تستطيع الإيقاع بأي شاب عازب مناسب، فعماتها تشارَكْنَ وجهة نظر قاتمة حول الرجال، كما لم تكن مجبرة على الالتحاق بالمدرسة أو العثور على عمل، وعلى الرغم من أن عادتها في التجول قوبلت بعدم التشجيع، فقد خضعت عماتها لها على الأقل.

ولكن أدي لا تزال تشعر بوجود ياقة خفية معلقة حول حلقها، تفضي سلسلتها إلى مزرعة لارسن، ربما تختفي لمدة يومين أو أربعة أو ستة أيام، تركب قطارًا متجهًا نحو الشمال، وتنام في حظائر تبغ الغرباء، لكنها في النهاية تستدير عائدة إلى المنزل، ستنتحب ماما لارسن حول مصير النساء الساقطات، وتزم عماتها شفاههن، وستذهب أدي إلى النوم محبطة لتحلم بالأبواب.

أصبح رسنها أكثر ارتخاءً واهتراءً بمرور السنوات، حتى تحول إلى خيط واحد من الحب والولاء الأسري، وبوفاة ماما لارسن، انتُزع ذلك الخيط.

وكما يحدث مع العديد من المخلوقات المحبوسة والفتيات الصغيرات اللائي لم يروضن تمامًا، استغرق الأمر بضعة أسابيع لتدرك أدي أنها تستطيع

الرحيل حقًّا، بقيت لأجل دفن جدتها في المقبرة الوعرة التي التهمها اللبلاب في الطرف البعيد من المزرعة، واستأجرت السيد تولسن ليحفر شاهد قبر (هنا ترقد أدا لارسن، 1813 - 1885، أم محبوبة).

وبعد مرور ثلاثة أسابيع، استيقظت ونبضها يعزف إيقاع رحيل في حلقها، كان صباحًا ربيعيًّا مشرقًا، معبأً بالوعود، يألف معظم المسافرون مثل هذا الطقس، حينما تهب الرياح الدافئة غربًا ولكن الأرض لا تزال تمرر شعورًا بالبرودة إلى أخمص قدميك، وعندما تبدأ براعم الأشجار في التفتح ونشر عطر جنون الربيع السري في الهواء، يعرفون أن هذه الأيام مناسبة للرحيل. غادرت أدي، قبلت كل عمة على خدها في ذلك الصباح، بالترتيب من الكبرى إلى الصغرى، لم يلاحظن أن القبلات صادقة أكثر من المعتاد، وأن عينَي ابنة أخيهم تشع وهجًا محمومًا.

فقط العمة ليزي رفعت نظرها عن بيضتها وقالت:

- أين تذهبين أيتها الفتاة؟

- إلى المدينة.

قالتها أدي دون إظهار أي مشاعر.

نظرت إليها العمة ليزي للحظة طويلة، كما لو كان يمكنها قراءة نيات ابنة أخيها عبر ميل كتفيها نحو الأمام، وتجعيدة ابتسامتها.

- حسنًا.

تنهدت في النهاية:

- سنكون هنا عندما تعودين.

بالكاد سمعتها أدي في تلك اللحظة، إذ كانت بالفعل قد رفرفت خارج باب المطبخ مثل طائر أُطلق سراحه، لكنها لاحقًا ستعود إلى تلك الكلمات وتفركها طلبًا للراحة حتى تنحل أطرافها مثل صخور النهر.

ذهبت أولًا إلى الحظيرة المتداعية، وأخرجت شاكوشًا، وحفنة من المسامير مربعة الرؤوس، وفرشاة طلاء من شعر الأحصنة، وعلبة دهان صدئة مكتوب عليها «أزرق بروسيا».

حملت معداتها شرقًا ناحية الحقل القديم، مر الوقت بخفة عبر الحقل الذي قام جار ثري بجز عشبه ومعالجته ثم أصبح خاليًا مهجورًا مرة أخرى، وبعد ذلك انطلق بعض المسّاحين ينوون بناء رصيف شحن بطول ضفة النهر ولكنهم وجدوا الأرض واطئة للغاية. الآن، يوجد فحسب خط صدئ من الأسلاك الشائكة ولافتة صفيح تشير إلى أن هذه ملكية خاصة، والمتعدّون يجب أن يحذروا. انحنت أدي تحتها دون تراجع.

لم تُمحَ آثار الكوخ تمامًا لكن تُركت لتتحلل في تشابك أعشاب ضارة من العسلة والصبغة، جثت أدي أمام الخشب القديم، والأفكار في رأسها عميقة وصامتة، مثل الأنهار تحت سطح الأرض، وتسللت عبر كومة من الخشب غير المتحلل والأقواس والمفصلات القديمة، عيش حياة زراعية بلا أعمام أو إخوة نمَّى مهاراتها في أداء أعمال النجارة، ومرت ساعة فقط أو حولها قبل أن تشكل أدي إطارًا وما يشبه الباب، دقت الإطار في الأرض، وعلقت الباب الذي جمعته بداخله، أصدر صريرًا في نسيم النهر.

لم تفهم أدي ما كانت تفعله سوى بعد أن انتهت تمامًا من طلاء الباب بأزرق المحيط المخملي العميق، كانت سترحل، ربما لوقت طويل، وأرادت أن تترك شيئًا خلفها، شيئًا يشبه الصرح أو النصب التذكاري، مثل شاهد قبر ماما لارسن، ليميز ذكراها مع الفتى الشبح والكوخ. لم يسعها التوقف عن الأمل، أن يومًا ما قد يُفتح الباب مجددًا ويأخذها إلى العالم الآخر، ومن خبرتي الجديرة بالاعتبار، كان هذا أملًا في غير محله، **فالأبواب** عندما تُغلق لا يُعاد فتحها.

تركت أدي أدوات عماتها ومشت الأميال القليلة نحو المدينة، ثم خبأت شعرها لأعلى تحت قبعة جلدية بالية عديمة الشكل لدرجة أنها تبدو مثل حيوان ينام على رأسها، وخطت على رصيف السفن في انتظار باخرة مُرتقبة، وهذا أيضًا لا يشبه رسم خطة بل يميل إلى كونه سباحة أسفل النهر، انجرفت مع قوى أعظم وأكثر جنونًا من نفسها نحو البحار المجهولة، لم تقاومها لكنها سمحت للمياه أن تغمرها حتى رأسها.

استغرق الأمر يومين من التسكُّع والتسول قبل أن تعثر على باخرة يائسة بما يكفي لتأخذها عاملة على متنها لم يشكل جنسها عائقًا أمامها؛ فسروالها

المخطط وقميصها القطني الواسع وفرا لها التنكر المطلوب، ووجهها مُكلف على هيئة مربع، نحى الجمال جانبًا وأضاف ما يشبه الوسامة. على الأقل هذا ما كان سيسجله الداجيرية[1]، إذا سبق لأدي ووقفت لتلتقط صورة، لكن الصور مثل المرايا، كاذبة سيّئة السمعة. والحقيقة هي أن أديلايد كانت أجمل كائن وقعت عليه عيناي في هذا العالم أو أي عالم آخر، إذا كان منظورنا عن الجمال هو وجود نوع من الحيوية والشراسة في جوهر الروح يضيء أي شيء يلمسه.

ومع ذلك، شيء في عينيها دفع البحارة العاقلين إلى التردد، شيء ينوه بالهجر والشجاعة، شخص منفصل على نحو خطير عن مستقبله، وبمحض الصدفة، كان على رأس سفينة «ساوثرن كوين» بحار يفتقر للخبرة، وظف ثلاثة سكارى ولصًّا عند أعالي النهر، وتلهّف ليستبدلهم، لدرجة أنه عيَّن أدي دون أن يسألها عن أي شيء سوى اسمها ووجهتها، وهما ما تشير إليهما سجلات السفينة أنهما «لارسن» و«العالم الآخر».

في هذه اللحظة، عندما وطأت قدما أدي في طريقها على ألواح مطلية بالأبيض لباخرة تسير في المسيسيبي، هنا يجب أن نتوقف. حتى الآن، كانت حياة الآنسة لارسن قصة استثنائية، ولكنها ليست قصة غامضة أو مجهولة، كان من الممكن التصرف كمؤرخ، يدقق بكافة المقابلات والدلائل لخلق سرد منطقي عن نشأة فتاة، لكن من هذه اللحظة فصاعدًا تزداد ملحمية قصة أدي وغرابتها وجموحها.

لقد دخلت إلى أسطورة وحكاية خيالية، متخفية عبر جوانبها، تنزلق خلال تصدعات التاريخ الموثق، مثلما يرتفع الدخان خلال مظلة ثقيلة. لا يوجد باحث -بغض النظر عن مدى ذكائه أو دقته- يستطيع رسم خارطة للدخان والخرافة على الورق، رفضت أدي نفسها البوح بأكثر من حفنة

---

(1) الداجيرية: نوع مبكر من التصوير، اخترعه الكيميائي الفرنسي لويس داجير عام 1839 بعد سنوات من البحث والتجارب. تُستعمل في هذا النوع من التصوير، ألواح معدنية مفضضة وتعرض لبخار اليود ثم توضع هذه الألواح في الكاميرا للحصول على صور من الأشياء.

تواريخ وتفاصيل، لذا ابتداءً من تلك اللحظة، وعبر السنوات العديدة القادمة من حياتها، يُفترض أن تتحول قصتنا إلى لمحات مبعثرة.

وبالتالي فإننا نجهل ما حدث معها لشهور على متن سفينة «ساوثرن كوين»، لا نستطيع أن نعرف مدى مناسبة العمل لها، وإذا سحرت أم أخافت زملائها في العمل، أو أفكارها حيال المدن الملونة بالطين التي تعبر سريعًا على الضفاف، لا يمكننا أن نعرف إذا وقفت أحيانًا على السطح ووجهها مصوب ناحية الرياح الجنوبية، وشعرت أنها تحررت من وضاعة شبابها، على الرغم من أنها شوهدت على متن سفينة مختلفة في مكان مختلف جدًّا، بينما تتطلع إلى الأفق كما لو أن روحها انبسطت وتمددت لتكفيها.

بل لا نعرف إذا سمعت بقصة البو هاج للمرة الأولى عندما عملت بأعلى النهر وأسفله، على الرغم من أن ذلك يبدو مرجحًا، إنها خبرة هذا الباحث هي ما جعلت القصص تنزلق لأعلى الأنهار وأسفلها إلى جانب القوارب، تزحف مثل حوريات فضيات في أثناء صحوهن، وقصة البو هاج ربما سبحت بينهن في تلك الأيام، ربما ذكّرت القصة أدي بالكوخ المسكون في حقلها القديم، وأيقظت وعودًا غابرة من نفسها ذات الخمسة عشر عامًا. أو ببساطة ربما أيقظت خيالها.

كل ما يمكننا قوله بيقين هو، في الشتاء الدافئ لعام 1886، ذهبت أديلايد لارسن إلى قصر سان أور في حي الجزائر بنيو أورليانز، واختفت لمدة ستة عشر يومًا.

عند هذه النقطة، يجب أن نعول على شهادة شخصين من سكان المدينة تحدثا إلى أدي قبل عبورها من الباب، على الرغم من أن الأمر استغرق عدة سنوات حتى أستطيع تعقبهما وتسجيل ذكرياتهما، أصر السيد والسيدة فنسنت لوبلانك أن عملية إعادتهما لرواية ما حدث دقيقة تمامًا لأن الظروف نفسها كانت غاية في التفرد، كانا يسيران على طول شارع هومر عند الساعة العاشرة مساءً، بعدما غادرا قاعة الرقص في مزاج جيد، -أصرت السيدة لوبلانك أنهما كانا يحضران القداس المسائي، وأبدى السيد لوبلانك تعبيرًا حياديًّا متعمدًا- ثم اقتربت شابة من الزوجين.

- كانت... حسنًا، يجب أن أقول لك، كانت فتاة غريبة للغاية، قذرة نوعًا ما، وثيابها مثل عامل ميناء يرتدي سروال قماش.

وتأدبًا منها لم تقدم السيدة لوبلانك المزيد من التفاصيل، لكننا ربما افترضنا أنها صغيرة جدًّا، ووحيدة، وتجوب شوارع مدينة لا تعرفها ليلًا، وكان بياض بشرتها يفوق الدقيق.

صدر عن السيد لوبلانك هزة كتف توافقية:

- حسنًا، من يعرف يا ماري، لقد بدت ضائعة.

وقال موضحًا:

- لا أقصد أنها ضائعة مثل طفل، لم تكن قلقة، لقد ضلت طريقها عن عمد، أظن ذلك.

وجهت لهما الشابة عدة أسئلة، هل هذه منطقة إلميرا؟ هل قصر فورتونا قريب؟ كم يبلغ ارتفاع السور حوله، وهل يعرفان إذا كانت توجد كلاب من متوسطة إلى كبيرة الحجم في الأماكن المحيطة به؟ وأخيرًا هل يعرف أحد منكما قصة جون والبو هاج؟ أي شخص يتمتع بتفكير سليم لن يلومه أحد إذا ابتعد ببساطة عن امرأة مجنونة مثلها، ثم يلقي بنظرات قلقة من فوق ظهره ليتأكد أنها لا تتبعه، لكن ماري لوبلانك تمتلك ذلك النوع المتهور من الشفقة الذي يدفع الناس إلى منح أموال للغرباء، ودعوة المتسولين إلى العشاء.

- إلميرا على بعد مبنى غربًا يا آنسة.

قالت للمرأة الغريبة:

- حقًّا، يمكن للمدينة الاستفادة من إشارة أو ثلاثة في الشارع، إن سألتني عن رأيي.

- أجل يا آنسة.

يقول كلٌّ من ماري وفنسنت لوبلانك الكثير من «آنسة» و«المعذرة»، ربما لأن امرأة بيضاء غريبة للغاية لا تزال امرأة بيضاء، وربما لأنهما يخشيان أن يكون اختبارًا يشبه القصص الخيالية، حيث تتحول المتسولة إلى ساحرة تعاقبك على أخلاقك السيئة.

- وهل ذلك المنزل موجود فيه؟ فورتونا شيء ما؟

نظر آل لوبلانك إلى بعضهما.

- لا يا آنسة، لم أسمع بذلك.

- اللعنة.

قالت المرأة البيضاء ثم بصقت على الشارع المرصوف، بانفعال يعوزه الوعي صادر عن فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. ثم سألت ماري لوبلانك:

- هل تقصدين... يوجد مكان في شارع سان أور، أعلى طريق إلميرا.

يتذكر فنسنت التشديد بمرفقه حول ذراعها، باذلًا ما في وسعه لإرسال تحذير:

- إنه قصر لطالما كان فارغًا طوال حياتي.

- ربما.

نظرت الفتاة بعينين حادتين مثل قطة إلى وجه ماري.

وجدت ماري نفسها تصدر صوتًا يشبه الهمس:

- حسنًا، الأمر فحسب إنك ذكرت تلك القصة، ودائمًا ما سمعت... إنها مجرد قصص، العقل والأشخاص المتعلمون لا يجب أن يشغلوا أنفسهم بها كثيرًا، لكن دائمًا ما سمعت أن جون بريستر يعيش في سان أور، وذلك هو المكان حيث التقى بالبو هاج[1] يا آنسة.

تسللت إلى وجه الفتاة ابتسامة واسعة، ملء شدقيها.

- حقًّا، اسمي أدي لارسن، هل يمكنني أن أزعجك ببعض الأسئلة الأخرى؟

طلبت منهما أن يخبراها بالقصة بأكملها كما يعرفانها، عن شاب وسيم يُدعى جون، وجد نفسه متعبًا وشاحبًا كل صباح، وترافقه أحلام متشابكة

---

(1) قضيت بعض الوقت في المنطقة أعيد البحث في هذه الظاهرة بعد الحديث مع آل لوبلانك. يبدو لي أنها نسخة مختلفة من قصة البو هاج المعتادة، امرأة عجوز تتطفل على الشباب، تمص دماءهم أو أنفاسهم، وربما تسرق جلودهم، وتذهب للتجول في الليل. لقد قابلتهم بوتيرة أكبر على الجزر قبالة ساحل جورجيا، حيث تشيع عبارة «تسيطر عليه البو هاج». لم تكن أديلايد لارسن تدرك عالمية القصة، لم تصل إلى وجهاتها بالتفاني البحثي أو العمل الشاق، لكن عبر بوصلة المتجول غير المؤكدة.

حول سماوات مضاءة بالنجوم وجولات جامحة. سألتهم إذا سبق وذهب أي شخص إلى سان أور.

- أحيانًا الفتيان الصغار متحدّين بعضهم بعضًا.

سألتهم إذا عادوا مرة أخرى.

- بالطبع! باستثناء... حسنًا، هناك شائعات تقول إن الأولاد الذين قضوا الليل في الداخل هناك، لم يخرجوا لمدة عام ويوم، والأولاد الذين اختبأوا في الخزائن وجدوا أنفسهم يحلمون ببلدان بعيدة.

- الآن، سؤال أخير يا صديقيَّ، كيف دخلت البو هاج إلى المنزل في المقام الأول؟ كيف عثرت على المسكين جون؟

نظر آل لوبلانك إلى بعضهما، حتى طيبة قلب ماري بدأ يعكرها الاضطراب بسبب حدة الشابة، لم يكن الأمر غرابة موقفها فحسب، إذ ترتدي ملابس العمل وتتجول ليلًا، لكن الطريقة التي لمع بها وجهها ذاتيًّا بوهج مصباح غازي، والطريقة التي بدت بها الصياد والفريسة في آن واحد، تهرب من شيء وتتجه نحو شيء آخر.

لكن عددًا قليلًا من الناس يمكنهم ترك القصة غير مكتملة بطرف نهاية منتسل مهمل زائد على الحاجة.

- بنفس الطريقة التي يدخل بها البو هاج إلى منزل أي شخص يا آنسة. يعثرون على صدع أو حفرة أو باب مفتوح.

ابتسمت الفتاة للزوجين ابتسامة مبتهجة، وانحنت لهما ثم اتَّجَهَت غربًا. لم يرها أحد مرة أخرى لمدة ستة عشر يومًا عندما لاحظ مجموعة من الصبية الذين يدحرجون الأطواق أسفل الشارع امرأة بيضاء تخرج من سان أور، وصفوا مظهرها بأنه «كالساحرات»، ثيابها العملية تطايرت رثة حولها، تكملها عباءة غريبة من الريش الأسود الملوث بالزيت، عيناها كانتا مثل أسواط الريح، وابتسامتها مضيئة في سماء الليل، كما لو أنها عقدت اتفاقًا مع النجوم.

عندما سألها الصبية عن نشاطاتها، فشلت الفتاة في تقديم أي وصف واضح يتجاوز عدة أوصاف بلا معنى عن قمم الجبال العالية، وفروع أشجار الصنوبر السوداء، وأضواء في السماء مثل حرير وردي مثبت في النجوم.

عندما سألتها بنفسي عمّا رأته عبر الباب، فلا بد من وجود باب، ضحكت:

- لماذا؟ مخلوقات البو هاج، بالطبع!

وعندما عبستُ في وجهها، أخرسَتني قائلة:

- اسمع، بعض القصص لا تحدث بهدف روايتها، أحيانًا عندما تسرد القصة تسرقها، تسرق جزءًا من غموضها، دع هؤلاء الساحرات وشأنهن.

لم أفهم ما تعنيه في ذلك الوقت، كان لدي تعطش الباحثين للكشف والتحليل، لجعل المجهول معلومًا، لكن في حالة باب سان أور أحبطت، تبعت خطواتها إلى منطقة إلميرا ووجدت قصرًا مطليًّا بالأبيض، يغرق في العفن الحلو لزهور الماغنوليا، كان عظيمًا ونصف منسيّ في آنٍ واحدٍ.

أعددت خططًا لأعود في المساء حتى أقوم بالمزيد من الاستكشافات، ولكن تلك كانت ليلة حريق الجزائر الكبير في عام 1895. بحلول منتصف الليل، تلونت السماء بالبرتقالي المتأجج وعند الفجر، تحول المربع السكني بأكمله، بما فيه قصر سان أور، إلى هيكل عفن من نفسه.

تذكروا هذا الحريق، تذكروا أنه اندلع بلا سبب واضح، ولم يعبأ بأيّ خرطوم أو دلو مياه حتى تحولت كل بوصة سواء كانت متهدلة أو عظيمة من سان أور إلى رماد، ومع ذلك، أسجل هذه الذكريات لأن سان أور هو أول باب عثرت عليه في هذا العالم، والباب الثاني الذي وجدته الآنسة لارسن، وبالعثور على أي باب يأتي التغيير.

لاحقًا، ستشير أدي إلى الفترة ما بين عامي 1885 و1892 تقريبًا على أنها «سنوات التعطش»، وعندما سُئلت إلى أي شيء كانت متعطشة، ضحكت وقالت:

- أراهِن أنه ما تتعطشون إليه نفسه، طرق بينية، اللا أماكن، وبعض الأماكن.

مشطت الأرض، هائمة ونهمة، تبحث عن الأبواب.

وعثرت عليهم[1]، وجدتهم في الكنائس المهجورة وحوائط الكهوف المؤطرة بالأملاح، وفي المقابر وخلف الستائر المرفرفة في الأسواق الأجنبية، عثرت على الكثير منهم حتى أصبح إدراكها للعالم مليئًا بالثقوب، مثل خارطة مضغها فأر. لحقت بها في زمني، وأعدت اكتشاف أبواب بقدر ما أستطيع، لكن الأبواب بطبيعتها منافذ وممرات وأماكن غير مكتملة، وقد أثبت أنه يصعب تسجيل حسابات الغياب الدقيقة. تعج ملاحظاتي بطرق مسدودة، وشكوك وأقاويل وشائعات، حتى تقاريري الأكثر دقة ممتلئة بأسئلة بلا إجابات تحوم مثل ملائكة رمادية على الهوامش.

على سبيل المثال، باب نهر بلات، أعاد مسار أدي الملون إلى المسيسيبي والغرب، وفي نهاية المطاف إلى سيد يُدعى فرانك سي ترو، عندما تحدثت إلى السيد ترو في عام 1900، كان فارسًا استعراضيًّا في سيرك دبليو جيه تايلور الأمريكي المزدوج الكبير، ومتحف عالمي ضخم، والقافلات، وهيبودروم، وحديقة الحيوان، وكونجرس الحيوانات البرية والحية.

كان فرانك رجلًا أسود الشعر، عيناه تشبهان حجر الصوان، بسط سحره وموهبته حضورًا يتجاوز حدود هيكله الصغير، عندما ذكرت أدي، تحولت ابتسامته المصطنعة إلى حزن.

– نعم، بالطبع أتذكرها، لماذا؟ هل أنت زوجها أو شيء من هذا القبيل؟

---

(1) ربما هي صاحبة شخصية مستكشف جريء على نحو غير متوقع، فهي فتاة فقيرة غير متعلمة، ولا تملك أي ميزة خاصة. لكن تبدو الحكايات التي جمعتها عن الأمر وكأنها تشير إلى أن الأبواب لا تميل إلى جذب أنواع شخصيات المستكشفين والرواد التي نتوقعها، هؤلاء الذين يشبهون دكتور ليفينجستون أو السيد بوون اللذين توليا مسؤولية الجبهة ببسالة. وبوتيرة أكبر، أجد الرفاق المسافرين بين الفقراء والملعونين والمنبوذين والمشردين، باختصار هؤلاء الأشخاص الذين يهرعون نحو هوامش العالم ويبحثون عن طريق للخروج.

تأمل توماس أيكنهيد، شاب يتيم ويعاني من إعاقة، نشر بيانًا غير حكيم يفيد بأن الجنة مكان حقيقي يقع على الطرف الآخر من باب صغير متهالك في كنيسة إسكتلندية، فتح الباب أمام احتمالية أن يكون المكان جحيمًا في الواقع، أو ربما مطهر، لكنه اختتم بأنه بلا شك «دافئ، مشمس أفضل بكثير من إسكتلندا». أعدم شنقًا في العام ذاته بتهمة الهرطقة.

توماس أيكنهيد «مقدمة للسحر ومدخل إلى الجنة» 1695.

بعدما طمأنته أنني لست حبيبًا غيورًا جاء ليرد إهانة وقعت منذ عقد كامل، تنهد مستندًا إلى ظهر كرسي المخيم وأخبرني عن لقائهما في صيف عام 1888 الحار.

رآها للمرة الأولى بين جمهور «الجبل الصخري للسيد كارفر ومعرض البراري، حيث كان فرانك يؤدي دور واحد من السكان الأصليين مع فرقة «الغرب المتوحش» مقابل دولار في اليوم الواحد، على نحو لافت، كانت أدي وحيدة على المقاعد الخلفية، شعرها متشابك ومتسخة، تنتعل حذاء كبير الحجم وترتدي قميص رجل في زهد جامعي القمامة. صمدت خلال إعادة التمثيل الدموي لمعركة ليتل بيج هورن[1]، وهللت في أثناء عرض تلجيم الفرس، على الرغم من أن الفرس كان مُهرًا دائري المعدة، جموحه أقل من قطة منزلية، وأطلقت صافرة عندما فاز فرانك بالسباق الهندي، غمز لها، فردت عليه بغمزة.

عندما توقف عرض «الجبل الصخري للسيد كارفر ومعرض برايري» في الليلة التالية، كان فرانك وأدي محشورين في حجيرته في قاطرة المؤديين، وعلى هذا النحو عانت أدي من ذلك السقوط من النعيم الذي تخوفت منه عمّاتها وجدتها، وبذلك السقوط، اكتشفت شيئًا. أن الساقطات يتمتعن بنوع من الحرية.[2]

بالطبع انطوى الأمر على عواقب اجتماعية، العديد من المؤديات رفضن التحدث إلى أدي في خيم الطعام، وافترض الرجال أمورًا مؤسفة عن كونها

---

(1) ليتل بيج هورن: معركة وقعت بين مقاتلين متحالفين من الهنود الحمر من قبائل لاكوتا وشايان الشماليين وأراباهو من جهة وفوج الفرسان السابع في الجيش الأمريكي من جهة أخرى. وقعت الحرب قرب نهر لتل بيج هورن شرقي مونتانا.

(2) قطعًا لا يوجد ما يسمى بالساقطات، إلا إذا كنا نتحدث عن النساء اللائي تعثرن مؤخرًا على السلالم. أحد أصعب عناصر هذا العالم، هو الطريقة التي تكون بها قواعده الاجتماعية تعسفية وقاسية في آن واحد، لا يسمح بالانخراط في ممارسة الحب الجسدي قبل عقد زواج قانوني، إلا إذا كان الفرد رجلًا ذا نفوذ. يجب أن يكون الرجال شجعانًا وحازمين، فقط إذا كانوا من أصحاب البشرة الفاتحة. أي شخص يمكنه الوقوع في الحب بغض النظر عن مركزه، ولكن فقط إذا كان أحد الطرفين امرأة والآخر رجلًا. أحثك يا عزيزتي ألا تعيشي حياتك وفق هذه الحدود المعيبة، وعلى كل حال، هناك عوالم أخرى.

امرأة سهلة المنال لكن عامةً، اتسعت آفاق أدي بدلًا من أن تتقلص؛ وجدت نفسها محاطة بعالم سفلي يصخب بالرجال والنساء الذين أذنب كل منهم بطريقته سواء باحتساء الخمر أو الرذيلة أو العاطفة أو محض ألوان بشرتهم، كان الأمر أشبه بالعثور على باب في عالمها.

يحكي فرانك عن أسابيع قليلة من الارتياح، متنقلًا بين أعلى وأسفل الولايات الأمريكية الشرقية في عربات عرض الجبل الصخري المطلية بالأبيض والأزرق، ولكن عندها بدأت أدي تشعر بالملل، روى فرانك قصصًا لها حتى يشتتها.

- قلت لها الزعيم ريد كلاود[1] هل أخبرتك عنه من قبل؟ أقسم إنني لم أقابل امرأة أكثر حبًّا للقصص المثيرة قط.

أخبرها فرانك عن المقاتل الشاب زعيم لاكوتا الذي تسبب في جحيم جديد شنيع للجيش الأمريكي وثكنات نهر باودر، حكى لها عن قدرة القائد المدهشة على التنبؤ بنتائج المعارك مستخدمًا حفنة من العظام المنقوشة.

- الآن، لم يقل من أين حصل على تلك العظام قط، لكن سرت شائعات أنه اختفى لمدة عام عندما كان صبيًّا، وعاد حاملًا حقيبة من العظام من عالم آخر.

- أين اختفى؟

سألته أدي، وتذكر فرانك أن عينيها اسودّتا واستدارتا مثل أقمار جديدة.

- أظن، في مكان ما، أعلى نهر بلات الشمالي، أينما كان، ربما عاد إلى هنا مفطور الفؤاد، لأنه اختفى بعدما وجدوا ذهبًا في بلاك هيلز وخرقوا المعاهدة.

رحلت أدي قبل الغسق، وتركت ملاحظة رفض السيد ترو مشاركتَها، ولكنها لا تزال في حوزته برفقة الحذاء كبير الحجم الذي يناسب فرانك أكثر على أي حال، لم ير السيد ترو أدي أو يسمع عنها مجددًا.

---

(1) ريد كلاود: كان واحدًا من أقوى المعارضين الأمريكيين الأصليين الذين واجههم جيش الولايات المتحدة في المناطق الغربية. هزم الولايات المتحدة خلال حرب الغيمة الحمراء.

إذا كان هناك بابٌ في مكان ما عند شمال بلات نبراسكا، فأنا لم أعثر عليه قط، كانت المدينة تغرق في فقر مدقع عندما وصلت إليها، تجلدها الرياح، يسكنها الألم والمرارة. وبلهجة حادة. أخبرني رجل عجوز في حانة قذرة أنه عليَّ المغادرة وألا أعود، لأنه إذا وُجِدَ هذا المكان، فهو حقًّا لا يناسبني، ويظن أن قبيلة أوجلالا لاكوتا لم تجن أي خير من إفشاء أسرارهم للغرباء، فغادرت المدينة في الصباح التالي.

هذا ببساطة كان واحدًا من ضمن دستة أبواب اكتشفتها أدي خلال سنوات تعطشها. مُرفق في الأسفل قائمة جزئية لتلك الأبواب التي أكد عليها هذا المؤلف:

في عام 1889، كانت أدي في جزيرة برنس إدوارد تعمل لصالح مزارع بطاطس طاعن في السن، ساعية خلف شيء أسمته «القصص الحريرية» التي ربما قصدت بها «الفقمات»، أخبرها المزارع عن جار تُوفيَ منذ زمن بعيد، عثر على شابة في الأسفل عند الكهوف البحرية، كانت عينا المرأة متباعدتين فيما بينهما على نحو غريب، سوداوين زيتيتين، ولم تنطق بكلمة واحدة من أي لغة بشرية. قضت أدي الأيام التالية في استكشاف الكهوف الساحلية بنفسها، حتى لم تعد ذات ظهيرة، أقنع مزارع البطاطا المسكين نفسه أنها غرقت، إلى أن عاودت الظهور بعد ثمانية أيام، تفوح منها رائحة المحيطات السرية الباردة.

في عام 1890، كانت أدي تعمل على متن باخرة تشق طريقها عبر الباهامس مثل نورس ثمل، عندما سمعت على ما يبدو قصصًا حول انتفاضة توسان لوفرتور[1]، وكيف ذابت قواته ببساطة في المرتفعات واختفت مثل السحر تقريبًا. في ذلك الوقت، انحرفت طرق الشحن حول هاييتي كأنها مسكونة بالطاعون، لذا تخلت أدي عن وظيفتها على متن الباخرة، وقدمت رشوة لصيّاد سمك حتى يأخذها من ماثيو تاون إلى الساحل الأخضر الملتوي لهاييتي.

---

(1) توسان لوفرتور: كان زعيم الثورة الهاييتية، وزعيم ثورة أفارقة هاييتي ضد الهيمنة الأوروبية في أثناء الاحتلال الفرنسي عام 1797م.

عثرت على باب توسان بعد أسابيع من التعثر في ممرات دخول المرتفعات المُوحلة، كان نفقًا طويلًا عالقًا في الجذور الملتوية لشجرة أكاسيا، لم تصف قط ما رأته على الجانب الآخر، وربما لن نعرف أبدًا. الآن، بيعت الأفدنة وسُجلت وتحولت لإنتاج السكر بعد عدة سنوات.

في نفس العام، تتبعت قصصًا حول وحوش ذات عيون ثلجية قد تُحَوِّل نظرتُها الأشخاصَ الطائشين إلى حجر، وانتهى بها الأمر في كنيسة صغيرة منسية في اليونان، وهناك، عثرت على باب -أسود تعلوه الثلوج- وعبرت خلاله.

على الجانب الآخر اكتشفت عالمًا جلدته الرياح، قارس البرودة، كانت ستتركه بسعادة لولا أنها حوصرت من قبل جماعة شاحبة بربرية ترتدي جلود حيوانات، وكما روت لاحقًا، سرقوا كل شيء تملكه حتى ملابسها الداخلية، وصرخوا في وجهها لوهلة، ثم سحبوها إلى قائدتهم التي لم تصرخ على أدي بل ببساطة ثبتت نظرها عليها وهمست في أذنها.

- وتقريبًا تمكنت من فهمها، أقسم بالرب. كانت تخبرني كيف يمكنني الانضمام إلى قبيلتهم، وأحارب أعداءهم، وأضيف ثروة إلى خزائنهم وما إلى ذلك، أقسم إنني أوشكت على القيام بذلك، بشيء ما حيال هاتين العينين فاتحتَي اللون، لاذعتَي البرودة، لكني رفضتُ في النهاية.

لم تشرح أدي عواقب رفضها لكن سكان البلدة اليونانيين أبلغوا عن رؤية امرأة أمريكية ذات عينين جامحتين تتجول في الشوارع لا ترتدي شيئًا سوى عباءة من الفرو، مُصابة بقرصة صقيع طفيفة، وتحمل رمحًا هيئته تنذر بالشر. (سأروي تجربتي الشخصية مع هذا الباب بالتحديد لاحقًا).

في عام 1891، اكتشفت أدي قنطرة مكسوة بالقرميد في ظلال البازار الكبير في إسطنبول، وعادت بأقراص ذهبية ضخمة، ادعت أنها حراشف تنين. زارت سانتياغو وجزر الفوكلاند، وأصيبت بالملاريا في كينشاسا ثم اختفت لعدة أشهر في الشمال الشرقي لماين، جمعت غبار العوالم الأخرى على جلدها مثل عشرة آلاف نوع من العطور، وخلفت في أعقابها تشكيلة من الرجال المصابين بالاكتئاب والحكايات المستحيلة. لكنها لم تطل البقاء في أي مكان

قط، أخبرني معظم الراصدين أنها ببساطة كانت متجولة، مدفوعة للتنقل من مكان إلى مكان بسبب الضغوطات نفسها غير المجهولة التي تجعل طيور السنونو تهاجر جنوبًا، لكنني أظن أنها كانت شيئًا أقرب إلى فارس في مهمة، أعتقد أنها كانت تبحث عن باب محدد وعالم بعينه.

في عام 1893، في ذروة الربيع المغطى بالثلوج، عندما حل عيد ميلادها السابع والعشرون، عثرت عليه. انتقلت القصة بالأسلوب الاعتيادي للقصص، تنزلق من فم إلى آخر على طول السكك الحديدية والطرقات مثل عدوى تتحرك عبر الشرايين.

بحلول شهر فبراير من عام 1893، شقت الحكاية طريقها نحو تافت بولاية تكساس، وتغلغلت في حوائط مصنع بذور القمح حيث تعمل أدي لارسن، يتذكر زملاؤها في العمل ساعة غداء بعينها، كانوا مجتمعين ومعهم دلاء الصفيح خلف المصنع، يتنفسون البخار الزيتي اللزج ورائحة العفن الأخضر لهياكل بذور القطن، ويستمعون إلى تقرير دالتون جراي اليومي عن النميمة التي تدور في الحانة، أخبرهم حول زوجين من الصيادين شمالًا هبطا من جبال روكي في حالة جنون يقسمان بكل شيء عزيز لديهما إنهما عثرا على محيط عند قمة جبل سيلفرهيلز.

ضحك العمال، لكن صوت أدي اخترق ضحكاتهم مثل منجل يصيب جذع شجرة:

– ماذا تقصد بأنهما عثرا على محيط؟

هز دالتون جراي كتفيه:

– وكيف من المفترض أن أعرف؟ ربما انتقل إليهما الأمر بالجينات، لقد ضلا طريقهما وعثرا على كنيسة حجرية قديمة من زمن التنقيب عن الفضة، وعاشا هناك لمدة أسبوع أو اثنين، قالا إنها كنيسة صغيرة عادية تمامًا، باستثناء أن هناك محيطًا عند بابها الخلفي!

تردد الضحك مجددًا ولكنه تلاشى بينما تجمع أدي لارسن غداءها الذي لم تمسه، وستتجه ناحية الشمال الغربي، عبر ساحة المصنع ناحية سكك حديد شرق تكساس والخليج.

لم أجد أي أثر للآنسة أدي من تكساس حتى كولورادو، وبعد شهر، ظهرت ببساطة في مدينة ألما، مثل غطاس يطفو على السطح، تتساءل حول الأحذية والفراء وكل أشكال الملابس التي قد تحتاج إليها امرأة لتنجو من الربيع الثلجي القارس لفرونت رانج. تذكر البائع المحلي رؤيتها تغادر في حسرة مُشبعة بالانفعال متيقن أنهم سوف يعثرون على جسدها الذائب في أعقاب حلول الصيف.

لكن بدلًا من ذلك، عادت المرأة إلى سفح جبل سيلفرهيلز بعد عشرة أيام، بخدَين متوردَين، مُشرقَين على نحو ميمون ذكَّرَ البائع بعمال المناجم الذين تعثروا في الذهب، وسألته أين يمكنها العثور على مصنع نشارة، فأخبرها، ولكنه أضاف:

- معذرة يا سيدتي، ولكن لماذا تحتاجين إلى لوح خشبي؟

- أوه.

ضحكت أدي، ولاحقًا سيتذكرها البائع على أنها ضحكة امرأة مجنونة عند اكتمال القمر.

- لأبني قاربًا.

مشهد شابة وحيدة بلا أي مهارة خاصة في أعمال النجارة، تبني قاربًا شراعيًّا في مرتفعات جبال الروكيز التي تعوزها إلى نسمات الهواء الكثيفة لم يمر بالطبع مرور الكرام.

جمعت أدي ما يشبه المخيم عند سفح سيلفرهيلز، وبحسب وصف أحد الراصدين، فإنه يشبه «مدينة عشوائية من أكواخ الصفيح ضربها إعصار»، ألواح من خشب الصنوبر تناثرت على الأرضية الثلجية، محنية على هيئة أقواس مشوهة، اختلطت الأدوات المستعارة في أكوام مهملة لشخص لا ينوي استخدامها أكثر من مرة. ترأست أدي نفسها الفوضى مرتدية فرو دب تدخن بشراهة، وتسب بسعادة بينما تعمل.

بحلول شهر أبريل، أخذ القارب شكلا واضحًا، ترقد قاعدته النحيلة التي تشبه القفص الصدري المشبع برائحة النسغ، في منتصف مخيمها مثل مخلوق بحري بائس نسي الرب أن يمنحه جلدًا أو قشورًا. ظهر أول الصحفيين بعد

ذلك بفترة قصيرة، وكان أول تقرير مطبوع خبرًا ثانويًّا مشوشًا في صحيفة ليدفيل اليومية، معنونًا على نحو يفتقر إلى الخيال، «امرأة تبني قاربًا محيرة سكان المدينة»، نتج عنه نميمة كافية ومرح لدرجة أن القصة تسربت إلى صحف أكبر، طُبعت ثم أعيد طبعها وفي النهاية انتشرت بالاقتران مع قصة الصيادين اللذين عثرا على محيط، وبعد مرور أكثر من شهر، بعدما رحلت أدي وقاربها بعيدًا عن ألما، وصل الخبر إلى نيويورك تايمز تحت عنوان أكثر إثارة، النسخة النسائية من نوح على جبال الروكيز: امرأة مجنونة في كولورادو تستعد للطوفان.

أنا مستعد للتضحية بأي شيء، كل كلمة مكتوبة، كل النجوم في كل العوالم، ويديّ، لكيلا تنتشر تلك القصة الملعونة. وعلى حد علمي، لم تقرأ أدي قط أيًّا من المقالات التي كُتبت عنها، عملت ببساطة على قاربها، تقشر سطح الألواح واحدًا تلو الآخر لتصنع الهيكل وتستشير عامل الأسقف المحلي الذي منحها رغم ارتباكها وصفة من الشحم وعصارة شجرة التنوب لتملأ الفراغات التي تصنعها مفاصل المركب. كان قماش الشراع عبارة عن فوضى رديئة التقطيب كانت لتصيب أي واحدة من عماتها بالصدمة، وتعلق من سارية قصيرة، ولكن بنهاية الشهر، كانت أدي مقتنعة أنه أعظم مركب يستحق الإبحار في العالم، أو على الأقل فوق عشرة آلاف قدم. طبعت اسم القارب على مقدمته في أسطر مهتزة من الفحم، «المفتاح».

ذهبت إلى المدينة في تلك الليلة، وصرفت الأموال التي ادخرتها من العمل في مصنع بذور القطن، لتشتري لحم خنزير معالجًا وحبوبًا معلبة، وثلاث زجاجات كبيرة، وبوصلة، واستأجرت شابين وظيفتهما أن يفهما بالإسبانية الضعيفة أنها تريد حمل قارب إلى قمة جبل.

بعد عدة سنوات عثرت على واحد من الشابين، السيد لوسيو مارتينيز، واعترف لي في كل مرير أنه يتمنى لو لم يوافق قط على هذه الصفقة، لقد قضى الجزء الأفضل من عقد كامل من حياته تحت سحابة من الشكوك الواهية لأنه وصديقه كانا آخر شخصين على قيد الحياة شاهدا المرأة المجنونة البيضاء وقاربها قبل أن تختفي، بل استجوبه مأمور البلدة لمدة عام أو اثنين

بعد الحادثة، مصرًّا أن يرسم السيد مارتينيز له خريطة دقيقة للمكان حيث شوهدت أديلايد لي للمرة الأخيرة.

لم تكن أدي لتعرف الأهوال التي سيتحملها السيد مارتينيز المسكين عندما يفترقان عند قمة جبل سيلفرهيلز، ولست واثقًا إذا كانت ستهتم حينها؛ فلقد حركتها الأنانية الخالصة لفارس يقترب من الوصول إلى مسعاه، ولا تستطيع الابتعاد عن هدفها مثلما لا يمكن لإبرة البوصلة أن تشير إلى الجنوب.

انتظرت لوسيو وصديقه ليلتقيا مرة أخرى أسفل المنحدر، وانتظرت القمر نصف المكتمل لتلون على هديه ألواح الصنوبر بالفضي الناعم، ثم سحبت مركبها العشوائي على طول أثر أيل إلى مبنى حجري منخفض ربما كان ذات يوم كنيسة لعمال المناجم أو ربما شيء أعرق وأكثر قداسة، كان الممر على حاله مثلما عثرت عليه قبل أسابيع، شغل تقريبًا كل الحائط المكدس بالحجارة، مؤطرًا بألواح شاسعة حوّلها الزمن إلى اللون الأسود، والمقبض الوحيد عبارة عن حفرة وعرة في الألواح، أقسمت أدي سلفًا أنها سمعت صفير النسيم الرقيق ينسل من الحفرة حاملًا رائحة الملح وخشب الأرز وأيام طويلة مشمسة. إنها الرائحة التي لا يفترض أن تكون مألوفة لها، ولكنها تذكرتها، إنها رائحة بشرة الفتى الشبح عندما تبادلا قبلة في الحقل بأواخر الصيف، إنها رائحة العالم الآخر، فتحت أدي الباب وأطلقت قاربها في البحار الغريبة لعالم آخر.



الباب المُغلق

عندما فتحت عينيَّ، شعرت وكأنهما اقتُلعتا من رأسي، وتمرغتا في رمل خشن، ثم حُشرتا مجددًا في جمجمتي بغير إتقان، وكان فمي دبقًا ويجري به طعم حمضي وبدت جمجمتي كأنما تقلص حجمها طيلة الليل، ولمدة ثوانٍ يغمرها التشوش، نسيت نصف دزينة من كؤوس الشمبانيا احتسيتها خلال الحفلة، وتساءلت وأنا مُصابة بالدوار إذا فعل الكتاب ذلك بي، كما لو أن قصة يمكنها أن تخترق عروقي، مثل الخمر، وتجعلني ثملة.

وإن كانت أي قصة يمكنها فعل ذلك، فستكون هذه القصة، لقد قرأت بالطبع كتبًا أفضل تحتوي على مغامرات وقبلات أكثر ومواعظ أقل، لكن لم تتركني واحدة منها برفقة هذا الظن المستحيل الهزيل أنه ربما، وبطريقة ما، كان الأمر برمته حقيقيًّا أن هناك **أبوابًا** مخبأة عند كل بقعة في الظل تنتظر من يفتحها، وأن امرأة قد تخلع عنها جلد طفولتها، مثل الثعبان، وتلقي بنفسها في المجهول المضطرب. بدا من غير المحتمل أن السيد لوك قد

يمنحني شيئًا أسطوريًّا، بغض النظر عن شعوره بالأسف تجاهي، إذًا كيف وجد الكتاب طريقه إلى صندوق الكنز الخاص بي في الحجرة الفرعونية؟

لكن غموض الأمر بدا هزيلًا وبعيدًا تحت وطأة الشيء الذي ما زال جاثمًا على صدري، بدأت أدرك كيف سيظل موجودًا على الدوام وكيف سيلتصق بلحمي كطبقة جلد ثانية، تسمم في سرية كل شيء ألمسه.

شعرت باللكزة الرطبة لأنف باد، إذ ثنى نفسه تحت ذراعي كما فعل عندما كان جروًا صغيرًا. كان الجو شديد الحرارة، وشمس شهر يوليو تنزّ عبر ألواح الأرضية في تلك اللحظة، وتحمص السقف النحاسي، لكنني لففت ذراعي حول باد ودفنت وجهي في فرائه، رقدنا بجسدين لزجين متعرقين بينما أشرقت الشمس وأصدر منزل لوك صريرًا وهمهمة من حولنا. عندما فُتِحَ الباب كنت أنجرف إلى نوم قسري بسبب الدوار الناتج عن الحرارة العالية. داعبت أنفي رائحة قهوة ونما إلى سمعي وقع خطوات حازمة مألوفة على الأرضية.

حل بعض التوتر الخفي في صدري نفسه، متنهدًا في راحة، إن جاين ما زالت هنا.

ارتدت جاين ثيابها وكانت منتبهة على نحو أوحى بأنها ظلت مستيقظة وقتًا طويلًا، وامتنعت عن إزعاجي حتى الوقت المناسب. وضعت قدحين ساخنين على رف الكتب، وسحبت كرسيًّا صغيرًا إلى جانب سريري، ثم جلست وذراعاها متقاطعتان بأناقة.

- صباح الخير يا جانيوري.

ترددت نبرة حازمة في صوتها، نبرة عملية، ربما يوم واحد هو مدة الحداد المناسبة على أب غائب من الأساس، ربما غضبت مني فحسب لأنني تأخرت في النوم محتلة غرفتنا.

- سمعت من الفتيات في المطبخ أن الحفلة كانت، أوه، ملآنة بالأحداث.

أصدرت صوت عويل يفيد بأنني لا أود مناقشة الأمر.

- هل صحيح أنك ثملت، وصرخت في وجه السيد لوك، ثم اندفعت خارجة من حجرة التدخين؟ وبعد ذلك، إذا لم يكن من أخبروني مخطئين، اختفيت مع الشاب زابيا؟

كررت العويل نفسه بنبرة أعلى. رفعت جاين حاجبيها فحسب، خبأت وجهي بيدي، وركزت حدقتَي عيني على الضوء الهزيل المتسلل من جفوني ثم قلت:

- نعم.

ضحكت جاين، قهقهة صاخبة جعلت باد يقفز.

- ما زال هناك أمل فيكِ، في بعض الأحيان ظننتك أجبن من مواجهة العالم، لكن ربما أنا مخطئة.

توقفت، مستعيدة رزانتها:

- عندما قابلت والدك للمرة الأولى، أخبرني أنك طفلة جريئة مثيرة للمشكلات، أتمنى أن يكون ذلك صحيحًا، ستحتاجين إليه.

أردت أن أسألها إذا تحدَّثَ كثيرًا عني، وماذا كان يقول، وإذا ذكر يومًا أنه سيأخذني معه، لكن الكلمات تجمعت في حلقي. ابتلعت ريقي:

- لماذا؟

عاد ذلك التعبير الحازم شبه المنزعج إلى وجهها:

- لا يمكن أن تبقى الأشياء على حالها إلى الأبد يا جانيوري، لا بد وأن تتغير الأمور.

أوه، حسنًا، هكذا إذًا، ستخبرني أنها راحلة قريبًا، وستعود إلى موطنها، إلى مرتفعات شرق إفريقيا البريطانية، وستتركني بمفردي في هذه الحجرة الرمادية الصغيرة. حاولت سحق الرعب الذي ينبش بداخل صدري.

- أعرف أنك راحلة.

تمنيت لو بدوت هادئة وناضجة، تمنيت ألا تلاحظ الطريقة التي كورت بها الملاءات في قبضتي.

- بما إن... بما إن والدي ميت.

– مفقود.

تداركتني.

– معذرة؟

– والدك مفقود وليس ميتًا.

هززت رأسي، رافعة مرفقًا واحدًا:

– السيد لوك قال...

تكورت شفتا جاين، وقامت بإشارة مثل امرأة تصطاد بعوضة:

– لوك ليس الرب يا جانيوري.

قد يكون كذلك، لم أجب لكنني أدركت أن الإنكار أصاب وجهي بالتصلب.

تنهدت جاين في وجهي، لكن صوتها عندما عاودت الحديث كان أرق، يميل إلى التذبذب.

– لديّ سبب لأظن خيرًا، قام والدك بتأكيدات معينة، لم أفقد الأمل في عودة جوليان، ليس بعد، وربما لا يفترض أن تفقدي الأمل أنتِ أيضًا.

بدا أن الشيء الأسود يحكم قبضته حولي، برز كصدفة نوتيلوس[1] خفية تحميني من كلماتها، القاسية الممزوجة بالأمل، أغلقت عينيَّ مجددًا، وتدحرجت بعيدًا عنها.

– لا أرغب في تناول القهوة، شكرًا لك.

سحبت نفسًا حادًا، هل أسأت إليها؟ جيد، ربما ترحل فحسب دون الادعاء أنها ستفتقدني، دون وعود كاذبة حول البقاء على اتصال. لكنها همست بعد ذلك:

– ما هذا؟

وشعرت بيدها تلمس الملاءات في ظهري. انزلق شيء صغير شبه مربع من تحتي، وقفت ورأيت «الأبواب العشرة الآلاف» في قبضتها، أطراف أصابعها تترك أثرًا أبيض حيثما تضغط على الغلاف.

---

(1) نوتيلوس: حيوان بحري من طائفة الرأسقدميات، يتألف من ستة أنواع. بعد العيش دون تغيير لملايين السنين غالبًا ما تعرف بـ «المتحجرات الحية».

- هذا ملكي، إذا لم...
- من أين حصلتِ عليه؟

كان صوتها خاليًا تمامًا من الانفعالات، لكن مُلحٌّ على نحو غريب.

قلت بدفاعية:

- كانت هدية، حسبما أظن.

لكنها لم تكن منصتة، كانت تقلب في صفحات الكتاب ويداها ترتعشان قليلًا، وعيناها تنزلقان عبر الكلمات كما لو كانت رسالة ضرورية موجهة لها فحسب. انتابتني غيرة غير منطقية غريبة.

- هل يقول أي شيء عن الإيريمو؟ النساء النمرات؟ هل عثر...

جاء صوت طرق عنيف على الباب، فوقف باد، كاشفًا عن سنٍّ بيضاء.

- آنسة جاين، يود السيد لوك الحديث معك على انفراد، إذا سمحت.

كان ذلك السيد ستيرلينج، يبدو كعادته مثل آلة كاتبة تعلمت بشكل ما السير والكلام. حملقت أنا وجاين إلى بعضنا بعضًا.

لم يسبق أن تبادل السيد لوك حديثًا انفراديًّا مع جاين، طوال السنتين اللتين قضتهما في منزله، لم يتجاوز الأمر دزينة أحاديث عامة، لقد اعتبرها ضرورة مؤسفة، مثل مزهرية قبيحة يتحتم على المرء الاحتفاظ بها لأنها هدية من صديق. شاهدت حلق جاين يتحرك، مبتلعًا أي عاطفة جعلت راحتيها تتركان بقعًا قاتمة رطبة على الكتاب المغلف بالجلد.

- سأحضر حالًا يا سيد ستيرلينج، شكرًا لك.

من الجانب الآخر للغرفة، صدرت جلبة نحنحة ضُبطت نغمتها باحتراف:

- الآن، إذا سمحتِ.

أغلقت جاين عينيها، تحرك فكها في إحباط ثم صاحت:

- حسنًا يا سيدي.

وقفت، ودسَّت كتابي في جيب تنورتها، مسندة راحتها إليه كأنما تطمئن نفسها بوجوده، وبصوت أكثر هدوءًا همست:

- سنتحدث عندما أعود.

كان ينبغي أن أتعلق بتنورتها مطالبة بتفسير، كان يفترض أن أقول للسيد ستيرلينج أن يغلق فمه ثم أستمتع بلحظة الصمت التي تلي ذلك، لكنني لم أفعل. تحركت جاين نحو الردهة، وساد الصمت والهدوء كل شيء مجددًا، باستثناء دوامة مضطربة من ذرات الغبار التي تزعزعت بمرورها.

قفز باد إلى الأرض، وتمدد، وهزَّ نفسه، ضباب خفيف من الشعيرات البرونزية انضم إلى الغبار، يلمع في أشعة الشمس، رجعت إلى المرتبة، يمكنني سماع النقر الخفيف لمقصات البستاني في الخارج بالحدائق. الأزيز البعيد لسيارة تسير متجاوزة الأبواب الحديدية المصفحة، ودقات قلبي المتسارعة، ترفرف أمام ضلوعي مثل شخص يدق بعنف على باب مغلق، لقد أخبرني السيد لوك أن والدي ميت، تقبلي الأمر، أخبرني بذلك، وفعلت، لكن ماذا إذا...؟

تدفق إرهاق كريه في أطرافي، كم عامًا من حياتي قضيته في انتظار والدي، مؤمنة أنه سيعود في الغد أو اليوم الذي يليه؟ أندفع لجمع البريد بحثًا عن خطِّه الأنيق في الكومة؟ أتأمل وأحاول ألا أنتظر اليوم الذي سيعود فيه إلى المنزل ليقول: «جانيوري، لقد حان الوقت». وسأذهب معه إلى المجهول اللامع...

بالطبع، يمكنني أن أجنب نفسي هذا الإحباط الكبير الأخير.

تمنيت لو تركت جاين كتابي، أردت الهروب مجددًا إلى مسعى أدي نحو فتاها الشبح، لقد قضت سنوات عديدة تبحث فحسب عن خيط الأمل الأضعف والأقل رجحانًا، تساءلت ماذا كانت ستفعل لو كانت مكاني.

«اذهبي واعرفي الإجابة بنفسك»، جاءت الإجابة في صوت حازم قادم من الجنوب، لدرجة أنني ظننت أنه لا بد وأن يكون صوت أدي، إذا كانت شخصًا حقيقيًّا أكثر من شخصية خيالية، رنَّ بوضوح وقوة في رأسي كما لو سمعته من قبل، «اذهبي للبحث عنه»، رقدتُ ساكنةً للغاية، أشعر برجفة خطيرة قادمة من صدري كأنها حمى مفاجئة، لكنّ صوتًا أكثر نضجًا ورصانة ذكرني أن «الأبواب العشرة الآلاف» مجرد رواية، وأن الروايات مستشار غير جدير بالثقة؛ ليست معنية بالمنطق أو الرزانة، وتنشغل بالمأساة والتشويق،

الفوضى وكسر القواعد، الجنون والألم، وستقودك الروايات نحو مثل هذه الأمور بخداع يوازي زمّارًا يغوي الفئران بالاتجاه نحو النهر.

سيكون من الحكمة البقاء هنا، أتسول طريق عودتي إلى نعم السيد لوك بعد كارثة الليلة الماضية، وأبقي أحلامي الطفولية مسجونة حيث تنتمي، وأتعلم نسيان صوت أبي المنخفض الصادق بينما يقول: «أعدك».

لم تعد قط لأجلي، لم تنقذني قط.

لكن ربما، إذا كنت شجاعة ومتمردة وبالغة الحماقة، وإذا أنصتُّ إلى ذلك الصوت الواضح الجريء في قلبي، الذي يبدو مألوفًا وغريبًا، قد أستطيع إنقاذ كلينا.

لم أتوقع رؤية أي شخص في طريق خروجي، كان ينبغي أن أفعل، العديد من رجال الجمعية كانوا يجلسون باعتبارهم ضيوف لوك المعززين، يشغلون غرف الضيوف المبهرجة في الطابق الثاني، وكان المنزل لا يزال يعج بالخدام المستأجرين الذين ينظفون ما بعد الحفل، لكن الهروب من المنزل ينطوي على سيناريو عتيق دقيق للغاية، كان يُفترض أن أتسلل من الباب الأمامي برفقة باد إلى ممر السيارات مثل شبحين. لاحقًا، ربما يندفع لوك إلى غرفتي بالطابق الأعلى، ويعثر على ملاحظتي -لا تحتوي على أي معلومات بل اعتذار، وشكر على سنوات من كرمه وعطفه-، ويسبُّ بهدوء، ربما يتطلع إلى الخارج من النافذة، خلفي، بعدما فات الأوان كثيرًا.

باستثناء أن السيد لوك كان واقفًا في الردهة، وكذلك السيد هافيمير.

– ... إنها مجرد طفلة يا ثيودور، سأحل الأمر في يوم أو يومين.

وقف لوك مديرًا ظهره لي، وإحدى ذراعيه تصنع إشارات واثقة مثل مصرفيٍّ يطمئن عميلًا متوترًا، والأخرى تحمل معطف السيد هافيمير الذي كان يحاول الحصول عليه، مضيّقًا وجهه في شك، عندما رآني أقف عند السلم.

– أوه، انظر إلى جائزتك الساخطة يا كورنيليوس.

ارتسم على وجه هافيمير ما يشبه الابتسامة بمعنى أن شفتاه متكورتين وأسنانه مكشوفة، استدار لوك، رأيت وجهه يتحول من الاستنكار البارد، إلى الذعر، وببطء فغر فاه.

تحت ذلك العبوس، ونظرة استنكارية لما يحدث، شعرت وكأنني أتداعى، لقد تزعزعت الثقة المتأرجحة المتهورة التي قادتني إلى هذه النقطة ودفعتني إلى ارتداء أكثر ثيابي حيوية، وحشو حقيبتي القماشية بممتلكات شبه عشوائية، وتدوين ملاحظتين مرتبة إياهما بحرفية، وشعرت فجأة كأنني طفلة تعلن هروبها من المنزل. خطر لي أنني حزمت تسعة أو عشرة كتب على الأقل، لكن ولا زوجًا واحدًا من الجوارب الاحتياطية.

فغر لوك فاه، ينتفخ صدره بالعظة القادمة، ولكنني أدركت شيئًا لتوّي. إذًا هو في الأسفل مع هافيميير، فمن الواضح أنه أنهى اجتماعه مع جاين، لكن جاين لم تعد.

قاطعته:

- أين جاين؟

كان يُفترض أن تعود إلى غرفتنا وتجد الملاحظة التي خبأتها في كتاب «توم سويفت ومنطاده»، ثم تلحق بي في بوسطن، حيث سنحجز على متن باخرة متجهة شرقًا، لنبدأ مغامرتنا، وذلك إذا أرادت فعل ذلك، تجنبت خطتي البارعة ضرورة توجيه السؤال لها وجهًا لوجه، واحتمالية سماعها تقول لا.

امتقع وجهه من الغيظ:

- عودي إلى غرفتك يا فتاة، سأتعامل معك لاحقًا، في الواقع إنك محتجزة في غرفتك حتى يأتي الوقت الذي أطل...

- أين جاين؟

تشدق هافيميير بينما يتابع الموقف:

- من المريح معرفة أنك لست وقحة فقط عندما تثملين يا آنسة سكالر.

تجاهله لوك:

- اصعدي إلى الأعلى يا جانيوري، الآن!

أصبح صوته منخفضًا وملحًّا. نظرت بعيدًا عن وجهه لكنني شعرت بعينيه الباهتتين تتعلقان وتتشبثان بلحمي، لتدفعاني إلى الخلف.

- عودي إلى غرفتك...

ولكنني سئمت من الاستماع إلى السيد لوك، أرهقني ثقل رغبته الذي يسحقني إلى أجزاء أصغر وأصغر، تعبت من التزام مكاني.

- لا.

خرجت على هيئة همسة مرتعشة. ابتلعت ريقي، ألمس بأصابعي حرارة باد البرونزية:

- لا، سأرحل.

خفضت رأسي وربّعت كتفيّ، مثل امرأة تسير عكس اتجاه الرياح، ثم حملت حقيبتي على السلالم وعبر الردهة. حافظت على عمودي الفقري مستقيمًا، كنا على وشك تجاوزهما، تقريبًا على وشك الوصول إلى المقبض النحاسي للباب الأمامي، عندما ضحك هافيميير، كان فحيحًا بشعًا مجلجلًا، أثار غضب باد أسفل راحة يدي، لذا لففت أصابعي عبر ياقته.

- وإلى أين يمكن لشيء مثلك أن يذهب؟

سأل، ثم رفع عصاه ولكز سروالي القماشي في سخرية. قلت:

- لأعثر على والدي.

لقد سئمت الكذب أيضًا.

تحولت ابتسامة هافيميير التي لا تشبه الابتسامة إلى شيء مصطنع، لمعت عيناه بشيء غير ملائم للموقف، ربما ترقب أو بهجة، عندما اقترب ناحيتي إصبعًا مكوَّرة مغطاة بالقفازات تحت ذقني، رافعًا رأسي لأعلى:

- والدك المرحوم حسبما أظن.

كان يُفترض أن أطلق ياقة باد في تلك اللحظة، وأدعه يسحق هافيميير إلى شرائط حمراء، كان يجدر بي أن أصفعه، أو أتجاهله، أو أندفع نحو الباب. أي شيء سوى ما فعلته في الحقيقة.

- ربما، وربما لا، ربما هو ضائع فحسب، في مكان ما في الخارج، ربما عثر على **باب** وسقط خلاله وهو الآن في عالم آخر، عالم أفضل حيث لا يوجد أشخاص مثلك.

وبينما تنطلق ردودي، كان ما يحدث في مكان ما بين الجنون الصارخ والمثير للشفقة، انتظرت تنهيدة السيد لوك، ذلك الصفير الصادر عن ضحكة السيد هافيميير، ولكن بدلًا من ذلك، صمت كلٌ منهما، ذلك النوع من الصمت الذي يجعلك تقشعر، يدفعك إلى التفكير في الذئاب والثعابين التي تنتظرك في العشب الطويل ذلك النوع من الصمت الذي يجعلك تدرك أن قدميك زلّتا على نحو فادح، حتى لو كنت لا تعرف كيف.

استقام السيد هافيميير، تاركًا ذقني تسقط، وثنى أصابعه في قفازات القيادة كأنما أصيبت بالتعب.

- كورنيليوس، ظننت أننا اتفقنا على إبقاء بعض المعلومات محفوظة لأعضاء الجمعية، في الواقع، ظننت أن تلك دعامة أساسية لمنظمتنا، وفقًا للمؤسس نفسه.

للمرة الثانية في ذلك الصباح، انتابني شعور بأن المحادثة تُجرى فجأة بلغة غير مألوفة.

- لم أخبرها بأي شيء لعين.

كان صوت لوك فظًّا، لكن ظهرت نغمة مكتومة فيه، كنت لأقول إنها تُدعى الخوف، باستثناء أنني لم أسمع قط لوك خائفًا. اتسعت فتحتا أنف هافيميير:

- هكذا إذًا. لوك! إيفانز!

ارتطمت خطوات رجلين عملاقين عند أسفل الدرج بمجرد أن صرخ عليهما، يحملان أمتعة نصف ممتلئة في أيديهما.

- سيدي هافيميير.

لهثا.

- اصطحبا هذه الفتاة إلى غرفتها، هلّا فعلتما، احبساها، واحترسا من الكلب.

لطالما كرهت في الكتب عندما تتجمد شخصية من الخوف. «أفيقي!» أردت الصراخ في وجهها، «افعلي شيئًا!» أتذكر نفسي واقفة هناك وحقيبتي القماشية تتدلى على نحو سخيف من كتفي، وأصابعي مرتخية على ياقة باد، أردت أن أصرخ في نفسي «افعلي شيئًا!»

لكنني كنت فتاة مطيعة، ولم أفعل أي شيء، صمتُّ بينما نقر هافيميير بعصاه ليحث رجليه على الإسراع، فيما ثار غضب لوك واعترض، بينما يقبض بيديه القويتين على مرفقي.

بمجرد أن انفجر باد مزمجرًا شجاعًا، وألقى أحد الرجلين معطفًا ثقيلًا على رأسه المتخبط وأطاح به أرضًا،

كنت قد اجتُرِرت نصف المسافة عبر السلالم، ثم دُفعت إلى حجرتي، وأدير القفل وطقطق في مكانه مثل المدق الحديدي المزيت لمسدس السيد لوك.

لم أصدر أي صوت قط، حتى سمعت صوت نباح غاضب والرجال يشتمون ثم سلسلة من خبطات نعل في جسد، وبعد ذلك ساد صمتٌ شنيعٌ، عند تلك اللحظة، كان الأوان قد فات.

وليكن ذلك درسًا لك، إذا كنت مطيعًا للغاية وهادئًا أكثر من اللازم لمدة أطول مما ينبغي؛ ستدفع ثمن ذلك، ودائمًا ما ستدفع الثمن في نهاية المطاف.

باد باد باد، خربشت على الباب، ولويت المقبض حتى صرّت عظام رسغي، تصاعدت أصوات الرجال إلى أعلى السلالم، وانسلّت من تحت بابي، لكنني لم أسمعهم بسبب اهتزاز المقابض، وعويل بغيض بلا مصدر.

وكان هذا عندما التقطتُّ صوت هافيميير المزعج على السلم «هل يمكن لأحد أن يخرسها؟»، أدركت أن الصوت قادم مني.

توقفت، سمعت هافيميير يصرخ مجددًا عند أسفل الدرج:

- أخرج ذلك الشيء من هنا، ونظف هذه الفوضى يا إيفانز.

ثم لا شيء سوى صوت اندفاع الدماء في أذني، وصمت انهياري.

عدت إلى السابعة من عمري مجددًا، ودار مفتاح ويلدا لتوه في القفل الأسود الحديدي، وتركتني محبوسة ووحيدة. تذكرت الحوائط تضغطني فيما بينها مثل عينة نباتية، والطعم المرضي الحلو للشراب على الملعقة الفضية، ورائحة خوفي. ظننت أنني نسيت، ولكن الذكريات كانت في وضوح الصور. تساءلت على نحو حيادي، إذًا كانت موجودة منذ البداية، تتوارى خلف البصر وتهمس لي بمخاوفها.

إذًا تقبع خلف كل فتاة مطيعة، جلبة وضوضاء من الشتائم آتية من ردهة بعيدة.

باد، انثنت قدماي من تحتي وانزلقت على الباب بينما أفكّر، هذا ما يبدو عليه الشعور بالوحدة، الذي ظننت أنني أعرفه من قبل، لكن برحيل جاين وباد، ربما أتحول إلى قطن وغبار في هذه الغرفة الرمادية المتهالكة ولن يهتم أحد على وجه الأرض، برز ذلك الشيء الأسود مجددًا ووضع أجنحته من دخان الفحم حول كتفيَّ، بلا أم، بلا أب، وبلا أصدقاء.

لقد كان خطئي، أخطأت بالتفكير أنني أستطيع الهروب هكذا، بمجرد استجماع شجاعتي والسير إلى المجهول الواسع مثل بطل ينطلق في مسعاه، ولأنني ظننت أنني أستطيع لَيّ القوانين، قليلًا فقط، لأكتب نفسي في قصة أفضل وأكثر ملحمية.

لكن القوانين يسنها رجال أمثال لوك وهافيميير، رجال أثرياء في حجرات تدخينهم الخاصة يجذبون أغنياء العالم إليهم مثل عناكب متأنقة تتوسط شبكة ذهبية، إنهم الأشخاص المهمون، الأشخاص الذين لا يمكن حبسهم أبدًا في الحجرات الصغيرة ونسيانهم، أفضل ما يمكن أن أتمناه هو عيش الحياة زاحفة في ظلالهم الكريمة، مخلوق بين-بين، غير محبوب أو ملعون، لكن مسموح له بحرية التجول ما دام لن يتسبب بأي مشكلات.

ضغطت عينيَّ بأعقاب راحتيَّ، أردتُ أن ألقي بتعويذة وأعود بالزمن لما قبل الثلاثة أيام الأخيرة، لأجد نفسي واقفة ببراءة واستمتاع في الحجرة الفرعونية، أمثل أمام الصندوق الأزرق، أردت أن أختفي مجددًا في كتاب الأبواب العشرة الآلاف، أن أفقد نفسي في مغامرات أدي المستحيلة، لكن جاين أخذت الكتاب ورحلت.

أردت أن أعثر على **باب** لأكتب قصتي خلاله، لكن كان ذلك جنونًا إلا أن ما تردد في ذاكرتي، هو أن الكتاب موجود، وعينا جاين اللتان أحاطت بهما هالة من السواد واعتلى قسمات وجهها تعبير ملح ما إن أمسكت بالكتاب، كما تجمد هافيميير ولوك بمجرد ذكر **الأبواب**، ماذا لو...؟

تأرجحتُ على حافة تلك الهاوية الخفية، أمنع نفسي من القفز في المحيط الهائج الصاخب. في هدوء، وقفت ثم اتجهت إلى الخزانة، صندوق مجوهراتي

ما هو إلا صندوق حياكة قديم استعملته وملأته بالكنوز التي جمعتها خلال سبعة عشر عامًا، ريشًا وأحجارًا وقلائد من الحجرة الفرعونية، ورسائل من والدي مطوية ومُعاد طيها عدة مرات، إلى حدّ أن أصبحت الثنيات شفافة. مررتُ بإصبعي على بطانة الصندوق حتى شعرت بالحافة الباردة لعملة.

تمنح الملكة الفضية ابتسامتها الغريبة لي، تمامًا مثلما كنت في السابعة من عمري، شعرت بالعملة ثقيلة وحقيقية إلى حدٍّ ما في راحة يدي، اجتاحني دوار، كأن طائرًا بحريًّا ضخم الجناحين انقضَّ على روحي، حاملًا معه الملح وشجر الأرز والشمس المألوفة وغير المألوفة لعالم آخر.

سحبت نفسًا ثم الآخر، جنون، لكن والدي متوفى، وبابي مغلق، وباد يحتاج إليَّ، ولا يوجد طريق آخر سوى الجنون.

قفزت من أعلى تلك الحافة الخفيّة، وغطست في تلك المياه المظلمة في الأسفل حيث يتحول الخيال إلى حقيقة، ويسبح المستحيل بزعانف برّاقة ويمكّنني من تصديق كل شيء.

وبالإيمان حلّت راحة مفاجئة، خبأت العملة في تنورتي، واتجهت إلى المكتب أسفل النافذة، وعثرت على قصاصة من الورق نصف مستعملة، وفركتها قليلًا على سطح المكتب، توقفت للحظة، مستجمعة كل ذرة من إيماني الثمل المشوش، وأخرجت قلمي وكتبت:

يفتح الباب.

حدث الأمر مثلما حدث عندما كنت في السابعة من عمري، عندما كنت صغيرة بما يكفي لأومن بالسحر.

دارت سن القلم بالقرب من النقطة في نهاية الجملة، وبدا الكون كأنه يتنهد من حولي، ويهزّ كتفيه الخفيتين، والضوء النافذ إلى غرفتي الذي صار باهتًا هزيلًا بسبب غيوم ما بعد الظهيرة، أصبح فجأةً ذهبيًّا أكثر.

ومن خلفي؛ سمعت صرير الباب ينفتح.

أنذر شعور بالجنون مسكر ومخدر بأن يبتلعني، تبِعَهُ إرهاق مؤلم، وظلام مدوِّخ دبق نبض خلف عينيَّ، لكن لم يكن لديَّ وقت لذلك.

– باد!

ركضتُ بأرجل مرتعشة، متجاوزةً عددًا من الضيوف المذهولين، وصناديق العرض ذات اللافتات النحاسية الأنيقة، وقذفت بنفسي إلى أسفل الدرج.

تغير المشهد في الردهة، إذ رحل السيد هافيميير، والباب الأمامي لا يزال مفتوحًا من خلفه، والسيد لوك يتحدث إلى واحد من خادميه الغليظين باقتضاب وصوت خفيض، كان الرجل يهز رأسه، ويمسح يديه في منشفة بيضاء، مخلفًا بقعًا بلون الصدأ، دماء.

«باد»، كنت أنوي الصراخ باسمه، لكن نفد الهواء من صدري الضيق.

تحولت رؤوسهم ناحيتي.

– ماذا فعلت؟

في تلك اللحظة كنت أهمس تقريبًا.

لم يجبني أيٌّ منهما، نظر إليَّ رجل هافيميير بينما يطرف عينيه ويعلو وجهه القلق مثل رجل يشكك فيما تراه عيناه.

– لقد حبستها يا سيدي، أقسم إنني فعلت مثلما طلب السيد هافيميير... كيف لها...

همس لوك:

– اصمت.

خرس الرجل فجأة.

– اخرج الآن.

هرع الخادم خارجًا من الباب خلف سيده، بينما ينظر إليَّ من فوق كتفه في ارتياب يسكنه الذعر، التفت لوك ناحيتي، ارتفعت يده في استعطاف أو إحباط، لم أكترث لأيّ منهما وقلت:

– أين باد؟

كان الهواء لا يزال هاربًا من رئتيَّ كأن قفصي الصدري سقط في يد قبضة عملاقة.

– ماذا فعلوا به؟ كيف سمحت لهم؟

– اجلسي يا فتاة.

- سأفعل بحق الجحيم.

لم يسبق وتحدثت مع أحد بهذه الطريقة في حياتي، لكن في تلك اللحظة ارتعشت أطرافي بشيء ساخن متصاعد.

- أين هو؟ وجاين، أحتاج إلى جاين... اتركني.

عبر السيد لوك نحو الدرج وأمسك ذقني بقسوة، ضاغطًا فكي بأصابعه، ثم أمال وجهي لأعلى، وعيناه في عينيَّ.

- اجلسي.

ارتعدت قدماي وتصلبتا، قبض لوك على إحدى ذراعيّ وحمل جزءًا من جسدي إلى أقرب حجرة جانبية، حجرة الضيافة، وهي عبارة عن ردهة تعج برؤوس غزلان محنطة، وأقنعة مصنوعة من خشب استوائي قاتم، ثم قذف بي على كرسي ذي ذراعين، تشبثت به، مترنحة ومصابة بدوار ولا يزال الإجهاد يعصف بي.

سحب لوك كرسيًّا آخر عبر الغرفة، فانثنت السجادة أسفل قدميه، ثم جلس قريبًا للغاية أمامي، وركبتاه تضغطان ركبتيَّ، انحنى إلى الوراء مصطنعًا الهدوء.

- لقد بذلت أقصى مجهود معك.

قال ذلك ببرود.

- قضيت كل تلك السنوات أرعاكِ وأهذبكِ وأحميكِ... ومن بين كل عناصر مجموعتي، أحببتُكِ أنتِ أكثر من أي شيء.

أغلق قبضته في إحباط:

- ولكنك تصرّين على الرمي بنفسك في المهالك.

- سيد لوك، من فضلك، باد...

مال نحو الأمام، وعيناه الباردتان تحدقان إلى عينيَّ، وذراعاه تستندان إلى الكرسي.

- لم لا يمكنك تعلم التزام مكانك؟

انخفض صوته عندما وصل إلى الكلمات الثلاث الأخيرة، متثاقلًا بلهجة أجنبية حلقية أجهلها، جفلتُ، فابتعد وسحب نفسًا طويلًا.

- أخبريني كيف خرجت من حجرتك؟ وكيف بحق جميع الآلهة عرفت بأمر الانحرافات؟

هل يقصد **الأبواب**؟ للمرة الأولى منذ سمعت تلك الأصوات المريعة لارتطام نعل حذاءٍ بجسد، خرج باد من عقلي تمامًا، لكن لم يبدُ أن شيئًا سيحل محلّه سوى الفكرة البعيدة أن السيد لوك بالتأكيد لم يُعْطِني كتاب «الأبواب العشرة الآلاف».

- لم يكن والدك، أظن أننا يمكننا أن نكون متأكّدين بوضوح، تلك البطاقات البريدية الفاترة بالكاد بها مساحة تكفي طوابع البريد.

نخر لوك عبر شاربه:

- هل كانت الإفريقية اللعينة؟

رمشت بعينيَّ بينما أنظر إلى وجهه.

- جاين؟

- أوه، لها علاقة بالأمر إذًا! كثيرًا ما شكَّكْتُ بالأمر، سأتعقّبها لاحقًا.

- تتعقبها...؟ أين هي؟

- لقد طُرِدت هذا الصباح، أيًّا ما كانت خدماتها، لم تعد مرغوبة.

- لكن لا يمكنك ذلك! لقد وظف والدي جاين، لا تستطيع التخلص منها.

كما لو أن ذلك مهم، وكأني أستطيع استعادة جاين عبر تقنية أو ثغرة ما.

- لم يعد والدك يوظف أي شخص، مع الأسف، قلّما يفعل الموتى شيئًا، لكن ذلك ليس شاغلنا الرئيسي في هذه اللحظة.

عند نقطة ما في المحادثة فقد لوك حدّة الثائر وأصبح مهذبًا هادئًا فاترًا، كأنما يقدّم اجتماع مجلس الإدارة أو يملي على السيد ستيرلينج بعض الأوامر:

- في الواقع، لا يهم كيف حصلت على معلوماتك في هذه المرحلة، ما يهمني هو أنك تعرفين أكثر من اللازم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بمعزل عن الجميع، وتملكين من سوء التقدير اللامتناهي ما يجعلك

تبوحين بمثل هذه المعلومات إلى واحدٍ من أكثر، امممم، أعضائنا طيشًا.

تنهّد وهزَّ كتفيه بقلة حيلة:

– يستخدم ثيودور الأساليب الحاسمة الحازمة، وأخشى أن حماسته ستزداد بسبب خدعتك السحرية الصغيرة مع الباب المغلق. حسنًا، إنه شاب.

إنه يكبرك في العمر، هل هذا ما شعرت به أليس في حفرة الأرنب؟

– ولا بد أن أعثر على طريقة حتى أبقيك آمنة ومتوارية عن الأنظار، لقد قمت بالفعل ببعض الاتصالات.

تخبطت أسقط سقوطًا حرًّا:

– اتصالات بمن؟

– أصدقاء وعملاء.

رسم بيده شكل مربع:

– عثرت لك على مكان، قيل لي إنه احترافي وعصري للغاية ومريح، لا يشبه تلك الزنزانات في العصر الفيكتوري التي كانوا يرمون الناس بها، يتميز براتلبورو بسمعة ممتازة.

أومأ لي كأنني يُفترض أن أكون سعيدة بما أسمع.

– براتلبورو؟ انتظر...

ضاق صدري.

– مُعتزل براتلبورو؟ المصحة؟

سمعت ضيوف لوك يتهامسون بالاسم، إنه المكان حيث يسجن الأثرياء عمّاتهم العذراوات المجنونات وبناتهم المزعجات.

– لكني لست مجنونة! لن يقبلوا بي.

تحولت قسمات وجه لوك إلى ما يشبه الشفقة:

– أوه يا عزيزتي، ألم أعلمك قيمة المال بعد؟ وإلى جانب ذلك، حسبما يعلم الجميع، إنك يتيمة صغيرة من أصل هجين، سمعت عن وفاة

والدها وبدأت تثرثر حول أبواب سحرية، وأعترف أن الأمر تطلب مجهودًا زائدًا قليلًا لأقنعهم بالتغاضي عن لونك، لكني أضمن لك أنهم سيقبلون بك.

دار الأمر في رأسي مثل شريط فيلم، بطاقة العناوين تومض بجمل السيد لوك إلى الجمهور «والدك ميت يا جانيوري»، ثم مشاهد بلهاء لفتاة صغيرة تبكي وتهذي، «لقد فقدت عقلها العزيزة المسكينة»، وبعد ذلك تظهر سيارة سوداء تمر أسفل قوس حجري كتب عليه «مصحة»، بينما يومض البرق في الخلفية، وينتهي بمشهد لبطلتنا مقيدة إلى سرير مشفى، تحدق بفتور إلى الحائط، لا.

السيد لوك كان يتحدث مجددًا:

- سيستمر الأمر لبضعة أشهر فقط، وربما عام، أحتاج إلى الوقت لأتحدث مع الجميع، ولنهدأ، وأشرح طبيعتك المطيعة.

ابتسم لي، وعلى الرغم من الرعب الدائر بداخلي، رأيت الطيبة في الاعتذار.

- أتمنى لو كان الوضع مختلفًا، ولكنه الحل الوحيد لأبقيك آمنة.

كنت ألهث وعضلاتي تنتفض:

- لا يمكن أن تكون جادًّا، لن تفعل ذلك.

- هل تظنين أن بإمكانك العبث عند الحدود الخارجية للأشياء فحسب؟ كأن تغمرين إصبعًا في هذه المياه؟ إنها أشياء بالغة الخطورة يا جانيوري، حاولت أن أخبرك، نحن نفرض مسار الأشياء الطبيعي، ونحدد أقدار العوالم، يومًا ما قد تستطيعين مساعدتنا.

مدَّ يده إلى وجهي مرة أخرى، فتراجعت.

سحب إصبعه تحت خدي بالطريقة التي قد يلمس بها قطعة من الخزف الصيني، برقة وشراهة.

- أعرف، يبدو الأمر قاسيًا، لكن صدقيني عندما أقول إنه لمصلحة الجميع.

وبمجرد أن التقت أعيننا، شعرت بتوق طفولي غريب لأثق به، لأنطوي على نفسي، وأدع العالم يدور من حولي، مثلما فعلت دائمًا، لكن...

باد.

حاولت الهرب، لقد حاولت حقًّا، ولكن قدميَّ لا تزالان ضعيفتين ومرتعشتين، كما أن لوك أمسك بي في منتصف المسافة تقريبًا قبل أن أخرج من الردهة.

جذبني إلى خزانة المعاطف، أخمش وأبصق، ثم قذفني إلى الداخل كما يفعل الطاهي عندما يرمي بأطراف البقر في البرّاد، صُفق باب الخزانة، وبت عالقة في الظلام لا ترافقني سوى رائحة العفن القوية لمعاطف من الفرو لم يرتدِها أحد، وصوت أنفاسي.

- يا سيد لوك!

دوى الصوت عاليًا استعطافيًّا:

- سيد لوك من فضلك، أنا آسفة...

هذيت وتوسلت وبكيت، وظل الباب مغلقًا.

يُفترض أن البطلة الباسلة تجلس وفمها مغلق في زنزانتها، بينما تعد خطط هروب شجاعة، وبقلب مخلص، توجه مشاعر الكراهية إلى أعدائها، لكن بدلًا من ذلك، توسَّلت منتفخة الأعين ومرتعشة.

من السهل الشعور بالكراهية تجاه الشخصيات في الكتب، أنا قارئة أيضًا وأعرف كيف تتحول الشخصيات إلى أشرار بإشارة من المؤلف، -طرفا حرف الـ «V» الكبير يشبهان حدّيْ خنجر أو أسنان مدببة- لم يبد الأمر هكذا في الحياة الواقعية، فالسيد لوك لا يزال كما هو، الرجل الذي أخذني تحت جناحه المكسو بالبدلة، عندما لم يشغل والدي نفسه بتربيتي، لم أرد حتى أن أكرهه، كل ما أردت فعله هو التراجع عن كل ما حدث، وتغيير الساعات الأخيرة.

لا أعلم كم من الوقت انتظرت في الخزانة، هذا هو الجزء من القصة حيث يصبح الوقت متقلبًا متأرجحًا، في نهاية المطاف، سمعت طرقًا مثيرًا للفضول عند الباب الأمامي، وصوت السيد لوك يقول:

- تعالوا، تعالوا أيها السادة، حمدًا للرب أنكم هنا.

جلبة من صوت وقع أقدام وصرير مفصلات الأبواب.

- إنها ثائرة بعض الشيء الآن، هل أنتم متأكدون أنكم تستطيعون التعامل معها؟

قال صوت آخر بأنه لن تكون هناك صعوبة على الإطلاق، فهو وفريقه خبرتهم واسعة في مثل هذه المواقف، ربما يود السيد لوك اللجوء إلى حجرة أخرى، ليتفادى الشعور بالضيق؟

- لا، لا، أود مشاهدة الأمر حتى النهاية.

وسمعت المزيد من أصوات نعال الأحذية، ثم صوت فتح مزلاج باب الخزانة ورأيت ظلال ثلاثة رجال يؤطرها ضوء ما بعد الظهيرة.

أحكمت أيادٍ قاسية مكسوة بالقفازات قبضتها حول أعلى ذراعي وجذبتني إلى مدخل المنزل مخدرة القدمين.

- من فضلك يا سيد لوك، لا أعرف أي شيء، لم أقصد شيئًا، لا تدعهم يأخذونني.

التصقت قطعة قماش، رطبة وحلوة كالعسل، فوق أنفي وفمي، صرخت عبرها لكنها كانت تكبر أكثر فأكثر، حتى غشى عينيَّ وأطرافي سواد معسول يخرس الأصوات المحيطة به.

اتسم شعوري الأخير بالاسترخاء السحيق، على الأقل في الظلام لم أعد مضطرة إلى رؤية عينَي السيد لوك المشفقتين تنظر في عينيَّ.

الرائحة هي أول شيء تلاحظه، قبل أن تستيقظ حتى، تدور معك في الظلام، روائح النشا والأمونيا والغسول القلوي، وشيء آخر ربما كان الخوف، مركزة ومختمرة في حوائط المشفى منذ عقود، وتفوح منك أيضًا رائحة تعرق دسمة، مثل قطعة لحم تُركت على المنضدة.

لذا عندما فتحت عينيَّ، وهي عملية مشابهة لنزع قطعتي كراميل ذابتا في جيبك، لم أكن متفاجئة عندما وجدت نفسي في غرفة غير مألوفة حوائطها بلون أخضر يشوبه الرمادي، وتفتقر إلى عناصر غرفة النوم الاعتيادية، مما يترك مساحة جرداء من أرضية مصقولة ونافذتين لا تجودان بمناظر جميلة، لدرجة أن ضوء الشمس الذي يعبر من خلالهما يبدو خافتًا بعض الشيء، خارت عضلاتي كأنهم حُلوا من عظامي، وسُحق رأسي، كنت في أمس الحاجة

لشرب الماء، لكنني لم أبدأ حقًّا في الشعور بالخوف إلا عندما حاولت الوصول إلى حزامي لأتحسس العملة الفضية، ولم أستطع بسبب الأصفاد الصوفية الناعمة الملتفة حول رسغيَّ.

لم يثمر شعوري بالخوف عن أي شيء سوى بالطبع أنه جعلني أزداد تعرقًا.

لعدة ساعات، رقدت هناك يرافقني خوفي ورأسي الذي يدق وفمي الجاف الدبق أفكر في باد وجاين ووالدي وكم أفتقد الرائحة العتيقة الغبرة لمنزل لوك، وكم أخذت الأمور منحى سيئًا للغاية، وعندما وصلت الممرضات أخيرًا، كنت قد عصرت نفسي من الانتظار.

كانت الممرضات نساءً في صلابة الحديد، أيديهن خشنة من استعمال الغسول القلوي، ونبرة أصواتهن تقنعك بفعل أي شيء. هيا، لنجلس ونأكل ونصبح فتيات مطيعات.

أمرنني، وأطعتهن، أكلت شيئًا طريًّا وبلا طعم، ربما كان أصله شوفانًا، وشربت ثلاثة أكواب من الماء، وتبولت بالأمر في حاوية حديدية مفتوحة، بل وحتى رقدت على السرير عندما أمرنني، وتركتهن يثبتن الأصفاد حول رسغيَّ.

تمثل الشكل الوحيد لتمردي -ويا إلهي كم كان تافهًا على نحو مثير للشفقة- في إفلات العملة من حزامي والإمساك بها والشعور بحرارتها ودائريتها في راحتي، نجوت من الليلة الأولى عبر التمسُّك بها والحلم بملكات ذوات وجوه فضية يبحرن في مياه أجنبية بلا قيود.

في الصباح التالي، كنت مقتنعة أن حشدًا من الأطباء القساة سيصلون في أي لحظة لإدارة جرعات الدواء أو عمليات التعرض للضرب، مثلما يحدث في أكثر القصص الإخبارية إثارة حول المصحات، استغرق الأمر ساعات طويلة من الاستلقاء على ظهري، أحدق إلى ضوء الشمس الكدر الذي يتحرك ببطء على الأرضية قبل أن أتذكر الدرس الذي تعلمته في طفولتي، وهو أن والوقت فحسب هو ما يدمر الإنسان وليس الألم أو المعاناة.

الوقت، يقبع على عظام صدرك مثل تنينٍ أسود الحراشف، والدقائق تطقطق كمخالب على الأرض، بينما تمر الساعات على أجنحة شيطانية.

عادت الممرضات مرتين وكررن طقوسهن، كنت منصاعة للغاية، وهن يتوددن إليَّ، عندما تلعثمت وأنا أقول إنني أود الحديث إلى طبيب لأن خطأً شنيعًا قد وقع وأنا لست بمجنونة حقًّا، قهقهت إحداهن:

- إنه مشغول جدًّا يا عزيزتي، ميعاد تقييمك في الغد، أو على الأقل قبل نهاية الأسبوع.

ثم ربتت رأسي مثلما لن يفعل أي بالغ مع بالغ آخر وأضافت:

- لكنك كنتِ مطيعة للغاية، لذا يمكننا إزالة هذه الأصفاد الليلة.

قالت هذه الجملة وكأنني لا بد وأن أشعر بالامتنان، لكوني غير مقيدة، ولديَّ الحرية الإنسانية الأساسية في تحريك ذراعي ولمس أشياء أخرى سوى الملاءات المنشَّاة؛ وهو ما أثارني كأن معدتي ممتلئة بالفحم، إذا تركته يشتعل سيتسبّب في اندلاع حريق، نيران ضارية ستمزق ملاءاتي المُنشاة وتسحق شوفاني في الحائط، وتصبح عيناي متوهجتين، ولن يصدق أحد بعدها أنني في كامل قواي العقلية، لذا أخمدت الفحم.

غادرن ووقفت عند نافذتي، أضغط بجبهتي الزجاج الدافئ بحرارة الصيف، حتى بدأت قدماي تؤلمانني، استلقيتُ وترصدتني تنانين الساعة، تتضخّم عندما تغرب الشمس، وتتكاثر في الظلال.

ظننت أنني قد أتهشم إلى قطع صغيرة في تلك الليلة الثانية، ولن أتمكن أبدًا من العثور على نفسي، لولا تلك الطقطقة شبه المألوفة غير الاعتيادية على الزجاج، توقفت عن التنفس.

زحفت من السرير وواجهت صعوبة في فتح مع مزلاج النافذة المتصلب، شاعرة بخَوَرٍ في ذراعيَّ، علقت النافذة بعدما فُتحت لبضعة إنشات بائسة، لكنها كانت كافية لتحمل إلى الداخل رائحة ليلة صيفية عذبة، وكافية بالنسبة إليَّ حتى أسمع من مكان بعيد في الأسفل صوتًا مألوفًا يقول:

- جانيوري، هل هذا أنتِ؟

كان ذلك صامويل، شعرت للحظة واحدة مثل رابونزل عندما جاء أميرها أخيرًا لإنقاذها من البرج، باستثناء أنني لن أستطيع حشر نفسي خارج النافذة حتى لو كان شعري ذهبيًّا طويلًا بدلًا من كونه مجعّدًا وأشعث.

همست إلى الأسفل:

- ماذا تفعل هنا؟

لم أتمكن سوى من رؤية ظل رجل على بعد عدة طوابق نحو الأسفل، ويحمل شيئًا في يديه.

- أرسلتني جاين، وقالت لي بأن أخبرك أنها حاولت رؤيتك ولكنها لم تستطع.

- لكن كيف عرفت نافذة غرفتي؟

رأيت ظله يهز كتفيه.

- انتظرت، وراقبت حتى رأيتك.

لم أقل أي شيء، تخيلته مختبئًا في الشجيرات محدقًا إلى سجني، وينتظر لعدة ساعات وساعات حتى رأى وجهي في النافذة، لتسري رعشة أسفل عظم صدري، بحسب خبرتي، من تكترث لأمرهم بشدة لا يبقون، دائمًا ما يديرون ظهورهم، ويتركونك خلفهم، ولا يعودون أبدًا، لكن صامويل انتظر.

تكلم مرة أخرى:

- أنصتي، تقول جاين إنه من المهم أن يكون لديكِ...

توقف، ورأى كلانا لمعان الأضواء الأصفر يتحرك عبر نوافذ الطابق الأول، والوقع المكتوم لخطوات الأقدام القادمة للتفقد.

- أمسكي!

التقطت، كان حجرًا مربوطًا إلى حبل ملفوف.

- اجذبيه نحو الأعلى! بسرعة.

ثم ذهب، اختفى في الأراضي المزينة بالأشجار في الوقت الذي أصدرت أبواب المشفى صريرًا نحو الخارج، سحبت الحبل الملفوف عبر نافذتي في حركات مذعورة وأغلقت النافذة، انزلقت إلى أسفل حائط غرفتي، لاهثة كأنني كنت أعدو في الليل بدلًا من صامويل.

كان هناك شيء صغير نوعًا ما ومربع مربوطًا في نهاية الخيط؛ كتاب.

إنه الكتاب، حتى في الظلام يمكنني رؤية الحروف نصف المهترئة تبتسم لي مثل أسنان ذهبية عبر الغمة، «الأبواب العش...الآلا»، لقد مر وقت طويل منذ أن هرَّبَ صامويل قصةً لي، تساءلت بينما أشعر بالدوار إذا ثنى صفحات مشاهده المفضلة على شكل أذن كلب، وخطر لي عدة مئات من الأسئلة، كيف عرفت جاين بالكتاب، ولماذا تريد أن يكون بحوزتي؟ وإلى متى سيظل صامويل في انتظاري، إذا بقيت محبوسة إلى الأبد؟ لكنني تجاهلتها، القصص هي **أبواب**، وأنا أردت الهرب.

زحفت إلى منتصف الأرضية حيث كان هناك مربع ضوء أصفر مائل قادم من القاعة، وبدأت أقرأ.

الفصل الثالث

الكثير حول الأبواب والعوالم والكلمات

العوالم الأخرى ومرونة قوانين الطبيعة -مدينة نين- رؤية باب مألوف من الجهة الأخرى، شبح في البحر.

إنه لشيءٌ قاسٍ، لكن في هذه المرحلة من قصتنا سيتحتم علينا التخلي عن الآنسة أديلايد لارسن تمامًا. سنتركها بمجرد أن تبحر بقارب المفتاح في محيط أجنبي، حيث تُطيّر الرياح الملحيّة عصارة الصنوبر من شعرها وتملأ قلبها بيقين متوهج، لم نهجرها دون سبب وجيه، فقد حان الوقت الذي ينبغي أن نناقش فيه طبيعة الأبواب نفسها مباشرةً، أولًا، لا بد وأن أؤكد لك أنني لم أؤجل هذا التوجه بسبب أي مغزى مسرحي خادع، لكن ببساطة لأنني آمل أن أكون كسبت ثقتك بحلول هذه اللحظة، أتمنى فحسب أن تصدقني.

لنبدأ مع الفكرة الأولى لهذا العمل، الأبواب هي مداخل بين عالم وآخر، توجد فقط في أماكن ذات تردد معين لا يمكن تحديده، وبـ «تردد لا يمكن تحديده» أشير إلى المسافة بين العوالم، ذلك السواد الشاسع القابع على عتبة كل باب، هو منطقة عبورها بالغ الخطورة، كما لو أن حدود الإنسان نفسه تتلاشى عندما لا يوجد شيء يضغط عليها، ومن ثم يتهدّد جوهرك بالفناء في الفضاء. يزخر الأدب والأساطير بقصص حول أشخاص دخلوا الفضاء وفشلوا

في العبور إلى الجانب الآخر[1]، لذلك من المحتمل أن الأبواب نفسها شُيّدت أصلًا في أماكن حيث يكون هذا السواد في أرق وأقلّ حالاته خطورة، أي نقاط تلاقي وتقاطعات طرق طبيعية.

وما طبيعة تلك العوالم الأخرى؟ كما اكتشفنا في الفصول السابقة، أن العوالم في حالة تغير مستمر، والاختلافات بينها لا حصر لها، وغالبًا لا تتقيد بأعراف عالمنا الحاضر، العالم الذي نحن مغرورون بما يكفي لنطلق عليه قوانين الكون الفيزيائية.

توجد عوالم حيث الرجال والنساء لهم أجنحة وبشرة حمراء، وعوالم أخرى حيث لا وجود لما يسمى بالرجال والنساء وإنما أشخاص في مكان ما بينهما، وهناك عوالم حيث تُحمل القارات على ظهور سلاحف ضخمة تسبح عبر مياه محيطات عذبة فيها تتحدث الثعابين بالألغاز وتتماهى الخطوط الفاصلة بين الأحياء والأموات. لقد شهدت قرى حيث رُوضت النيران، وأصبحت تتبع أعقاب الرجال ككلب مطيع، ومدنًا بها أبراج زجاجية شاهقة لدرجة أنها تجمع الغيوم حول نقاطها الحلزونية. (إذا كنت تتساءل لماذا تفيض العوالم الأخرى بالسحر مقارنة بكرتك الأرضية الموحشة، ضع في اعتبارك كم سيبدو هذا العالم ساحرًا من وجهة نظر أخرى، بالنسبة إلى شعب البحر، قدرتك على تنفس الهواء مدهشة، وإلى قوم من رماة الرمح، آلاتك هي شياطين

---

(1) تأمل كل تلك القصص عن الأطفال المفقودين، والأقبية والحفر التي بلا نهاية، والسفن التي تبحر متجاوزة حواف المحيطات وتعبر إلى اللاشيء، إنها ليست قصصًا رحلات أو عبور، إنها حكايات نهاية مفاجئة ولا رجعة فيها.

أظن أن شخصية المسافر تلعب دورًا في نجاحها النهائي أو فشلها. انظر إلى قصة إيديث نسبيت «باب إلى كيريل“ التي تبدو بريئة، عن خمسة أطفال مدارس يكتشفون بابًا سحريًا يأخذهم إلى عالم جديد. عندما يعود الأطفال إلى منزلهم، فإن أصغرهم وأكثرهم خوفًا يسقط في سواد عظيم ولم يعرف أحد مصيره بعد ذلك. اعتبر النقاد الكتاب كئيبًا وغريبًا للغاية للأطفال الأصحاء.

بينما أعتبره أنا نصيحة، عندما تعبر من باب، لا بد وأن يكون المرء شجاعًا بما يكفي ليرى الطرف الآخر.

إيديث نسبيت، باب إلى كيريل.

مُسخَّرة لخدمتك بلا كلل، وإلى عالم من السحب والجليد، الصيف في حد ذاته معجزة).

فرضيتي الثانية هي أن الأبواب تُنتج تسريبًا بين العوالم بدرجة متفاوتة ولكنها ملموسة. إذًا ما نوع الأشياء التي تتسرب عبرها، وما مصيرها؟ بالطبع، الرجال والنساء يجلبون معهم مواهب متميزة وفنونًا من عوالمهم الأم، والبعض منهم آل بهم الحال إلى نهايات مؤسفة حسبما أظن، سواء محبوسين في المصحات النفسية أو محروقين على أوتاد أو مقطوعي الرأس أو منفيين إلى آخره، ولكن يبدو أن الآخرين استغلوا قواهم الخارقة للطبيعة أو علمهم السري على نحو أكثر جدوى، لقد حظوا بالسلطة، وجمعوا ثروة، وشكلوا أقدار الناس والعوالم، باختصار، لقد أحدثوا تغييرًا.

تدفقت الأشياء أيضًا عبر الأبواب بين العوالم، تدفعها رياح غريبة، وتنجرف على أمواج متجمدة بيضاء، يحملها ويتخلى عنها المسافرون المهملون، بل وتتعرض للسرقة أحيانًا. البعض من تلك الأشياء مفقود أو مهمل أو منسيّ، مثل كتب سطرت بلغات أجنبية، ملابس بصيحات غريبة، أجهزة بلا فائدة سوى في وطنها الأم، لكن البعض منهم خلفوا قصصًا في أعقابهم، قصصًا عن مصابيح سحرية أو مرايا مسحورة أو أصواف ذهبية أو ينابيع من الشباب، أو دروع من حراشف التنانين، ومكانس مجنونة.

قضيت معظم أوقات حياتي أوثق هذه العوالم وأثرياءها، متتبعًا مسارات الأشباح التي يخلفونها في الروايات والقصائد والمذكرات والمعاهدات وحكايات الزوجات المسنات، والأغنيات التي غنيت بمائة لغة، ولكن على الرغم من ذلك، لم أشعر أنني اقتربت من اكتشافهم كليًّا، أو حتى جزء مجدٍ منهم، وفي هذه اللحظة يبدو لي أن تلك على الأرجح مهمة مستحيلة، على الرغم من أنني في سنواتي الأولى قد رسخت طموحات هائلة في هذا الاتجاه.

ذات مرة اعترفت لامرأة حكيمة للغاية قابلتها في عالم آخر، عثرت عليه في مكان ما من ساحل فنلندا في شتاء عام 1902. عالم جميل زاخر بأشجار غاية في الضخامة، يمكن للمرء أن يتصور كواكب بأكملها تسكن فروعها، كانت امرأة لها هيبة الخمسينيات أو نحو ذلك، تتميز بنوع من الذكاء الشرس الذي يتوهج لامعًا على الرغم من حواجز اللغة وعدة كؤوس نبيذ، أخبرتها أنني

أنوي العثور على كل الأبواب التي تقود إلى كل العوالم الموجودة على الإطلاق.
ضحكت وقالت:

– هناك عشرة آلاف باب أيها الأحمق.

لاحقًا، عرفت أن شعبها لا يوجد لديه رقم أعلى من عشرة آلاف، إذ يدعون أن وجود عشرة آلاف نسخة من شيء تعني أنه لا يوجد جدوى من حصره فهو مطلق.

في اللحظة الحاضرة، أعتقد أن حصرها لعدد العوالم الموجودة في الكون كان صائبًا تمامًا، وتطلعاتي مثلت أحلام شاب يائس.

لكن لسنا بحاجة إلى أن نشغل أنفسنا بعشرة آلاف عالم هنا، فنحن مهتمون فقط بالعالم الذي أبحرت إليه أديلايد لارسن عام 1893، ربما ليس أكثر عالم خيالي أو جميل بين كل العوالم المحتملة، لكنه أكثر عالم أتوق إلى رؤيته من بينهم جميعًا، إذ قضيت نحو عقدين من الزمن أبحث عنه.

عندما يقدم المؤلفون شخوصًا جديدة عادة ما يصفون ملامحهم وملابسهم أولًا، لكن في حالة التعريف بعالم جديد؛ فمن التهذيب البدء بجغرافيته.

يتكون ذلك العالم من محيطات شاسعة وجزر صغيرة لا حصر لها، خريطته ستبدو غير متوازنة لعينيك على نحو غريب، كأن رسّام جاهل ما قد ارتكب خطأً واستخدم اللون الأزرق أكثر من اللازم.

تصادف وأبحرت أديلايد لارسن في منتصف ذلك العالم، امتلك البحر أسفل قاربها عدة تسميات عبر القرون، كما يحدث غالبًا مع البحار، لكن في ذلك الوقت، في معظم الأحيان، أُطلق عليه اسم «الأماريكو».

كما جرى العرف أن توفر اسم جديد عند تقديم شخصية جديدة، لكن تسمية عالم قد تكون أكثر صعوبة مما قد تظن، تأمل عدد الأسماء التي أطلقت على كرتك الأرضية، في كم لغة مختلفة، «أيردي»، «ميدغارد»، «تلوس»، «الأرض»، «أووا»، وكم سيبدو الأمر عبثيًّا إذا وصل باحث أجنبي ومنح الكوكب بأكمله اسمًا واحدًا. العوالم شديدة التعقيد، وبالغة التصدع على نحو جميل إلى الحد الذي يصعب عنده تسميتها، لكن لدواعي التيسير، ربما يمكننا ترجمة أحد أسماء هذا العالم مجازًا إلى «المكتوب».

إذا بدا ذلك اسمًا غريبًا، ضع في اعتبارك أن في عالم المكتوب، تمتلك الكلمات نفسها قوة، ولا أقصد بهذا أنها تثير قلوب الرجال أو تسرد القصص أو تُعلن الحقائق، فتلك هي قوى الكلمات في كل العوالم، لكن أعني أن الكلمات في ذلك العالم يمكنها أحيانًا النهوض من مهاد الحبر والقطن لتعيد تشكيل طبيعة الواقع؛ فالجمل ربما تبدل الطقس، وقد تهدم القصائد جدرانًا، وربما تغير القصص العالم.

لا تملك كل الكلمات المكتوبة مثل هذه القوة، فأي فوضى ستجلب! لكن فقط كلمات معينة يكتبها أشخاص بعينهم، يجمعون بين الموهبة الفطرية وسنوات من الدراسة العميقة، وحتى في هذه الحالة لا تكون النتائج من نوعية سحر الجنية العرابة الذي قد تتخيله، فلا يمكن لعامل كلمة عظيم أن يخربش عرضيًّا جملة عن العربات الطائرة متوقعًا أن تلوح واحدة منها في الأفق، أو يكتب لإعادة الموتى إلى الحياة، أو خلاف ذلك بما يفسد ركائز العالم، لكن ربما العمل لعدة أسابيع على تأليف قصة سيزيد من احتمالية سقوط الأمطار خلال يوم أحد بعينه، أو ربما تأليف بيت من الشعر قد يزيد من تماسك حوائط مدينتها جزئيًّا في مواجهة الغزو، أو تقود سفينة وحيدة طائشة بعيدًا عن شعاب مرجانية خفية.

هناك حقائق نصف منسية، باهتة للغاية ومن غير حتى أن تسمى أساطير، عن سحر أكثر عظمة، وعن كتّاب أعادوا المدّ والجزر وفرقوا البحار، ومهدوا مدنًا أو استدعوا تنانين من السماء، لكن تلك الحكايات من المستبعد التعامل معها على محمل الجد.

كما ترى، سحر الكلمة له ثمن، كما هو الحال مع القوة، تستمد الكلمات حيويتها من كتّابها، إذًا تتحدد قوة الوعاء البشري قوة كلمته، وتتسبب أعمال سحر الكلمة في إصابة منفذيها بالمرض والإعياء، وكلما كان العمل طموحًا، تحدى دواخل وخوارج العالم كما هو، وارتفعت الضريبة. معظم أنواع مطوعي الكلمات العاديين تعوزهم قوة الإرادة للمخاطرة بأكثر من رعاف عرضي وقضاء يوم في السرير، لكن الأشخاص الأكثر موهبة يجب أن يقضوا سنوات في الدراسة المتأنية والتدريب، وتعلم ضبط النفس والتوازن، خشية استنزاف حيواتهم.

أصحاب هذه الموهبة يُسمون بأشياء متعددة على الجزر المختلفة، لكن معظمنا يتفق أنهم وُلدوا بشيء خاص لا يمكن لأي درجة من الدراسة أن تضاهيه، يدخل الطابع الدقيق لهذا الشيء تحت الدراسة المستمرة بين الباحثين والقساوسة، ادعى بعضهم أن ذلك مرتبط بيقينهم بالنفس أو نظرتهم إلى الخيال، أو ربما ببساطة استعصاء إرادتهم -معروف عنهم أنهم أشخاص عنيدون[1]-. ويوجد أيضًا خلاف كبير حيال ما يجب فعله مع هذه النوعية من الشخصيات، والطريقة المثلى للحد من الفوضى التي يتسببون فيها على نحو طبيعي، ففي ببعض الجزر تبشر عقائد معينة بأن الكتّاب هم قنوات إرادة إلههم، ولا بد من معاملتهم كقديسين مباركين، وهناك سلسلة من البلدات في الجنوب التي أعلنت أن كتّابها يجب أن يعيشوا بمعزل عن القوم الأميين، خوفًا من أن يصيبوهم بعدوى خيالهم الجامح، يندر وجود مثل هذه التناقضات، لكن معظم المدن تعثر على دور فعّال بل ومحترم لكتّابها، وتمضي في طريقها ببساطة.

هكذا جرت الأمور في الجزر المحيطة ببحر الأماريكو، عادة ما توظف الجامعات الكتّاب الموهوبين متوقعة منهم تكريس أنفسهم للمنفعة الأهلية، وتمنحهم الاسم الأخير لـ «مطوع كلمة».

وكما ستقول معرفتي القديمة، هناك عشرة آلاف اختلاف آخر بين هذا العالم وعالمك، معظمهم أكثر ضآلة من أن يحصلوا على فرصة التوثيق، أستطيع وصف كيف تغلغلت رائحة مياه البحر والشمس في كل صخرة بكل شارع، أو الطريقة التي وقف بها مراقبو المد والجزر على أبراجهم ويهتفون بالتوقيت لمدنهم، يمكنني أن أخبرك عن السفن متعددة الأشكال التي تعبر البحار بكتابات حذرة محاطة بأشرعتها تدعو بالحظ الجيد والرياح المعتدلة، ربما أحكي لك عن وشوم حبر الحبار التي تزين أيدي كل زوج وزوجة، وقلة عدد مطوعي الكلمة الذين يغرسون الكلمات في الجسد.

---

(1) جادل فارفي على نطاق واسع أن التعنت المطلق هو فقط من يمنحهم قواهم. وكدليل، قدم مطوعة الكلمات الموهوبة لينا، صاحبة كتاب "أغنية إلجين" التي أنقذت مدينتها ذات مرة من وباء مميت. وكانت أيضًا زوجة فارفي، وامرأة صعبة المراس إلى حد ما.

فارفي الباحث، أطروحة حول طبيعة مطوعي الكلمات (مدينة نين، 6609).

لكن في نهاية المطاف، شأن هذا التوثيق الأنثروبولوجي لحقائق وممارسات سيطلعك على القليل من طبيعة أي عالم، وعوضًا عن ذلك، سأخبرك عن جزيرة محددة ومدينة بعينها، وفتى بعينه، لم يكونا ليصبحا مميزين على الإطلاق لولا اليوم الذي تعثر فيه بباب وحقول البرتقال المحترقة في عالم آخر.

إذا كنت ستدنو من مدينة نين في الصباح الباكر، كما فعلت أديلايد لاحقًا، في البداية، ربما ستبدو لك على هيئة مخلوق أحدب يحيط به بروز صخرية، وبمجرد إبحارك نحو المخلوق، سيقسم نفسه إلى سلسلة من المباني الواقفة في صفوف مثل فقرات بيضاء، تنحدر الشوارع الحلزونية كالعروق بين المباني، وفي نهاية المطاف ربما تبدأ في التقاط بعض الأشخاص يتمشون إلى جانبيها، حيث الأطفال يطاردون القطط الضالة بين الأزقة، ويمشي الرجال والنساء في الطرقات مرتدين ملابس بيضاء وتعلو وجوههم تعبيرات رزينة، ويسحب الباعة سلالهم بعيدًا عن الساحل المزدحم، البعض منهم قد يتوقف لبرهة للتحديق إلى البحر عسلي اللون.

قد تفترض أن مدينة نين كانت النسخة المصغرة الغارقة في البحر من الجنة، عامةً، هذا الانطباع ليس دقيقًا، على الرغم من أنني أعترف بصعوبة تشكيل موقف حيادي.

بلا شك، مدينة نين كانت مكانًا مسالمًا، وليست الجزيرة الأكبر أو الأفقر التي أحاطت بحواف بحر الأماريكو، اشتهرت بعمل كلمة رفيع المستوى، والتجار المنصفين، كما نالت شهرة على نطاق صغير بأنها مركز المعرفة المرموقة.

ترسخت المعرفة السجلات النفقية الشاسعة لمدينة نين، التي تعد من أعرق وأكثر المجموعات استفاضة على ساحل الأماريكو، إذا وجدت نفسك ذات مرة على الجزيرة، أدعوك إلى زيارتها والتجول عبر السراديب اللامتناهية التي تحتوي على مخطوطات وكتب وصفحات خطت بكل لغات العالم التي سبق توثيقها.

من المؤكد أن مدينة نين عانت من العلل المعهودة للمدن البشرية؛ الفقر والصراعات، الجرائم وعقوباتها، المرض والجفاف، لم أر أيَّ عالم يخلو تمامًا

من مثل هذه الأمور، لكن أيًّا من هذه الخطايا لم تمس طفولة يولي إيان، طفل ذو عينين حالمتين ترعرع عند الطرف الشرقي للمدينة في شقة حجرية متهالكة، فوق متجر الوشوم الذي تمتلكه والدته.

كان والداه متفانيَيْن، منعهم العدد الكبير لنسلهم من تدليل يولي، إذ نشأ مع ستة أشقاء وشقيقات، كانوا مثل الإخوة والأخوات في كل العوالم، أعز أصدقائه وألد أعدائه بالتناوب، زيَّنَ مهجعه الضيق بنجوم معدنية متدلية من السقف، ملأت أحلامه بكواكب برّاقة وأماكن خيالية. امتلك أيضًا مجموعة من حكايات فار القصصية لبحر الأماريكو، التي منحتها له عمَّتُه المفضلة، وقطة مزاجية تحب النوم على حافة النافذة المشمسة عندما يقرأ[1]، تناسبت تلك الحياة الاستغراق في أحلام اليقظة والتفكير، وهي الأشياء التي يفضلها يولي.

قضى يولي وأشقاؤه أوقات الظهيرة في العمل مع والدهم على قارب الصيد الصغير الذي يملكه، أو في مساعدة والدتهم في محل الوشوم، ينسخون الأدعية والمباركات في مختلف النصوص، ويمزجون الحبر، ويفركون أدواتها.

فضّل يولي أعمال المتجر على السفينة، وبالتحديد أحب ساعات الظهيرة الطويلة حينما تسمح له والدته بأن يشاهدها وهي توخز كلمات دقيقة ومرقطة بالدماء على جلد الزبون، لم يكن عمل والدته في صياغة الكلمات قويًّا للغاية، لكنه كان كافيًا ليجعل الزبائن يرغبون في دفع المزيد من المال حتى تكتب لهم تيلسا المباركات بحبرها، لأنها عادة ما تتحقق.

في الأصل، اعتزمت أم يولي إيان أن تعلمه فنها، ولكن سرعان ما اتضح أنه يفتقر إلى الشرارة الأضعف لموهبة صياغة الكلمات، ربما دربته على أي حال، لكن لم يكن لديه أي صبر للقيام بعمل الوشم الفعلي. ببساطة، لقد أحب الكلمات، صوتها وشكلها ومرونتها المدهشة، لذا عوضًا عن الوشوم اتجه إلى الباحثين في أرديتهم البيضاء الطويلة.

يخضع كل طفل في مدينة نين إلى عدة سنوات من التعليم، هي عبارة عن تجمعات أسبوعية في باحات الجامعة للاستماع إلى باحث شاب يحاضرهم

---

(1) اكتشفت أن القطط، يبدو أنها توجد على نفس الهيئة تقريبًا في كل العوالم، أعتقد أنها تدخل وتخرج من الأبواب منذ آلاف السنين، أي شخص يتعامل بصفة دورية مع قطط المنازل يدرك أنها هواية خاصة لديهم.

عن حروفهم وأرقامهم ومواقع كل الجزر المأهولة على ساحل الأماريكو التي يبلغ عددها مائة وثماني عشرة جزيرة، فر معظم الأطفال من هذه الدروس بمجرد سماح أولياء أمورهم بذلك، لكن يولي لم يهرب، عادةً ما أطال البقاء لطرح الأسئلة، بل وتملق مدرسيه للحصول على بعض الكتب الإضافية، وكان واحد منهم يُدعى ريلينج سكولار، يزوده بكتب بمختلف اللغات، التي أصبحت أثمن ما يملكه يولي، أحب يولي الهيئة المتجددة التي تبدو عليها مقاطع الكلمات الجديدة في عقله، وغرابة القصص التي تجلبها معها كأنها كنوز من سفن غارقة جرفتها الأمواج إلى السطح.

قبل سن التاسعة، وصل يولي إلى مرحلة الكفاءة في ثلاث لغات، وهو أمر لم يُسجل سوى مرة واحدة في سجلات الجامعة، وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره، وهي السن التقليدية للقرارات المصيرية، لم يستطع أحد حتى والدته الاعتراض على قدره الواضح كباحث. ابتاعت الأقمشة الطويلة غير المصبوغة من سوق الميناء، وتنهَّدَتْ بعض الشيء فقط عندما لفت أطراف ابنها الداكنة في ملابس الباحث، خرج يولي من الباب حاملًا حزمة من الكتب في لحظة يغشيها اللون الأبيض.

مرت سنواته الجامعية الأولى في حالة حالمة تقترب من العبقرية، وهو ما أثار كلًّا من الإحباط والإعجاب عند أساتذته.

واصل يولي تعلم لغات جديدة بأريحية ولدٍ ينهل من بئر، لكنه بدا غير عازم على تكريس نفسه بما يكفي لإتقان إحداها، قضى ساعاتٍ لا حصر لها في السجلّات، يقلب صفحات المخطوط بمجداف خشبي رفيع، لكن عادة ما فوَّتَ محاضرات مقرَّرة لأنه عثر على فقرة مثيرة للاهتمام عن الحوريات في سجل بحار ما، أو خريطة متهالكة موسومة بلغة مجهولة، استهلك الكلمات كما لو أن أهميتها تضاهي الطعام والشراب لصحته، لكن نادرًا ما اهتم بالكتب المُكلّف بها.

أصر أكثر أساتذته نبلًا أن الأزمة مرتبطة كليًّا بالنضج والوقت، وفي نهاية المطاف سيعثر يولي إبان الشاب على مادة دراسة ثابتة ويكرس نفسه لها، ثم ربما يختار مرشدًا ويبدأ المساهمة في كينونة البحث الكبرى التي جعلت من جامعة نين مكانًا مرموقًا للغاية، بينما انتاب باحثين آخرين شعورٌ أقل

بالتفاؤل وهم يشاهدون يولي يسند كتابًا عن الخرافات إلى إبريق مياه ويقلب الصفحات بملامح حالمة.

في الواقع، عندما اقترب عيد ميلاد يولي الخامس عشر، ازداد قلق أكثر الباحثين تفاؤلًا؛ إذ لم يُظهر أي علامات على تضييق نطاق دراسته أو يطرح منهجًا للبحث، وبدا غير مهتم البتة بالاختبارات القادمة، فإذا اجتازها؛ سيُعلن رسميًا كـ «يولي إيان سكولار» ويبدأ رحلة صعوده عبر مراتب الجامعة، أما إذا فشل؛ سيُطلب منه بتهذيب البحث عن مهنة أخرى أقل تطلبًا.

باستعراض ما قام به يولي، يسهل الشك في أن تشتت يولي في حد ذاته هدف، بحث عن شيء بلا اسم أو شكل لمع بعيدًا عن المنال، وربما كان حقيقيًا.

ربما هو وأديلايد قضيا طفولتهما بالطريقة نفسها، يتحريان حدود عالمهما بحثًا عن أحدهما الآخر، لكن المساعي المتململة لا تثير الباحثين الجادين، لذا ذات يوم استُدْعِيَ إلى مكتب المدير لإجراء «مناقشة جادة حول مستقبله»، وصل متأخرًا ساعة وأصابعه تشير إلى المكان الذي وصل إليه في قراءة «دراسة في الخرافات والأساطير في جزر البحر الشمالي»، بينما تعلو وجهه الدهشة وتعبير حالم.

– هل استدعيتني يا سيدي؟

كان للناظر وجهٌ كئيبٌ مجعدٌ مثل الباحثين في معظم العوالم، ووشوم موقرة محفورة على كلتا يديه، تشير إلى زواجه من كينا ميرشانت، وتفانيه للمعرفة، وعشرين سنة قضاها في خدمة مثيرة للإعجاب تجاه المدينة، أما شعره فهو متشبث بجمجمته على هيئة بيضاء محدبة، كأن حرارة عقله المتقد أشعلت النيران في شعره في مقدمة رأسه، سيطر القلق على نظرته إلى يولي.

– اجلس أيها الشاب يولي، اجلس، أود الحديث معك حيال مستقبلك هنا في الجامعة.

وقعت عينا الناظر على الكتاب الذي لا يزال يولي ممسكًا به.

- سأكون صريحًا معك، نجد أن تشتتك وعدم انضباطك مصدر قلق خطير، إذا لم تستقر على مادة دراسة محددة، سيتحتم عليك البحث عن مجالات أخرى.

أمال يولي رأسه إلى ناحية واحدة من باب الفضول، مثل قطة حصلت على طعام غير مألوف.

- مجالات أخرى يا سيدي؟

- نشاطات تتناسب أكثر مع عقلك ومزاجك.

صمت يولي لبرهة، وعقله عاجز عن التفكير في شيء يتناسب مع مزاجه أكثر من قضاء بعد ظهيرة مشمسة مستلقيًا تحت أشجار الزيتون يقرأ كتبًا سُطرت بلغات منسية.

- ماذا تقصد؟

الناظر الذي ربما توقع أن تنطوي المحادثة على توسل حزين وحيرة غير مهذبة، ضغط شفتيه محولًا إياهما إلى خط رفيع لونه قاتم.

- أعني ربما تتعلم في مكان آخر، أعلم أن والدتك ستواصل تدريبك كواشم، أو ربما تعمل لصالح عاملي الكلمة في الطرف الشرقي، أو حتى بائع كتب، يمكنني الحديث مع زوجتي إذا أردت.

في تلك اللحظة فقط، بدأت تعبيرات يولي تعكس الرعب الذي توقعه الناظر، قال الناظر مجددًا:

- حسنًا يا ولدي، لم نصل إلى هذه المرحلة بعد، ببساطة استغل الأسبوع القادم في التأمل والنظر في خياراتك، وإذا أردت البقاء هنا لتخوض اختبارات الباحثين، اعثر على طريق.

انصرف يولي، ووجد نفسه يغادر القاعات الحجرية الباردة، ويهرول عبر الساحات والشوارع الحلزونية ثم تسلق التلال خلف المدينة بينما تلسعه الشمس في مؤخرة رقبته دون أن يعي تمامًا إلى أين يتجه بالتحديد، ببساطة كان يولي يتحرك ويهرب من الخيار الذي وضعه الناظر أمامه.

بالنسبة إلى أي شاب يطمح لبلوغ مراتب الباحثين، سيكون الخيار سهلًا، إذا قدم خطة بحث في التاريخ الأمريكي أو اللغات القديمة أو الفلسفة الدينية،

أو أن يتخلى عن كل الطموحات ليعمل ناسخًا متواضعًا، لكن بالنسبة إلى يولي؛ كان كلا الطريقين كئيبًا على نحو لا يُوصف، سيحتاج كلاهما إلى تضييق آفاقه اللامحدودة، ووضع حد لأحلامه، أصابه التفكير في الخيارين بضيق في التنفس، كأن يدين عملاقتين تضغطان كلا جانبي أضلاعه.

لم يكن ليعرف ذلك حينها، لكن أدي انتابها الشعور نفسه خلال الأيام التي هربت إلى الحقل القديم لتنفرد بصوت القوارب النهرية ورحابة السماء، باستثناء أن أدي ترعرعت وسط حدود قاسية لحياتها دائمًا ما حاصرتها، ومنذ ذلك الحين وجهت إرادتها ضدها، في حين أن يولي الفقير الحالم ببساطة لم يعرف قط بوجود مثل هذه القواعد قبل ذلك اليوم.

مشى مبتعدًا عن ذلك الاكتشاف، متجاوزًا حقول سفح التل الوعر، وآخر الطرقات المفروشة بالركام، مهرولًا بين مسارات الحيوانات وفوق الجروف الصخرية، وفي نهاية المطاف، اختفت آثار الحيوانات في صخور رمادية ملتوية، وحملت الرياح روائح بعيدة لخشب منقوع في الملح، لم يسبق ليولي وأن بلغ هذا الارتفاع فوق مدينته، واكتشف أنه أحب الطريقة التي تضاءلت بها من تحته حتى أصبحت مجرد مربعات بيضاء محاطة ببحر شاسع.

شعر بالحكة بسبب عرق الرياح الجافة، وجرحت الصخور راحتي يديه، أدرك أنه يُفترض به العودة، لكن قدميه حملتاه نحو الأمام، وإلى الأعلى حتى سحب نفسه إلى حافة ورآه، ممر.

ستار رمادي رفيع يتدلى من قوس، مرفرفًا في رياحه الخاصة كأنه تنورة ساحرة، فاحت منه رائحة، تشبه مياه النهر والطين وضوء الشمس، تختلف تمامًا عن الرائحة الملحية الحجرية لمدينة نين.

بمجرد عثور يولي على الممر؛ رفضت عيناه النظر إلى أيّ مكان آخر، بدا وكأن يدًا نصف ملتوية تنادي إياه، مشى في اتجاهها، ينهمر شعور مجنون بالأمل في أطرافه، أمل مستحيل بلا أساس أن هناك شيئًا خلابًا وغريبًا على الطرف الآخر من تلك الستارة، بانتظاره فقط.

نحى الستارة جانبًا، ولم يرَ شيئًا سوى عشب معقود وأحجار خلفه، خطا تحت القوس وابتلعه الظلام الشاسع،

ضغطته الظلمة واستنزفته مثل القطران، واختنق في ضخامة الأمر، حتى شعر بخشب صلب تحت راحتيه، دفعه في يأس على الرغم من أنه لا يزال يحترق أملًا، شعر وكأنه يدبدب على أرض لم يخطُها أحد من زمن طويل، ثم انفتح الباب، وترجَّلَ يولي إلى عشب البرتقال المحروق تحت سماء بلون قشر البيض، وقف فقط لعدة دقائق، فاغرًا فاه في الهواء الغريب للعالم الآخر، حتى أتت هي مهرولة تجاهه عبر الحقل؛ شابة بلون اللبن والقمح المعسول.

لن أعيد قصة اللقاء للمرة الثانية، لقد سبق وسمعت كيف جلس الشابان معًا في برد بدايات الخريف وتحدثا عن الحقائق المستحيلة لهنا وهناك، وكيف تكلما بلغة ميتة منذ وقت طويل محفوظة فقط في بعض النصوص القديمة في سجلات نين التي درسها يولي لمجرد الاستمتاع بالمقاطع الجديدة المتراقصة على لسانه، وكيف لم يبد الأمر مثل لقاء شخصين بقدر ما كان تصادم عالمين، كما لو أنهما انحرفا عن مسارهما واندفعا نحو بعضهما بعضًا. وكيف تبادلا قبلة، ونبضت حولهما اليراعات، وكم كان لقاؤهما قصيرًا ومقدرًا.

قضى يولي الأيام الثلاثة التالية في حالة من النشوة الخادرة، أصيب الباحثون بالقلق من أن يكون عقله قد تعرض للدمار على نحو غامض بسبب سقوطه أو حادثة، بينما والداه اللذان كانا على دراية أكبر بعلل الشباب، خشيا أنه وقع في الحب، لم يقدّم يولي نفسه أي شرح لكنه فقط ابتسم مبتهجًا ودندن نشازًا بأغانٍ قديمة حول عشاق مشهورين وسفن شراعية.

عاد إلى القوس ذي الستار عند اليوم الثالث، مثلما على الطرف الآخر من سواد بلا نهاية عادت أدي إلى الكوخ الموجود في الحقل، بالطبع، تعرف ما كان ينتظره، أسوأ خيبة أمل.

عوضًا عن باب سحري يقوده إلى أرض غريبة، لم يجد يولي شيئًا سوى صخور متكدسة بأعلى تلة وستارة رمادية تتدلى ثابتة ومتعفنة كجلد مخلوق نافق، لم يقُده إلى أي مكان على الإطلاق، بصرف النظر عن السباب الغاضب الذي يوجهه يولي.

في النهاية، جلس ببساطة وانتظر آملًا أن تشق الفتاة طريقها إليه، ولكنها لم تفعل، ربما يمكنك تخيلهما؛ أدي تنتظر في الحقل المكسو بالعشب في أثناء

الليل العميق، بأمل يحترق في صدرها كشمعة منهكة، بينما يجلس يولي أعلى التلة ويداه النحيلتان تحيطان بركبتيه، يشبهان تقريبًا شخصين على جانبي المرآة، باستثناء أن الفراغ بين العالمين يحل محل الزجاج البارد، شاهد يولي التجمعات النجمية تزحف في الأفق، وقرأ الكلمات المألوفة المكتوبة بضوء النجوم، سفن بُعثت من السماء، خيرات الصيف، تواضع الباحث. انزلقت عليه الكلمات مثل صفحات من كتاب عظيم، يألفها كما يعرف اسمه، فكر في أدي، منتظرًا إياها في ظلام منفصل، وتساءل بماذا أخبرتها نجومها.

وقف يولي ثم فرك بإبهامه العملة الفضية التي جلبها معه، ليريها إياها كدليل على عالَمِه، وتركها تسقط على الأرض، لم يعرف ما إذا كانت قربانًا أو نبيذًا، لكنه عرف أنه لم يعد يريد الاحتفاظ بها، أو يشعر أن العيون العالمة المختومة بالفضة لمؤسسة مدينة نين[1] تراقبه، غادر حينها، ولم يعد مرة أخرى إلى القوس الحجري، لكن كما تتذكر، الأبواب هي التغيير.

نسخة يولي التي تخلَّت عن الممر تلك الليلة اختلفت نوعًا ما عن نسخة يولي الذي عثر عليه قبل ثلاثة أيام، ارتطم شيء جديد بصدره محاذيًا قلبه، كأنما قد بُعث إلى الحياة عضو مستقل، له إيقاع مُلحٌّ دافع، وهو أمر لم يغفله يولي حتى في أثناء بؤسه، تساءل حول ذلك الشيء بينما يستلقي على سريره الضيق في الليل، مستمعًا إلى أصوات إخوته الساخطة في أثناء محاولتهم العودة إلى النوم بعد ما أيقظهم في أثناء عودته إلى المنزل، لم يحمل الأمر مذاق اليأس أو الخسارة أو الوحدة، لقد ذكره أكثر بذلك الشعور الذي ينتابه أحيانًا في السجلات عندما تسحبه قطعة مكتوبة على جلد قديم إلى الأمام نحو الأعمق، حتى يفقد نفسه في مسار قصصي متصاعد، لكن حتى ذلك

---

(1) معظم المدن المطلة على بحر الأماريكو، تطبع صورة مؤسسيها على العملات، تأسست مدينة نين على يد نين مطوعة الكلمات منذ عدة قرون خلت، وكانت نصف ابتسامتها هي التي تحدق إلى يولي من كوكب الأرض الذي يضيئه القمر. تطبع على العملات كلمات عن القوة، وهو ما يصور جزءًا بسيطًا من روح المدينة. الشخص الذي يمسك بعملة مدينة نين سيشم منها رائحة المياه المالحة وغبار الكتب، وربما يجد نفسه يفكر في الشوارع التي لفحتها الشمس والثرثرة المرحة في مدينة هادئة، وكان ذلك ما يريد يولي مشاركته مع الفتاة من الحقل، قطعة صغيرة فضية من وطنه.

الشعور لا يضاهي الإلحاح المطنطن الذي يشعر به الآن، غفا بينما يراوده شعور بالقلق مبهم أنه أصيب بهمهمة ما في قلبه.

في الصباح التالي، عرّف الأمر على أنه شيء أكثر جدية، وهو اكتشاف مغزى حياته.

استلقى في السرير لعدة دقائق يتأمل ضخامة المهمة التي أمامِه، ثم نهض وارتدى ملابسه بسرعة لدرجة أن أشقاءه لمحوا طرفًا من ملابسه البيضاء يتحرّك خارج الباب، اتجَهَ مباشرةً نحو مكتب الناظر الباحث وطلب منه أن يخوض امتحاناته على الفور، ذكره الناظر برفق أن الباحثين الصاعدين يُفترض أن يقدّموا أبحاثًا دقيقة ومنسقة لدراساتهم المستقبلية، تقنع زملاءهم بجديتهم وتفانيهم وقدرتهم، واقترح أن يأخذ يولي الوقت اللازم لتصنيف المراجع وجمع المصادر، وربما استشارة باحثين أكثر خبرة.

أصدر يولي ضجيجًا ثائرًا:

- أوه، حسنًا، خلال ثلاثة أيام إذًا، هل يفي ذلك بالغرض؟

وافق الناظر، ولكن ملامح وجهه قالت إنه يتوقع كارثة مُذِلَّة، لكنه أخطأ بشأن هذا الأمر إلى جانب بضعة أمور أخرى؛ نسخة يولي التي حضرت لخوض الاختبارات، بدت وكأنه شخص مختلف كليًّا عن الفتى الذي يعرفونه جميعًا ويغضبون منه لسنوات، تبخرت كل تلك الدهشة الحالمة وفضول العيون المغشية مثل ضباب البحر تحت الشمس، كاشفةً عن وجه شاب داكن يشع هدفًا ضاريًا راسخًا، شكّل مقترحه مثالًا للوضوح والطموح الذي قد يتطلب إجادة عدة لغات، ومعرفة بعشرات المجالات المتنوعة من الدراسة، وسنوات لا حصر لها من البحث في الحكايات القديمة والقصص غير المكتملة، جرى العرف في نهاية مثل هذه العروض التقديمية أن يقدم الباحثون اعتراضات ومخاوف حول المقترح، لكن الغرفة سادها الصمت، كان الناظر نفسه أول المتكلمين:

- حسنًا يا يولي، لا أرى أي مشكلة في مخططك الدراسي، ضع في اعتبارك أنه سيأخذ نصف عمرك، كل ما أريد معرفته، ما مصدر هذا اليقين المفاجئ، ما الذي وضعك على هذا الطريق؟

شعر يولي برجفة في عظام صدره، كما لو كان هناك خيط أحمر مربوط حوله، واجتذبه شخصٌ للتَّو من الجانب الآخر، لمدة قصيرة وبكل حماقة، فكَّرَ أن يقول الحقيقة ببساطة؛ أنه يسعى إلى متابعة الكلمات التي تشبه مسارات النمل المتناثرة نحو عوالم أخرى، حتى يعثر على حقل بلون برتقالي محروق تُنيره اليراعات، ويجد فتاة بلون القمح واللبن.

وعوضًا عن ذلك، قال:

- لا يحتاج الباحث الحقيقي إلى أصل أو وجهة أيها المعلم المحترم، السعي خلف معرفة جديدة هو دافع في حدّ ذاته.

كانت تلك بالتحديد نوعية الإجابات غير الواضحة النبيلة التي أرضت الباحثين تمام الرضا تباهوا وأصدروا ما يشبه هديل الحمام حوله، بينما يوقعون بأسمائهم على مقترحه بكثير من التهنئات، الناظر فقط هو من توقف قليلًا قبل التوقيع، متطلعًا إلى يولي كما ينظر صياد إلى غيمة سوداء في الأفق، لكنه أيضًا أحنى رأسه أمام الأوراق.

غادر يولي القاعة ذلك اليوم باسم جديد ومباركة رسمية، نقشتهما والدته على هيئة حلزونية ملتوية حول رسغه الأيسر، وفي اليوم التالي، كانت الكلمات لا تزال محتفظةً بسخونتها ووخْزِها في جلده، عندما هبط يولي عبر السلالم ذات الأحجار البيضاء متجهًا إلى غرفته المفضلة للقراءة، جلس إلى مكتب من خشب أصفر يطل على البحر، وفتح أول صفحة عطِرَة من مفكرة جديدة، وعلى نحو غير معهود، كتب بخط أنيق، ملاحظات وأبحاث الجزء الأول «دراسة مقارنة للممرات والبوابات والمداخل في الأساطير العالمية أعدها يولي إيان سكولار، عام 6908».

العنوان، الذي خمنته بالتأكيد، جرى تنقيحه منذ ذلك الحين.

قضى يولي إيان سكولار جزءًا كبيرًا من الأعوام الاثني عشر القادمة منكفئًا على المكتب نفسه، يقرأ ويكتب بالتناوب، تحيط به عدة أبراج من الكتب لدرجة أن دراسته أصبحت تحاكي نموذجًا ورقيًّا لمدينة، قرأ مجموعات من الحكايات الشعبية ومقابلات مع مستكشفين ماتوا منذ زمن بعيد، وسجلات ونصوصًا مقدسة من أديان منسية، قرأها بكل لغات بحر الأماريكو، وكل اللغات التي قد سقطت عبر التصدُّعات بين عالم ما والذي يجاوره خلال

العقود العديدة الماضية، قرأ حتى لم يتبقَّ سوى القليل لقراءته، واضطر إلى أخذ أبحاثه نحو الشق العملي، كما أخبر رفاقه بمرح، ومن المنظور المتناسب مع الباحثين، تخيلوا أنه بكلمة «عملي» يشير فحسب إلى السجلات الغرائبية في مدن أخرى متمنين له التوفيق.

لم يفترضوا أن يولي سيكدس حقيبة كتفه بالأوراق والأسماك المجففة، ويدفع رسوم عبور على سلسلة من السفن التجارية وناقلات البريد، وينطلق نحو براري جزر أجنبية مثل كلب صيد يركز تنفسه على آثار حيوان. لكن الآثار التي تبعها كانت الآثار اللامعة الخفية التي خلفتها القصص والأساطير، وبدلًا من الحيوانات سعى خلف الأبواب.

بمرور الوقت، عثر على حفنة ثمينة منها، ولكن لم يقُده أيٌّ منها إلى عالم تفوح منه رائحة شجر الأرز، وسكانه في لون القطن، ولكنه لم يفقد حماسته، كان يولي ممتلئًا بنوع من الثقة لا تشوبه شائبة، التي تنتمي فقط إلى الشباب الذين لم يتذوقوا مرارة الفشل قط، أو شعروا أن سنوات عمرهم تتسرب بعيدًا كما تنساب المياه من الكفوف المضمومة، بدا له أن نجاحه أمر مفروغ منه (بالطبع، أعرف أكثر الآن).

كثيرًا ما أعجبه تخيُّل المشهد، ربما سيعثر عليها في المنزل بعد أسابيع من السفر المرهق، وسترفع نظرها عن عملها لتراه يهرول إليها، وتلك الابتسامة الجامحة سترتسم على وجهها، ربما سيتقابلان في الحقل نفسه، وسيعدوان تجاه بعضهما عبر العشب الربيعي الأخضر، وقد يجدها في مدينة ما بعيدة بالكاد تخيلها من قبل أو في عاصفة رعدية شعواء، أو على شواطئ جزيرة بلا اسم.

بسبب الغرور الواهي الذي عادة ما يصيب الشباب، لم يفكر ولو لمرة قط في احتمالية أن أديلايد لن تكون في انتظاره، لم يتخيل قط أنها قد قضت العقد السابق مرفرفة داخل وخارج العوالم بأريحية فطرية لنورس يطير من سفينة إلى أخرى في الميناء، دون كتاب واحد أو سجلّ يقودها، وبلا شك لن يتخيل أبدًا أنها بنت لنفسها قاربًا متهالكًا في الجبال، وأبحرت به في الموج الأرجواني لبحر الأماريكو.

كانت فكرة غريبة للغاية، في الواقع، كاد يولي أن يصرفها تمامًا عن رأسه عندما سمع شائعات غريبة على مرفأ مدينة بلم، تسربت إليه مثل كل الشائعات، على هيئة مجموعة من النكات المنتشرة وأسئلة من نوعية «هل سمعت؟»، تجمعت بهدوء لتشكل قصة واحدة، بدا أن التفاصيل الأكثر تكرارًا هي، شوهدت سفينة غريبة بالقرب من الساحل الشرقي لمدينة بلم، أشرعتها من قماش أبيض بالٍ، اقترب منها صياد أو اثنان وتجار، في فضول لرؤية جنس الإنسان المجنون الذي يبحر دون مباركات مُخاطة في أشرعته، لكنهم ابتعدوا سريعًا؛ ادعوا أن السفينة تقودها امرأة في بياض الورق، ربما شبحٌ أو مخلوق شاحب من أعماق البحر صعد إلى السطح.

هز يولي رأسه على خرافات شعوب البحر وعاد إلى غرفته المستعارة في مكتبات بلم، جاء يولي إلى المدينة مقتفيًا أساطير محلية حول سحالٍ قاذفة للنار، عاشت في قلب البراكين، تظهر مرة واحدة فقط كل مائة وثلاثة عشر عامًا، وقضى ليلته في قراءة متأنية لملاحظاته، لم تطرأ الفكرة على رأسه حتى استلقى على سريره الضيق، يدور عقله حرًّا داخل وخارج أنصاف أحلامه، حتى خطر له أن يتساءل حول لون شعر البحّار الشبح.

في الصباح التالي، عاد يولي إلى حوض السفن باكرًا، واستجوب عدة تجار مصابين بالدهشة قبل أن يخرج بهذه الجملة «كان في بياضها!»، أكَّدَ له بحار بنغمة مذعورة:

– أوه حسنًا، أظن أنه يميل أكثر إلى لون القش، مصفر.

ابتلع يولي ريقه بصعوبة:

– وهل كانت من تلك الناحية؟ هل ستأتي إلى بلم؟

لم يستطع تقديم أي تأكيدات في هذه النقطة، فمن يمكنه تخمين رغبات ساحرات البحر أو الأشباح؟

– ولكنها ستصل إلى الشواطئ الشرقية بالطبع إذا واصلت سيرها، وعندها سنرى من يحكي قصصًا، أليس كذلك يا إيدون؟

عند تلك النقطة هجر البحار المحادثة ليلكز رفيقه المتشكك على السفينة، ويخوضان مناقشة حيوية حول ما إذا كانت الحوريات ترتدي ثيابًا.

تُرك يولي واقفًا بمفرده على المرفأ، ينتابه شعور مفاجئ بأن العالم انحرف عن مساره، كما لو عاد صبيًا مرة أخرى، يتجه نحو تلك الستارة الرفيعة بيدَين غير ملطختَين بالحبر.

ركض يولي، ولم يكن يعرف الطريق إلى الشواطئ الشرقية، وهي امتداد صخري قاحل من ساحل يرتاده جامعو النثريات وفئة معينة من الشعراء الرومانسيين فقط، لكن سلسلة من الأسئلة والأجوبة اللاهثة قادته إلى حافة البحر قبل منتصف اليوم، طوى قدميه إلى صدره، وحملق إلى الموج الذي يتصدره الذهب، مراقبًا الخط الأبيض الرفيع لقارب يتصدر الأفق.

لم تصل في ذلك اليوم، ولا اليوم التالي، عاد يولي إلى الشاطئ كل صباح ليراقب البحر حتى الغسق، ويبدو أن عقله المضطرب المتقد لعدة سنوات قد هدأ مثل قطة ملتفة استعدادًا للنوم، ينتظر.

في اليوم الثالث، اعتلى قارب الأمواج، ممتلئًا وفي غاية البياض، شاهد يولي القارب يتثاقل في حركته مقتربًا منه، ويبدو غريبًا ومربعًا في الماء، حتى احترقت عيناه من الملح والشمس، على متن القارب، كان هناك شخص واحد يواجه الجزيرة بوقفة فخورة متحدية وشعر متشابك مثل الكتان يهتز حول رأسه، شعر يولي برغبة عارمة في الرقص أو الصراخ أو الإغماء، لكن بدلًا من ذلك وقف ببساطة ورفع ذراعًا واحدة في الهواء.

رأى أنها تراه، سيطرت عليها حالة من السكون، على الرغم من تأرجح السفينة تحت قدميها، ثم أطلقت ضحكة جامحة صارخة تدحرجت عبر المياه إلى يولي مثل صاعقة صيفية، ثم أزالت عدة طبقات من الملابس الملونة بالقذارة، وغطست في الأمواج السطحية أسفل سفينتها دون ذرة تردد، كان لدى يولي نصف ثانية ليتأمل بدقة أي امرأة مجنونة غير مروضة كان يسعى خلفها لمدة اثني عشر عامًا، ويشكك في جاهزيته لهذه المهمة، قبل أن ينطلق وهو يرش الماء من حوله ليقابلها ضاحكًا وساحبًا رداء الباحثين الأبيض خاصته عبر الأمواج.

هكذا إذًا، في نهاية الربيع من عام 1893 في عالمك، الذي يعادل عام 6920 في ذلك العالم، عثر يولي إيان سكولار وأديلايد لي لارسن على بعضهما بين أمواج الظهيرة المحيطة بمدينة بلم، ولم يفترقا طواعيةً قط.



الباب المغلق

تلونت أحلامي بالأرجواني والذهبي، كنت أتنقل بنعومة على صفحة محيط أجنبي، أتبع قاربًا مُبحرًا لونه أبيض، عند مقدمته وقفت شخصية هيئتها ضبابية، يطير شعرها اللامع خلفها، كانت ملامحها مشوشة وغير واضحة لكن شيئًا ما حيال الشكل الذي صنعته في الأفق بدا مألوفًا للغاية، شيء كامل وجامح وحقيقي للغاية، لدرجة أن قلبي انفطر في الحلم.

أيقظني إحساسي بجريان الدموع على وجنتي، أستلقي على أرضية غرفتي، متصلبة وأشعر بالبرد، ويؤلمني وجهي عند الموضع الذي ضغط زاوية كتاب الأبواب العشرة الآلاف، ولكنني لم أبالِ.

العملة، العملة الفضية التي عثرت عليها في طفولتي، نصف مدفونة في غبار عالم غريب، العملة المستلقية الآن دافئة كالدم في كف يدي، كانت

حقيقية، حقيقية بقدر البلاط البارد أسفل ركبتيَّ، حقيقية مثل الدموع الباردة على وجنتيَّ، أمسكت بها، وشممت رائحة البحر.

ولو كانت العملة حقيقية... حينئذٍ يكون باقي القصة حقيقيًّا أيضًا؛ مدينة نين، وسجلاتها السرمدية، أديلايد ومغامراتها في مائة عالم آخر، والحب الحقيقي، و**الأبواب**، وتطويع الكلمة.

كرد فعل انعكاسي لما أدركته، سرى الشك في جسدي وسمعت صدى صوت لوك يسخر من الهراء الخيالي، لكنني ذات مرة، اخترت الإيمان مسبقًا، وكتبت «فُتح باب مغلق». أيًّا كانت القصة، هذا الخيال المستحيل غير المرجح عن **الأبواب** والكلمات والعوالم الأخرى، فهي حقيقية وعلى نحو ما كنت جزءًا منه، وكذلك السيد لوك، والجمعية وجاين وربما والدي المفقود المسكين، شعرت كامرأة تقرأ رواية تشويقية فيها يغيب السطر الرابع عند حلوله، والشيء الوحيد الذي في استطاعة المرء فعله عندما يغرق في رواية تشويقية هو مواصلة القراءة.

انتزعت الكتاب وقلبت في صفحاته حتى أجد موضع قراءتي، لكنني توقفت عندما أطل جزء رقيق من ورقة من الصفحات الأخيرة، كانت ملاحظة مكتوبة على الظهر اللاصق لفاتورة معنونة بمحلات بقالة عائلة زابيا المحدودة، كُتِبَ فيها: «تماسكي يا جانيوري».

كانت الحروف كبيرة صلبة، مكتوبة بضغط متأنٍّ لشخص غير مرتاح لوجود قلم في يده، فكرت في صامويل وهو يتحدث عن كوخ عائلته عند الطرف الشمالي للبحيرة، ويده ملوّنة بألوان الغسق، تلوّح في الظلام، وسيجارته ترسم آثار مُذنب في الليل، يا إلهي يا صامويل.

لو لم أكن أحمل هذه القصاصة وأفكر في هاتين اليدين، لكنت سمعت خطوات الممرضتين قبل أن يتقلقل القفل ويُفتح الباب، لتقفا عند العتبة مثل زوجين من الجرجول يرتديان مآزر بيضاء متصلبة.

مسحت أعينهما الغرفة، سرير لم ينم فيه أحد، ونافذة مفتوحة، والمريضة على الأرض في ثياب نومها المثنية فوق ركبتيها، ثم وقعت أعينهما على الكتاب، تحركتا نحوي بكفاءة متزامنة الوصول إذ لا بد من اتخاذ إجراء

ما، الإجراء رقم 4 ب، عندما يكون النزيل خارج سريره وفي حوزته مادة محظورة.

هبطت أيديهما على كتفي مثل براثن مخلبية، تجمدت، تحتم عليَّ الحفاظ على الهدوء والمظهر العقلاني، تحتم عليَّ أن أكون مطيعة، لكن واحدة منهما أطاحت بكتابي من فوق الأرض، فاندفعت نحوه، ثم بعد ذلك، كانتا تثنيان رسغيَّ خلف ظهري، وكنت أركل وأصرخ وأبصق، أقاتل بسلاح الفوضى الطائشة الذي يستخدمه الأطفال الصغار والنساء المجنونات.

لكنهما كانتا أكبر وأضخم وأقوى على نحو مثير للاكتئاب، وسرعان ما ضُغطت يديَّ المرفرفتين إلى جانبي بإحكام، وقدماي تسيران تارة وتنزلقان تارة أخرى عبر الردهة.

- مباشرة إلى الطبيب.

لهثت إحداهما بينما أومأت الأخرى، ألقيت نظرة سريعة على نفسي بمجرد أن مررت أمام نوافذ أبواب الغرف الأخرى، كنت شبحًا داكنًا في ملابس بيضاء قطنية، عيناي تشعان جنونًا وشعري متشابك، ترافقني امرأتان معتدلتان جامدتان للغاية، لدرجة أنهما إما أن تكونا ملائكة وإما شياطين.

وجهتني الممرضتان نحو طابقين إلى الأسفل تجاه باب مكتب، مطبوع على زجاجه بحروف ذهبية، دكتور ستيفن ج. بالمر، مشرف كبير الأطباء، أصابني ذهول مضحك مبكي أن كل سلوكي الجيد وأسئلتي المهذبة لم توصلني إلى هذا المكتب، لكن القليل من الصياح والعويل جلباني مباشرة إلى بابه، ربما ينبغي أن أصرخ أكثر، وربما يُفترض أن أعود إلى تلك الفتاة العنيدة التي كنتها في السابعة من عمري.

كان مكتب الدكتور بالمر أرضيته خشبية، وكراسيه من الجلد، يزخر بالأدوات العتيقة والشهادات المكتوبة باللاتينية المؤطرة بالذهب، بينما كان الدكتور بالمر نفسه عجوزًا متحفظًا، لديه نظارة قراءة صغيرة، تقبع على نهاية أنفه مثل طائر مهذب مصنوع من الأسلاك، يخلو المكتب تمامًا من رائحة الأمونيا والخوف التي ميزت المصحة، وهو ما جعلني أشعر بالكراهية تجاهه، لأنه غير مضطر لاستنشاق تلك الرائحة الكريهة يوميًّا في حياته.

طوقتني الممرضتان في كرسي ولاحتا من خلفي، قدمت إحداهما كتابي إلى دكتور بالمر، بدا صغيرًا ورثًّا على مكتبه، ومنزوع السحر تمامًا.

- أعتقد أن الآنسة جانيوري ستحسن التصرف الآن، أليس كذلك يا عزيزتي؟

امتاز صوته بثقة منيعة دسمة، دفعتني إلى التفكير في أعضاء مجلس الشيوخ أو البائعين أو السيد لوك.

همست:

- نعم يا سيدي.

غادرت الممرضتان شبيهتا الجرجول.

أعاد دكتور بالمر تشكيل سلسلة من الملفات والأوراق على مكتبه، التقط قلمه، وهو شيء قبيح وثقيل بدا وكأنه يمكن استخدامه مرقاقًا عند الضرورة، وشعرت بنفسي أهدأ للغاية، لقد كتبت فُتح باب، أليس كذلك؟

- إذًا، هذا كتاب.

نقر الدكتور على غلاف الكتاب.

- كيف هربته إلى غرفتك؟

- لم أفعل، لقد دخل عبر النافذة.

معظم الناس لا يفرّقون بين قول الحقيقة والجنون، جرب الأمر، وسترى ما أعني.

ابتسم الدكتور بالمر ابتسامةً صغيرةً مشفقةً.

- حسنًا، بحسب ما أخبرني به السيد لوك، تدهور حالتك مرتبط بوالدك، هلّا تخبرينني أكثر عنه؟

- لا أريد.

أردت كتابي، أردت أن أكون حرة وبلا قيود، حتى أذهب وأعثر على كلبي وصديقتي ووالدي، أردت ذلك القلم اللعين.

ومرة أخرى، ابتسم الدكتور بالمر تلك الابتسامة المشفقة.

- رجل أجنبي، أليس كذلك، وملون؟ أهو من السكان الأصليين أم الزنوج؟

لبرهة، دارت في خلدي فكرة، ولكنني كنت متلهفة للقيام بها، أنه كم سيكون شعورًا رائعًا أن أبصق مباشرة على وجهه، وألوث هذه النظارة الأنيقة باللعاب.

- نعم يا سيدي.

حاولت أن أستجمع وجه الفتاة المطيعة الذي عرفني الجميع به وأرتب قسمات وجهي على ذلك التعبير البريء الطيّع الذي خدمني للغاية في عالم لوك، على وجهي، قبع ذلك التعبير متخشبًا متصلبًا غير مقنعٍ.

- عمل، يعمل والدي، لصالح السيد لوك مستكشفًا أثريًّا، وكثيرًا ما يكون بعيدًا عن المنزل.

- حسنًا، وتوفي مؤخرًا.

تخيلت جاين وهي تخبرني أن السيد لوك ليس الرب، وأنها لم تفقد الأمل في والدي بعد، أوه يا أبي لم أفقد الأمل أيضًا.

- نعم يا سيدي.

ابتلعت ريقي، وحاولت أن أشبه قناع الفتاة المطيعة:

- متى يمكنني العودة إلى المنزل؟

المنزل، هل ترى أن حرف «H» يشبه منزلًا له مدخنتين؟ قصدت منزل لوك عندما قلت ذلك، بممراته المألوفة التي تشبه المتاهات، وغرفته العلوية المخبأة وحوائطه الحمراء الحجرية الدافئة، ولكن من غير المرجَّح على الإطلاق أن أعود إلى هناك الآن.

كان السيد بالمر يعيد ترتيب ملفاته مجددًا، ولا ينظر إليَّ، تساءلت كم دفع له السيد لوك للاحتفاظ بي هنا، على اعتبار أني مجنونة أو ما شابه.

- ليس واضحًا في الوقت الحالي، ولو كنت مكانك لما تعجلت الأمر، فلا يوجد سبب يمنعك من الاستراحة هنا لبضعة أشهر، أليس كذلك؟ حتى تستردي قوتك.

يمكنني التفكير على الأقل في ثلاثين سببًا مقنعًا لعدم رغبتي في أن أبقى حبيسة مصحة لعدة أشهر، لكن كل ما قلته كان:

- حسنًا يا سيدي، هل يمكنني... هل تظن أن بإمكاني استعادة كتابي مجددًا؟ وربما قلمًا وورقة؟ الكتابة... تريح ذهني.

حاولت رسم ابتسامة مذعورة.

- أوه، ليس بعد، سنناقش الأمر مرة أخرى الأسبوع المقبل، إذا أحسنتِ التصرف. سيدة جاكوبس وسيدة رينولدز! من فضلكما...

فُتح الباب من خلفي، والخطوات الحادة للممرضتين نقرت على الأرضية، أسبوع؟ قذفت بنفسي على مكتبه، واستحوذت على القلم الناعم الزلق، انتزعته من قبضة الدكتور، استدرت هاربة، واندسست بين الممرضتين، ثم أصبحت في قبضتهما، وانتهى الأمر، وعلى نحو غير ودود إلى حد ما، ارتطمت يد بيضاء متصلبة بعنقي، وشعرت بأصابعي تُنتزع بلا هوادة بعيدًا عن القلم.

- لا من فضلكم، أنتم لا تفهمون...

كنت ألقي بقبضتي في الهواء بينما قدماي تنزلقان على الأرض بلا جدوى.

- إثير[1] وجرعة من البروميد، شكرًا لكما يا سيدتَيَّ.

آخر مشهد وقعت عيناي عليه كان الدكتور بالمر يضع قلمه بعناية في جيبه ويخبئ كتابي في درج مكتبه.

غضبت وبكيت وصرخت في الأروقة، أرتجف من الكره والاحتياج، أطلت وجوه بيضاء كامدة كالحجر، تحدق إليَّ عبر نوافذ الأبواب الضيقة، إنه لأمرٌ مضحكٌ سرعة الانحدار من شابة متحضرة إلى امرأة مجنونة، بدا الأمر وكأن هذا المخلوق البربري الذي لا يعرف القيود قد عاش تحت جلدي لسنوات، يضرب بذيله كالسوط.

لكن توجد أماكن مبنية خصيصًا لاحتواء النساء البربريات، اجترتني الممرضتان إلى السرير، وربطتا الأغلال حول كاحليَّ ورسغيَّ، ووضعتا شيئًا باردًا ولاصقًا على فمي، حبست أنفاسي حتى لم أعد أستطيع الاحتمال ثم انجرفت إلى ظلام دامس.

لا أريد الحديث كثيرًا عن الأيام القليلة التالية، لذا لن أفعل؛ كانت مملة ورمادية وكئيبة، استيقظت في أوقات غريبة وغير منتظمة من اليوم، تفوح

---

(1) إثير: مادة مخدرة.

من أنفاسي الرائحة السقيمة للأدوية، وفي الليل حلمت بأنني أختنق لكن لم أستطع التحرك، تحدثت مع الناس، الممرضات والنزلاء الآخرين حسبما أظن، لكن رفقتي الحقيقية الوحيدة كانت ملكة فضية على عملتها، إلى جانب الساعات البغيضة المتربصة.

حاولت الهروب من الساعات بالنوم، أستلقي في حالة من الثبات الشديد وأغلق عينيَّ أمام التشابه الممل للغرفة ثم أرخي عضلاتي، أحيانًا كان ينجح الأمر، أو على الأقل حققت وقتًا من الزمن أكثر رمادية ومللًا من الباقي، ولكن في أغلب الأحيان لم أنجح.

كثيرًا ما استلقيت هناك محدقة إلى الشرايين الوردية لجفنيَّ مستمعة إلى طنين أذنيَّ.

أطل الممرضون والممرضات كل بضع ساعات، يحملون لائحة المواعيد في أيديهم، لفك قيودي من السرير وحثي على الحركة، كانت هناك وجبات ينبغي تناولها تحت إشراف لصيق، وأردية بيضاء متصلبة يجب ارتداؤها، كما ينبغي الاستحمام في صفوف من أحواض صفيح. حيث يسري في جسدي رعشة إلى جانب أربع وعشرين امرأة أخرى عاريات مثل السمك الشاحب. كل واحدة منا شُوهت وتعرت، كأنها قوقعة تنتزع من صدفتها. راقبت هؤلاء النسوة خلسة، بينما يرتعشن أو ينتحبن أو يطبقن أفواههن كشواهد قبور، وانتابتني رغبة في الصراخ، أنا لست مثلهن، أنا لست مجنونة، لا أنتمي إلى هنا، ثم خطر على بالي، ربما هن لا ينتمين إلى هنا أيضًا في المقام الأول.

مر الوقت غريبًا إذ تربصت تنانين الساعات وتحلقت، سمعت حراشف بطونهم تصدر أصواتًا غريبة على البلاط في أثناء نومي، أحيانًا كانوا يزحفون إلى السرير ويستلقون إلى جانبي مثل باد، فأستيقظ ووجنتاي مبللتان بالدموع وأشعر بوحدة فظيعة. في أوقات أخرى، بدلًا من ذلك، تجتاحني ثورة غضب مبررة، كيف استطاع لوك خيانتي بإلقائي في هذا الجحيم؟ كيف تركهم يؤذون باد؟ كيف يجرؤ والدي على تركي وحيدة هنا؟ لكن في نهاية المطاف، تخمد ثورات الغضب ولا تخلف شيئًا سوى الرماد، كأنه منظر طبيعي صامت رُسم برماد فحمي، ثم في اليوم الخامس أو السادس -أو السابع- من سجني، قال صوت ما:

- لديك زائر يا آنسة سكالر، جاء عمك لرؤيتك.

أغلقت عينيَّ، متأملة أنه إذا تظاهرت بالنوم لمدة كافية، سيستسلم جسدي ويجاريني، سمعت صوت فتح الباب، واحتكاك الكرسي، ثم تشدق صوتٌ ما:

- يا إلهي، لقد تجاوزت الساعة العاشرة صباحًا، كنت لأطلق مزحة عن الجميلة النائمة، لكنها ليست صحيحة تمامًا، أليس كذلك؟

فتحت عينيَّ فجأة، وكان هو هناك، بشرته بيضاء شفافة، عيناه قاسيتان، ويداه مثل عناكب مغطاة بقفازات بيضاء تقبع على عصاه، إنه هافيميير.

آخر مرة سمعت صوته كان يأمر رجاله بالتخلص من الفوضى التي يقصد بها صديقي العزيز.

اندفعت نحوه، ونسيت أنني يائسة وضعيفة ومقيدة إلى سريري، كل ما أدركته أنني أردت إيذاءه، عضه، خدش وجهه بأظفاري:

- اهدئي، دعينا لا نصعِّد الأمور، سأضطر إلى استدعاء الممرضات، لن تتمكني من مجاراتي وأنتِ مخدرة ولعابك يسيل.

زمجرت وحركت يديَّ في الأصفاد، فضحك.

- لطالما كنتِ طيّعة ومتحضرة للغاية في منزل لوك، أخبرت كورنيليوس ألا يصدق ذلك.

بصقتُ عليه، لم أبصق متعمدةً على شخص منذ كنت أنا وصامويل نقيم مسابقات في طفولتنا عند شاطئ البحيرة، شعرت بالراحة لأنني لم أخطئ هدفي تمامًا.

مسح هافيميير وجنته بإصبع مغطَّاة بالقفاز، وانهارت متعته.

- أريد توجيه بعض الأسئلة لك يا آنسة سكالر، يريدنا كورنيليوس أن نصدق أن الأمر تضخم، وأنك ببساطة استرقت السمع في أفضل الأحوال، وأنك مضطربة بسبب والدك، ولا خطر منك حقًّا، وإلى آخره، لكنني أظن عكس ذلك.

انحنى إلى الأمام:

- كيف عرفت بأمر الانحرافات؟ مع من كنت تتكلمين؟

كشفت عن أسناني له.

– فهمت، وكيف خرجت من حجرتك؟ كان إيفانز متأكدًا أنه حبسك، وهو ليس أحمق إلى هذه الدرجة ليكذب عليَّ.

رسمت شفتاي ما يشبه الابتسامة، وهو ذلك النوع من التعبيرات الذي يجعلك تظن أن الشخص معتوه ولا بد من احتجازه، لكنني اكتشفت عدم اكتراثي بالأمر.

– ربما ألقيت بتعويذة يا سيد هافيمير، ربما كان شبحًا...

تحولت الابتسامة إلى تمتمة بفم مائل:

– أنا مجنونة الآن، ألم تسمع بالأمر؟

أمال وجهه ناحيتي مفكرًا:

– لقد مات كلبك الوضيع، في حال كنت تتساءلين، ألقى به إيفانز في البحيرة، سأعتذر، لكن تحتَّمَ على شخصٍ أن يفعل ذلك منذ سنوات إذا سألتِني.

جفل جسدي مثل حيوان تعرض للركل، وتهشَّمَتْ ضلوعي إلى شظايا، ضاغطة لحم أحشائي الطري. باد، باد، أوه باد...

– يبدو أنكِ أعرتِني كل انتباهك، حسنًا، حسنًا، أخبريني، هل سبق وسمعت عن أوبير[1]؟ مصاصي الدماء؟ الشتريجا[2]؟

تدحرجت الكلمات وصدر عنها فحيح في فمِهِ، وبلا أيِّ سببٍ واضح ذكَّرتني بالرحلة التي سافرتها مع السيد لوك إلى فيينا عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كنا في شهر فبراير، والمدينة هرمة، تنتشر فيها الظلال وتجوبها الرياح.

---

(1) أوبير: كائن شيطاني من الفولكلور السلافي، يُخلق عندما ينتحر شخص أو يموت دون أن يُعمد. ويقال أيضًا أنه يتشكل عندما يموت شخص دون أن تتطهر روحه من الخطايا.

(2) الشتريجا: ساحرة مصاصي الدماء في الأساطير الشعبية الألبانية تمتص دم الأطفال في الليل في أثناء نومهم، ثم تتحول إلى حشرة طائرة

– حسنًا، بالكاد تهم الأسماء، متأكد أنك سمعتِهم في سياق عام، الأشياء التي تتسلل من الغابات السوداء في الشمال وتتغذى على دماء الأحياء.

كان ينزع القفاز من يده اليسرى في أثناء حديثه، جاذبًا كل طرف إصبع أبيض:

– بصفة أساسية، انتشرت الأكاذيب على ألسنة الفلاحين الذي يؤمنون بالخرافات، ثم نقلتها الدوريات القصصية وبيعت إلى الحثالة الصغار في العصر الفيكتوري.

أصبحت يده الآن حرة تمامًا، أصابعه شاحبة للغاية لدرجة أنني أستطيع رؤية العروق الزرقاء تتشابك خلالها.

– إذا سألتِني، كان لا بد من إعدام ستوكر[1] بلا محاكمة.

ثم مدَّ يده نحوي، ربما مرَّتْ نصف ثانية اقشعرَّت فيها ذراعاي وتوقَّفَ قلبي، قبل أن يلمسني طرف إصبعه على نحوٍ عبثيٍّ حيوانيٍّ، وأدركت أنه لم يكن ينبغي أن أتركه يلمسني، وعليَّ أن أصرخ طلبًا للمساعدة، ولكن الأوان قد فات.

كانت إصبعه باردة على جلدي، بل أكثر من باردة، إنه اختفاء لحرارة الجسد يسبب وجعًا وحرقة وألمًا في الأسنان. وفي محاولة بائسة، اتجهت كل ذرة من حرارة في جسدي ناحية البقعة التي لمسها هافيمير، لكن البرودة كانت مفترسة، حاولت شفتاي تشكيل الكلمات لكنهما تخدَّرتا وثقلتا، وكأنني أسير في البرد القارس.

أصدر صوت تنهيدة ناعمة تعبر عن الرضا البالغ، كأنه رجل يدفّئ يده قرب المدفأة أو يحتَسي الرشفة الأولى من قهوة ساخنة، سحب إصبعه على مضضٍ بعيدًا عن جلدي.

– دائمًا ما تحوي القصص ذرة من الحقيقة، ألا تعتقدين ذلك؟ أظن أن ذلك هو المبدأ الذي دفع والدك لمواصلة التجول حول الكرة الأرضية، مستخرجًا النفايات لسيده.

اصطبغت وجنتاه بلون قرمزي هزيل سقيم، ورقصت عيناه السوداوان:

---

(1) ستوكر: برام ستوكر هو كاتب أيرلندي اشتهر في أرجاء العالم كافة بروايته دراكولا.

- إذًا أخبريني يا عزيزتي كيف عرفتِ بشأن التصدعات؟

ما زالت شفتاي خدرتين، ودمي خاملًا متخثرًا في عروقي.

- لا أفهم ماذا... لماذا...

- لماذا نحن قلقون لهذه الدرجة؟ قد يلقي كورنيليوس خطابًا عن النظام والرخاء والسلام وما إلى ذلك، لكني أعترف بأن أهدافي ليست نبيلة للغاية، لا أتمنى سوى الحفاظ على هذا العالم كما هو، مريح للغاية، ويزخر على نحو يسهل من مهمتنا بشخصيات ليس لديهم من يحميهم أو يفتقدهم، لذا اهتمامي شخصي وشغوف، وسيكون من الحكمة أن تخبريني بكل شيء تعرفينه.

نظرت إليه، لا تزال ابتسامة واثقة مرتسمة على وجهه ويلامس بإبهامه العاري أطراف أصابعه، كنت خائفة أكثر من أي وقت مضى في حياتي، خائفة من الغرق في بحر الجنون والسحر، خائفة من أن أخون شخصًا ما أو شيئًا ما على غير دراية مني، لكن غالبًا خائفة من أن تلمسني هاتان اليدان شديدتا البرودة مرة أخرى.

دقَّ الباب بحدَّة، لم يُصْدِر كلانا أي صوت، ودخلت السيدة رينولدز مباشرة، طرق حذاؤها الأرض كأنه يحول بيني وبين السيد هافيمير:

- أخشى أن يكون وقت الاستحمام قد حان يا سيدي، يُطلب من العائلات العودة في وقت لاحق.

طوى الغضب الواضح على السيد هافيمير شفتيه. همس:

- نحن مشغولان.

في منزل لوك، كان ذلك كافيًا لإرسال الخدم القريبين مهرولين طلبًا للاختباء، لكن هذا ليس منزل لوك، ضيقت السيدة رينولدز عينيها وزمت شفتيها قائلة:

- آسفة يا سيدي، لكن الجداول الاعتيادية ضرورية جدًّا لمرضانا هنا في براتلبورو، فمن السهل إثارة انفعالهم، ويتطلب الأمر حياة روتينية متزنة للحفاظ على هدوئهم...

- حسنًا.

سحب هافيميير أنفاسًا عميقة، نفَضَ قفّازه ثم ارتداه فوق يده العارية، شيءٌ ما في البطء الاستعراضي للحركة جعل الأمر فاحشًا، مال نحوي ويداه متشابكتان أعلى عصاه:

- سنتحدث أكثر قريبًا يا عزيزتي، هل أنتِ متفرغة ليلة الغد؟ أكره أن يقاطعني أحد مجددًا.

لعقت شفتيَّ اللتين يعود إليهما الدفء ببطء، وحاولت أن أبدو أشجع مما شعرت:

- ألا... ألا يجب أن تكون مدعوًّا؟

ضحك:

- أوه يا عزيزتي، لا تصدقي كل ما تقرئينه في الدوريات القصصية، أنتم أيها الناس دائمًا ما تحاولون اختراع أسباب للأشياء، أن الوحوش تسعى فقط خلف الأطفال الأشرار والنساء المنحلات والرجال الآثمين، ولكن الحقيقة هي أن القوي يسعى خلف الضعيف أينما يريد، دائمًا ما كان الوضع كذلك، ودائمًا ما سيكون.

- سيدي.

تقدمت الممرضة نحونا.

- نعم، نعم.

لوَّحَ بيديه ناحيتها، وابتسم بشراهة إليَّ ثم غادر.

استمعت إلى نقر عصاه المرح في الأروقة.

وفي منتصف الطريق إلى الحمام، بدأت أرتجف ولم أستطع التوقف، ارتبكت الممرضات وفركن حول يديَّ وقدميَّ مناشف دافئة، لكن الارتجاف تفاقم، فجثمت عارية على بلاط الأرضية، ممسكةً بكتفيَّ حتى لا تتناثران، أعادوني إلى غرفتي، وتلكأت السيدة رينولدز لتثبيت الأصفاد حول ذراعيَّ المقشعرّتين، قبضتُ على يدها بكلتا يديَّ قبل أن تنتهي.

- هل... هل تظنّين أن في استطاعتي استعادة كتابي؟ الليلة فقط؟ سأكون مطيعة، مـــ. من فضلك.

تمنَّيْتُ لو أنني أتظاهر بهذا التلعثم، تمنيتُ لو أن الأمر كان محض خديعة معدَّة لأجعلهم يثقون بي قبل أن أقوم بهروبي الجريء، لكنني كنت خائفةً ويائسةً تمامًا كما بدوت، وكل ما أردته هو الاختباء من الأفكار الضارية في رأسي، أفكار مثل، هافيميير وحش، والجمعية تعج بالوحوش، وماذا يجعل ذلك السيد لوك؟ وباد ميت.مكتبة سُر مَن قرأ

لم أظن حقًّا أنها ستوافق، عاملتنا الممرضات إلى تلك اللحظة كأننا قطع أثاث ضخمة قليلة التهذيب تحتاج إلى الطعام والتنظيف بانتظام، يتحدثن إلينا لكن في الواقع، إنهن يثرثرن مثل زوجة فلاح تتحدث مع دجاجاتها، يقدمن إلينا الطعام ويُحممننا لكن أياديهن تشبه الأحجار الصلبة على جلدنا.

لكن السيدة رينولدز توقَّفَت ونظرت إلى الأسفل ناحيتي، على الأغلب بدا أن تلك النظرة حدثت مصادفة، كأنها نسيت لنصف ثانية أنني نزيلة، وبدلًا من ذلك رأت فتاة صغيرة تطلب كتابًا.

هربت عيناها بعيدًا عن عينيَّ مثل فأر مذعور، أحكمت الأصفاد حتى شعرت بنبضي يرتطم بأطراف أصابعي وغادرت دون أن تنظر إليَّ مجددًا.

بكيت في تلك اللحظة، غير قادرة حتى على مسح خط المخاط اللامع بعيدًا عن شفتي، وعاجزة عن ضغط وجعي في الوسادة أو طي رأسي بين ركبتيَّ، تابعت البكاء على أي حال، أستمع إلى أصوات النساء المختلطة في الأروقة حتى ابتل غطاء الوسادة تحت رأسي وصمتت الممرات، وطنت الأضواء الكهربائية بعد إطفائها.

في الظلام، بات من الصعب التوقف عن التفكير في السيد هافيميير، أصابعه البيضاء تقترب نحوي مثل العنكبوت عبر الظلام، وجلده الذي تشوبه الزرقة ويلمع في ضوء القمر.

ثم سمعت صوت دخول مفتاح وقلقلة القفل، وانفتح الباب، تشنجتُ في أصفادي، وكنت على وشك الإصابة بأزمة قلبية، متخيلةً تشكُّل هالة بدلته السوداء في الغرفة، واقتراب نقر عصاه...

لكنه لم يكن هافيميير، كانت السيدة رينولدز ومعها كتاب الأبواب العشرة الآلاف مخبأً تحت ذراعها، هرعت إلى جانب سريري، لطخات بيضاء مختلسة

في الظلام، خبأت الكتاب تحت ملاءاتي وحلّت قيودي بأصابع مرتعشة، فتحت فمي لكنها هزت رأسها دون النظر إليَّ، ثم غادرت وطقطق القفل خلفها.

أمسكت به فحسب، في البداية، فركت بإبهامي الحروف المهترئة، ثم استنشقت رائحته البعيدة الحرة،

وتوجهت نحو ضوء القمر المائل، وفتحت الكتاب ثم هربت بعيدًا.

الفصل الرابع

عن الحب

تشتد أواصر الحب (الحب ينطلق في رحلة بحرية) نتائج الحب المتوقعة التي تفوق التوقعات في آنٍ واحدٍ.

تشيع بين المفكرين والمحنكين السخرية من الحب الحقيقي، والادعاء أنه مجرد قصة خيالية لطيفة تُباع للأطفال والشابات، ويتعاملون معه بنفس القدر من الجدية التي تولى إلى العصيّ السحرية والأحذية الزجاجية[1]، لا أشعر بشيء سوى الشفقة تجاه هؤلاء المتعلمين، لأنهم لن يقولوا مثل هذه التفاهات لو خاضوا بأنفسهم تجربة الحب، أتمنى لو كانوا حاضرين في أثناء لقاء يولي إيان وأديلايد لي في عام 1893، لن ينكر وجود الحب أي شخص يشاهد جسديهما يرتطمان ببعضهما وسط الأمواج التي تصل إلى مستوى الخصر، أو يرى عيونهما تلمع مثل فنارات تقود السفن التائهة إلى المنزل في النهاية. إن الحب يتدلى بينهما كشمس مصغرة تشع دفئًا، وتجدد وجهيهما باللونين الذهبي والأحمر.

لكن حتى أنا ينبغي لي الاعتراف بأن الحب ليس جميلًا دائمًا، بعد أن سلخ كلٌ من يولي وأدي نفسه عن الآخر، تركا نفسيهما واقفين بين الأمواج، يحدّق

(1) أتمنى أن تكون على دراية كافية بطبيعة الأبواب عند هذه النقطة لتفترض أن كلًّا من العصي السحرية والأحذية الزجاجية توجد بوفرة في العوالم الأخرى.

كل منهما إلى الغريب الذي أمامه، ماذا تقول لامرأة قابلتها مرة واحدة فقط في حقل في عالم آخر؟ ماذا تقولين للفتى الشبح الذي مدة اثني عشر عامًا طاردتك عيناه السوداوان؟ تحدث الاثنان في وقت واحد، وتلعثما حتى صمتا.

ثم قالت أدي بشغف: «اللعنة» وتوقفت لبرهة: «اللعنة»، مررت أصابعها في شعرها ورشت بعضًا من ماء البحر على وجنتيها الدافئتين للغاية.

– هل هذا أنت حقًّا أيها الفتى الشبح؟ ما اسمك؟

كان السؤال طبيعيًّا تمامًا، لكنه أضعف الشمس التي بينهما؛ إذ أصبح كلاهما واعيًا على حين غرة بمدى ضآلة احتمالية أن يقع شخصان لا يعرفان أسماء بعضهما في الحب.

همس في عجالة:

– يولي إيان.

– سررت بلقائك يا جوليان، هل يمكنك مساعدتي؟

أشارت إلى الخلف تجاه قاربها الذي يتمايل برفق ناحية الجنوب، استغرق الأمر مدة طويلة من المناورات والتخبط قبل أن ينجح الاثنان في جر السفينة الصغيرة إلى الخليج وتثبيتها إلى صخرة واقفة بين الأمواج، عملا في صمت، يدرس كل منهما حركات جسد الآخر، الهندسة الإعجازية للعظام والعضلات، كما لو كانت شفرة سرية كُلِّفا بترجمتها، ثم وقفا على الشاطئ في حمرة الشفق، وبات من الصعب أن ينظرا مباشرة إلى بعضهما مجددًا.

– هل تودين... لديَّ مكان أقيم فيه بالمدينة.

فكر يولي في غرفته الضيقة بالطابق الثاني من منزل عاملة الغسيل، وتمنى لو أنه يدعو أدي إلى قلعة أو قصر أو على الأقل إلى إحدى حجرات النوم الباهظة التي لها شرفة ويؤجرها التجار المسافرون، أومأت أدي، وانتهى بهما الحال عائدين جنبًا إلى جنب عبر الشوارع الضيقة لمدينة بلم، حيث تلامست يداهما أحيانًا على استحياء ولكن لم يطل الأمر قط، شعر يولي بحرارة تلك الأزقة كأنها أعواد ثقاب اشتعلت بالقرب من جلده.

في غرفته أجلسها إلى نهاية السرير غير المرتب، وهرول في دوائر، يجمع أكوام الكتب وزجاجات الحبر الفارغة في الأركان، لم تنبس أدي ببنت شفة،

ولو عرفها يولي لمدة أطول من بضع ساعات في شبابها، لأدرك كم أن ذلك غير مألوف، أديلايد لي امرأة تُبدي رغباتها علنًا دون القيام بحيل أو شعور بالعار، وبشكل عام توقَّعَت أن العالم سيستوعبها، لكن في تلك اللحظة بينما تجلس في غرفة فوضوية تفوح منها رائحة المحيط والحبر، لم تعثر على الكلمات المناسبة.

جلس يولي مترددًا إلى جانبها وسألها:

- كيف جئتِ إلى هنا؟

- عبرت خلال باب على قمة جبل هناك في عالمي، آسفة أنني استغرقت وقتًا طويلًا حتى أصل إلى هنا، كل ما في الأمر أن هناك عددًا هائلًا من الأبواب حولنا.

تسلل بعضٌ من غرورها المعتاد عائدًا إلى صوتها.

- كنتِ تبحثين عن هذا العالم؟ عني؟

أمالت أدي رأسها ناحيته:

- بالطبع.

ارتسمت ابتسامة عملاقة على وجه يولي، بدت لأدي ابتسامةً مسلوبة من ولد عمره أصغر بكثير، كانت الابتسامة ذاتها التي ابتسمها لها في الحقل عندما قطعت وعدًا بأن تقابله بعد ثلاثة أيام، منتشيًا بحظه الجيد، وفجأة اتضح أمام أدي ما ينبغي أن تفعله بعد ذلك.

قبَّلَتْه، شعرتْ بمنحنيات ابتسامته تُعيد تشكيل نفسها أمام شفاهها، واستقرَّت يد الباحث الرقيقة برفق على كتفيها، تراجعت أدي إلى الخلف لبرهة، حتى تنظر إليه، بشرته الداكنة التي يشوبها الاحمرار، الابتسامة المختلفة للغاية التي تلمع في هذه اللحظة تجاهها كسيف معقوف، جدية نظرته إلى وجهها، ثم ضحكت لمرة واحدة، ودفعته إلى أسفل.

خارج غرفة يولي، غرقت مدينة بلم في سبات ليلي لذيذ، علق مواطنيها في تلك الساعة الهادئة التي تلي وجبة العشاء وتسبق هبوط ستار الليل، وخارج بلم، أسكت بحر الأماريكو نفسه في مواجهة ألف جسم داكن وجزيرة

صخرية، وأرسل نسائم مثقلة بالأملاح عبر الأبواب إلى عوالم أخرى، وتمايل عشرة آلاف عالم في عشرة آلاف رقصة يضيئها الشفق، لكن للمرة الأولى في حياتهما لم يكترث يولي أو أدي بتلك العوالم الأخرى، بالنسبة إليهما كان عالمهما مشمولًا في مهد ضيق بالطابق الثاني لمنزل عاملة الغسيل في مدينة بلم، مرت بعض الأيام قبل أن يخرجا من الغرفة.

إذا اتفقنا أن الحب الحقيقي موجود، يصبح في إمكاننا تأمل طبيعته؛ فهو ليس شيئًا يحدث من تلقاء ذاته مثلما يريد عدة شعراء مضللين منك أن تصدق، إنه ليس حدثًا، ولكنه ببساطة شيءٌ موجودٌ ولطالما كان موجودًا، الإنسان لا يقع في الحب، الإنسان يكتشفه.

شغلت تلك العملية الأثرية أدي ويولي في أثناء أيامهما في غرفة عاملة الغسيل، اكتشفا حبهما أولًا عبر اللغة الإعجازية الغريبة للجسد، عبر الجلد، وعرق تفوح منه رائحة القرفة، الثنيات وردية الحواف التي تخلفها الملاءات المجعدة، التجمعات الثلاثية للعروق المرسومة على ظهور أيديهما، بالنسبة إلى يولي، كانت تلك لغة جديدة كليًا، أما بالنسبة إلى أدي فقد أعادت تعلم لغة ظنت أنها تعرفها سلفًا، ولكن سرعان ما اندمجت الكلمات المنطوقة في المسافات بينهما.

خلال ساعات ما بعد الظهيرة الرطبة، وفي راحة الليالي الباردة، أطلعا بعضهما على اثنتي عشرة سنة من القصص؛ روت أدي قصتها أولًا، كانت محادثة شائقة تتكون من رحلات بالقطار ينيرها ضوء القمر، ورحلات على أقدام متعبة، من الرحيل والوصول إلى وجهة ما، من أبواب تنتصب مائلة إلى حد ما في الغسق، نصف مفتوحة، اكتشف يولي أنه لا يمكنه الاستماع إليها دون قلم في يده، كما لو كانت مخطوطة أرشيفية بُعثت إلى الحياة، ويتحتم عليه توثيقها قبل أن تختفي.

اختتمت بقصة جبل سيلفرهيلز والباب المؤدي إلى البحر، وضحكت فقط عندما ألحَّ عليها يولي لمعرفة التفاصيل والتواريخ والسمات المحددة.

- هذا بالتحديد نوع الهراء الذي يفسد أي قصة جيدة. لا يا سيدي، حان الوقت لتخبرني بقصتك، ألا تظن ذلك؟

رقد على معدته على الأرضية الحجرية الباردة، وقدماه عالقتان بين الملاءات، وساعداه ملطخان بالحبر.

- أظن أن قصتي هي قصتك.

هزَّ كتفيه:

- ماذا تقصد؟

- أقصد... ذلك اليوم في الحقل غيّرني تمامًا كما غيّرك، قضى كلانا حياته سعيًا خلف أسرار الأبواب، ألم نتتبع القصص والأساطير؟

وضع يولي رأسه على يده ثم تطلع إلى تمدد جسدها الذهبي على سريره.

- باستثناء أن مسعاي شمل وقتًا أكثر بكثير في المكتبات.

أخبرها عن طفولته الحالمة وشبابه المكرس لهدف، ومنشوراته المرموقة أكاديميًّا -التي لم يسبق وأكدت صراحة على وجود الأبواب لكن ببساطة قدمتها باعتبارها تراكيب أسطورية تعطي وجهات نظر اجتماعية ثمينة-، ومسعاه السرمدي لاكتشاف الطبيعة الحقيقية للأبواب بين العوالم.

- وماذا وجدت يا جوليان؟

أجاب باللكنة الأجنبية الملتوية التي قالت بها اسمه:

- بعضًا...

قال، مشيرًا إلى عدة مجلدات متكدسة فوق مكتبه عن دراسة مقارنة للممرات والبوابات والمداخل في الأساطير العالمية.

- وليس كافيًا.

وقفت وانحنت فوق مكتبه تطالع أبعاد الكلمات الأجنبية على الصفحة، بدا جسدها مرقطًا على نحو غريب بالنسبة إلى يولي، تتحول بشرتها من الأبيض الشاحب إلى النمش المحروق.

- كل ما أعرفه أن هناك أماكن، ضعفت نوعًا ما، يصعب رؤيتها دون النظر إليها بطريقة معينة، حيث يمكنك الذهاب إلى أماكن أخرى، كل أنواع العوالم الأخرى، يزخر بعضها بالسحر، ودائمًا ما يتسرب منها أشياء، لذا كل ما عليك فعله هو تتبُّع القصص، ماذا لديك أيضًا؟

تساءل يولي إذا كرَّسَ الباحثون أنفسهم لأسئلة سبق وأجابها آخرون عفويًّا، وإذا ما وجدوا الأمر شاقًّا أو ممتعًا، ظن أن أدي غالبًا ستشعر بالأمرين، أجابها بلهجة جافة:

– ليس كثيرًا. هناك، كما قلت، أماكن ضعيفة حيث تنزف العوالم في عوالم أخرى، لكن أظن أن هذا التسرب نوعًا ما... مهم بل حيوي.

الأبواب، كما أخبرها، هي التغيير، والتغيير هو ضرورة خطيرة. **الأبواب**، هي ثورات واضطرابات وشكوك وألغاز ونقاط محورية حولها قد تنقلب عوالم بأكملها، إنها بدايات ونهايات كل قصة حقيقية، الممرات البينية التي تقود إلى المغامرات والجنون، وهنا ابتسم، حتى الحب، دون الأبواب، ستصبح العوالم راكدة ومتكلسة وخالية من القصص.

اختتم حديثه برصانة الباحثين:

– لكن لا أعرف المكان الذي ظهرت منه في المقام الأول، هل كانت الأبواب موجودة دائمًا أم صُنعت؟ من صنعها وكيف؟ ربما يكلف الأمر صائغة كلمات حياتها لتشق العالم هكذا! على الرغم من... أو لا ربما ليس كذلك، إذا كانت العوالم تحوم بالفعل حول بعضها بمثل هذا القرب، ربما الأمر أشبه بإزاحة ستار ما أو فتح شباك، لكن في البداية ينبغي إقناع العوالم إذا كان حتى ممكنًا، وأشك أن ...

– لماذا يهم مصدرها إلى هذه الدرجة؟

استلقت أدي إلى جانبه بينما يتحدث، تراقبه بمزيج من الإعجاب والخفة.

– لأنها تبدو في غاية الهشاشة، ومن السهل إغلاقها، وإذا أمكن تدميرها وليس صناعتها، ألن يتناقص عددها بمرور السنوات؟ الفكرة... طاردتني، ظننت أنني لن أعثر عليكِ أبدًا.

ضغطهما ثقل اثني عشر عامًا من البحث عديم الجدوى، ألقت أدي بذراع وقدم فوق ظهر يولي.

– لم يعد ذلك مهمًّا، عثرت عليك على أي حال، ولن يكون أمامنا المزيد من الأبواب المغلقة.

تحدثت بشراسة وجرأة، كأن زمجرة نمرة تهدر في ضلوعها، لدرجة أن يولي صدقها.

استغرق الأمر عددًا كبيرًا من الأيام قبل أن يستلقي أدي ويولي إلى جانب بعضهما بهدوء وسكون في السرير، دون الحاجة المسعورة إلى معرفة بعضهما بعضًا، لقد اكتشفا الهيئة القاسية لقصة حبهما، وكانا راضيَيْن بالسماح لباقي الأمر أن يحدث على نحو أكثر رزانة، منطلقان كأن أمامهما بحرًا لا حدود له.

بالنسبة إلى أدي، كان الأمر أشبه بالعودة إلى المنزل، بعد سنوات من التجوال وعدم الاستقرار، سنوات من الانجراف في المسارات الخفية للقصص وقلبها يضطرب بالألم، وجدت نفسها أخيرًا راضية بالسكون. بالنسبة إلى يولي كان الأمر أشبه بالمغادرة، لقد عاش حياته بين الحدود المريحة للبحث والمعرفة، مدفوعًا بالسعي خلف دراساته بحماسة محددة الهدف، ونادرًا ما تطلع نحو الأفق، لكنه وجد نفسه في تلك اللحظة هائمًا، وغير متزن، لماذا تهم دراساته الآن؟ ما هي ألغاز الأبواب مقارنة باللغز الأكبر لحرارة جسد أدي الأبيض الممتد إلى جانبه؟

- ماذا نفعل الآن؟

سألها ذات صباح، كانت شبه غارقة في ضوء الغسق الوردي المتلألئ، النبرة القلقة في صوت يولي أضحكتها.

- أي شيء نريده يا جوليان، ربما في البداية تريني عالمك.
- حسنًا.

سيطر الهدوء على يولي لعدة أنفاس طويلة.

- أولًا، هناك شيء أود فعله.

نهض وفتش في مكتبه عن قلم وزجاجة بها حبر لزج كثيف، جثم إلى جانب السرير ومدَّ ذراعه اليسرى أمام الملاءات:

- عندما يحدث شيء، شيء مهم، ندونه، وإذا كان شيئًا مهمًّا ينبغي أن يعرفه الجميع، ندونه هنا.

نقر على المنطقة الرقيقة من الجهة الداخلية لرسغها.

- وماذا ستكتب؟

عندما التقت عيناه بعينيها، غشتها الجدية وظلام يشبه البرك الموجودة تحت سطح الأرض، وشعرت أدي بارتعاشة في معدتها:

- أود أن أكتب: في هذا اليوم من صيف عام 6920، عثر يولي إيان الباحث وأديلايد لي لارسن على الحب، وأقسما أن يحافظا عليه إلى الأبد.

ابتلع ريقه:

- أعني، إن لم تمانعي، الكلمات المكتوبة بهذه الطريقة، وبهذا الحبر، ستبقى لعدة أسابيع، ولكن يمكن إزالتها، إنه نوع من الوعد فحسب.

اضطرب قلب أدي:

- ماذا يحدث إذا قررت أنني لا أريد إزالته؟

رفع يولي ذراعه اليسرى في صمت، تلتف الوشوم حولها في خطوط ضيقة داكنة، تلقبه بــــ «الباحث» وتسرد أهم مؤلفاته، نظرت أدي إلى الوشوم بجدية بالغة لمدة دقيقة، مثل امرأة ترى مستقبلها، وتمنح نفسها فرصة أخيرة للتراجع، ثم نظرت إلى عينَيْ يولي.

- لماذا نضيع وقتنا باستخدام القلم إذًا، أين يمكننا الحصول على وشوم؟

تفجرت فقاعة هائلة من الارتياح الجذل في صدر يولي، وقبلته أدي، وعندما غادرا منزل عاملة الغسيل ظهيرة ذلك اليوم، كان هناك حبر أسود حديث العهد يلتف حول أيديهما المتشابكة، يعلن مستقبلهما ليراه العالم، قضيا الساعات التالية في التبضع في سوق بلم المشمسة المغطاة بمظلات. تفاوض يولي على أسعار الفاكهة الجافة والشوفان بعبارات قصيرة وعملية تنتمي إلى العامية الأمريكية، بينما جمعت أدي حولها طابورًا من المتفرجين المذهولين كأنهما سفينة تمخر العباب خلفهما، تصاعدت أصوات الضحكات والصرخات من أطفال أذرعهم هزيلة، وتمتمات شفقة من نساء السوق، وهدرت نميمة من بائعي السمك الذين سمعوا شائعات عن المرأة الشبح.

استأجر يولي عربة غير متوازنة لتدفع حاجياتهم نحو الشاطئ الشرقي، حيث لا تزال سفينة أدي الصغيرة راسية عند الخليج، قضيا الليلة مختبئين

تحت قطعة قماش فائضة في أسفل القارب، يستمعان إلى تدفق الأمواج قبالة الهيكل المكسو بخشب الصنوبر، ويراقبان الليل يتحرك من فوقهما مثل تنورة راقصة مرصعة بالنجوم، احتضنت أدي المنطقة الرقيقة من يد يولي وفكرت في السعادة الأبدية والنهايات حلوة المذاق، في حين فكر يولي في مطلع الحكايات والبدايات الجريئة.

غادرا عند الغسق، عندما سألها ماذا تريد أن ترى، أجابت أدي: «كل شيء»، لذا رسم يولي مطيعًا منهجًا نحو كل شيء؛ في البداية رست سفينتهما عند مدينة سيسلي، حيث يمكن لأدي أن تُعجب بالأقبية الوردية للكنائس المحلية، وتتذوق الطعم الحار لثمرة فاكهة الجوانا الطازجة، ثم قضيا ثلاث ليالٍ على جزيرة زو المهجورة، حيث لاحت أطلال المدينة الهالكة مثل أسنان رمادية مكسورة تلمع تحت الشمس، قبل أن يتخطيا على طول المسار سلسلة من الجزر الواطئة التي تعج بالرمال، وحجمها أصغر من أن تحمل اسمًا، مشيا عبر شوارع مدينة يف، وناما في الكهوف الباردة بمدينة جانجيل، وسارا عبر الكوبري الشهير الرابط بين المدينتين التوأمتين أيو وإيفو، أبحرا شمالًا وشرقًا، متتبعين التيارات الصيفية خارج الحرارة الشديدة لمنطقة خط الاستواء، ووقعت عيناهما على مدن بعيدة للغاية، قرأ يولي أسماءها فقط على رسوماته.

مصروف الباحث الذي يتقاضاه يولي، ليدفع إيجار حجرات صغيرة ويأكل وجبات عادية، لم يكن كافيًا ليزودا نفسيهما بالكثير من أسواق المدن، وعوضًا عن ذلك حاول يولي متخبطًا تذكر دروس والده التي مر عليها وقت طويل عن الزواج والاستقرار، واصطاد بعض السمك ليتناولا منه عشاءهما، بينما قطعت أدي بعض الشجيرات الرقيقة، وصنعت لهما ما يشبه خيمة ذات قوس في مؤخرة السفينة حيث يمكنهما الاحتماء من الشمس والمطر. في مدينة كاين المزدحمة، اشترى يولي بكرة من الشريط اللاصق وإبرة معدنية في طول كف يده، وقضيا يومًا يطفوان في ميناء مدينة كاين حيث خيطت المباركات إلى شراع سفينتهما العاري على نحو فاضح، كتب كل الأدعية المعتادة للطقس الجيد والسفر الآمن، لكن في المكان الذي تضيف فيه معظم السفن إهداءً خاصًّا، لصيد مثمر أو تجارة مربحة أو سفر مريح، كتب يولي

فقط عن الحب، رأت أدي الكلمة الملتفة حول رسغها تشبه الموجودة على الشراع، فقبَّلَتْ وجنته ضاحكةً.

كان من الصعب تخيُّل نهاية لهذه الشهور الذهبية التي قضياها على متن قارب المفتاح، انخفضت حرارة الصيف وحلت محلها الرياح العالية الباردة لموسم التجارة، حينما يزدحم الأماريكو للغاية بالسفن لدرجة أن البحر نفسه تفوح منه رائحة التوابل والزيت والورق الكتاني. تتبع يولي وأدي الدوامات مُنتشيَيْن بالحب عبر التيارات، عائدين جنوبًا، على أمواج حوافها بيضاء، ولا يخططان لما هو أبعد من الجزيرة القادمة، أو المدينة القادمة، أو الليلة القادمة التي سيقضيانها يحتضنان بعضهما على شاطئ ما، ظن يولي أن بإمكانهما مواصلة العيش على هذا النحو إلى الأبد.

بلا شك، كان يولي مخطئًا، الحب الحقيقي ليس أمرًا ثابتًا، في الواقع، إنه باب، من خلاله قد تعبر كل الأشياء الإعجازية والخطيرة.

– جوليان، استيقظ يا حبيبي.

كانا قد قضيا الليلة على جزيرة صغيرة مغطاة بأشجار الصنوبر، يسكنها الحطابون ورعاة الغنم فقط، أوى يولي إلى سريرهما المصنوع من الخيش والقماش، يتعرق نبيذ توت العرعر الذي تناوله الليلة الماضية، لكنه فتح عينيه على نداء أدي.

سأل ببلاغة تامة:

– ماذا؟

جلست وظهرها إلى البحر، يظللها ضوء الغسق المائل عبر فروع أشجار الصنوبر، تدلى شعرها قشي اللون على ظهرها في خطوط متعرجة، حيث جعلت يولي يقصه بسكين الصيد، وتحولت بشرتها إلى درجة فجَّة غير متوقَّعَة من البُنّي المحروق، وارتدت الغطاء العملي لبحارة، لكنها لم تكن قد أتقنت الطيات والثنيات اللازمة بعد، لذا تدلَّتْ ملابسها حول جسدها كالشبكة الفضفاضة، ظنَّ يولي أنها أجمل شيء في عالمه وأي عالم آخر.

– هناك شيء يجب أن أخبرك به.

فركت أدي الكلمات السوداء التي لا تزال تلطخ رسغها الأيسر.

- أظنه شيئًا هائلًا للغاية.

أمعن يولي النظر إليها، لكن تعبيرها كان غير مألوفٍ بالنسبة إليه؛ فخلال الأشهر التي قضياها معًا، كان قد رآها متعبة ومنتشية، غاضبة ومكشرة عن أنيابها، ضجرة وشجاعة، لكن لم يرها خائفةً قط. قبع التعبير على وجه أدي غريبًا كسائح، زفرت ثم أغلقت عينيها:

- جوليان، أظن... حسنًا، أعرف في الواقع، لقد صرت متأكدةً منذ مدة الآن... سأنجب طفلًا.

توقف العالم مؤقتًا، صمتت الأمواج، وكفت أغصان أشجار الصنوبر عن التلامس، حتى المخلوقات الأرضية توقفت عن الحفر، لم يكن يولي واثقًا أن قلبه ما زال ينبض باستثناء أنه لم يبدُ أنه فارق الحياة.

- حسنًا، ليس عليك أن تبدو مندهشًا جدًّا، أعني أن شخصين يفعلان ما كنا نفعله لمدة نصف عام، يجب أن تكون غبيًّا للغاية ألا تظن أننا قد... أنني قد...

سحبت أدي أنفاسها عبر أسنانها المضمومة بإحكام.

لكن تعذر على يولي أن يسمعها بوضوح، لأن الصمت اللحظي أفسح الطريق أمام أمرٍ صاخبٍ واحتفاليٍّ، كأنما تبدَّلَ قلبه المتلعثم باستعراض المدينة، سعى جاهدًا حتى يردَّ بلطفٍ وحرصٍ:

- ماذا ستفعلين؟

اتسعت عينا أدي وانبسطت أصابعها عاجزة على معدتها، كأنما تحرس الطفل بعيدًا عن الشرور.

- لا يبدو أن لدي خيارات[1] كثيرة، أليس كذلك؟

قالت بلا أثر لنبرة ندم أو مرارة في صوتها، رجفة الخوف تلك فحسب:

---

(1) في الواقع، كان لديها خيار، ربما نسيتْ أدي أنها في عالم يولي، وليس عالمها، وعالم يولي به مطوِّعو الكلمات، الحمل أمر هش غير مؤكد، وبالتحديد في البداية، وأي مطوع كلمة لديه المهارات المطلوبة، ربما يكتب «طفل غير مرغوب به» بينما لا يزال وميض احتمال خافت في جسد والدته.

– لكن الرجال أمامهم خيارات، أليس كذلك؟ الرب يعلم أن والدي لم يكن... لم... ماذا ستفعل؟

عندها أدرك يولي الشيء الذي كان ينبغي أن يكون واضحًا، ما أخاف أدي لم يكن الطفل، لكن هو، ومن دواعي الارتياح الهائل أن يولي ضحك، صرخة فرح عظيمة فرقت الطيور القابعة فوقهما، وجعلت أدي تقضم خدها بالأمل المفاجئ، ألقى يولي بأغطيته جانبًا وزحف تجاهها، أخذ يديها المجروحتين المحروقتين ضعيفتَيْ الأظفار والجميلتين بين يديه.

– هذا ما سأفعله، إذا سمحت لي: سنعود إلى نين وأتزوجك، وأعثر على مكان ما لأجعله منزلًا لنا، وثلاثتنا... أو أربعتنا؟ أو ستة؟ انتظري حتى تقابلي شقيقاتي وأشقائي، وسنقضي الشتاء في نين، بينما سنبحر في الصيف، وسأمنحك حبًا يفوق الحب الذي سبق ومنحه أي إنسان لأي شيء، لن أترككما أبدًا ما دمت حيًّا.

راقب الخوف الذي سكن وجهها يتبخر، ويحل محله شيء مشتعل ومنير جعل يولي يفكر في الغواصين الواقفين على حواف المنحدرات أو صائغي الكلمات المحدقين إلى الصفحة الفارغة. قالت:

– نعم.

وتكمن حياتهما بأكملها في تلك الكلمة. لو كان يولي رجلًا أفضل فقط، لحافظ على وعده... لابنته، وإن لم يكن لزوجته.

وشمت والدة يولي وعود زواجهما على يديهما، عملت وشعرها الأبيض المربوط مسحوب إلى الخلف تحت وشاح، وإبرها تعلو وتهبط بالإيقاع نفسه الذي عرفه يولي منذ طفولته، لا يزال يبدو الأمر سحريًّا بالنسبة إليه أن يرى الكلمات تبرز من مسار الحبر والدم الذي تصنعه الإبرة مثل فجر يتبع عربة إله عتيق ما، وبالنسبة إلى أدي، الطقس ينقصه ثقل التقليد، لكن لا يزال صدرها لا يتسع للجمال الغريب للخطوط الداكنة الملتفة حول مقدمة ذراعها، وعندما تضع يدها إلى جانب يد يولي حتى تتلامس جراحهما الحمراء السوداء، وتنطق الكلمات المكتوبة بالحبر بصوت عال، لا تزال تشعر بشيء كوني يتبدل تحت قدميها.

عادة توقيع النعم جاءت بعد الوعود، والدا يولي، يُظهران تعبيرات مندهشة دمثة تشير إلى أنهما لا يفهمان تمامًا كيف أصبح ابنهما متزوجًا من الأجنبية البيضاء الشاحبة، التي لا يرتبط اسمها بشيء سوى بأقبح قارب في العالم، لكنهما كانا سعيدين لأجله على أي حال، استضاف والدا يولي التجمع، وكل أبناء عمومة يولي وعماته صاحبات الظهور المحنية ورفاق الجامعة تجمعوا لتسجيل أمنياتهم للثنائي حديث الزواج في كتاب العائلة، تباطؤوا ليأكلوا ويشربوا حتى يصلوا إلى حالة من الثمالة التقليدية، قضت أدي ليلتها الثالثة في مدينة نين محشورة في سرير طفولة يولي، تشاهد نجومه المصنوعة من الصفيح تلتف فوق رأسها.

استغرق يولي أسبوعًا آخر لينتزع ترتيبًا جديدًا بينه وبين الجامعة، إذ أعلن أنه فرغ من أبحاثه في المجال ويحتاج إلى الوقت والهدوء ليجمع أفكاره، ويود أيضًا إعانة كبيرة بما يكفي ليعول زوجته وطفله، اعترضوا في بداية الأمر، وأصرَّ على موقفه، في النهاية، وبعد الثرثرة حول إسهاماته المستقبلية المتوقعة لسمعة الجامعة، كلفه المدير بالتدريس ثلاث مرات أسبوعيًّا في ميدان المدينة، وقدم له ما يكفي من الأجر ليتحمل تكلفة منزل صخري صغير على جانب التلة الشمالية العليا من الجزيرة، هيكل المنزل كان متهالكًا مستقرًّا نوعًا ما، شبه مدفون في التلة الموجودة خلفه، التي تنبعث منها رائحة ماعز في أثناء أوقات ما بعد الظهيرة الدافئة، المنزل مكون من غرفتين، وموقد مظلم تسكنه عدة أجيال من الفئران، وسرير من مرتبة محشوة بالقش، ظن البنّاء الذي حفر أسماءهما على الرف الحجري بينه وبين نفسه أنه منزل كئيب ومتهالك بالنسبة إلى عائلة شابة، ولكن بالنسبة إلى يولي وأدي كان أجمل مبنى على الإطلاق له أربعة حوائط وسقف، هذه لمسة ميداس(1) المجنونة للحب الحقيقي التي تحول كل شيء يلمسه إلى ذهب.

تسلل الشتاء فوق نين خلسة، مثل قطة بيضاء عملاقة قوامها ضباب بارد ورياح قاسية، لم تنبهر أدي على الإطلاق به، وضحكت على يولي عندما يلف

(1) ميداس: في الأساطير الإغريقية هو ملك كانت له قدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب.

أقمشة صوفية حول صدره ويرتعش إلى جانب فرن الخبز، ذهبت في نزهات طويلة، مرتدية ملابسها الصيفية فحسب، لتعود بوجنتين جلدتهما الرياح.

– ألن ترتدي شيئًا أكثر دفئًا؟

رجاها يولي ذات صباح:

– لأجله؟

لف ذراعه حول منحنى معدتها الرقيق.

ضحكت عليه، ودفعته بعيدًا:

– أظن أنك تقصد «لأجلها».

– إمم، حسنًا، ربما ترتدين... هذا؟

وأخرج من خلف ظهره معطفًا بنيًّا من قماش خشن الهيئة، لا ينتمي إلى عالمه بقدر ما ينتمي إلى عالمها، تهاوت:

– احتفظتَ به؟ كل هذه السنوات؟

– بالطبع.

همس بالقرب من تشابك شعرها الذي تفوح منه رائحة الملح في مؤخرة رقبتها، وتأخرت نزهتها ذلك الصباح نوعًا ما، كان الربيع في مدينة نين هو موسم التشبع، حين تحول الأمطار الدافئة كل المسارات إلى طين وكل الصخور إلى أشنة، وتفسد أكوام ملابسهم المطوية بأناقة، ويتعفن الخبز قبل أن يبرد.

قضت أدي وقتًا أكبر في المدينة برفقة يولي يتأرجحان إلى الأعلى والأسفل في الشوارع الزلقة بمياه الأمطار، ويمارسان لغتها الأمريكية الركيكة مع كل مواطن يمر بهما، أو يعملان مع والد يولي في تنظيف كائنات صغيرة ذات قشور من فوق أرضية سفن الصيد خاصته. اعتنت أدي بالمفتاح أيضًا؛ تضبط وتبني تحت إشراف والد يولي حتى رسا على نحو أكثر رشاقة عند حوض السفن، وساريته أرق وأطول، وهيكلها مغلق جيدًا، أحبت أدي مشاهدة القارب يتأرجح بين الأمواج بينما تشعر بطفلتها تتدحرج تحت ضلوعها.

يومًا ما ستصبح ملكك، أخبرتها أدي، ذات يوم ستبحر مع المفتاح نحو الغروب، في منتصف الصيف، في أثناء الشهر الذي لفحته الشمس وتدعوه

أدي يوليو، عاد يولي إلى منزلهم ليجد أدي تسب منحنية، بينما يجري على جسدها عرق متلألئ.

- هل... هل سيخرج الطفل؟
- طفلة.

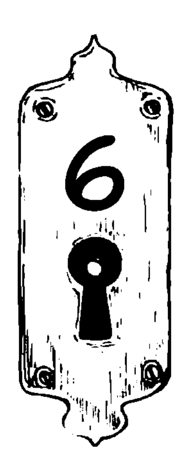
لهثت أدي ثم نظرت إلى يولي وعلى وجهها تعبير الجندي الغر المتجه إلى معركته الأولى، أمسك يولي بيديها، ووشومهما تتضافر معًا كأنها ثعابين مقترنة على رسغيهما، وتضرع بالأدعية الصامتة العاجزة نفسها التي يقوم بها كل الآباء في تلك اللحظة، بأن تعيش زوجته، ويخرج طفله إلى العالم كاملًا معافى، وأن يحتضنهما بين ذراعيه قبل الفجر.

وفي أكثر معجزات العالم تكرارًا وسموًّا، استجيبت دعواته، وُلدت ابنتهما قبل شروق الشمس، ببشرة بلون خشب الأرز وعينين كالقمح.

أسمياها تيمنًا بإله عريق شبه منسي من عالم أدي، كان يولي قد درسه ذات مرة في نص قديم محفوظ في سجلات نين، كان إلهًا غريبًا، مُصورًا في المخطوطة الباهتة بوجهين يحدقان نحو الأمام والخلف، لم يتصدر مجالًا محددًا بل الأماكن البينية، بين الحاضر والماضي، هنا وهناك، النهايات والبدايات، باختصار لقد تصدر الممرات.

لكن أدي ظنت أن جانوس بدا شبيهًا بجاين أكثر من اللازم، وستُلعن إذا حملت أيٌّ من بناتها اسم جاين، لذا بدلًا من ذلك، أسموها تيمنًا بشهر الرب جانيوري أي يناير. آه يا ابنتي الجميلة، ابنتي المثالية جانيوري، كنت لأتسول طلبًا للسماح، لكن تعوزني الشجاعة.

كل ما أطلبه هو إيمانك، إيمانك بالأبواب والعوالم وبعالم المكتوب، والأهم من كل شيء هو إيمانك بحبنا لكِ، حتى لو كان الدليل الوحيد الذي تركناه لكِ موجود في الكتاب الذي تحملينه الآن.



باب الدم والفضة

في طفولتي، كان الإفطار عبارة عن عشرين دقيقة من الجلوس في صمت مطبق أمام الآنسة ويلدا التي صدقت أن المحادثة تتداخل مع الهضم، وأن الهلام والزبد للأعياد فقط. بعد مغادرتها انضممت إلى السيد لوك للإفطار على مائدة الطعام المصقولة الضخمة، حيْث بذلت ما في وسعي لإبهار السيد لوك بوضعية جلوسي الصحيحة وصمتي اللبق، ثم جاءت جاين وأصبحت وجبات الإفطار قهوة مسروقة في غرفة جلوس منسية أو غرفة علوية فوضوية تفوح من كل شيء بها رائحة الشمس والتراب، وحيث يمكن لباد نثر الشعيرات البرونزية الجميلة على الكراسي من دون تقريع.

في براتلبورو، تمثلت وجبة الإفطار في ضجة غَرْفِ العصيدة في أوعية صفيح، وضوء شمس فشلت النوافذ العليا في حجبه، ونقر خطوات النزلاء بين الممرات.

ضمن لي السلوك الجيد الحق في الانضمام إلى جماعة النساء المتذمرات اللاتي يأكلن في قاعة الطعام، ذلك الصباح جلست إلى جانب زوجين غير متماثلين من النساء البيضاوات، إحداهما عجوز هزيلة تزم شفتيها، وشعرها مرفوع في كعكة مشدودة للغاية سحبت حاجبيها في أقواس صغيرة، والأخرى شابة ضخمة، بعينين رماديتين نديّتين وشفتين متشققتين.

حدقت كلتاهما عندما جلست، كان تحديجًا مألوفًا، متشككًا، متسائلًا عن ماهيتي، بدا مثل نصل سكين يضغط لحمي، لكن ليس ذلك الصباح، في ذلك الصباح لمعت بشرتي كدرع مطلي، عبارة عن جلد ثعبان فضي، حصين.

في ذلك الصباح، كنتُ ابنة يولي إيان الباحث وأديلايد لي لارسن، ولم تستطع تلك الأعين أن تمسني.

- هل ستأكلين ذلك؟

على ما يبدو أن الفتاة ذات العينين الرماديتين قررت أنني لست غريبة لدرجة ألا تطلب مني البسكويت، كان نصف غارق في عصيدتي، عبارة عن كتلة متشققة بلون قشور السمك.

- لا.

أخذتْ البسكويت وامتصت البلل منه، عرفت بنفسها: «أنا آبي»، «هذه الآنسة مارجريت»، لم تنظر المرأة العجوز ناحيتي، لكن وجهها أصبح مزمومًا أكثر.

قلت بأدب:

- جانيوري سكالر.

لكني فكرت «جانيوري سكولار» مثل والدي قبل أن أصبح في حياته، أنارت الفكرة صدري مثل مصباح، ضوء حقيقي للغاية لدرجة أنني فكرت أنه يتسرب مني حتمًا مثل أشعة الضوء حول باب مغلق.

أصدرت الآنسة مارجريت نخرة خافتة أرستقراطية، مصممة خِصِّيصَى حتى تخطئ الظن في أنها تتنفس، تساءلت ماذا كانت الآنسة مارجريت قبل إصابتها بالجنون... وريثة؟ زوجة مصرفي؟

- وأي نوع من الأسماء هذا تحديدًا؟

تابعت عدم النظر إليَّ لكنها وجهت سؤالها نحو الهواء.

توهج ضوء المصباح في صدري:

- اسمي.

يخصني وحدي، منحني إياه والداي الحقيقيان، اللذان أحبا بعضهما، وأحباني، وهجراني نوعًا ما، خفت ضوء المصباح قليلًا، وامضًا في تحول مفاجئ.

ماذا حدث للمنزل الحجري الصغير على التلة، لقارب المفتاح، لأبي وأمي؟

بالكاد أردت أن أعرف، وددت أن أطيل البقاء قدر استطاعتي في الماضي الهش سريع الزوال، في تلك السعادة الأبدية الوجيزة حين امتلكت منزلًا وعائلة، الليلة الماضية خبأت كتاب الأبواب العشرة الآلاف تحت مرتبتي بدلًا من قراءة صفحة جديدة خشية خسارته تمامًا.

كانت آبي ترمش بعينيها النديتين في أثناء الصمت المفاجئ:

- تلقيت برقية من أخي هذا الصباح، قال إنني سأعود إلى المنزل يوم الثلاثاء أو ربما الأربعاء.

نخرت مارجريت مجددًا، تجاهلتها آبي وسألتني:

- هل تظنين أنك ستطيلين البقاء هنا؟

لا، أمامي الكثير لأفعله، أنهي كتابي اللعين، أعثر على جاين ووالدي، وأعيد كتابة الأمر كله مرة أخرى، لن أبقى حبيسة هذا المكان مثل فتاة يتيمة حياتها مأسوية في رواية قوطية، إضافة إلى ذلك، إذا بقيت إلى ما بعد حلول الظلام، فأنا شبه متأكدة أن مصاص دماء سيتسلق نافذتي ويأكلني، يجب أن أعثر على طريق للهرب، ألست ابنة يولي وأدي، وُلدت تحت شمس عالم آخر؟ ألم يسمِّني والداي تيمنًا بإله الأماكن البينية والممرات، إله **الأبواب**؟ كيف يعقل أن أكون محبوسة حقًّا؟ بدا دمي نوعًا من الحلول، حبر يمكنني أن أكتب به لنفسي قصة جديدة، حسنًا، إنها الدماء.

شقت ابتسامة متمهلة طريقها إلى شفتيَّ كاشفة عن أسناني، أجبت بخفة:

- لا، لا أظن ذلك. أمامي الكثير لأفعله.

أومأت آبي بسعادة وانطلقت تحكي قصة طويلة مفاجئة عن النزهة التي ستخرج إليها عندما تعود إلى المنزل، وكم يفتقدها أخوها، ولم يكن خطأه أنها شقيقة مرهقة.

غادرنا القاعة في الخطوط الرمادية نفسها، حاولت أن أثني كتفيَّ إلى الداخل وأحني ظهري مثل الجميع، وعندما رافقتني السيدة رينولدز والممرضة الأخرى إلى غرفتي قلت «شكرًا» بصوت ناعم رقيق، تطلعت السيدة رينولدز إلى عينيَّ سريعًا ثم نظرت بعيدًا، لم تقيداني إلى السرير عندما غادرتا.

انتظرت حتى سمعت نقر خطواتهما أسفل الردهة عند الباب المغلق المجاور، ثم هرعت إلى مرتبتي، مررت بأطراف أصابعي بطول كعب كتاب والدي، بخفة، لكن تركته مكانه، وبدلًا من ذلك، وجدت العملة الفضية الباردة من مدينة نين.

قبعتْ في كفي، أعْرَض من نصف دولارٍ، ولها ضعف سُمْكه، ابتسمت الملكة لي.

ببطء، خدشت حافة العملة في الجص الأسمنتي الخشن للحائط المجاور لسريري، حملتها مجددًا إلى الضوء ولاحظت أن الانحناءة الرقيقة في العملة قد هلكت أكثر من أي وقت مضى، ابتسمت الابتسامة اليائسة لسجين يحفر ممر هروبه، وضغطت العملة مجددًا إلى الحائط.

بحلول العشاء، تحولت عضلات ذراعي إلى خرق بالية، وآلمتني مفاصل أصابعي حيث أثنيتها حول العملة، باستثناء أنها لم تعد عملة بعد الآن؛ كان هناك طرفان مائلان يقودان إلى نقطة واحدة، واختفى كل شيء من وجه الملكة ما عدا عين حكيمة في المنتصف، واصلت الكشط بعد العشاء، لأنني أردت التأكد أنها حادة بما يكفي، وأيضًا لأنني كنت خائفة.

لكن الليل سيحل، راقبت الضوء على جدراني العارية يتحول من الوردي إلى الأصفر الأكثر شحوبًا ثم إلى الرمادي القاتم، وسيعود هافيميير قريبًا، زاحفًا مثل وحش في رواية «بيني المرعب» عبر الممرات، ويمد أصابعه إليّ، حتى يشرب الدفء من لحمي.

طويت غطائي نحو الخلف، وضغطت الأرض بأقدامي العارية، وزحفت إلى الباب المغلق.

رقدت العملة لامعة ونحيلة في كفي، بعد أن تحولت إلى نصل ضئيل أو إلى سن قلم فضي حاد، قربته من طرف إصبعي برفق، وفكرت في عينَي هافيميير الجائعة ثم ضغطت.

عندما يبزغ نور القمر، يبدو الدم مثل الحبر، انحنيت وسحبت إصبعي عبر الأرضية في خط مهتز، لكن الدماء خضبت ولمعت على البلاط المصقول الناعم، عصرت يدي، أرغم القطرات الحيية أن تتحول إلى حرف «T» متقطع ملطخ بالدماء، لكنني أدركت بالفعل أن الخطة لن تنجح، يتطلب الأمر الكثير من الدماء والوقت،

ابتلعت ريقي، وضعت ذراعي اليسرى على ركبتي وحاولت التفكير في الأمر كأنها ورقة أو طين أو لوحة، أي جماد، لمست جلدي بالسكين الفضية حيث تلتحم عضلة ساعدي القوية بمرفقي، قلت لنفسي تماسكي يا جانيوري وبدأت في الكتابة.

كان الأمر مؤلمًا أقل مما ظننت، لا، هذه كذبة، الأمر مؤلم تمامًا بالقدر الذي تتوقعه عندما تنقش الحروف على لحمك، عميقًا بما يكفي حتى تفور الدماء كآبار من البترول الأحمر، كل ما في الأمر أنه أحيانًا يتعذر تجنب الألم، ويتحتم الشعور به. ***الباب.***

حرصت على قطع أوردتي البعيدة عن الأوردة الحبلية التي تتوسط ساعدي، بسبب شعور خافت أنني ربما أستنزف دمائي على أرضية المشفى وأنهي محاولة هروبي على نحو مأسوية مقتضب ولكني خشيت بالقدر نفسه أن أقطع برفق أكثر من اللازم، لربما يشير الأمر إلى تردد أو عدم تصديق خفيٍّ، تذكر أن الإيمان هو كل ما يهم.

يُفتَح **الباب** لها.

كُسرت حافة العملة والتَوَت بالقرب من النقطة، وآمنت بالأمر من كل قلبي المذبذب.

حدثت في الغرفة حالة إعادة الترتيب شبه المألوفة عينها، عملية تغيير خفية، كما لو أن ربة منزل اختبأت في زوايا الواقع لتنفض الثنيات، أغلقت عينيَّ وانتظرت، يضطرم الأمل في عروقي ويتساقط على الأرض، فليساعدني الرب إذا لم تنجح الخطة، في الصباح سيعثرون عليَّ راقدة في وحل دمائي

المتخثرة، على الأقل لن يتبقى أمام هافيميير أي حرارة حياة ليسرقها... طقطق القفل، فتحت عينيَّ، أرمش خلال حالة إجهاد مفاجئة، تأرجح الباب إلى الداخل قليلًا، كما لو دفعه نسيم خافت، تقدمت نحو الأمام متراخية وأرحت جبيني على البلاط، لأفتح المجال أمام أمواج من التعب حتى تلتف وتصطدم بي، أرادت عيناي أن تُغلقا، وآلمتني ضلوعي كأنني سبحت ذهابًا وعودة حتى أعمق نقطة في البحيرة.

لكنه سيأتي، ولا يمكنني البقاء، عرجت عائدة إلى السرير، أزحف على ثلاثة أطراف، ألطخ الأرض بالدماء من خلفي، وأفتش عن كتابي، ضممته إلى صدري للحظة فحسب، مستنشقة رائحة المحيط والتوابل تلك التي تطابق رائحة معطف والدي القديم عديم الشكل الذي يتركه معلقًا على ظهر كرسيه في أثناء العشاء وقتما يكون في المنزل، كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟

دسست الكتاب تحت ذراعي، وقبضت على نصل العملة بإحكام ثم غادرت، بالطبع لا توجد أي عتبات هنا، لكن الخروج من غرفتي إلى الردهة لا يزال بمنزلة العبور من عالم إلى آخر، مسحت أرضية الردهة بردائي المُنشّى الذي يحدث حفيفًا أمام قدمي، وتتساقط الدماء من خلفي في خط طويل من اللطخات، فكرت عبثًا في آثار فتات الخبز التي تقود عبر الغابات المظلمة في القصص الخيالية، وأخمدت رغبة هستيرية في الضحك قليلًا.

زحفت دورين من السلالم نحو الأسفل إلى بياض الردهة الأمامية النقي، عبرت الأبواب المكتوب على زجاجها بحروف ذهبية، تومض وتشوش عيني عند النظر إلى اللقب، الدكتور ستيفن ج. بالمر، واتتني رغبة غير منطقية في التسلل إلى مكتبه وبعثرة كل ملفاته ومجلداته الأنيقة، وتمزيق كل ملاحظاته الدقيقة، أو ربما أسرق قلمه الشنيع، لكنني تابعت التقدم نحو الأمام.

شعرت ببرودة المدخل الرخامي تحت قدمي العاريتين، مددت يدي حتى أصل إلى الأبواب الفخمة ذات الألواح الزجاجية المزدوجة، أشم بالفعل رائحة عشب الصيف والحرية، عندما أدركت أمرين في آن واحد، الأول، يمكنني سماع أصوات مرتفعة يتردد صداها في الطابق العلوي، جلبة متصاعدة للتحذير من شيء ما وأنني خلفت مسارًا أحمر ملطخًا عبر الممرات يقود مباشرة إلى

الأبواب الأمامية. ثانيًا، هناك ظل مشوش يقف عند الطرف الآخر من الباب، مرسوم في الظل وضوء القمر، صورة ظلية طويلة واهنة لرجل.

لا.

انهارت قدماي وضعفتا، كأنني أخوض في رمال عميقة، كلما اقترب الظل شُحذ، استدار مقبض الباب، ثم انفتح الباب، ووقف هافيميير تؤطره عتبة الباب، تخلى عن عصاه وقفازيه، وتدلت يداه العنكبوتيتان البيضاوان إلى جانبه، كانت بشرته لامعة وغرائبية في الظلام، وفجأة فكرت في مدى غرابة أنه يبدو بشريًّا للغاية تحت ضوء الشمس.

اتسعت عيناه عندما رآني، ارتسمت على وجهه ابتسامة شرهة متعطشة للحياة، وليكن الرب في عونك إذا رأيت ابتسامة مثل هذه على وجه إنسان، ركضت، ارتفعت الأصوات، وأنيرت الأضواء الكهربائية فجأة وطنت أمامي، هرعت الممرضات في أرديتهن البيضاء والموظفون ناحيتي، يتصايحون ويسبون، لكنني أشعر بهافيميير خلفي مثل ريح خبيثة، واصلت الركض حتى اقتربت منهم وجهًا لوجه، انخفضت سرعتهم، ارتفعت أيديهم في حركات مسترضية، وهدأت أصواتهم، بدا وكأنهم مترددون في لمسي، ولمحت في أعينهم رؤية مشوشة لنفسي، فتاة بين-بين جامحة تلوث الدماء منامتها، وجسدها منقوش عليه كلمات تبدو مثل الصلوات، مكشرة عن أنيابي، وعينان سوداوان يملؤهما الخوف، تحولت فتاة السيد لوك المطيعة إلى شخص آخر تمامًا،

شخص غير مستعد للاستسلام.

اندفعت جانبًا عبر باب خشبي لا يحمل أي لافتة. اصطدمت بالدلاء والمكانس من حولي في الظلام، وفاحت رائحة الأمونيا والمحلول القلوي، إنها خزانة عامل النظافة، حبل متدلٍ أشعل الأضواء، وحشرت سلمًا نقالًا تحت مقبض الباب بلا أي مهارة، لطالما فعل هذا أبطال القصص التي أقرؤها لكن الأمر بدا أكثر إثارة للتوتر في الحياة الواقعية.

دوّى وقع خطوات متسارعة في الخارج، واهتز المقبض هزة عنيفة، تبعها صياح وسباب، ارتعش السلم بارتطام منذر بالسوء، تسارعت نبضاتي

وكافحت أنينًا مذعورًا في حلقي، لم يعد هناك مكان لأهرب إليه، أو أبواب لأفتحها.

تماسكي يا جانيوري.

صدر عن السلم النقال صوت انشقاق مثير للقلق، يجب أن أهرب بعيدًا وبسرعة، فكرت في **الباب** الأزرق الذي يقود إلى البحر، في عالم والدي، وعالم صامويل، والكوخ الذي يملكه إلى جانب البحيرة، نظرت إلى الأسفل نحو ذراعي اليسرى، المضطرمة بالألم الآن مثل فرقة موسيقية على بعد، وفكرت، ولم لا بحق الجحيم؟

ترددت لنصف ثانية، يجب دفع الثمن، قال والدي إن القوة مكلفة دائمًا، كم سيتكلف الأمر لأشق العالم هكذا؟ هل سأتحمل دفعه بالارتجاف والنزيف في حجرة مكانس؟

- اخرجي الآن يا آنسة سكالر.

همس صوت عبر الباب.

- يا له من أمر طفولي.

كان صوتًا صبورًا للغاية مثل ذئب يدور حول فريسته منتظرًا.

ابتلعت ذعرًا باردًا ثم انطلقت، بدأت من أعلى كتفي التي أستطيع الوصول إليها بصعوبة، وحافظت على حروفي صغيرة ومتلاصقة.

تكتب بابًا...

توقفت الأصوات الهادرة عند باب الخزانة، وقال ذلك الصوت البارد: «ابتعد عن طريقي»، ثم صدرت أصوات معبرة عن الضيق بدت مثل مشاحنات، وخطوات متخبطة وارتطامات أكثر عنفًا تهز إطار الباب.

... من الدم...

أين؟ شعرت بعينيّ تخترقان جمجمتي، كأنهما ترنوان للارتقاء إلى أعلى وترك جسدي المتألم الذي ينزف بمفرده.

لم يكن لديّ عنوان، لا أستطيع حتى الإشارة إلى المكان على الخريطة، لكن لا يهم، الإيمان هو كل ما يهم، والإرادة.

والفضة...

ثنيت النصل قبل الحرف الأخير وفكرت في صامويل، وقفت الأحرف الجديدة على مضض إلى جانب الجملة التي كتبتها سابقًا، لتتكون جملة واحدة صدقتها بكل يأس وجنون:

تكتب بابًا من الدم والفضة. يُفتَح الباب لأجلها.

أصدر السلم صريرًا حاسمًا نهائيًّا، ضُغط الباب إلى الداخل على فوضى من أدوات التنظيف والخشب المكسور، لكن لم أبالِ، لأنني في اللحظة نفسها، شعرت بالجنون المتغير الدوّار الناتج عن إعادة تشكيل العالم لنفسه، تبعه الشيء الأكثر استبعادًا في العالم، نسمة منعشة قبالة ظهري، فاحت منها رائحة أشجار الصنوبر والأرض الباردة ومياه البحيرة الدافئة في يوليو، استدرت ورأيت فجوة متسعة وغريبة في الحائط خلفي، حفرة تومض بالصدأ والفضة.

كانت شيئًا قبيحًا مرسومًا بفجاجة كأنها رسمة طفل تحولت إلى حقيقة، ولكنني أدركت ماهيتها، إنه باب، انفتح باب الخزانة إلى منتصف المسافة، ومدت يد بيضاء الأصابع حول حوافه، أسرعت نحو الخلف، أنزلق في دمائي، وأدرك من الألم الشديد في فكي، أنني أبتسم ابتسامة وحشية واسعة تشبه ما كان يفعله باد وهو على وشك أن يعض شخصًا ما، شعرت بالباب في ظهري، غياب مبارك ووعد معطر برائحة الصنوبر، وحشرت نفسي بداخله، تكشط كتفي حوافه الصلبة المدببة، سقطت إلى الخلف حيث ابتلعني الظلام، ورأيت عندما اندفعت الوجوه والأيدي إلى الخزانة، كأنه وحش متعدد الأيدي يحاول الوصول إليَّ، ثم التهمني فراغ العتبة، نسيت مدى فراغها، حتى إن كلمة فراغ ليست الكلمة الصحيحة، لأن الشيء الفارغ ربما كان ممتلئًا ذات مرة، ويستحيل أن تكون العتبة قد شهدت وجود أي شيء من قبل، لم أكن واثقة تمامًا حيال وجودي، ومرت دقيقة مريعة شعرت خلالها أن حوافي تذوب وتتفكك، تلك اللحظة ترعبني حتى الآن بينما أجلس على الخشب المتماسك والشمس الدافئة قبالة وجهي، لكني تحسست الجلد البالي من كتاب الأبواب العشرة الآلاف تحت أصابعي اللزجة الدامية وفكرت في أمي وأبي يغوصان من عالم إلى آخر كصخور تعبر بحيرة سوداء شاسعة، دون أن يخشيا السقوط،

ثم فكرت في جاين وصامويل وباد، وحينئذ، كأن وجوههم خريطة ترفرف في الفضاء، تذكرت وجهتي، ومجددًا ضغطتني الحواف الصلبة، وتكونت ظلمة أقل قتامة من العتبة، ومن تحتي؛ ظهرت أرضيات خشبية عفنة، سقطت إلى الأمام، وثنيت أظفاري على الأرض كأنني أتشبث بسطح جرف ما، وعلى نحو مدهش ومؤلم، ضغطت حواف الكتاب ضلوعي، وقلبي الذي ظننته اختفى في العتبة، دوّى عائدًا إلى الحياة.

– من هنا؟

تحرك شكل ما عبر الأرضية، موجهًا ظلالًا بحواف مضيئة نحوي، ثم:

– جانيوري؟

كان الصوت منخفضًا أنثويًا، يتقلب عبر أحرف اسمي المتحركة بلكنة أجنبية مألوفة، خطرت كلمة مستحيل على بالي، لكن الأيام القليلة الماضية أهلكت كل تصوري عن الأشياء المستحيلة والأشياء المتوقعة، ولكنها تسللت عائدة مرة أخرى، توهج ضوء ذهبي زيتي، وها هي ذي، ضوء المصباح يحدد شعرها القصير، وثيابها غير المرتبة، فاغرة فاها بينما تنحني إلى جانبي.

– جاين!

شعرت برأسي ثقيلًا للغاية، أرحته وتحدثت ووجهي إلى الأرض.

– شكرًا للرب أنك هنا، أينما كنا، عرفت إلى أين أتجه، ولكن لا تعرفين أبدًا أين سينتهي بك الحال مع الأبواب، أليس كذلك؟

وقعت كلماتي على أذني فوضوية متلعثمة، كأنني أصرخ تحت الماء، وبدأ ضوء المصباح الزيتي يخفت.

– لكن كيف أتيتِ إلى هنا؟

أظن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هنا هو كيف جئت إلى هنا، و«هنا» تشير إلى كوخ عائلة زابيا بالمناسبة، شعرت أن جفاف نبرتها هشًّا ومقحمًا.

– وماذا حدث لك... الدماء في كل مكان...

لكنني لم أعد منصتة، سمعت صوتًا من جوانب الغرفة المظللة، صوت ترنح وسحب لشيء ما تبعه نقر مخالب على الأرض، فتوقفت عن التنفس، اقتربت الخطوات أكثر، مصحوبة بتردد متفاوت، مستحيل، رفعت رأسي،

عرج باد في الضوء، بعين متورمة، وقدمه الخلفية تتأرجح وتهتز على الأرض، ورأسه شاحب متدلٍّ نحو الأسفل. لنحو نصف ثانية ممتدة، رمش بعينه، كأنه غير متأكد أن ذلك هو أنا حقًّا، ثم اندفعنا تجاه بعضنا بعضًا، اصطدمنا، كنا فوضى يائسة ذات أطراف قاتمة وفراء أصفر، تعلق برقبتي وإبطي كأنما يحاول العثور على مكان يمكنه الزحف إليه، مصدرًا عويلًا أجش لطيفًا لم يسبق أن سمعته منه، أحطته بذراعي، وأرحت جبهتي على كتفه المرتعشة، بينما أقول كل الأمور السخيفة التافهة التي تقولها عندما يصاب كلبك:

– أعرف يا حبيبي، لا بأس، أنا هنا، أنا آسفة، أنا آسفة.

بدأت عملية إصلاح شيء ما ممزق ومعطوب في قلبي، تنحنحت جاين:

– أكره مقاطعتكما، ولكن ألن يخرج شيء... آخر من هذه الفتحة؟

تسمرت، وتوقف باد عن تحريك ذيله في مواجهة الأرض، ترددت أصوات حبو وشجار خلفي، كأن شيئًا يزحف مقتربًا، التفتُّ فوق كتفي إلى بابي، حفرة سوداء ممزقة، كأن الواقع كان غير مكترث وتعثر في مسمار منحل، ورأيت أو ظننت أنني رأيت شيئًا خبيثًا لامعًا في الأعماق، مثل زوجين من الأعين الشرهة.

– إنه قادم لأجلي.

كان صوتي هادئًا، شبه منفصل عن الواقع، في حين ركضت أفكاري في دوائر مذعورة، سيظهر هافيمير أبيض وشريرًا، ويأخذ أيًّا كان ما أراده مني، وسيلحق به الآخرون بمجرد أن تواتيهم الشجاعة، وسيحبسونني إلى الأبد، إذا تبقى أي شيء مني ليحبسوه، وربما جاين أيضًا، بالطبع لن يحدث أي شيء جيد لامرأة إفريقية عُثر عليها في رفقة مجنونة سريريًّا هاربة في منتصف الليل، ومن سيعتني بباد المسكين الذي تعرض للضرب؟

– أظن أنه يتحتم عليَّ... إغلاقه.

أي شيء مفتوح يمكن إغلاقه، ألم يكتشف والدي ذلك عندما أُغلق الباب بين مدينة نين وحقل أمي؟ لم يعرف قط لماذا أو كيف حدث ذلك، ولكن لاحقًا، أصبح والدي باحثًا، أدواته البحث الدقيق والدليل العقلاني وسنوات طويلة من التوثيق، في حين كانت أدواتي الكلمات والإرادة، ولم يكن أمامي

متسع من الوقت، عثرت على السكين المصنوعة من العملة الفضية، تغطيها الدماء لذلك فقدت لمعان الفضة، سحبت ركبتي تحت معدتي ووضعت ذراعي التي تؤلمني أمامي، ضغطت جلدي بالعملة للمرة الأخيرة، أرمش قليلًا في مواجهة ضبابية الغرفة الغريبة وانعدام الرؤية.

- لا! يا جانيوري، ماذا...

سحبت جاين يدي بعيدًا.

- من فضلك.

ابتلعت ريقي، أترنح قليلًا:

- من فضلك ثقي بي، آمني بي.

لا يوجد سبب في العالم يدفعها لذلك، أي شخص آخر كان ليجرني بسعادة ويعيدني إلى الأطباء مع ملاحظة مثبتة على صدري تقترح حبسي في حجرة صغيرة دون أي أدوات حادة لمدة قرن أو ما شابه، -هذا هو العنف الحقيقي الذي فعله بي السيد لوك، لا تدرك حقًّا مدى هشاشة وسرعة زوال صوتك حتى تشاهد رجلًا ثريًّا يأخذه منك بسهولة تضاهي التوقيع على قرض بنكي-. ارتفع صوت الخطوات المهرولة، تحولت عيناها فجأة إلى الفتحة الموجودة في الحائط خلفي، والكلمات المتخثرة على ذراعي، تحرك تعبير غريب عبر وجهها، التبصر، ربما، أو فهم، أو حذر.. ثم أفلتت يدي، اخترت قطعة عارية غير دامية من جلدي، وبدأت أحفر عليها كلمة واحدة:

فق...

حركة في الظلام، صوت التنفس المزعج، يد بيضاء عنكبوتية تمتد من الظلام نحوي.

يُفتح الباب لأجلها فقط.

شعرت أن العالم يعيد تشكيل نفسه مجددًا، مثل جلد ينسحب مشدودًا حول ندبة، انحسر الظلام، تشنجت اليد البيضاء، صدر صريخ شنيع غير إنساني، ثم بعد ذلك كنت أحدق إلى لا شيء سوى جزء عادي من حائط الكوخ، أُغلق الباب، ثم ضُغط جبيني إلى الأرض، ويد جاين الباردة على جبهتي، عرج باد مقتربًا مني ورقد حيث يتكئ عموده الفقري عليَّ، آخر ما رأيته يرتعش

كان ثلاثة أشياء غريبة شاحبة ترقد في صف على ألواح الأرضية، بدت مثل نهايات بيضاء لفطر عيش غراب غير مألوف، أو ربما كعوب شموع، كنت بالفعل قد أغمضت عينيَّ وبدأت أنجرف إلى نوم يشوشه الألم، عندما تعرفت على ماهيتها، ثلاثة أصابع بيضاء، وُجدتُ في مكان آخر لوهلة، لا أعلم أين بالضبط، ولكنه بدا مثل عتبة أخرى، معتمة وسرمدية، مجرة صامتة بلا نجوم أو كواكب أو أقمار، باستثناء أنني لم أكن أعبر، كنت معلقة أنتظر، تذكرت الإحساس الغامض بأنه مكان لطيف خالٍ من الوحوش والدماء والألم، وأود إلى حد ما البقاء، لكن شيئًا ما ظل يقاطع ذلك الشعور، شيء دافئ يتنفس، مستقر إلى جانبي، يضرب بجذوره في شعري، مصدرًا أصوات نشيج صغيرة، باد، باد حي، وكان في حاجة إليّ، لذا نهضت من الظلام وفتحت عينيَّ.

- مرحبًا.

كان لساني ثقيلًا ومنتفخًا لكن أذنَي باد انتصبتا، أصدر ذلك العويل في صدره مجددًا، يقترب مني على الرغم من عدم وجود المزيد من المسافة بيننا، وضعت خدي على لوح كتفه الدافئ، تحركت لأحتضنه لكنني تراجعت مطلقة صرخة صغيرة، أشعر بالألم، كل شيء يؤلمني، عظامي متورمة ومتألمة كأنما أجبرت على تحمل عبء يستحيل تحمله، ذراعي اليسرى ساخنة وتنبض بشدة، تلتف حولها ضمادات محكمة، حتى الدماء تنبض في أذنيَّ ببطء، باختصار، بدا ثمنًا عادلًا أدفعه مقابل إعادة كتابة طبيعة الفضاء والوقت، وخلق باب من صنعي، صرفت رغبة في الضحك أو على الأرجح في البكاء، ونظرت حولي، كان كوخًا صغيرًا كما قال صامويل، موحشًا نوعًا ما، كانت أكوام البطانيات مكسوة بالعفن، وموقد الطهي تعلوه رقاقات برتقالية من الصدأ، والنوافذ تسدها أنسجة العنكبوت، لكن الرائحة، آه، الرائحة، ضوء الشمس والصنوبر، ومياه البحيرة والرياح، كأنما تشبعت الجدران بجميع روائح الصيف، إنها النقيض العلمي المثالي لــبراتلبورو.

عندئذ فقط لاحظت أن جاين تجلس عند نهاية سريري حاملة قدحًا صفيحيًّا ساخنًا بين يديها، وتشاهدنا؛ أنا وباد، مع التواءة عند زاوية فمها، تغير شيء حيالها خلال الأسبوع الذي افترقنا فيه، ربما ملابسها، استبدلت فستانها الرمادي الثقيل بتنورة بطول باطن الساق وسترة قطنية فضفاضة،

أو ربما لمعان عينيها الحاد، كأنها استغنت عن قناع لم أكن أعرف أنها ترتديه، وجدت نفسي فجأة في حالة من الشك، التفتُّ إلى باد بينما أتحدث:

- أين عثرتِ عليه؟

- على الشاطئ في الكهف الصغير بعد المنزل، كان...

ترددت ورفعت نظري لألمح تسطح الالتواءة عند فمها:

- ليس في حالة جيدة أبدًا، نصف غارق، وتعرض لضرب مدمٍ... بدا لي كأن شخصًا ألقى به من فوق الجرف متمنيًا غرقه.

رفعت كتفًا واحدة.

- فعلت ما في وسعي لأجله، لا أدري إذا ما كانت تلك القدم ستعود إلى حالتها الطبيعية.

لمست أصابعي رقعات من الفراء المقصوص وخطوطًا من التقطيبات مكسوة بالفراء، كانت قدمه الخلفية مجبورة وملفوفة، فتحت فمي ولكن لم تخرج منه أي كلمات، ثمة أوقات تكون فيها كلمة شكرًا غير كافية، تتضاءل للغاية بسبب ضخامة الدين، لدرجة أن تذبل الكلمات في حلقك. لذا جاين، في حال قرأت هذا، شكرًا لكِ. ابتلعت ريقي:

- وكيف... كيف وصلتِ إلى هنا؟

- كما قد خمنت، استدعاني السيد لوك إلى مكتبه ليخبرني أن خدماتي لم تعد مطلوبة... انفعلت، ورافقني من الحديقة ذلك الخادم المخيف اللعين خاصته، دون حتى أن أحزم حقائبي، عدت في الليل بالطبع، ولكنك كنتِ قد ذهبتِ سلفًا، وهذا فشل، أنا...

اتسع منخارها:

- آسفة بشدة.

هزت كتفيها:

- حسنًا، براتلبورو هي مؤسسة لأصحاب البشرة البيضاء، كما أخبروني، وليس مسموحًا لي بزيارتك، لذا ذهبت إلى الفتى زابيا، معتقدة أن العرق الإيطالي أقرب شيء إلى العرق الأبيض، لكن زيارته رُفضت أيضًا، وعلى ما يبدو أنه سلم طردي بأسلوب أكثر، آه، فعالية.

ظهرت ابتسامتها مجددًا واتسعت بما يكفي لتكشف عن الفلجة بين أسنانها.

- يا لهُ من صديق مخلص، أليس كذلك؟

لم أظنه تساؤلًا ضروريًّا لأرد عليه، واصلت الحديث بتحفظ:

- وشاب لطيف للغاية، أعطاني هذا العنوان، مكانًا لأفكر وأخطط، وأنام، نظرًا إلى أنني لم يعد مرحبًا بي في منزل لوك.

- أنا آسفة.

كان وقع صوتي على أذني ضعيفًا واهنًا، نخرت جاين:

- أنا لست آسفة، ازدريت ذلك المنزل وصاحبه منذ اللحظة التي وصلت فيها، تحملته فقط على أساس مساومة قمت بها مع والدك، طلب مني حمايتك في مقابل... شيء أردته للغاية.

احتقن وجهها مشتعلًا بغضب قاتم بلا نهاية، جعل أنفاسي تنقبض، ابتلعته:

- وهو اتفاق لم يعد في إمكانه الوفاء به.

طوقت باد بإحكام أكثر وجعلت صوتي حياديًّا خاليًا من المشاعر بقدر ما أستطيع:

- إذًا سترحلين الآن، ستعودين إلى موطنك.

- الآن؟ وأتركك مريضة ومصابة وتطاردك أشياء لا يعلمها إلا الرب؟ ربما خرق جوليان بنود اتفاقنا، لكن أنا وأنتِ بيننا اتفاق منفصل تمامًا.

وبحماقة، رمشت بعينيَّ في وجهها، لانت تعابير وجه جاين بقدرٍ سبق ورأيته:

- أنا صديقتك يا جانيوري، لن أتخلى عنكِ.

- أوه.

صمتت كلتانا لبعض الوقت، سمحت لنفسي بالعودة إلى نصف غفوة يبللها العرق، وأعادت جاين موقد الطهي إلى الحياة وسخنت قهوتها، ثم رجعت إلى حافة السرير ودفعت مؤخرة باد جانبًا وجلست بقربي، ثم أمسكت بكتاب

الأبواب العشرة الآلاف، المجعد والملطخ ببقع الصدأ الأحمر، على ركبتيها، وإبهام واحد يداعب الغلاف.

– يجب أن تنامي.

لكن وجدت أنني لا أستطيع النوم نوعًا ما، همهمت الأسئلة وطنت في أذني مثل بعوضة، بماذا وعد والدي جاين؟ كيف تقابلا، حقًّا، وماذا يعني الكتاب بالنسبة إليها؟ ولماذا جاء والدي إلى هذا العالم الرمادي الممل من الأساس؟ تململت تحت اللحاف حتى تنهد باد في وجهي.

– هل... هل يمكنك أن تقرئي لي؟ أنهيت للتو الفصل الرابع.

ومضت أسنانها المفلجة في وجهي، «بالطبع». فتحت الكتاب وشرعت تقرأ.

الفصل الخامس

عن الفقد

النعيم - الجحيم.

لا أحد يتذكر بدايات حياته حقًّا، تحيط بطفولة معظمنا هالة أسطورية ضبابية، مجموعة من القصص رواها آباؤنا وكرروها، تتداخل مع ذكريات طفولتنا المشوشة، يخبروننا عن المرة التي كنا على وشك الموت عندما زحفنا خلف قطة العائلة على السلم، والطريقة التي اعتدنا أن نبتسم بها في نومنا في أثناء العواصف، كلماتنا وخطواتنا وكعكات عيد ميلادنا الأولى، يخبروننا بمائة قصة متنوعة، إنها القصة نفسها، نحن نحبكم، ولطالما أحببناكم.

لكن يولي لم يخبر ابنته بتلك القصص قط -أتمنى أن تسمحي لي بمواصلة جبني في السرد بصيغة الغائب، إنه أمر سخيف، لكنه يخفف من حدة الألم-، إذًا ماذا تتذكر جانيوري؟

ليست تلك الليالي القليلة الأولى حينما شاهد والداها قفصها الصدري يعلو ويهبط مبتهجين ذلك الابتهاج الذي يشوبه الذعر أو الشعور الساخن البارز لوشوم جديدة تلتف تحت جلدهما، تفصح عن كلمات جديدة (أم، أب، عائلة)، أو الطريقة التي عادة ما نظرا بها إلى بعضهما في ضوء ما قبل الفجر، بعد ساعات من الهرولة والهز وغناء أغاني سخيفة بأكثر من نصف دزينة لغات، وعبر كل التعبيرات المرتسمة بوضوح على وجهيهما، ذلك الإجهاد المندهش،

والقليل من الهستيريا، وتوق لا يوصف إلى الاستلقاء فحسب، عرفا أنهما أكثر الأرواح حظًّا في عشرة آلاف عالم.

من المستبعد أن تتذكر المساء الذي عاد فيه والدها إلى المنزل الحجري الصغير ووجدها نائمة بجوار والدتها على التلة، فاغرة فاها، عارية باستثناء قطعة قماش قطنية مربوطة حول خصرها، ونسمات خفيفة تمر بين تموجات شعرها، التفَّت أدي حولها، في التواءة ذهبية بيضاء مثل لبؤة أو نوتلس، معانقة أنفاسها المحببة التي تفوح منها رائحة اللبن، كانت تقريبًا نهاية الصيف، وظلال المساء تزحف نحوهما على أطراف أصابع باردة، لكن لم تصلهما بعد، كلتاهما لا تزال لامعة، كاملة، نقية.

وقف يولي على التلة يشاهدهما، شاعرًا بفرح وسعادة يبلغان عنان السماء ولكن تعتريهما بعض الكآبة، كأنما ينعى خسارتها سلفًا، وعرف أنه لا يمكنه العيش في الجنة إلى الأبد.

يؤلمني الحديث عن هذه الأمور الآن، حتى هذه اللحظة بينما أكتب هذه الكلمات، مرتعشًا في خيمتي عند سفح التلال خارج أولان باتور، وحيد لا يحيط بي سوى خربشة قلمي، وعويل الذئاب الذي تحيط به الثلوج، تصطك أسناني في مواجهة موجات من الألم، وجع مستقر في أطرافي يسمم نخاعي.

هل تتذكرين المرة التي سألتني فيها عن اسمك، وقلت إن والدتك أحبته؟ رحلت مستاءة وساخطة وخط فكك يشبه خطوط فكها تمامًا، لدرجة جعلتني أختنق، حاولت العودة إلى عملي لكنني لم أستطع، ذهبت إلى السرير معذبًا مرتجفًا أفكر في شكل فم والدتك عندما قالت اسمك، جانيوري.

فوّت العشاء تلك الليلة ورحلت في الصباح التالي قبل الفجر، خرجتِ من سريرك لتشاهديني وأنا راحل، ولمدة شهور طاردني وجهك الذي رأيته عبر نافذة العربة، أشعث من أثر النوم، يلقي بالاتهامات على نحو غامض، في أثناء شعوري بألم الفقد، تسببت في إصابتك بألم الغياب، لا يمكنني ملء ذلك المكان الفارغ الآن، لا أستطيع أن أعود بالزمن إلى الخلف وأن أجبر نفسي على فتح باب العربة لأركض عائدًا إليك، وأضمك إليَّ، وأهمس في أذنك: «نحن نحبك، لطالما أحببناك»، تركت هذه الكلمات بعد فوات الأوان، أنتِ الآن على مشارف النضج، لكن على الأقل سأقدم لك شرحًا للحقائق طال انتظاره.

لهذا السبب تربيتِ بين الثلوج التي تغطي أشجار الصنوبر في فيرمونت بدلًا من الجزر الصخرية في بحر الأماريكو في عالم المكتوب، وهذا ما جعل عينَي والدكِ نادرًا ما تقعان عليكِ، كأنكِ شمس صغيرة ربما تتسبب في عماه، ولهذا أنا بعيد عنكِ بمسافة ستة آلاف ميل تقريبًا، تتشنج يدي من البرد، وحيدًا باستثناء توأم اليأس والأمل الخبيث الذي يحوم حولي دائمًا، هذا ما حدث ليولي إيان سكولار وأديلايد لي لارسن بعد ولادة ابنتهما خلال مطلع الربيع من عام 6922 في عالم المكتوب.

في بدايات الربيع لاحظ يولي على وجه زوجته تعبيرًا لم يره من قبل، كان نوعًا من الأسى، ميلًا إلى التحديق إلى الأفق والتنهيد، وتنسى للحظات ما تفعله. في الليل، تتقلب وتفرك كما لو كان اللحاف عبئًا ثقيلًا على جسدها، وتستيقظ قبل الفجر لتعد الشاي وتحملق مجددًا خارج نافذة المطبخ ناحية البحر.

وذات ليلة، بينما يستلقيان ويتنفسان معًا في الظلام، تلفهما رائحة الربيع الخضراء، سأل يولي:

– هل كل شيء على ما يرام يا أديلايد؟

سأل بلغة مدينة نين، وأجابت بالطريقة نفسها:

– لا، نعم، لا أعرف.

تحولت إلى اللغة الإنجليزية:

– كل ما في الأمر أنني لست متأكدة من أنني أحب البقاء في مكان واحد، أحبها، وأحبك، وأحب هذا المنزل وهذا العالم، لكنني... أشعر شعورًا مثل كلب ثائر مربوط بحبل قصير في بعض الأيام.

تقلبت مبتعدة عنه:

– ربما الجميع يشعرون بهذه الطريقة في البداية، ربما يؤثر فيَّ الفصل فحسب، لطالما قلت إن الربيع خُلق للترحال.

لم يجب يولي لكنه بقي مستيقظًا ينصت إلى تنهيد البحر النائي ويفكر، وفي اليوم التالي غادر المنزل مبكرًا، بينما لا تزال أدي وجانيوري راقدتين في السرير، وضوء الشمس لم يكن قد ملأ السماء بعد، كان محض أحلام باهتة،

اختفى يولي لعدة ساعات، تحدث خلالها إلى أربعة أشخاص، وأنفق كل مدخراتهم المتواضعة، ووقع ثلاثة بيانات مختلفة بين الاستدانة والامتلاك، ثم عاد إلى الكوخ الحجري لاهثًا ومتهللًا.

– كيف كان التدريس؟

سألت أدي.

أضافت جانيوري بقينٍ: «با!».

انتزع يولي الطفلة من ذراعي أدي وغمز، ثم قال:

– تعالي معي.

تجولا في المدينة، متجاوزين الميدان والجامعة، ومحل وشوم والدة يولي، وسوق السمك على خط الساحل، متجهين نحو المرفأ الدافئ، قادها يولي إلى النهاية وتوقف عند قارب صغير رشيق أكبر وأنحف من المفتاح، مُخاط إلى شراعه على عجالة صلوات السرعة والمغامرة والحرية، كانت هناك مستلزمات معبأة في حقائب قماشية، شباك ومصائد، وبراميل مياه وسمك مدخن، وتفاح مجفف، ونبيذ العرعر، وحبل، وبوصلة نحاسية لامعة، بالإضافة إلى كابينة مرتبة مسقوفة عند أحد طرفيها وبداخلها مرتبة من القش.

ظلت أدي هادئة لفترة طويلة، تسلل خلالها الشك إلى قلب يولي وجعله يرتعش ويضطرب، ليس من الحكمة أبدًا اتخاذ قرارات قبل الفجر أو دون استشارة الشريك، ويولي قام بالأمرين معًا.

سألت أدي أخيرًا:

– هل هذا لنا؟

ابتلع يولي ريقه:

– نعم.

– كيف فعلت... لماذا؟

خفض يولي صوته ودس يده في يدها لتشكل وشومهما معًا صفحة من الحبر الأسود.

– لن أكون وثاقك يا حبيبتي.

نظرت إليه أدي في تلك اللحظة بينما يعتلي وجهها تعبير منتشٍ ممتلئ بالحب لدرجة أن يولي أدرك أنه فعل شيئًا ليس بسيطًا بل حيويًّا للغاية،

(هل أندم عليه؟ هل أتراجع عنه إذا كنت أستطيع؟ وأخبرها أن تسلم للبيت والموقد، وتتخلى عن طرق التجول؟ يعتمد ذلك على أي الأمرين أكثر أهمية، الحياة أم الروح) أصاب الملل جانيوري التي كانت تصفق بيديها إلى بركة من طيور النورس المنزعجة، وبدلًا من ذلك جذبت سفينة انتباهها، وأصدرت تلك الأصوات العالية التي عادة ما تترجم إلى «أعطني ذلك الآن».

ضغطت أدي جبهة ابنتها بجبهتها:

- أتفق معكِ تمامًا يا عزيزتي.

وبعد أن أشرقت الشمس مرتين، كانت مدينة نين تتضاءل خلفهم، والأفق الشرقي صافيًا لامعًا أمامهم، وكانت أدي راكعة في مقدمة القارب، مرتدية معطف المزارعين عديم الشكل محتضنة طفلتها إلى صدرها، لم يكن يولي واثقًا، لكنه ظن أنها ربما تهمس إلى جانيوري، وتخبرها كيف يبدو شعور تدحرج الأمواج تحت قدميك، ورؤية مدن غريبة في الأفق في أثناء الغسق، وسماع الغناء بلغات مجهولة يتردد عبر الهواء.

قضوا الشهور التالية مثل قطيع صغير من الطيور في هجرة ملتوية المسارات من صنعهم، ينتقلون من مدينة إلى أخرى دون أن يطيلوا البقاء في أي مكان، بشرة أدي التي أصبحت بيضاء ناعمة خلال الشتاء، عاد إليها النمش والحروق مجددًا، وأصبح شعرها فوضى معقودة مصبوغة فيما يشبه عرف الحصان، فيما تحولت بشرة جانيوري إلى لون بني محمر حاد مثل الجمر أو القرفة، أطلقت عليها أدي «متجولة بالفطرة»، بناءً على نظرية أن الطفل الذي تعلم الحبو على ألواح ظهر السفينة المتأرجحة اللطيفة، واستحم في المياه المالحة، واستخدم البوصلة كدمية لمرحلة التسنين؛ لا بد أنه مُقدر له حياة حافلة بالأسفار.

وبعدما مر وقت على حلول الربيع، واخضرت الأشجار، بدأ يولي يساوره الشك في أن ترحالهم ليس بلا وجهة تمامًا، بدا وكأنهم يتجهون شرقًا، على الرغم من الأسلوب الأهوج غير المباشر، لذا لم يكن يولي متفاجئًا إطلاقًا عندما صرحت أدي ذات ليلة أنها تفتقد عمتها ليزي.

- أظن فحسب أنها ينبغي أن تعرف أنني لا أتعفن في خندق ما، وأعتقد أنها ستود رؤية فتاة جديدة من عائلة لارسن، ورجل لم يفر هاربًا.

وما لم تقله لكن يولي شك فيه بقوة، هو أنها تحن إلى المنزل للمرة الأولى في حياتها، تحدثت خلال الأمسيات عن رائحة المسيسيبي بعد ظهيرة صيفية، واللون الأزرق النيلي للسماء فوق الحقل، شيء حيال أن الإنجاب يعيدك مجددًا إلى بداياتك، كأنك كنت ترسم دائرة طوال حياتك ويتحتم عليك إغلاقها الآن.

أعادوا التزود بالسلع في مدينة بلم حيث عثر يولي وأدي على بعضهما للمرة الأولى في العام السابق، تذكرهما بعض من مرتادي السوق، وانتشر الخبر أن الحورية تزوجت الباحث، وأنجبا طفلة -عادية على نحو محبط-، وقبل مغادرتهم تجمع حشد صغير على الشاطئ، تناوبت جانيوري بين الصراخ في وجوههم بسرور، ودفن وجهها في كتف أمها، في حين قدمت أدي إجابات سخيفة مرضية لأسئلتهم -«إلى أين نتجه؟» إلى قمة جبل في كولورادو إذا أردت معرفة الحقيقة-، قبل غروب الشمس، تحول الأمر إلى ما يشبه النزهة، وشقوا طريقهم بينما يلمع بريق النيران الدافئ قبالة ظهورهم، شاهدهم الحشد يغادرون بتعبيرات تتنوع بين الفضول والمرح والقلق، والصياح بالتحذيرات والأمنيات الطيبة إذ تحولت السماء فوقهم من الوردي الحريري إلى الأزرق المخملي. (كثيرًا ما فكرت في هؤلاء الناس منذ ذلك الحين، يشاهدوننا نبحر بعيدًا إلى البحر الشرقي الخالي، هل ذهب أحدهم للبحث عنا عندما فشلنا في العودة؟ تاجر فضولي أو صياد سمك قلق؟ يا له من أمل ضعيف يرتكن قلبي إليه).

لم يكن يولي معتادًا إثارة مثل هذه الجلبة، لكن أدي ضحكت منه:

- لقد خلفت حشدًا من الوجوه مثل هذا تمامًا في ثلاث دزينات من العوالم، هذا جيد بالنسبة إليهم، محاولة شرح الأشياء التي يتعذر شرحها هي الطريقة التي تخلق القصص والحكايات الأسطورية حسبما أظن.

نظرت إلى الأسفل نحو جانيوري، متكورة في حضنها مستغرقة في مضغ إصبعها.

- ابنتنا ستصبح قصة خيالية قبل أن تستطيع المشي يا جوليان، أليس هذا رائعًا؟ متجولة بالفطرة، لم يُخلق مثلها في أي وقت مضى.

رسمت أدي مسارهم في الليل، تهتدي بضوء النجوم والذاكرة، بينما تنام جانيوري في حضنها، راقبهما يولي من القمرة، وانجرف في أحلام أن ابنته أصبحت امرأة ناضجة، تتحدث 6 لغات متنوعة وتتفوق على والدها، وكيف ستأخذ قلب أمها الشجاع الضاري، وكيف لن ترتبط أبدًا بمنزل واحد لكن بدلًا من ذلك سترقص بين العوالم على طريق من صنعها، ستكون قوية ولامعة وغريبة على نحو رائع فتّان وقد ترعرعت تحت ضوء عشرة آلاف شمس.

استيقظ يولي قبل الفجر، عندما زحفت أدي إلى القمرة ووضعت جانيوري بينهما، عاد إلى النوم ويده تحيط بهما.

اشتدت الرياح وزادت برودتها بعيدًا عن جزر المدينة، قضوا الأيام التالية يعبرون تيارات غير مرئية، وترتطم الأمواج بهيكل سفينتهم مثل إنذارات وبالتناوب اشتد شراعهم وتحرك مع اتجاه الرياح، ابتسمت أدي للرذاذ المالح مثل صقر صياد يرى طريدته على مرمى البصر، زحفت جانيوري من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها وحبل مربوط حول خاصرتها، متدحرجة أحيانًا مع الأمواج، راقب يولي الأفق بحثًا عن باب أدي.

ظهرت في فجر اليوم الثالث، صخرتان سوداوان تبرزان من البحر مثل أسنان التنين، تميلان نحو بعضهما، وأطرافهما الحجرية شبه متلامسة، فيتشكل بينهما ممر ضيق من البحر الواسع، يلتف الضباب الصباحي ويتبخر حول المدخل، يخفيه ثم يكشفه.

كتب يولي في مذكراته، حتى لا يُكتشف المدخل بسهولة، وهو ما يثبت نظريتي الأولى.

دس ملاحظاته بعيدًا ووقف عند مقدمة السفينة حاملًا جانيوري بين يديه، وجهها النائم الناعم يبرز من طيات معطف أدي الرث، هدأ البحر وصمت، وانزلقت مقدمة سفينتهم خلاله، مثل قلم عبر صفحة، سقطت ظلال الأحجار فوق القارب، وقبيل دخولهم إلى الممر، عبر العتبة ثم إلى حوصلة الفضاء السوداء بين العوالم، التفت يولي إيان لينظر إلى زوجته؛ كانت أدي جاثمة عند الدفة، بكتفين عريضتين ثابتتين أمام التيار، والفك متأهب، وعيناها تنبضان بفرح هائل، بإثارة العبور خلال منفذ آخر، أو فخر الحياة من دون حدود أو حواجز، أو متعة العودة إلى المنزل البسيط، اجتمع شعرها في عقدة مرخية

باللون العسلي فوق كتف واحدة، متشابكًا مع خطوط وشمها الملتوية، لقد تغيرت منذ اليوم الأول الذي رآها فيه يولي، في حقل أشجار الأرز المتناثرة منذ ما يتجاوز عقدًا من الزمان، أصبحت أطول، أعرض، تجتمع خطوط سعيدة عند جوانب عينيها، وأول خصلات الشعر الأبيض تتجعد عند صدغيها، لكنها ليست أقل إشراقًا، آه يا جانيوري، كانت جميلة للغاية.

رفعت بصرها بمجرد أن عبرنا إلى السواد وابتسمت إلينا ابتسامتها المحدبة الجامحة، تلك الابتسامة، مسحة بيضاء ذهبية في مواجهة الضباب، لا تزال معلقة أمام عينيَّ مثل صورة مرسومة، تميز آخر لحظة كان العالم فيها كاملًا، آخر لحظة لتجمُّعِنا الأسري الوجيز الهش، آخر لحظة رأيت فيها أديلايد لي لارسن.

ابتلعنا السواد، الشرود الخانق للأماكن البينية، أغلقت عينيَّ أمامه، وقلبي الجبان يثق أن أدي سترانا عبره، ثم دوى صوت انشقاق وتمزق، لكنه ليس صوتًا، لأنه لا يمكن أن يكون هناك صوت في ذلك المكان الخالي من الهواء، انهارت قدماي وفكرت على نحو عنيف في الوحوش البحرية، ولوياتان[1]، ومخالب عملاقة تدير سفينتنا، ثم فجأة هبط علينا ضغط عملاق بلا مصدر، كان كما لو أن المكان البيني نفسه يُمزق إلى نصفين، انقطعت أنفاسي، وكنت أعمى وخائفًا، لكن كان هناك جزء من الثانية، معلقًا الآن في ذاكرتي مثل نقطة محورية انقلب حولها كل شيء، حينما كان يمكن أن أختار شيئًا مختلفًا، أن أعود نحو الخلف إلى مؤخرة السفينة نحو أدي ربما كنت سأفارق الحياة أو ألعن بالانحلال في المكان البيني السرمدي، لكن على الأقل كنت سأفعل ذلك وأديلايد إلى جانبي.

بدلًا من ذلك، ثبت قدمي وثنيت نفسي حولك، كثيرًا ما أفكر في هذه اللحظة، لا أندم عليها يا جانيوري، حتى في أحلك لحظاتي وأكثرها يأسًا، انقضت اللحظة، وتكثف السحق، حتى دككت أنا وأنتِ على الهيكل الذي يئن، ورئتانا فارغتان من الهواء وجمجمتانا تؤلماننا، كانت ذراعي كأنها ملزمة حولك، ولم أعد واثقًا هل كنت أحميك أم أسحقك، عيناي تنخران نحو الداخل، وأسناني تواجه بعضها بعضًا.

---

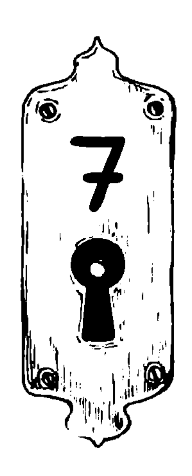
(1) لوياتان: وحش بحري توراتي أشير إليه في العهد القديم.

الهواء ضعيف، شديد البرودة، تفوح منه رائحة الصنوبر والثلج، عبرنا خلال حاجز غير مرئي، واندفعت سفينتنا نحو الأرض، دُفعنا نحو الأمام، وسحقنا إلى الأرضية الباردة لعالم آخر، عند هذه النقطة، تستمر ذكرياتي في الترنح والتشتت، تشتعل وتنطفئ مثل مصباح معطوب في جهاز للعرض، أعتقد أن رأسي اصطدم بشيء صخري أو لوح خشبي طائر.

أتذكرك مضطربة تصرخين بين يديَّ، إذًا أنتِ حية على نحو مدهش مستحيل، أتذكر الترنح منتصبًا، أدور عائدًا نحو البقايا المتناثرة من سفينتنا وأبحث يائسًا عن جسد أبيض أو ذهبي، باستثناء أن عينيَّ لم تعملا بشكل صحيح ثم كنت مرة أخرى على ركبتيَّ، أتذكر البحث عن الباب ذي الإطار الخشبي الكبير الذي أخبرتني عنه أدي ولم أجد سوى الرماد والركام.

أتذكر الصراخ باسمها وعدم تلقي إجابة، أتذكر قوامًا يلوح في الأفق، وتؤطره الظلال قبل الغسق.

شيء اتصل بمؤخرة رأسي وتبعثر العالم، اصطدمت أنفي بأشجار الصنوبر والصخور وملأت فمي دماء بطعم المحيط، أتذكرني أفكر: أنا أموت، وأتذكر الشعور بسكون أناني بعيد لأنني عرفت حينها، أن أدي لم تعبر الباب معنا.



الباب العاجي

بصفة عامة، أنا لست شخصًا بكّاءً، عندما كنت أصغر سنًّا بكيت بسبب كل شيء، والأمر المثير للسخرية أنني بكيت حتى بسبب النهايات الحزينة، بل ذات مرة بكيت لأن بركة شراغف[1] جفت تحت أشعة الشمس، ولكن عند لحظة ما؛ تعلمت خدعة الرواقية[2]، وهي الاختباء، تسحب نفسك داخل جدران قلعتك، وترفع الجسر المتحرك، وتشاهد كل شيء من أعلى برج.

لكن في تلك اللحظة بكيت، بينما أنا مستلقية والدماء تغطيني وأعاني من الإجهاد في كوخ عائلة زابيا، وباد إلى جانبي، وصوت جاين يمر فوقنا، يخبرنا بقصة أبي.

(1) شراغف: كائن حي يفقس من بيضة البرمائي مثل الضفدع والعلجوم والسلمندر.

(2) الرواقية: مدرسة فلسفية تعتمد على تعاليم زينون الرواقي، تزعم الرواقية أن التحكم الذاتي، والثبات وعدم الالتهاء بالعواطف، التي قد تفسّر باللامبالاة بالمتعة والألم، تجعل الإنسان مفكرًا سليمًا، متزن التفكير وموضوعيًّا. أحد جوانب الرواقية الأساسية هي تحسين رفاهية الفرد الروحية.

بكيت حتى شعرت بوخز في عينيَّ، وابتلت الوسادة بالمخاط، بكيت وكأنني مكلفة بذرف الدموع نيابة عن ثلاثة أشخاص بدلًا من شخص واحد، وهم أمي المفقودة في الهاوية، ووالدي الضائع من دونها، وأنا التائهة من دونهما.

انتهت جاين من القراءة، ولم تتفوه بشيء، إذ ما الذي ستقوله لامرأة ناضجة تبكي حتى تنام؟ أغلقت الكتاب بلطف، كما لو أن الورق لحم بشري قد يُصاب بكدمات، ثم دست اللحاف الوردي حولي، وبعد ذلك أغلقت الستائر في مواجهة شمس منتصف اليوم، وجلست على الكرسي الهزاز حاملة قهوتها الباردة، كان وجهها ساكنًا للغاية سلس الملامح، ساورني الشك أن العواطف الجياشة تتسرب تحته، لقد تعلمت جاين أيضًا خدعة الرواقية.

غفوت وأنا أراقبها بعينيَّ الساخنتين المتورمتين، ويدي تحيط بضلوع باد في أثناء صعودها وهبوطها.

لديّ ذكريات حالمة بــجاين، وهي تتحرك حول الكوخ، تغادر حينًا وتعود حاملة حزمة من الحطب لمواجهة المساء البارد، وتجلس إلى الطاولة تعمل على شيء قاتم حديدي بينما يعلو وجهها تعبير غامض، بمجرد أن استيقظت شبه مستفيقة لأرى الباب مفتوحًا، وجاين وباد يجلسان عند مدخله، يؤطرهما ضوء القمر الصيفي مثل زوجين من التماثيل الفضية أو الأرواح الحارسة، نعمت بنوم أفضل بعد ذلك.

استيقظت في أفضل حال في اليوم التالي، عندما كانت الشمس ترسم أول خط باهت على الحائط الغربي، ضوء شاحب مزرق أخبرني أنه لا يزال الوقت مبكرًا للغاية حتى يستيقظ الأشخاص المتحضرون، راقبت الخط يتحول إلى لون الحلوى الوردي واستمعت إلى العصافير تبدأ سلمها الموسيقي المتردد، وربما للمرة الأولى في حياتي، شعرت حقًّا بالأمان.

أوه، أعرف، لقد نشأت في مقاطعة ريفية مترامية الأطراف، وسافرت حول العالم بتذاكر الدرجة الأولى، وارتديت الحرير واللؤلؤ، وحظيت بطفولة بالكاد تكون خطيرة، لكنها امتيازات مستعارة، لقد أدركت ذلك، كنت مثل سندريلا في الحفلة الراقصة، أدرك أن مظهري الأنيق خادع وشرطي ويعتمد على مدى نجاحي في الالتزام بمجموعة من القواعد غير المكتوبة، وبحلول منتصف

الليل، سيتبخر كل شيء، ويتركني مكشوفة على حقيقتي؛ فتاة ملونة فقيرة ليس لديها من يحميها.

لكن هنا في هذا الكوخ، العفن المنسي القابع على صخرة مغطاة بالصنوبر، ويبعد دزينة من الأميال عن أقرب مدينة، شعرت أخيرًا بالأمان الحقيقي.

في لحظة من الليل، أبعدت جاين باد عن السرير وأخذت مكانه إلى جانبي، وجل ما يمكن رؤيته منها في تلك اللحظة هو شعرها الأسود القصير، حاولت ألا أزعجها بينما أرتقي إلى لوح السرير الأمامي، وقفت للحظة، متأرجحة ومصابة بإرهاق لا علاقة له بعدد الساعات التي نمتها، ثم سرقت من الزاوية بطانية مصابة بعفن بسيط، همست باسم باد وعرجنا معًا إلى المدخل الأمامي وجلسنا نشاهد البخار الصباحي يتصاعد من البحيرة على هيئة تموجات بيضاء منتفخة.

رسمت أفكاري دوائر في جمجمتي، تعود مرة تلو الأخرى إلى القطع نفسها محاولةً جمعها معًا مثل شظايا شيء ثمين مكسور، وهي: الجمعية، وإغلاق ***الأبواب***، والسيد لوك، ووالدي.

لا يزال أمامي في الكتاب فصلٌ واحد أو نحو ذلك لأقرأه، لكن لم يكن من الصعب ملء السنوات المفقودة، علق والدي في هذا العالم البائس مع طفلته، ووجد لنفسه عملًا يسمح بالسفر، وقضى سبعة عشر عامًا يبحث عن طريق للعودة إلى المنزل، طريق للعودة إليها، إلى أمي.

لكنني عثرت على ***بابهما***، أليس كذلك؟ ***الباب*** الأزرق في الحقل الذي فتحته لفترة وجيزة، والعملة الفضية القابعة على الطرف الآخر، لم يعرف والدي ذلك قط، وربما مات بحثًا عن ***الباب*** الذي فتحته ابنته، كان الأمر شديد... ***الغباء***، مثل إحدى المسرحيات التراجيدية حيث يموت الجميع في النهاية نتيجة لسلسلة من حالات التسمم وسوء التفاهم التي كان من الممكن تفاديها.

على الرغم من أن الأمر ربما لم يكن عرضيًا أو من الممكن منعه كليًا، شخص ما كان ينتظر خارج ***الباب*** الموجود على قمة الجبل، ثم أغلقه، يعج

كتاب والدي بالإشارات إلى إغلاق ***أبواب*** أخرى، وقوى بلا مسمى تتعقب خطواته.

خطر على بالي هافيميير وهو يخبرني أنه تمنى لو حافظ على العالم كما هو، وفكرت في لوك ودعوته إياي للانضمام إلى الجمعية بخطاب مهيب عن النظام والاستقرار، *الأبواب هي التغيير* كما كتب والدي، لكن... هل أصدق حقًّا أن جمعية نيو إنجلاند الأثرية هم حفنة من الخبيثين الذي يسعون إلى غلق ***الأبواب***؟ وإذا كانوا كذلك... هل يعرف السيد لوك؟ هل هو الشرير الرئيسي في هذه القصة؟

لا، لم ولن أصدق ذلك، هذا الرجل هو من آواني أنا وأبي، وفتح منزله لنا، الرجل الذي قدم لي مربيات ومعلمين وفساتين فاخرة، الرجل الذي ترك لي سبعة عشر عامًا من الهدايا في صندوق الكنز الأزرق، ومثل هذه الهدايا الغريبة المدروسة: دمى من بلاد بعيدة، وأوشحة معطرة بالتوابل، وكتب بلغات لا أستطيع قراءتها، هدايا تليق تمامًا بفتاة وحيدة تحلم بالمغامرات. السيد لوك أحبني، أعلم أنه فعل.

بدا أن رائحة الأمونيا من براتلبورو تفوح من جلدي على نحو مثير للضجر، هو من فعل ذلك، هو من أرسلني إلى ذلك المكان، وحبسني حيث لا يستطيع أحد سماعي أو رؤيتي، قال إن ذلك لحمايتي، لكنني لم أكن واثقة حيال مبالاتي بالسبب، وبحلول الوقت الذي استيقظت فيه جاين، مضيقة عينيها إلى الشمس، وشعرها مسطح المظهر إلى حد ما، ويتجمع على جهة واحدة، كانت قدماي قد أصيبتا بالخدر، وأز بخار البحيرة بعيدًا، جلست إلى جانبي دون أن تقول أي شيء.

– هل كنتِ تعرفين؟

سألتها بعد صمت.

– أعرف ماذا؟

لم أزعج نفسي بالإجابة. أصدرت تنهيدة قصيرة مستسلمة.

– عرفت بعض التفاصيل، وليس القصة بأكملها، كان جوليان رجلًا يحافظ على خصوصيته.

ذلك الفعل الماضي الذي ينسل عبر الجمل كثعبان في العشب، يتحين الفرصة حتى يلدغ، ابتلعت ريقي:

- كيف قابلت والدي حقًّا؟ ولماذا أرسلك إلى هنا؟

أطلقت تنهيدة أطول، أعتقد أنني سمعت نوعًا من التحرر بداخلها، وكأن بابًا يُفتح.

- قابلت والدك في شهر أغسطس من عام 1909 في عالم من المتحولين إلى فهود وغيلان، كدت أقتله، لكن الضوء خفت وباءت محاولتي بالفشل.

حتى تلك اللحظة، لم أظن أن فكاك الناس تسقط حقًّا في الواقع، بدت جاين أكثر سعادة بنفسها، وهي تراقبني بجانبها. وقفت:

- لنذهب إلى الداخل، تناولي الطعام، سأخبرك بكل شيء، عثرت على الباب في المرة الرابعة التي هربت فيها من المدرسة التبشيرية، لم أعثر عليه بسهولة، فالجانب الشرقي من جبل سوسوا[1] يعج بالكهوف وكان الباب مخبأ أسفل سرداب ضيق ملتوٍ، الأطفال فحسب هم من سيظنون أنه مكان يستحق الاكتشاف، لمع الباب في وجهي عبر الظلال، طويلًا ولونه أبيض مصفر، لونه عاجي.

كنت قد استبدلت ردائي المُنشّى الدامي بكنزة إضافية وتنورة من عند جاين، ومشطت شعري بأصابعي -لم يحدث أي فارق يذكر-، والآن نجلس في مواجهة بعضنا بعضًا إلى طاولة الطعام المغبرة، بدا الأمر اعتياديًّا تقريبًا، كأننا نختبئ في إحدى الحجرات العلوية بمنزل لوك، نحتسي القهوة، ونناقش أحدث الأعداد من سلسلة الحبيبة: مغامرات رومانسية لفتيات «ميريت»[2] باستثناء أن القصة التي كنا نناقشها، تخص جاين، ولم تبدأها من نقطة الانطلاق.

- لماذا هربت؟

زمّت شفتيها قليلًا:

---

(1) جبل سوسوا: جبل بركاني درعي، يقع في كينيا.

(2) سلسلة من الروايات الرومانسية ألفتها الكاتبة الفلبينية مارثا سيسيليا.

– للسبب نفسه الذي يهرب لأجله الجميع.

– لكن ألم تقلقي حيال... أعني... ماذا عن والديك؟

– ليس لديّ والدان.

همست قليلًا عند الحرف الأخير، راقبت حلقها يتحرك بينما تحاول ابتلاع غضبها:

– كل ما تبقى لديّ هو أختي في ذلك الوقت، وُلدنا في الأراضي العليا في مزرعة والدتي، لا أتذكر الكثير بشأنها، الأرضية المبلطة، سواد البشرة، رائحة تخمر الدخن، كشط نصل الحلاقة على جمجمتي، موكي، المنزل.

هزت جاين كتفيها وأكملت:

– كنت في الثامنة من عمري عندما حل الجفاف، والسكك الحديدية، أخذتنا والدتنا إلى المدرسة التبشيرية وقالت إنها ستعود في أبريل مع الأمطار، لم أرها مرة أخرى، أُفضِّل أن أفكر في أنها ماتت بسبب حمى ما في معسكرات العمل، لأنه عند ذلك من المحتمل أن أسامحها.

تقطرت من صوتها مرارة الهجر وانتظار تكرر لوالد لم يعد قط، ارتجفت إدراكًا للأمر.

– نسيتها أختي تمامًا، كانت صغيرة للغاية، نسيت لغتنا، وأرضنا، وأسماءنا، أطلق عليها المعلمون بيبي تشارلوت، وعرفت نفسها باسم بيبي.

هزت كتفيها مرة أخرى «كانت سعيدة» توقفت جاين، تصلبت عضلات فكها مثل الرخام، وسمعت جملتها المكبوتة:

– لم أكن سعيدة.

– لذا هربتِ، إلى أين ذهبتِ؟

ارتخت عضلات فكها:

– بعيدًا، لم يكن لديَّ مكان لأذهب إليه، عدت إلى المدرسة التبشيرية مرتين بمفردي لأنني مرضت أو تعبت أو أصابني الجوع، وذات مرة رُبطت خلف حصان ضابط لأنهم أمسكوا بي وأنا أسرق الخبز من

الثكنات، في المرة الرابعة كنت أكبر سنًّا، في عمر الرابعة عشرة تقريبًا، تماديت في الأمر كثيرًا.

رأيت نفسي لبرهة عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، مضطربة، وحيدة، أرتدي التنانير الكتانية المكوية، وأتدرب على الكتابة، ووجدت أنني لا يسعني تخيل الهروب وحيدة عبر الأدغال الإفريقية في مثل هذه السن، أو في أي سن.

- عدت إلى المنزل بمفردي باستثناء أنه لم يعد كما كان سابقًا، حل مكانه منزل كبير بشع ذو ألواح خشبية ومداخن، وأطفال صغار شُقر يلعبون أمامه، وامرأة سوداء ترتدي مئزرًا أبيض تراقبهم.

هزت كتفيها مجددًا، بدأت أعتبرها إيماءة عملية، مخصصة للتخلص من عبء الغضب الذي يهدد بالاستقرار على كتفيها.

- لذا واصلت الركض نحو الجنوب، حيث تسطحت الأراضي العليا إلى وديان وجبال، والأشجار جافة والرياح حارقة والطعام شحيح، أصبحت نحيلة، ورعاة الماشية رأوني أنهار ولم يتفوهوا بشيء.

أصدرت صوتًا، يعبر عن الاشمئزاز والذهول، وجنبتني جاين نظرة الشفقة.

- بحلول ذلك الوقت، شُيدت الإمبراطورية، بحدودها الفاصلة وأهدافها وسككها الحديدية ورشاشات ماكسيم، لم أكن الطفلة يتيمة الأم الجامحة الوحيدة التي تجري عبر الأدغال.

كنت صامتة، فكرت في محاضرات السيد لوك عن التقدم والرخاء، لم تضم قط أي فتيات يتيمات أو مزارع مسروقة أو رشاشات ماكسيم، يرقد باد تحت كرسي وقدمه المجبورة تبرز متصلبة من جسده، غيَّر من وضع جلسته فأصبح رأسه يغطي قدمي تمامًا، تابعت جاين:

- عثرت على الباب العاجي وعبرت خلاله، في البداية فكرت أنني مت وانتقلت إلى عالم الأرواح والآلهة.

تباعدت شفتاها فيما يشبه الابتسامة وتجعدت عيناها بشعور جديد، أهو التوق؟ الحنين إلى الوطن؟

- كنت في غابة شديدة الاخضرار لدرجة أنها كانت زرقاء تقريبًا، الباب الذي عبرت خلاله خلفي، يقع بين الجذور المكشوفة لشجرة عملاقة، تجولت بعيدًا عنها متوغلة في الغابات، أدرك الآن مدى حماقة الأمر، الأشجار في ذلك العالم تعج بالأشياء القاسية الزاحفة، وحوش متعددة الأفواه لا تشبع، كان محض حظ -أو مشيئة الرب كما سيفكر العاملون في المهمة التبشيرية- أنني عثرت على لييك وصياداتها قبل أن يجدني شيء آخر، لم أشعر بأنني محظوظة للغاية في ذلك الوقت، فبينما كنت أتجول حول جذع شجرة، وجدت رأس السهم على بعد بوصات من وجهي.

غطيت شهقتي بالسعال، متأملة ألا يبدو الأمر مثل طفل صغير يستمع إلى قصة في المخيم بجوار النار.

- ماذا فعلت؟

- ولا أي شيء لعين، البقاء على قيد الحياة عادةً هو مسألة إدراك للتوقيت الذي تكون فيه مهزومًا، سمعت حفيفًا من خلفي وعرفت أن آخرين قادمون، وأنني محاصرة، المرأة التي تحمل السهم كانت تهمس لي بلغة لا أعرفها، ومن الواضح أنني لم أبدُ مصدر تهديد كبير؛ طفلة جائعة ترتدي قميصًا أبيض قطنيًّا، ياقته مقطوعة، لأن لييك أنزلت سلاحها، حينها فقط استطعت إلقاء نظرة كافية عليهن.

لانت الخطوط الصلبة في وجه جاين، قليلًا فحسب، تدفئها ذكريات أثيرة.

- كنّ نساء ذوات عضلات، وأعين ذهبية، طويلات على نحو لا يُصدق، يبدو عليهن نوع من الجمال الجامح الذي دفعني إلى التفكير في اللبؤات، بشرتهن مزركشة ومرقطة، وأسنانهن تبرز حادة عندما يبتسمن، ظننت أنهن أجمل مخلوقات رأيتها في حياتي، ضممنني إليهن، لم نستطع فهم بعضنا لكن تعليماتهن كانت بسيطة، اتبع الجماعة، كل، ابق مع الجماعة، واسلخ هذا المخلوق للعشاء. تجولت برفقتهن لأسابيع ربما لشهور، وتعلمت الكثير من الأشياء، تعلمت التسلل بصمت في الغابات، وتزييت الأوتار بالدهون، تعلمت أكل اللحم

نيِّئًا بينما لا يزال محتفظًا بحرارة الجسد الحي، تعلمت أن كل قصص الغيلان التي سبق وسمعتها حقيقية، وأن الوحوش تتسلل في الظلام.

أصبح صوتها متناغمًا، منومًا تقريبًا:

– تعلمت أن أحب لييك وصياداتها، وعندما رأيتهن يتغيرن؛ تنسلخ جلودهن وتتبدل، وفُكوكهن تستطيل، وسهامهن تتبعثر منسية على أرضية الغابة، شعرت بالغيرة أكثر من الخوف، لطالما كنت عاجزة في حياتي، شكل النمرات وهن يقفزن إلى المعركة يمثل شكل القوة المكتوبة على العالم.

لا أظن أنني سبق وسمعت جاين تتحدث بمثل هذه العاطفة، ولا حتى عندما ينتهي الكتاب على نحو رديء أو حين تلسعها القهوة، أو حين يقول ضيف في حفلة شيئًا لاذعًا من خلف يده المغطاة بالقفازات، سماع هذا الصوت العاطفي في تلك اللحظة بدا لي وكأنه تطفل.

– انتهت الجولة أخيرًا، وأخذتني النساء إلى المنزل، وهو عبارة عن قرية محاطة بأشجار الفاكهة والأراضي الزراعية، مخبأة في قدر بركان خامد، ألقى رجالهن التحية عليهن في الشوارع، بينما يحملون جعة طازجة في أوعية طينية ويجلس أطفال بدناء على أفخاذهم. تحدثت لييك إلى أفراد عائلتها الذين نظروا إليَّ بشفقة، قادوني نحو منزل لييك وأطعموني، وقضيت تلك الليلة والليالي الأخرى التالية أنام على كومة من الفراء الناعم يحيط بي الشخير الهادئ لأطفال لييك، شعرت...

ابتلعت جاين ريقها، واختنق صوتها لبرهة:

– شعرت كأنني في المنزل.

ساد صمت قصير.

– إذًا بقيتِ هناك؟ في القرية؟

ابتسمت جاين ابتسامة مائلة تشوبها المرارة:

– نعم بقيت، لكن لييك وصياداتها لم يبقين، استيقظت ذات صباح لأكتشف أن جميعهن عدن إلى الغابات، إلى التجول، وتركنني بمفردي.

احتدت جاين للغاية، كم آلمها ذلك الهجر الثاني.

- كنت أعرف ما يكفي من اللغة في ذلك الوقت لأفهم ما يقوله الأزواج لي، إن الغابة ليست مكانًا لكائن مثلي، أنا صغيرة وضعيفة للغاية، يجب أن أبقى في القرية لأربي الأطفال وأطحن بذور الكتان إلى دقيق وأظل آمنة.

ابتسامة معوجة أخرى.

- لكن في ذلك الوقت كنت قد أصبحت ماهرة في الهرب، سرقت سهمًا، وثلاث قِرَب من الماء وشققت طريقي نحو الباب العاجي.

- لكن...لماذا؟

فركت جاين إصبعها بطول حبيبات الطاولة الخشبية.

- لأنني لم أود أن أكون آمنة، أظن أنني أردت أن أكون خطيرة، أن أعثر على قوتي وأفرضها على العالم.

أشحت بنظري إلى الأسفل ناحية باد الذي يصدر زمجرة شبحية في نومه.

- إذًا رحلتِ عن عالم النمرات، إلى أين ذهبتِ؟

لا يحصل الناس أبدًا على فرصة البقاء في عالم أحلامهم، أليس كذلك؟ أليس ودوروثي وآل دارلينغ[1] أجبروا على العودة إلى العالم الممل، ليدثرهم رعاتهم في السرير، وتقطعت السبل بوالدي في هذا الواقع الممل.

أطلقت جاين تنهيدة ضخمة هازئة:

- ذهبت مباشرة إلى أقرب قاعدة بريطانية، وسرقت بندقية لي ميتفورد وما استطعت حمله من الذخيرة، ثم عدت عبر بابي العاجي، وبعد أسبوعين، رجعت إلى القرية، وبندقيتي على كتفي، بينما أحمل جمجمة كريهة الرائحة متقشرة دامية تحت ذراعي، كنت جائعة وهزيلة مجددًا، وقميصي القطني تحول إلى خرقة مربوطة على خصري، فقد كسرت ضلعين في المعركة، لكن يمكنني الشعور بعينيَّ تشتعلان فخرًا.

كانت عينا جاين تنبضان بالفخر الآن أيضًا على نحو خطير عبر ظلال الكوخ.

---

(1) أسماء شخصيات في رواية «أليس في بلاد العجائب».

– وجدت ليبك في شارع القرية، ودحرجت جمجمة الغول تحت قدميها. لمحتُ الفلجة بين أسنانها الأمامية بمجرد أن اتسعت ابتسامتها.

– وبعد ذلك، تجولت مع النمرات خلال السنوات الاثنتين وعشرين التالية، أمتلك باسمي اثني عشر صيدًا وعائلة وثلاثة أسماء بثلاث لغات، كان لدي عالم بأكمله ممتلئ بالدماء والفخر.

مالت نحوي، مثبتة عينيها على عينيَّ مثل قطة صيد سوداء، تهز ذيلها الخفي، عندما عادت إلى الكلام، انخفض صوتها وأصبح أجش:

– كنت لأملك كل ذلك حتى الآن، لو لم يصل والدك في عام 1909 ويغلق بابي إلى الأبد.

وجدت نفسي عاجزة عن الكلام تمامًا، ليس بسبب الخجل أو الشك، لكن لأنه على ما يبدو سقطت كل الكلمات من رأسي مخلفة وراءها فراغًا وصوت طنين مشوش ممل، ربما إذا حظينا بوقت أطول، لكنت تعافيت وقلت شيئًا مثل: والدي يغلق ***الأبواب***؟ أو ربما: كيف تعرفين؟ أو ربما الرد الأكثر صدقًا ووجوبًا: أنا آسفة.

لكن لم أقل أيًّا من هذه الأشياء، لأنه صدر طرق مفاجئ على باب الكوخ، قال صوت هادئ متشدقًا:

– آنسة سكالر، يا مخلوقتي العزيزة، هل أنتِ هنا؟ لم نكمل حديثنا بعد.

كانت هناك لحظة من السكون واضحة كالكريستال، ثم ارتفع المزلاج واندفع باب الكوخ نحونا، ارتطم كرسي جاين إلى الخلف حالما وقفت، ويدها مدسوسة في تنورتها، شبَّ باد على قدمه، يستشيط غضبًا، وشفتاه مزمومتان نحو الخلف، شعرت بجسدي كما لو أنني غطست في عسل بارد.

وقف هافيميير عند عتبة الباب، لكنه بالكاد كان الرجل نفسه الذي حضر اجتماعات الجمعية وزجرنا في حفلات عيد الميلاد، تجعدت بدلته الكتانية وأصبح لونها رماديًّا على إثر ارتدائها لعدة أيام، واحمرت بشرته، وشيء ما حيال ابتسامته انحرف على نحو مقزز، كانت يده اليسرى عبارة عن حزمة شاش مربوطة ومبللة ببقع بنية من الدماء، ويده اليمنى مكشوفة، لكن ليس هافيميير هو من جعل قدميَّ تتعثران، وأمد يدي بلا فائدة ناحية الباب؛ إنه

الشاب الذي سحبه جزئيًّا إلى جانبه، مضروبًا وفاقدًا للوعي، إنه صامويل زابيا.

رُبطت يدا صامويل إلى ظهره، وحُشر في فمه شاش قطني، وبشرته التي عادة ما تكون بلون الزبد البني، تحولت إلى أصفر شاحب، وعيناه مضطربتان في رأسه، تسكنهما ذعر الفريسة وهو أمر مألوف بالنسبة إليَّ، فإذا نظرت إلى المرآة بعد أن لمسني هافيميير، كنت لأرى التعبير نفسه على وجهي.

رمش صامويل بعينيه عبر كآبة الكوخ، مثبتًا نظره عليَّ وأطلق صوتًا أجش عبر الشاش، كما لو كانت رؤيتي لطمة خفية، تحركت جاين، وكل شيء حيالها ينذر بالعنف، زاوية كتفيها، طول خطوتها، يدها تبرز من تنورتها بشيء لامع بليد، لكن هافيميير رفع يده العارية ووضعها حول رقبة صامويل تحوم فوق دفء بشرته.

- حسنًا، الآن يا سيدتيَّ لنهدأ، لا أود القيام بشيء مؤسف.

ترددت جاين، تسمع التهديد لكن لا تفهمه، وفوجئت بصوتي:

- جاين، لا.

وقفت مرتجفة، أمد يدي المضمدة، كما لو أنني أستطيع منع جاين أو باد إذا اندفعا نحو هافيميير.

- إنه يشبه مصاصي الدماء، لا تدعيه يلمسك.

سكنت جاين بينما تشع هالة حمراء من التوتر.

أطلق هافيميير ضحكة قصيرة، كانت خبيثة مثل ابتسامته.

- أتعلمين، أشعر بالأمر عينه تجاه ذلك الحيوان الشنيع الذي يقف إلى جانبك، كيف نجا؟ أعرف أن إيفانز ليس ذكيًّا، لكن ظننت أن بمقدوره إغراق كلب كما ينبغي.

طوى الغضب أظفاري بداخل كفوفي، وجعل فكي يتصلب، اتسعت ابتسامة هافيميير التي لا تشبه الابتسامة:

- على أي حال، لقد أتيت لنكمل حديثنا يا آنسة سكالر، لأنك فوَّتِّ موعدنا السابق، على الرغم من أنني أعترف بتغير نيَّاتي الأصلية بعد قيامك بخدعتك السحرية تلك.

لوح بيده اليسرى الدامية المضمدة ناحيتي، وعيناه تومضان بالشر، رأيت عضلات رقبة صامويل تتحرك بينما يبتلع ريقه.

– من الواضح أنكِ مخلوق مميز، نحن جميعًا أشخاص موهوبون على نحو استثنائي، كلٌّ في طريقه الخاص، لكن لا أحد منا يستطيع شق فجوة في العالم من العدم، هل يعلم كورنيليوس؟ فهذا من شيمه تمامًا، يجمع أفضل الأشياء ويحبسها في تلك المقبرة التي يدعوها منزلًا.

هز هافيميير رأسه معتزًا:

– لكننا اتفقنا أنه لا يمكنه الاحتفاظ بكِ بعد الآن، سنود كثيرًا الحديث معك أكثر.

دارت عيناي حول الغرفة من جاين إلى باد إلى أصابع هافيميير البيضاء المحيطة برقبة صامويل مثل نصل سكين، كما لو أنني أحل معادلة حسابية مرارًا وتكرارًا، آملة في الحصول على نتيجة مختلفة.

– تعالي معي... فورًا ودون أي جلبة... ولن أمتص الحياة من فتى البقالة المسكين.

أراح هافيميير أصابعه برقة فاحشة على جسد صامويل، بدا الأمر مثل مشاهدة ألسنة اللهب تتلوى في الرياح، جسد صامويل بأكمله مسجىً ومرتجف، ويسحب أنفاسه بصعوبة عبر السدادة القطنية، وقدماه متدليتان.

– لا!

كنت أتحرك نحو الأمام أمد يدي إلى صامويل، ممسكة به جزئيًا بينما يتمايل إلى الأمام، ثم سقط كلانا على الأرض، جسد صامويل المرتعش انهار فوق ركبتيَّ، وتنبض ذراعي اليسرى إذ انشقت وأدمت الجروح التي بالكاد التأمت، نزعت السدادة القطنية من فمه حتى يتنفس بسهولة، لكن عيناه لا تزالان غامضتين ونائيتين. أظن أنني كنت أهمس بهذه الكلمات: (لا، لا يا صامويل من فضلك) لأن هافيميير أصدر أصوات استهجان:

- لا داعي للنوبات الهستيرية، فهو بخير تمامًا، حسنًا، ليس تمامًا، لم يتعاون معي كثيرًا عندما تعقبته الليلة الماضية، ولكنني كنت مصرًّا.

عادت الابتسامة التي لا تشبه الابتسامة:

- كل ما أمكنني فعله عندما اختفيتِ، آخذة معك قليلًا مني بالطبع، هو اتباع ملاحظة حبه الصغيرة التي تركتِها بقسوة في براتلبورو، والتي كتبها هو بحماقة على ظهر إيصال محلات بقالة عائلة زابيا.

تماسكي يا جانيوري، مثل هذا التصرف اللطيف الشجاع يدفع ثمنه بالمعاناة، ظننت أن الآثام فقط هي التي تستوجب العقاب.

- سيتعافى، إذا لم يصبه شيء آخر سيئ، بل سأترك الكلب وشأنه، وخادمتك أيضًا.

ترددت نبرة واثقة شبه عفوية في صوت هافيمير، تصورت جزارًا ينادي بقرة حرون لتصعد إلى دور المذبح.

- تعالي معي ببساطة الآن.

نظرت إلى الأسفل حيث وجه صامويل الشاحب، وباد وقدمه المجبورة، وجاين بلا عمل أو منزل بسببي، وخطر لي، بالنسبة إلى فتاة يُفترض أنها يتيمة، هناك عدد مفاجئ من الأشخاص مستعدون للتضحية بحياتهم لأجلها.

يكفي.

دفعت صامويل بعيدًا عن حضني بلطف قدر استطاعتي، ترددت ثم سمحت لنفسي بإبعاد خصلة شعر قاتمة مجعدة عن جبهته المتعرقة، لأنني ربما لن أحصل على فرصة أخرى، وأي فتاة ينبغي أن تستمتع بحياتها قليلًا.

وقفت.

- حسنًا.

كان صوتي أشبه بالهمس، ابتلعت ريقي:

- حسنًا، سأذهب معك، لكن لا تؤذهم فحسب.

كان هافيميير يراقبني، اعتلى وجهه نوع من الثقة القاسية، مثل قطة تتباهى بتعقب شيء ضعيف وصغير، مد يده العارية نحوي، بيضاء تبدو متعطشة على نحو ما، ثم تقدمت نحوه.

كان هناك صوت خربشة من خلفي، زمجرة، وثب باد بالقرب مني كشعاع من العضلات البرونزية، داهمتني فجأة ذاكرة تشبه شريط الأفلام لحفلة الجمعية التي أقامها السيد لوك عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، حينما تطلب الأمر تدخل العديد من ضيوف الحفلة وساقٍ لإخراج أسنان باد من قدم هافيميير، هذه المرة لا يوجد من يتدخل، أصدر هافيميير صوتًا حادًّا غير بشري، وترنح إلى الخلف، زمجر باد وفمه ممتلئٌ بلحم هافيميير وثبت قدمه كأنما يلعبان شد الحبل على حيازة يد هافيميير اليمنى، إن لم يكن باد مصابًا بالفعل، ولو لم تنطوِ قدمه المجبورة تحته؛ لربما فاز، لكنه تعثر مصدرًا أنينًا، فانتزع هافيميير يده لتتطاير الدماء السوداء، جذب كلتا يديه إلى صدره، اليسرى ملفوفة بالضمادات تفتقد ثلاثة أطراف أصابع شمعية، واليمنى مثقوبة وممزقة، ثم نظر إلى باد بتعبير يشير إلى حالة من الغضب أدركت بوضوح تام، أنه سيقتله، سيدفن يده المصابة في فرو باد ولن يتركه حتى يغادر الدفء جسده، وينطفئ بريق عينيه.

لكنه كان غير قادر على فعل ذلك، إذ صدرت طقطقة معدنية، مثل صوت أحجار صوان، ثم قصف رعدي مفاجئ.

ظهر ثقب صغير في بدلة هافيميير الكتانية، فوق قلبه مباشرة، نظر نحو الأسفل إليه، محتارًا، ثم نظر إلى الأعلى في تشكك تام، اتسع السواد حول الثقب في صدره فسقط، لم يكن انهيارًا مسرحيًّا أو محمودًا، بل أقرب إلى انهيار شمعة تذوي جانبيًّا أمام الباب.

سحب نفسًا مبللًا شنيعًا، كما لو كان يمتص قطران عبر ماصة، ثم نظر إلى عينيَّ وابتسم:

– لن يتوقفوا عن البحث عنكِ يا فتاة، أعدك...

ثم صوت امتصاص القطران مجددًا بينما يتهاوى رأسه مرتخيًا إلى الأمام:

– سيعثرون عليكِ.

انتظرت الغرغرة القادمة، ولكنها لم تخرج، بدا جسده أصغر نوعًا ما بينما يرقد هناك، مثل إحدى جثث العناكب المتيبسة التي تتجمع عند عتبة النوافذ.

استدرت متمهلةً، جاين تقف بقدمين منتصبتين على اتساعهما، وذراعاها مرفوعتان وثابتتان تمامًا، كلتا اليدين ملفوفتان بإحكام حول...

هل تعرف شعور رؤية شيء مألوف ولكن خارج سياقه؟ كأن عينيك لا يمكنهما فهم الأشكال التي تراها؟

لم يسبق لي رؤية مسدس إنفيلد سوى في حافظته الزجاجية على مكتب السيد لوك.

خرجت لفة من الدخان الزيتي من الفوهة عندما أخفضته جاين، تفحصت المسدس بتعبير بارد جامد.

– أنا متفاجئة قليلًا من أنه أطلق النار، بصراحة، إنه تحفة أثرية، ومع ذلك...

ارتسمت على وجه جاين ابتسامة شريرة مبتهجة، وفجأة رأيتها بالهيئة التي لا بد وأنها كانت عليها في يوم من الأيام، شابة أمازونية تكتشف متعة الصيد، قطة صيد تجوب أدغال عالم آخر...

– لطالما حافظ السيد لوك على مجموعاته في حالة جيدة للغاية.

من بين أربعتنا... خمستنا؟ هل هافيميير يُحتسب؟ بدا أن جاين الوحيدة التي تملك زمام جسدها، قفز باد مهتاجًا يدور بثلاثة أرجل في دوائر حول هافيميير، مصدرًا أنينًا ودندنة، من الواضح أنه يشتكي من التعرض للخداع في أثناء معركة جيدة، عدت إلى الوراء على ركبتيَّ بجوار صامويل الذي يتحرك بضعف، مقطبًا ومرتعشًا كما لو كان محبوسًا في معركة خلال كابوس ما، شعرت بنبضي يضطرم عبر ذراعي الدامية المضمدة، وفكرت على نحو جنوني، إنها ليست مثل قصصنا الورقية يا صامويل، ألا ينبغي أن تكون هناك المزيد من الدماء؟ المزيد من الجلبة؟

لم يبد القلق على جاين، أراحت يدًا باردة على وجهي ونظرت إلى عينيَّ بوجه متمعن مثل شخص يفحص دمية خزفية سقطت حديثًا بحثًا عن أي كسور.

أومأت جاين مرة واحدة، تشخيص مشكوك في صحته إذ شعرت أنني محطمة للغاية، وبدأت الحركة بعزم حول الكوخ. مدت ملاءة مضغها العث إلى جانب هافيميير، ودحرجت جسده داخلها بدقة بالغة، وسحبته خارج الباب، صدرت سلسلة من الأصوات الهائلة اللحمية المزعجة، بينما يغادر عتبة الكوخ، العتبات أماكن شديدة الخطورة، فكرت في هذا، بينما أصابني فواق هستيري جزئي من الضحك، ثم لا شيء سوى صمت جر شيء ثقيل عبر أشجار الصنوبر.

عادت جاين بدلوين صدئين من ماء البحيرة، وكُمَّاها مرفوعان إلى مرفقيها، تنظر إلى العالم مثل ربة منزل نشيطة أكثر منها قاتلة، رأتني ثم توقفت، متنهدة قليلًا:

– تفقدي صامويل يا جانيوري.

قالت ذلك برفق، وبدا لي أيضًا أنها تقول، تشجعي يا فتاة وربما كل شيء سيكون على ما يرام. أومأت مرتجفة قليلًا.

استغرق الأمر نصف ساعة لجعل صامويل مستقرًا حتى مع مساعدته المضطربة. أولًا، اضطررت إلى التشاجر معه حتى السرير وتملقه واعيًا على نحو كافٍ ليدخل إليه، ثم اضطررت إلى إقناعه أن يريح قبضته المحمومة على رسغي:

– لا بأس، أنت في أمان، هافيميير... حسنًا لقد مات، على أي حال... هذا مؤلم يا صام، اللعنة.

ثم أشعلت النيران ووضعت المزيد من الأغطية فوق قدميه اللتين لا تزالان ترتجفان.

صدر صوت خشب يكشط خشبًا بينما تجر جاين كرسيًا بجانبي، استخدمت جزءًا من تنورتها لتفرك يديها اللتين لا تزالان رطبتين، لتخلف بقعًا عبارة عن لطخات وردية شاحبة.

– عندما استأجرني والدك للاعتناء بكِ...

قالتها جاين برفق.

- أخبرني أن هناك أناسًا يتبعونه، يلاحقونه، قال إنهم قد يقبضون عليه ذات يوم، ثم يأتون لأجل ابنته الذي أبقاها في أمان قدر استطاعته.

توقفت جاين، وومضت عيناها تجاهي.

- أخبرته، بالمناسبة أن البنات لا يحتجن إلى البقاء في أمان، وأنهن يفضلن البقاء مع عائلاتهن، ولكنه لم يجب.

ابتلعت ريقي، أخمد بداخلي الطفل الذي أراد إما أن يدوس قدمها ويقول كيف ذلك؟ وإما أن أرمي نفسي في أحضان جاين وأنتحب بلا توقف، وقد فات الأوان على الخيارين.

وبدلًا من ذلك قلت:

- ولكن ماذا كان يفعل والدي؟ وإذا كان هناك أشرار غامضون يلاحقونه حول العالم، وأظن لا ينبغي أن أدير عينيَّ، لأنك أطلقت النار لتوك على مصاص دماء حقيقي، فمن هم؟

لم ترد جاين على الفور، مالت نحو الأمام والتقطت كتاب والدي المغلف بالجلد من الأرض بجوار السرير:

- لا أعلم يا جانيوري، لكن أعتقد أنهم ربما لحقوا بوالدك وسيأتون لأجلك، وأظن أنه ينبغي أن تنهي هذا الكتاب.

يا له من أمر مناسب أن أكثر الأوقات رعبًا في حياتي تتطلب مني القيام بما أجيده، وهو الهروب عبر كتاب، أخذت الأبواب العشرة الآلاف من يدها، وثنيت قدميَّ تحتي، ثم فتحت الكتاب على الفصل الأخير.

الفصل السادس

مولد جوليان سكالر

رجل غرق وأُنقذ (رجل مطارد وطريد) رجل يتأمل.

انجرف يولي إيان في الظلام الكدر، منفصلًا عن جسده، وشعر أن ذلك لمصلحة الجميع، وعزم على البقاء هائمًا لأطول فترة ممكنة، لم يكن الأمر سهلًا، فأحيانًا يتعكَّر صفو الظلام بأصوات غريبة وبإضاءة المصابيح، وبطلبات جسده المزعجة، وبالأحلام التي تركته لاهثًا ومستيقظًا في غرفة لا يعرفها، لمرة أو مرتين، سمع بكاءً مألوفًا ثاقبًا لطفل، وشعر بوخز في صدره مثل شظايا فخار تحتكُّ ببعضها، قبل أن يغوص عائدًا إلى غياهب النسيان.

لكن على نحو متقطع، بطيء، وجد نفسه يتعافى مُكرهًا، وفي فترة ما، مرت عليه ساعات كان يرقد فيها مستيقظًا ملء جفونه لكن بلا حراك أو صوت، كما لو أن الواقع نَمِرة ربما تتغافل عنه إذا كان هادئًا بما يكفي، لم يعد باستطاعته الهروب من الرجل الفظ عابس الهيئة الذي يحمل حقيبة جلدية سوداء ويأتي لفحص حرارته وتغيير الضمادة المربوطة حول جمجمته، لكن كان باستطاعته أن يتجاهل أسئلته، وأن يغلق فكه أمام أوعية الحساء الساخنة الموجودة على الطاولة الجانبية، وأيضًا يمكنه تجاهل المرأة الصغيرة البدينة التي تندفع أحيانًا لتزعجه بشأن ابنته، هل كان أبًا؟ لماذا أخذها لأعلى ذلك

الجبل بمفردها؟ أين أمها؟ وذلك عبر أساليب غليظة لكن فعالة، إذ كان يضغط جمجمته المصابة أمام المرتبة حتى يبتلعه الألم والظلام مرة أخرى.

(من بين الأشياء الكثيرة التي تطاردني حيال جُبني، ربما أسوأها، هو معرفة ما ستقوله والدتك لي إذا رأتني حينها، تشبعني فكرة رحيلها برضًا مرير، لذا لا أستطيع أن أخذلها).

استيقظ يولي بعد عدة أيام أو أسابيع ليجد شخصًا غريبًا يجلس إلى جانب سريره، رجل يبدو عليه الثراء، يرتدي بدلة سوداء، ويبدو مشوشًا قليلًا في عينيه المحدقتين، قال الرجل بسرور:

- صباح الخير يا سيدي. شاي؟ قهوة؟ بعضًا من البربون الخبيث الذي يتجرعه هؤلاء الهمج في الجبال؟

أغلق يولي عينيه.

- لا؟ اختيار حكيم يا صديقي، هناك شيء يشبه سم الفئران فيه.

سمع يولي صوت تبول وطرطشة ماء بينما يصب الغريب لنفسه بعض الشراب.

- المالك هنا أخبرني أنك لا تزال تحت تأثير الحادثة، ولم تقل كلمتين منذ أن أحضروك إلى هنا، ويضيف أنك تلوث أفضل غرفة لديه، على الرغم من أنني أجد كلمة «أفضل» مطاطية للغاية في هذه الحالة.

لم يجب يولي.

- وبالطبع فتش حاجياتك، أو على الأقل الأشياء التي يمكن إخراجها من التحطم العجيب على قمة الجبل؛ حبل، قماش، سمك مملح، وبعض الملابس الغريبة، وحزم كثيرة من الأوراق المكتوبة بلغة غير مفهومة كما يبدو، أو شفرة. المدينة منقسمة نصفين بين هؤلاء الذين يعتقدون أنك جاسوس أجنبي تراسل الفرنسيين، باستثناء من سمع عن جاسوس ملون؟ وهؤلاء الذين يظنون أنك مجنون بكل معنى الكلمة قبل إصابة رأسك، وفي رأيي، أنا أشكك في الاحتمالين.

بدأ يولي يضغط المرتبة المحشوة بالقش برأسه. اندفعت تكتلات نجمية صغيرة فوّارة أمام جفنيه.

– يكفي يا ولد.

تغير صوت الرجل، نازعًا جلده المتملق كأنما يُسقط معطفًا من الفرو على الأرض.

– هل خطر ببالك أن تسأل لماذا تنام في غرفة لطيفة دافئة، مستفيدًا من المهارات المشكوك فيها لدكتور محليٍّ بدلًا من أن تموت ببطء في الشارع؟ هل ظننت أنه إحسان سكان المدينة؟

أطلق ضحكة قصيرة متهكمًا:

– الإحسان لا يشمل السود الفقراء الموشومين أو أيًّا من تكون، أخشى أن إرادتي... ومالي... هما ما يبقيانك مرتاحًا، لذا أظن...

وشعر يولي بقبضة غير ودودة تدير ذقنه إلى الغريب:

– أنك مدين لي بانتباهك الكامل.

لكن يولي وجد نفسه أبعد ما يكون عن الحدود الاعتيادية للأعراف والمبادلة الاجتماعية، وأول فكرة خطرت على باله أن طريقه نحو الظلام الكامل سيكون أسرع دون تدخل هذا الرجل، واصل إغلاق عينيه.

وساد الصمت لوهلة.

– أنا أيضًا أدفع أسبوعيًّا لامرأة تدعى السيدة كاتلي، هل يجب أن أتوقف عن فعل ذلك حتى يُلقى بابنتك في قطار إلى دنفر وتُحبس في ملجأ حكومي، حيث ستكبر لتصبح إما امرأة يغزوها القمل وإما عاهرة، وإما ستموت شابة من تعاطي المخدرات والوحدة، ولن يأبه أحد في العالم بأي الأسباب ماتت.

اخترق صدر يولي شعور شظايا الفخار ذلك مرة أخرى، مصحوبًا بصرخة صامتة في جمجمته بدت مشابهة للغاية لصوت أدي تقول: «على جثتي»، فتح يولي عينيه، وشعر أن ضوء شمس الغروب الباهت مثل مئات من الإبر المغروسة في جمجمته، في البدء، كان كل ما استطاع فعله هو أن يرمش بعينيه ويلهث، وببطء اتضحت ملامح الغرفة، صغيرة، قذرة ومفروشة بخشب صنوبر خام، وسريره عبارة عن مجموعة من الملاءات القذرة، وأطرافه

تبرز من هذا التشابك ضعيفة هزيلة، بزوايا غير منظمة عشوائية كضحايا فيضان ما.

كان الغريب يراقبه، عيناه شاحبتان كالغسق، وفي يده كأس من زجاج اليشم، لعق يولي شفتيه المتشققتين ثم سأل:

– لماذا؟

خرج صوته أضعف وأغلظ من أي وقت مضى، كما لو أنه استبدل برئتيه منافخ حديدية صدئة.

– لماذا تصرفت بشهامة بالغة من أجلك؟ لأنه تصادف وجودي في المنطقة لدراسة بعض الاستثمارات التعدينية، السوق مشبعة بالمناسبة ولا أنصح بهذه الاستثمارات الآن، وسمعت شائعات عن رجل مجنون موشوم تحطمت سفينته على قمة جبل، يهذي عن أبواب وكواكب أخرى، وامرأة تدعى، إن لم تكن مصادري خاطئة، أديلايد.

انحنى الرجل إلى الأمام، وأصدر قماش بدلته الفاخر حفيفًا.

– لأنني أجمع الأشياء الفريدة والثمينة، وأظن أن كلتا الصفتين تنطبق عليك.

– إذًا...

أخرج كأسًا أخرى، كوبًا قذرًا لا يشبه كأسه الخضراء المنقوشة، ثم ملأها بذلك السائل اللزج.

– ستجلس وتشرب هذه الكأس، وسأصب لك المزيد وستشربه أيضًا، ثم ستخبرني الحقيقة، كلها.

عند هذه الكلمات الأخيرة، نظر الرجل في عينَيْ يولي وثبت نظره عليهما.

اعتدل يولي وتناول المشروب، عملية تشبه إلى حد كبير ابتلاع أعواد ثقاب مشتعلة، وأخبره قصته.

– جئت إلى هذا العالم للمرة الأولى عام 1881، وفقًا لتقويمكم، وقابلت فتاة تدعى أديلايد لي لارسن.

غاب صوته لوهلة ثم عاد هامسًا:

- أحببتها منذ ذلك اليوم فصاعدًا.

في البداية تحدث يولي ببطء، بجمل بسيطة ومجردة، ولكنه فجأة وجد نفسه متعثرًا في فقرات وصفحات، حتى أصبح يتكلم لاهثًا في مسار متواصل، لم ينتبه تحديدًا إذا ما كان شعورًا جيدًا أو سيئًا، لكنها الحتمية فحسب، وكأن هاتين العينين الباهتتين حجران توأمان يجثمان على صدره، ويجبرانه على البوح بالكلام.

أخبر الرجل الغريب حول إغلاق الباب وتفانيه اللاحق لدراسة الأبواب بأسلوب علمي، وعن استكشافات أديلايد ولم شملهما على شاطئ مدينة بلم، وعن ابنتهما، ورحلة عودتهم إلى باب الجبل، وانهيار العالم.

- والآن لا أعرف... لا أعرف ماذا أفعل أو إلى أين أذهب، يجب أن أعثر على الباب الذي يقودني إلى الوطن، لا بد أن أعرف إن كانت نجت، أنا متأكد من أنها نجت، لطالما كانت قوية... لكن طفلتي، ابنتي جانيوري...

- توقف عن النحيب يا ولد.

أطلق يولي حازوقة متوقفًا، ويده تتقلب في حجره، يفرك بها الكلمات على ذراعه -باحث، زوج، أب- متسائلًا أي من هذه الأشياء لا يزال حقيقيًّا.

- أنا، كما قلت سلفًا، أهوى الاقتناء، ولذلك أوظف حفنة من العملاء الميدانيين للتجول في جميع أنحاء العالم ليجمعوا أشياء مثل منحوتات وأوانٍ وطيور فريدة من نوعها، وما إلى ذلك، والآن يبدو لي أن هذه... الأبواب، هل هذا ما تطلقه عليها؟ قد تقود إلى أشياء ذات ندرة خاصة، قد تصل حتى إلى ما هو أسطوري.

مال الرجل نحو الأمام، يشع شراهة:

- أليس ذلك صحيحًا؟

طرف يولي عينيه في وجهه بفتور:

- أظن... أنه صحيح، في أبحاثي لاحظت أن الأشياء العادية في عالم قد تعتبر إعجازية في عالم آخر، نظرًا إلى الانتقال في السياق الثقا...

- نعم، بالضبط.

ابتسم الرجل، واستند إلى الوراء، وأخرج عقب سيجارة سميك من جيب معطفه، ثم فاحت رائحة الكبريت الناتجة عن إشعال عود ثقاب ورائحة التبغ الكريهة التي يميل لونها إلى الزرقة.

- حسنًا، يبدو لي أننا قد نعقد اتفاقًا مفيدًا لكلينا يا ولدي.

نفض عود الثقاب وألقى بالرفات على الأرض:

- أنت في حاجة إلى مسكن ومأكل وعمل و... إن لم أكن مخطئًا، تمويل وفرصة لتبحث عن طريق للعودة إلى زوجتك التي من المرجح أنها رحلت.

- زوجتي لم...

تجاهله الرجل.

- اعتبر الأمر قد تم، كله، السكن والإقامة، ومصروف غير محدود للبحث والسفر، تستطيع البحث عن بابك بالقدر الذي تحبه وفي المكان الذي تحب، ولكن في المقابل...

ابتسم، تلمع أسنانه بلون عاجي عبر دخان السجائر.

- ستساعدني في تشكيل مجموعة تجعل سميثسونيان تبدو مثل سقيفة مقبرة جماعية، اعثر على الأشياء النادرة والغريبة والمستحيلة والتي تنتمي إلى عوالم أخرى بل وذات القوى الخاصة، وأحضرها إليَّ.

ركزت عينا يولي على الرجل بوضوح أكبر من ذي قبل، ووصلت نبضاته إلى عنان السماء بطفرة أمل مفاجئة، أقسم برفق بلغته.

- وربما... مرضعة تسافر معي؟ لفترة قصيرة فقط، لأجل ابنتي الصغيرة...

أطلق الرجل زفيرًا عبر شاربه الضخم:

- حسنًا، وبالنسبة إلى هذا الأمر... هذا العالم ليس آمنا للغاية للفتيات الصغيرات وستكتشف ذلك قريبًا، أفضل لو أنها تبقى معي، منزلي واسع و...

سعل الرجل، مشيحًا بنظره عن يولي وبدلًا من ذلك ثبت نظره على حائط بعيد للمرة الأولى...

- ليس لديّ أطفال، لن يشكل الأمر أي متاعب.

أعاد النظر إلى يولي:

- ما رأيك يا سيدي؟

لم يستطع يولي الحديث لوهلة، كان العرض وكأنه كل شيء قد يتمناه؛ ما يكفي من الوقت والمال للبحث عن باب العودة إلى المكتوب، ومكان آمن لجانيوري، وطريق نحو الأمام للخروج من الظلام، لكنه وجد نفسه مترددًا، فبمجرد زراعة اليأس، قد يصعب اقتلاعه إلى حد ما.

سحب يولي نفسًا ومد يده بالطريقة التي علمتها أدي له، صافحه الغريب بابتسامة كشفت عن عدد أسنان أكبر من اللازم.

- وما اسمك أيها الفتى العزيز؟

- ... جوليان، جوليان سكالر.

- كورنيليوس لوك، يسعدني وجودك معنا يا سيد سكالر.

عندما كان شابًّا يعيش في عالم المكتوب، بحث يولي عن الأبواب بثقة غير محدودة لشاب واقع في الحب، يظن أن العالم سيحني نفسه حتى يتواءم مع رغباته، مرت أوقات بعد أسابيع عقيمة من التفتيش في سجلات مدينة بعيدة، وعيناه تؤلمانه من عصر نفسهما حول نصف دزينة من اللغات، أو بعد أميال من السير عبر سفوح جبال تشبه الغابات دون أدنى علامة تشير إلى وجود باب، ساور يولي الشك، انسلت أفكار خائنة إلى رأسه حيث يرقد في ذلك المكان غير المحصن بين النوم واليقظة، أفكار مثل: ماذا لو تقدم بك العمر في أثناء بحثك عنها ولم تجدها قط؟

ولكن بحلول الصباح تتبخر هذه الأفكار مثل الضباب في أثناء الغسق وترحل دون أن تخلف أي أثر، ينهض ببساطة، ويواصل البحث.

الآن، وأنا مُحاصر في عالم أديلايد، أبحث بيأس رجل عجوز أدرك أن الوقت شيء ثمين محدود يدق مثل عقرب ثوانٍ في صدري، بعضًا من ذلك الوقت، قضيته فحسب في تعلم كيفية الإبحار والتنقل في هذا العالم، ذلك المكان الذي وجدته محيرًا، وأحيانًا قاسيًا، وعدائيًّا للغاية، توجد حدود وقواعد عن الثروة والمكانة والحدود وجوزات السفر، والبنادق والحمامات العامة، ولون

بشرتي، وكله يتغير وفقًا لمكاني وزماني، وهذا في مكان ما، ففي بعض الأماكن يكون من المسموح تمامًا زيارة مكتبة الجامعة واستعارة بعض الكتب، لكن التصرف نفسه في مكان مختلف ربما يستدعي طلب السلطة المحلية التي تدين سلوكي وتعتقلني وترفض الإفراج عني حتى يعتذر السيد لوك ويحول مبلغًا من المال لقسم شرطة مقاطعة أورليانز، ربما تحت ظروف بعينها، قد أقابل باحثين آخرين في مجالي نفسه، ونناقش القيمة الأثرية لصناعة الأسطورة، وفي أزمنة أخرى أتلقى معاملة الكلب الذكي الذي أتقن اللغة الإنجليزية، احتفى بي الأمراء الفارسيون نظرًا إلى اكتشافاتي، وبُصق عليَّ في الشوارع لأنني فشلت في النظر جانبًا، دعيت لتناول الطعام على مائدة كورنيليوس، لكن لم أتلقَّ دعوة إلى جمعيته الأثرية قط.

ولأكون منصفًا، لقد رأيت الجمال والعجائب في هذا العالم، مثل مجموعة فتيات يطيِّرن طائرات ورقية في غوجارات، ويتحركن في ضباب من اللونين الوردي والفيروزي، ومالك الحزين يحدق إليَّ بنظرته الذهبية على ضفاف المسيسيبي، وجنديان شابان يتسابقان في ممر معتم في سيباستوبول، إنه ليس عالمًا شريرًا تمامًا ولكنني لن أنتمي إليه أبدًا.

لقد أضعت وقتًا أطول في تنفيذ ما يخصني من صفقة كورنيليوس، وكم اتضح أنها مساومة شيطانية، ربما أوراقي على الحدود تحدد مهنتي بأنني باحث استكشافي أثري، لكنهم قد يقولون على نحو أكثر دقة سارق قبور أنيق، ذات مرة سمعت الإيجور في الصين يشيرون إليَّ باسم طويل ومعقد يعج بالحروف الاحتكاكية وتجميعات من الحروف الساكنة لا يمكن نطقها، وتعني ملتهم القصص.

هذا ما أنا عليه، هذا ما تحولت إليه، جامع قمامة يكشط الأرض، عابثًا بأكثر أماكنها جمالًا وسرية، وحاصدًا كنوزها وأساطيرها، وملتهمًا قصصها، لقد أزلت أقسامًا من فن مقدس من جدران المعابد، وسرقت جرارًا وأقنعة وصولجانات ومصابيح سحرية، ونبشت مقابر وسرقت جواهر من أيدي الموتى في هذا العالم ومئات غيره، كل ذلك لأجل مجموعة رجل ثري على الطرف الآخر من العالم.

يا له من أمر شائن أن يتحول باحث من مدينة نين إلى ملتهم قصص! ماذا ستقول أمك؟

قد أرتكب ما هو أفظع من ذلك لأعود إليها، لكن الوقت ينفد مني، ووجهك كأنه ساعة رملية، في كل مرة أرجع إلى منزل لوك، يبدو الأمر كأنني غبت لعقود وليس مجرد أسابيع، ازدهرت أعمار كاملة وخفتت أخرى بداخلك، شهور من التجارب والانتصارات السرية نحتت ملامحك بمهارة فأحالتك شخصًا بالكاد أستطيع التعرف عليه، لقد أصبحت طويلة وصامتة، يصاحبك سكون مريب لظبية قبل أن تركض منطلقة.

أحيانًا عندما أكون مرهقًا أو ثملًا للغاية ولا أستطيع دفع أفكاري بعيدًا عن الأماكن الخطرة، أتساءل ما الذي ستعتقده أمك إذا رأتك، فملامحك تشبهها بوضوح وعلى نحو مؤلم، لكن روحك مدفونة بعمق تحت السلوك الجيد وعبء الاغتراب الخفي، لقد تمنت لك حياة مختلفة، حياة حرة للغاية حد الخطورة، بلا قيود، وكل باب ينتصب مفتوحًا أمامك.

بدلًا من ذلك، منحتُكِ منزل لوك وكورنيليوس وتلك المرأة الألمانية التي تنظر إليَّ كأنني ملابس متسخة. لقد تركتك وحيدة، يتيمة، جاهلة بعجائب وفظائع الأشياء المحتشدة تحت وجه الواقع، يقول كورنيليوس إن ذلك لمصلحة الجميع، يقول إنه ليس أمرًا صحيًّا للفتيات الصغيرات أن ينشأن ورؤوسهن ممتلئة بالأبواب والعوالم الأخرى، وإن الوقت ليس مناسبًا، وبعد كل ما فعله، من توفير فرصة عمل لي، وتربيتك كأنك ابنته، من أنا لأعترض؟

ولكن إذا حدث وعثرت على والدتك مرة أخرى، هل ستسامحني؟ هذا أمر لا أدع نفسي تفكر بشأنه، سأبدأ من جديد على صفحة ناصعة البياض، حتى لا أرى الكلمات تحملق إليَّ من الصفحة.

الرجال أمثالي لا يسعهم رؤية أي شيء خارج حدود ألمهم، فأعيننا تتجه نحو دواخلنا، مفتونة بمنظر قلوبنا المكسورة، ولهذا السبب لم ألحظ لمدة طويلة، أن الأبواب تُقفل، أو ربما على نحو أكثر دقة: هناك من يغلق الأبواب. كان ينبغي أن أفهم الأمر سابقًا، لكنني كنت أكثر هوسًا في السنوات السابقة، مقتنعًا أن الباب التالي سيفتح على بحار وطني اللازوردية، تعقبت أساطير وقصصًا وشائعات، تحريت الاضطرابات والثورات، وكثيرًا ما عثرت

على أبواب في جذورها الملتوية، ولكن أيًّا منهم لم يعدني إليها، لذا هجرتهم جميعًا بأسرع ما يمكنني، أستغرق الوقت فقط في الكسح والنهب، ثم وضعت كنوزهم المسروقة في نشارة، وكتبت على الصندوق طريق شامبلان، شلبورن، فيرمونت، واتجهت نحو الباخرة التالية، والحكاية التالية، والباب التالي.

لم أطل البقاء بما يكفي لأرى ما سيحدث لاحقًا، حرائق غابات غير مبررة، تهدم مباني تاريخية دون سابق إنذار، وفيضانات، وتطور عقاري، وانهيارات الكهوف، وتسرب الغاز، وانفجارات، كوارث بلا سبب أو مصدر حولت الأبواب إلى ركام ورماد، وكسرت الروابط السرية بين العوالم.

وفي نهاية المطاف، عندما أدركت النمط، بينما أجلس في شرفة فندق أطالع مقالًا في فانكوفر صن عن انهيار منجم في مكان ما حيث عثرت على باب قبل أسبوع فقط، لم ألق باللوم على العامل الإنساني، لمتُ الوقت، والقرن العشرين الذي بدا عازمًا على تدمير ذاتي يشبه ثعبان الأوروبورس، ظننت أن الأبواب ربما لا تنتمي إلى العالم، وكل الأبواب مُقدر لها أن تُغلق في نهاية المطاف.

كان ينبغي أن أعرف أن الأقدار هي قصة جميلة نحكيها لأنفسنا، يتوارى تحتها فحسب الأشخاص والاختيارات السيئة التي نسلكها.

ربما كنت أعرف الحقيقة حتى قبل امتلاكي دليلًا، شعرت بالشكوك تسري بداخلي، أقلق من أن الغرباء يراقبونني في مطاعم بانغالور، وأسمع أصوات خطوات تلاحقني بين ممرات ريو دي جانيرو، في ذلك الوقت كنت قد بدأت كتابة خطاباتي إلى كورنيليوس بشفرة من اختراعي، مقتنعًا بأن منظمة سرية ما تعترض تقاريري، ولم يشكل ذلك أي فارق، الأبواب لا تزال تُغلق، تباحثت في الأمر مع نفسي، لماذا يهم كثيرًا تدمير هذه الأبواب؟ لقد كانت جميعًا الأبواب الخاطئة، لم يأخذني أحدها إلى أدي، إلى منزلنا الحجري فوق مدينة نين، إلى تلك اللحظة عندما صعدت إلى التلة ورأيتكما متكورتين على اللحاف، ذهبيتين، نقيتين، كاملتين، لكن حتى في أعماق رثائي لذاتي، خطرت على بالي فكرة أخرى ماذا سيحدث لعالم بلا أبواب؟ ألم أتوصل إلى أن الأبواب تثير التغيير، عندما كنت باحثًا أكثر مني محض نابش قبور؟

افترضت أن الأبواب هي عبارة عن مساحات حيوية، تسمح للغرائب والعجائب بالتدفق حرة بين العوالم.

أظن أنني أرى بالفعل تأثير غيابها عن هذا العالم، إنه في حالة جمود خفية، وفتور كمنزل تُرك مغلقًا طوال الصيف، هناك إمبراطوريات لا تغيب عنها الشمس، وسكك حديدية بين القارات، وأنهار من الثروة لن تجف أبدًا، وآلات لن يصيبها الإنهاك أبدًا، إنه نظام أشد اتساعًا وضراوة من أن يتعرض للتفكك أبدًا، مثل إله أو آلة، تبتلع الرجال والنساء بالكامل ثم تتجشأ دخانًا أسود في السماء، وكما أخبروني، يُسمى ذلك بالحداثة التي تحمل التطور والرخاء في معدتها الفحمية، لكن ما أراه مجرد صلابة وكبت ورغبة مخيفة في مقاومة التغيير.

أظنني أعرف بالفعل ما سيحدث لعالم بلا أبواب، لكن التوقف عن البحث عن الأبواب سيعني التوقف عن محاولة العثور على أمك، وأنا لا أستطيع، لا أستطيع ذلك.

بدأت إعادة تتبع خطوات أدي التي سارت فيها منذ أكثر من عقد، بناء على نظرية أن الباب المؤدي إلى عالم المكتوب ربما يكون مخبأ في عالم آخر، لم يكن من السهل دائمًا جمع القصص التي أخبرتني بها مع الحكايات التي أسمعها في الشوارع المزدحمة أو الحانات الحقيرة المشوشة الغارقة في الخمر، لكنني كنت مليئًا بالإصرار، عثرت على باب سان أور، وباب هاييتي، وباب الفقمات، ودزينة من الأبواب الأخرى، اختفت جميعها الآن، إما أنها احترقت وإما انهارت وإما أتلفت وإما صارت طي النسيان.

استمر الأمر على هذا الوضع حتى عام 1907 عندما لمحت مطارديَّ، كنت قد عثرت أخيرًا على الباب اليوناني، كتلة حديدية باردة في كنيسة مهجورة، ذلك الباب الذي قاد أدي نحو عالم وصفته ذات مرة بأنه «حفرة سوداء من الجحيم»، لم أكن مهتمًا بتكرار تجاربها -بشهادتها قالت إن قائدة ما ذات أعين ثلجية كانت على وشك اختطافها- لذا لم أطل البقاء بداخله، تجولت لأقل من يوم، أزحف خائفًا عبر الثلج، لكن لم أجد شيئًا حيًّا أو ثمينًا يستحق السرقة، كان هناك فحسب أعمدة لا تنتهي من أشجار الصنوبر الأسود وأفق

بعيد بلون النحاس الأحمر، وبقايا محطمة لمدينة ما أو حصن، لو كان هناك أي باب في ذلك المكان، لبحثت عنه فورًا.

زحفت عائدًا عبر الباب الحجري إلى داخل كنيسة سانت بيتر الملطخ بالعفن، وبعدما خرجت مرتعشًا بانقباضات مضطربة، مستنشقًا رائحة الملح والليمون التي تفوح من مساء متوسطي، لاحظت شيئًا يقف على الأرضية المبلطة التي لم تكن موجودة سابقًا، لاحظت زوجًا من الأقدام ينتعل حذاءً أسود.

كانت تخص رجلًا طويلًا، كثيف الحاجبين يرتدي زيًّا بأزرار نحاسية وقبعة دائرية لرجل شرطة يوناني، لم يبدُ مندهشًا على نحو خاص من رؤية رجل غريب تغطيه الثلوج يزحف خارجًا من الحائط، لكن بدا عليه الانزعاج قليلًا.

ارتجفت حتى أخمص قدميَّ.

- من... ماذا تفعل هنا؟

هز كتفيه وفرد يديه:

- تمامًا مثلما أشاء.

خرجت لغته الإنجليزية حلقومية تميزها لكنة.

- على الرغم من أنني أتيت باكرًا حسبما أظن.

تنهد وتظاهر بتمشيط مقعد يجلس عليه وكأنه ينتظر.

ابتلعت ريقي:

- أعرف لماذا أنت هنا، لا تحاول التظاهر، ولن أدعك تفعل ذلك، ليس هذه المرة...

مزقت ضحكته الساخرة حديثي الجريء.

- أوه، لا تكن أحمق يا سيد سكالر، عد إلى ذلك الكوخ الصغير على الشاطئ، اشتر لنفسك تذكرة باخرة في الصباح، وانس هذا المكان، اتفقنا؟ لقد انتهى عملك هنا.

كانت كل تخيلاتي الجنونية تتحقق أمامي، لقد عرف اسمي، والكوخ الذي أجرته من صياده وربما عرف بشأن طبيعة أبحاثي الحقيقية.

- لا، لن أدع ذلك يحدث مجددًا...

لوح الرجل رافضًا ما أقوله، كأنني طفل يقاوم وقت النوم:

- بلى ستفعل، سترحل دون أي جلبة، ولن تخبر أحدًا، ثم ستتشم الباب التالي لأجلنا مثل كلب مطيع.

- ولماذا سأفعل ذلك؟

ارتفع صوتي وأصبح مشدودًا، وتمنيت وجود أديلايد حتى كدت أتمزق، فلطالما كانت الطرف الشجاع بيننا.

راقبني بعينين تشوبهما الشفقة:

- الأطفال...

تنهد.

- يكبرون بسرعة، أليس كذلك؟ ستبلغ جانيوري الثالثة عشرة من عمرها في غضون أشهر قليلة.

وقفنا صامتين بينما استمعت إلى صوت دقات قلبي وتفكيري فيكِ، وأنت تنتظرينني على بعد محيطٍ. غادرت، واشتريت تذكرة باخرة في الصباح التالي وابتعت صحيفة من منفذ الشؤون الأجنبية في فالنسيا بعد ثلاثة أيام. في الصفحة السادسة، عمود صغير مطبوع بلغة يونانية مشوشة، عن انهيار صخري مفاجئ وبلا أسباب عند ساحل مدينة كريت، لم يصب أي شخص بأذى، لكن دُفنت طريق وتحولت كنيسة قديمة شبه منسية إلى ركام، وقال رئيس الشرطة المحلية واصفًا الحدث «مؤسف ولكن حتمي».

ستجدين في الأسفل نسخة جزئية لقائمة مسجلة في ملاحظاتي في شهر يوليو من عام 1907، إنها لغريزة الباحث، أن يتفاعل مع موقف غامض وخطير بالجلوس إلى مكتبه وكتابة قائمة، أتساءل ماذا كانت والدتك ستفعل؟ سيتخيل الإنسان الكثير من الضوضاء والاضطراب، وربما عددًا من الجثث، عنونت الصفحة بـ «ردود متنوعة على الموقف المستمر بخصوص عملية غلق

الأبواب الشائنة والأخطار التي من المحتمل أن تصيب أفراد العائلة» ووضعت تحتها عدة خطوط.

1 - فضح الخطة، نشر الخطة عند هذا الحد (مراسلة التايمز؟ نشر إعلان؟) وإدانة نشاطات المنظمة المشبوهة.

مزايا الخطة: سرعة تنفيذها، الحد الأدنى من الاضطراب لحياة جانيوري.

عيوبها: احتمالية فشلها الذريع (هل ستنشر الصحف استنتاجات دون أدلة؟)، خسارة ثقة كورنيليوس وحمايته، خطر انتقام -عنيف- من أطراف مجهولة.

2 - الذهاب إلى كورنيليوس، وشرح مخاوفي كاملة وطلب حماية إضافية لجانيوري.

مزايا الخطة: قدرة موارد لوك الهائلة على توفير درجة عالية من الحماية.

عيوبها: لم يظهر أي تعاطف مع مخاوفي حتى هذه اللحظة، استخدم مصطلحات مثل أوهام جنونية وهراء سخيف.

3 - نقل جانيوري إلى مكان خفي آمن، إذا اختبأت في حصن آخر بهدوء شديد، ربما لن يستطيع ملاحقيَّ العثور عليها.

مزايا الخطة: ستبقى جانيوري آمنة.

العيوب: صعوبة العثور على مكان آمن، وصعوبة التحكم في تعلق كورنيليوس بجانيوري، غموض احتمالية نجاح أو فشل الخطة بالنسبة إلى أمان «جيه»، والتسبب بأقصى حد من الاضطراب لحياتها اليومية، أظن أنها تحب منزل لوك على الرغم من كل شيء. في صغرها، كنت كثيرًا ما أصل لأجد مربية منزعجة وابنة هاربة، ونعثر عليها بعد ساعات تبني قلاعًا رملية على شاطئ البحيرة، أو تلعب ألعابًا بلا نهاية مع ابن البقال. الآن أجدها تجوب الأروقة بيد واحدة تمررها على الألواح الخشبية القاتمة كأنها تداعب العمود الفقري لوحش عملاق ممتد أو متكورة مع كلبها في مقعد منسي في العلية. هل سيكون من الصواب سرقة المنزل الوحيد الذي لم تعرف غيره، إذ سلبتها الكثير من الأمور بالفعل؟

4 - الهرب، واللجوء إلى عالم آخر، يمكنني العثور على باب والعبور من خلاله، وأن أصطحب جانيوري وأبني حياة جديدة لكلينا في عالم أكثر أمانًا وإشراقًا.

مزايا الخطة: حماية مطلقة من مطارديّ.

عيوبها: انظر أعلاه، أنا بعيد عن اليقين بأن العوالم كلها متصلة ببعضها، إذا فررنا إلى عالم آخر، هل سأتمكن من العثور على عالم المكتوب مجددًا؟ وإذًا سيتوجب على أدي شق طريق عودتها إلى المنزل، هل ستتمكن من العثور علينا؟

لا يوجد المزيد من الخطط، سأتابع السير على النحو السابق لكن هذا هو المسار الذي اخترته في نهاية المطاف، اكتشفت أن الحياة تنطوي على زخم من نوعٍ ما ثقل متراكم من القرارات التي يصبح من المستحيل تغييرها، واصلت السرقة، أنتزع القصص بعيدًا وأغلفها حتى يستطيع رجل ثري التفاخر أمام أصدقائه الأثرياء، تابعت بحثي اليائس، ألاحق القصص وأستكشف الأبواب، استمررت في السماح لهم بالإغلاق من خلفي، توقفت عن النظر فوق كتفي. غيرت ثلاثة أشياء فقط، الأول يتضمن بابًا عاجيًّا في جبال شرق إفريقيا البريطاني ومواجهة وشيكة غير مريحة مع بندقية لي ميتفورد، انتهت بتزوير جواز سفر وشراء تذاكر قطار للآنسة جاين إيريمو، ليس من الضروري إعادة سرد قصة لقائنا الكاملة هنا، لكن فقط للإشارة إلى أنها واحدة من أكثر الأشخاص الذين قابلتهم جرأة وعنفًا على نحو عفوي على الإطلاق، وأنني تسببت لها في كدر غير متعمد ولكنه شنيع، كما أنها تتعاطف على نحو خاص مع موقفك، وأظن أنها ستحميك باقتدار أكثر مما فعلت، ينبغي أن تسأليها عن القصة كاملة ذات يوم.

والتغيير الثاني هو العثور على طريق الهروب لكليكما، ملجأ أتمنى ألا تستخدماه أبدًا، لن أصف أي تفاصيل هنا، خشية وقوع عين متلصصة غير ودودة على هذا الكتاب، باستثناء القول بأن هناك بابًا واحدًا عثرت عليه ولم يُغلق بعد، سافرت تحت اسم مستعار لأكتشفه وأحرقت ملاحظاتي وأوراقي عندما فعلت، ألقيت بلوم عودتي المتأخرة على البحار العاصفة، وأظن أنني بحلول ذلك الوقت، أصبحت كثير الغياب عن منزل لوك لدرجة أن كورنيليوس

وأنتِ لم تسألا عن شيء آخر، تحدثت عن هدفي الحقيقي إلى شخص حي واحد، إذا تحتم عليكِ العثور على مهرب أو مكان للاختباء من أيٍّ ممن يطاردونني، اتبعي جاين. التغيير الثالث هو هذا الكتاب الذي تحملينه الآن بين يديك -افتراضًا أنني غلفته، وإلا فإنني أشير إلى كومة من الأوراق المكتوبة على آلة كاتبة ومربوطة معًا بخيوط تعبئة وجلد أفعى طائرة مسلوخ، وجدته في عالم كريه بشدة عبر باب في أستراليا-.

أمضي أمسياتي الآن أجمع الأجزاء المتفرقة والهائمة من قصتي، يجب أن أدعوها قصتنا، وأقودها نحو خط مستقيم، وأسجلها بدقة قدر ما أستطيع على الورق، يتطلب الأمر مجهودًا، وفي بعض الأوقات، أكون شديد الإرهاق من الطواف العقيم خلال النهار في الأمازون أو جبال الأوزارك ولا أستطيع كتابة سطر واحد قبل النوم، وفي أحيان أخرى، أمضي اليوم بأكمله عالقًا في خيمتي بسبب الطقس السيئ، وليس لدي أي شيء سوى قلم وأوراق لِلشركة، لكن مع ذلك أفشل في كتابة كلمة واحدة لأنني صرت عالقًا في ردهات ذاكرتي التي تنتصب فيها المرايا، ولا يمكنني الهروب -انحناء جسد والدتك حولك فيما يشبه حيوان النوتيلوس، واللطخة الذهبية البيضاء لابتسامتها عبر ضباب الغسق في الأماريكو-.

لكنني واصلت الكتابة، حتى لو بدا الأمر مثل الانطلاق نحو الأمام عبر أدغال بلا نهاية، حتى لو بدا الحبر أحمر ملطخًا تحت ضوء المصباح.

ربما تابعت الكتابة لأنني نشأت في عالم للكلمة فيه نفوذ، وانحناءات ودوائر الحبر تسلخ الأشرعة والجلود، إذ يمكن لصائغة كلمة متمرسة لديها ما يكفي من الموهبة أن تعيد صناعة عالمها، ربما لا أستطيع أن أصدق أن الكلمات تخلو من النفوذ، حتى هنا في هذا العالم. ربما أحتاج فحسب إلى ترك تسجيل ما بغض النظر من كونه مهلهل وغير مدعوم بأدلة كافية، حتى يمكن لروح حية أخرى أن تعلم بشأن الحقائق التي عملت بجد حتى أكتشفها، وحتى ربما يقرأها شخص آخر ويصدق، في وجود عشرة آلاف باب بين عشرة آلاف عالم، وفي وجود شخص ما يغلقها، وأنا أساعدهم في فعل ذلك. ربما أكتب بفعل اجتماع الكثير من الأمل اليائس الساذج، بأن يكفر شخص أشجع وأفضل مني عن آثامي وينجح فيما فشلت فيه، وأن يكافح شخص ما

ضد المؤامرات المشبوهة التي يحيكها من يريدون قطع هذا العالم عن أبناء عمومته وجعله أجدبَ وعقلانيًّا ووحيدًا بشدة، وأن شخصًا ما، بطريقة ما، يستطيع تحويل نفسه إلى كائن حي على هيئة مفتاح، ويفتح الأبواب.

النهاية

ملاحظة

أعتذر عن خطي، ماذا ستقول أمي؟ لكنني في عجلة من أمري، ولا أملك الوقت حتى أكتب هذا الكلام على آلة كاتبة، ثم أغلفه مثل البقية.

عزيزتي جانيوري..

لقد وجدته، وجدته، وأنا مخيم على واحدة من أكثر الجزر برودة وأشدها هبوبًا للرياح في شمال اليابان، بالقرب من الشاطئ يوجد تجمع من أعشاش من عشب البامبو وأكواخ من الصفيح المضلع، التي قد يُطلق عليها تفضلًا قرية، لكن في أعلى هذا الجبل، لا يوجد شيء سوى العشب المتيبس وأشجار صنوبر جافة تتشبث ببسالة في التربة الرمادية، ينتصب أمامي تكوين مثير للاهتمام، بعض أغصان الشجرة لوت نفسها فيما يشبه القوس وتطل على البحر، ومن الزاوية المناسبة، ستبدو تقريبًا كممر، عثرت عليها عبر القصص التالية:

ذات مرة، كان هناك صياد طوى صفحات الكتب محولًا إياها إلى سفن شراعية، كانت تلك السفن سريعة وخفيفة، وأشرعتها ملطخة بالحبر، وذات يوم اختفى صبي في منتصف الشتاء وعاد مسفوعًا من الشمس ودافئًا، وذات مرة كان هناك كاهن كُتبت على جسده صلوات.

عرفت إلى أين يقود قبل أن أخطو بداخله. العوالم مثل البيوت، تفوح منها روائح محددة، خفية ومعقدة للغاية ومتنوعة بالكاد يمكنك تمييزها، ورائحة عالم المكتوب ترشحت من أغصان الصنوبر مثل ضباب رقيق: الشمس، والبحر، وغبار كعوب كتب مجعدة، والملح وتوابل ألف سفينة تجارية، الوطن.

سأعبر خلال هذا الباب في أقرب وقت ممكن. هذا المساء، توخيت الحذر خلال رحلتي إلى هنا، لكنني أخشى أنني لم أكن حذرًا بما يكفي، أخشى أن يعثروا عليَّ، من يغلقون الأبواب، قاتلو العالم، أتردد حتى في النظر بعيدًا عن الممر وإلى أسفل هذه الصفحة، خشية أن يقفز شبح ما من الظلال ويغلقه للأبد.

لكنني سأتأخر بما يكفي لأنهي هذه الرسالة، حتى أخبرك إلى أين ذهبت ولماذا، وأرسل لك هذا الكتاب عبر صندوق تويا ويويا الأزرق، زوج مفيد من الأشياء وجدته خلال باب في الإسكندرية وواحد من الكنوز القليلة التي رفضت تسليمها كاملة إلى كورنيليوس، أعطيت له واحدًا واحتفظت بالآخر لنفسي، لقد

أرسلت إليكِ حليًّا ودمىً من قبل، هل أدركتِ الغرض منها؟ هدايا غير كافية من أب غائب؟ محاولة جبانة لقول: أفكر فيكِ دائمًا، وأحبك، سامحيني؟ تخوفت من إحباطك ورفضك هداياي الزهيدة المثيرة للشفقة.

هذا الكتاب هو آخر هدية من ذلك النوع، قلة حيلتي النهائية. إنه عمل شديد القصور، كما تعرفين جيدًا الآن، لكنها الحقيقة، وهو شيء استحققته قبل فترة طويلة من هذه اللحظة، لكنني لم أستطع منحه لك. (حاولت مرة أو اثنتين، جئت إلى غرفتك، فتحت فمي لأخبرك بكل شيء، لكنني وجدت نفسي بلا صوت، هربت منك، واستلقيت لاهثًا على سريري، أكاد أختنق بسبب ثقل الكلمات المسكوت عنها في حلقي، أظنني حقًّا جبانًا للغاية).

حسنًا، لا مزيد من الصمت، لا مزيد من الأكاذيب، لا أعرف كم تزورين الصندوق الأزرق، لذا عثرت على طريقة لأضمن أنك ستعثرين على الكتاب في الوقت المناسب، الطيور هنا كائنات يمكن الوثوق بها، لا تعرف شيئًا عن خطورة البشر.

يضم الكتاب معلومة كاذبة وحيدة أنا على دراية بها، وهي الادعاء بأنني كتبته لأجل البحث أو العلم أو الضرورة الأخلاقية، أو أنني أحاول «ترك سجل خلفي» أو «توثيق اكتشافاتي» لقارئ مستقبلي غامض، ربما سيأخذ عباءتي بشجاعة.

الحقيقة هي أنني كتبته لأجلك، دائمًا ما كتبت لأجلك، في كل لحظة.

هل تتذكرين عندما كنتِ في السادسة أو السابعة من عمرك وعدت من بعثة بورما؟ تلك كانت المرة الأولى التي لا تركضين فيها إلى ذراعيَّ عندما وصلت -وكم تقت إلى لحظات الوصول هذه وخشيتها، عندما يخبرني وجهك العزيز الذي يشبه الساعة الرملية بكم الوقت الذي أضعته- وعوضًا عن ذلك، وقفتِ فحسب مرتدية فستانك المعبأ بالنشا، تتطلعين إليَّ كما لو كنت غريبًا في عربة قطار مزدحمة.

قالت عيناك: في كثير من المرات، لقد تركتني مرات كثيرة، وفي هذه اللحظة انكسر بيننا شيء ثمين وهش.

كتبت هذا الكتاب بأمل يائس ومثير للشفقة وهو أنني أستطيع إصلاح ما تهشم بيننا، كما لو يمكنني التكفير عن كل عطلة فوّتها وكل ساعة غياب، عن كل السنوات التي قضيتها غارقًا في أنانية الأسى، لكن هنا في النهاية، أعرف أنني لا أستطيع.

فأنا أتركك مرة أخرى، على نحو أكثر عمقًا مما سبق وفعلت، لا يمكنني منحك أي شيء سوى هذا الكتاب، ودعوة بألا يغلق هذا الباب، وأن تجدي طريقة لتلحقي بي يومًا ما، وأن والدتك حية وتنتظر، ويومًا ما ستضمك مجددًا، وأن ما تفرق سيلتئم.

ثقي بجاين، أخبريها... أخبريها إنني آسف.

يناديني الباب بصوت أمك، يجب أن أذهب، سامحيني، واتبعيني.

(واي إس)

لم أستطع فعلها.

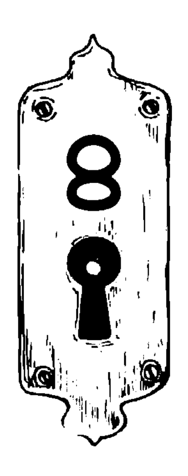
حاولت يا جانيوري، حاولت أن أتركك لكنني وقفت فحسب على عتبة بابي، متجمدًا، أشم رائحة وطني العذبة، وأعد نفسي لأخذ الخطوة الأخيرة النهائية نحو الأمام، لم أستطع، لم أستطع تركك، ليس مجددًا، سأحزم أغراضي وأعود إلى منزل لوك، سأجلبك إلى هنا معي، وإما أننا سنعبر من الباب معًا وإما لن نعبر على الإطلاق، أعتذر من الآلهة، أنا آسف بشدة، أنا قادم انتظريني.

اهربي يا جانيوري.

أركاديا.

لا تثقي......





باب الخشب الجاف

عثرت على جاين عبر تتبع إيقاعات صوت سحق وارتطام المجرفة في الأرضية الصخرية، عملت بثبات، تحفر في بقعة منخفضة في منتصف الجزيرة، بمفردها ما خلا رائحة مستنقعية نتنة وأنين عدة ملايين من البعوض الطائر، وبالطبع السيد ثيودور هافيميير.

لم يكن هافيميير سوى حزمة من الملاءات بيضاء مُوحلة تخرج منها يرقات الديدان على نحو ضبابي تتدلى من الملاءات يد هافيميير التي تشبه مخلبًا عديم اللون، منقط بثقوب دامية تقريبًا بحجم أسنان باد، ألقى جثمانه بظلال ضخمة على الأرض في ضوء الساعات الأخيرة من فترة ما بعد الظهيرة.

- ألا يمكننا فحسب، لا أعرف، إلقاؤه في البحيرة؟ أو تركه؟

دوى صوت دك المجرفة وهي تخترق الأرض، وسكون القاذورات وهي تنزلق من عليها، لم ترفع جاين وجهها إليَّ، لكن ابتسامة جامدة ظهرت على وجهها:

- هل تظنين أن أشباه هافيميير في العالم يختفون فحسب؟ هل تعتقدين أن لا أحد سيأتي للبحث عنه؟

هزت رأسها وأضافت مُطمئنة:

- إنها بقعة جيدة ورطبة، لن يصمد طويلًا.

اكتشفت أن ما يحدث أصابني ببعض الإعياء، لذا جلست على صخرة ابتلعتها الطحالب، أراقب الغربان تجتمع فوق أغصان أشجار الصنوبر حولنا مثل حضور جنازة قليلي التهذيب، ينعقون ويتهامسون.

لاح أمامي مقبض المجرفة المهترئ أخذته، وقمت بعدة استكشافات متعاقبة: أولًا، أن الحفر متعب للغاية وأنني ما زلت واهنة وأشعر بالإعياء على إثر الهروب من براتلبورو. ثانيًا، أن جسم الإنسان ضخم للغاية ويستوجب دفنه حفرات عميقة. ثالثًا، أن الحفر يفسح مجالًا واسعًا في رأسك للتفكير، حتى عندما يخترق العرق عينيك، ويؤلمك جلد كفيك على نحو قاسٍ كأنه ينبهني أن يدي تعاني بالفعل من وجود تقرحات.

لم يهجرني والدي، لقد عاد لأجلي، كانت الفكرة أشبه بشمس صغيرة تشع ضوءًا خلف عينيَّ، ويصعب أن أنظر إليها بحذر من شدة سطوعها، منذ متى وأنا أتوق إلى برهان صغير على حبه إياي؟ لكن حبه لأمي، حزنه الأناني، لطالما كان أقوى من أي شيء... حتى الحادثة الأخيرة، حتى تغير شعوره، وأدار ظهره **للباب** الذي أراده لسبعة عشر عامًا.

إذًا أين هو؟ ترددت قليلًا عند هذه الفكرة، وتخيلت التوقيع الجنوني لهذه الكلمات الأخيرة... اهربي يا جانيوري، أركاديا، لا تثقي... ثم توقفت الكلمات.

بماذا يخبرني هذا الجزء الأخير، حقًّا، ولم يسبق لي أن أشك به؟ حسنًا، أولًا، إن السيد لوك على دراية كاملة بسعي والدي خلف **الأبواب،** بل إنه استأجره بالتحديد ليفعل ذلك، تصورت حجرات القبو في منزل لوك وممراتها اللانهائية من الصناديق والخزائن، والحجرات تعج بالصناديق الزجاجية واللافتات الأنيقة، كم من تلك الكنوز سُرق من عوالم أخرى؟ وكم منها مسكون بقوى غريبة أو سحر خارق؟

وكم عدد التي باعها أو قايضها؟ تذكرت الاجتماع الذي شهدته في لندن عندما كنت طفلة، ذلك المزاد السري على أشياء ثمينة. كنت على ثقة أن عددًا من أعضاء الجمعية قد حضروه، على الأقل الرجل الأصهب المثير للقلق، لذا افترضت أن الجمعية أيضًا يعلمون بشأن والدي و**الأبواب** والأشياء التي سرقها، ولا بد أن الجمعية هي التي تعقبته، وطاردته، وأغلقت **الأبواب**. لكن لماذا إذًا أرادوا الكنوز التي يسرقها لأجلهم؟ أو ربما أرادوا اكتناز الثروات لأنفسهم، ثم إغلاق **الأبواب** أمام أي تسريب محتمل، سيودُّون ذلك، لقد أمضيت ما يكفي من الوقت بالقرب من رجال أثرياء وذوي نفوذ لأعرف شغفهم تجاه جمل مثل الحفاظ على الحصرية وخلق الحاجة عبر الندرة.

بدا الأمر منطقيًّا تقريبًا، لكن من أغلق **باب** أمي، أول **باب** في الحقل قبل كل هذه السنوات؟ و**الباب** عند قمة الجبل؟ لم يكن والدي يعمل عند السيد لوك حينها حتى، هل الأمر محض سوء حظ عشوائي، أم أن الجمعية تغلق **الأبواب** منذ مدة أطول من رحلة والدي الشخصية؟ لقد ذكروا مؤسسًا لمرة أو مرتين في نبرة موقرة، ربما الجمعية أعرق مما تبدو.

ليس منطقيًّا أيضًا أن يؤذوا الشخص الذي يسعى خلف **الأبواب لصالحهم**. لكن شيئًا ما لا بد وأنه منع أبي من العودة، شيء دفعه إلى كتابة تلك الجمل الثلاث الأخيرة، والآن الجمعية تريدني، *لن يتوقفوا أبدًا عن البحث عنك يا فتاة*.

سمعت من خلفي صوت سحق لحم شنيع، استدرت لأرى جاين تجثم فوق جسد هافيمير بمطرقة بينما يعلو وجهها تعبير حيادي، في هذه اللحظة برز وتد خشبي مقشور من الصرة البيضاء، تقريبًا حيث يستقر قلبه.

هزت جاين كتفيها ناحيتي:

- تحسبًا فقط.

تأرجحت للحظة بين الرعب والفكاهة، لكنني لم أستطع تمالك نفسي، وضحكت، ترددت ضحكة متضخمة تخطو بخفة نحو الهستيريا، ارتفع حاجبا جاين، لكن بعد ذلك تدلى رأسها إلى الوراء وضحكت معي، سمعت قليلًا من الراحة نفسها في صوتها أيضًا، وخطر ببالي، أن ربما سلوكها المتسم بالهدوء والثقة، في الواقع، ليس حقيقيًّا تمامًا.

لفت نظرها قائلة:

- لقد قرأت الكثير من قصص بيني دريدفول[1].

هزت كتفيها مجددًا غير نادمة، وعدت إلى الحفر الذي أصبح أسهل بطريقة ما، وكأن شيئًا ما ثقيلًا يقبع على كتفيَّ رفرف بعيدًا على صوت ضحكاتنا.

عملت في صمت لمدة دقيقة أو ما شابه، ثم بدأت جاين تتحدث.

- في عالمي، من الحكمة إطلاق النار على أي شيء غريب أو غير مألوف قد تقابله في الغابات، ولهذا كدت أقتل والدك في المرة الأولى التي رأيته فيها، ذهبت الطلقة الأولى أدراج الرياح رغم ذلك. أعطيني هذا، إذا كنتِ لن تحفري.

صار ما يحمله جاروفي عشوائيًا وضئيلًا، لذا خرجت من الحفرة، وأخذت جاين مكاني، تماشى صوتها مع إيقاع الاختراق والقذف الصادر عن حفرها.

- بدأ يصيح ويلوح بيديه، ويتقلب بين دزينة لغات أو ما شابه، واحدة منهم، كانت الإنجليزية، مر وقت طويل منذ أن سمعت اللغة الإنجليزية تُنطق بصوت عال، ولم أسمعها قط على لسان رجل داكن البشرة لديه وشوم، ويبدو مثل أستاذ جامعي، لذا لم أطلق النار عليه.

تجاوزت الحفرة الآن خصر جاين، ومع كل جاروف تملؤه يصدر صوت امتصاص مائعًا، حام الذباب مثل ضيوف على العشاء شديدي الحماس عند حواف الحفرة.

- عدت به إلى مخيمي، أطعمته، وتبادلنا الحكايات، وسألني إذا سبق وعثرت على باب آخر في هذا العالم، أو سمعت أي قصص حول كلمات مكتوبة تصبح واقعًا، أجبته بلا، ارتخت كتفاه، وشعرت أنه يتحتم عليَّ الاعتذار، ولكنني لا أدري لماذا، ثم حذرني، قال إن الأبواب تغلق من خلفه، شخص ما يتبعه، توسل إليَّ حتى أعود إلى وطني الأم معه،

---

(1) بيني دريدفول: هي سلسلةٌ أدبية شعبية رخيصة الثمن، صدرت خلال القرن التاسع عشر في المملكة المتحدة.

أخبرني أنه يعرف شعور الحصار في عالم لا تنتمي إليه، وحثني على العودة معه، رفضت.

- لماذا؟

جلست على حافة الحفرة وذراعاي ملتفتان حول ركبتيَّ، وكانت تنورتي المستعارة قد تلطخت بالفعل وغطاها الوحل، وللحظة مشتتة، شعرت وكأنني عدت بالزمن إلى الوراء عندما كنت طفلة مشاكسة شعثاء بمرح.

خرجت جاين من الحفرة وجلست إلى جانبي.

- لأن المكان الذي تولد فيه ليس بالضرورة المكان الذي تنتمي إليه، وُلدت في عالم تخلى عني، وسرق مني، ورفضني، هل هو أمر مفاجئ أنني عثرت على عالم أفضل؟

أطلقت تنهيدة طويلة مشبعة بالندم.

- لكنني أردت القيام برحلة واحدة أخيرة عبر الباب، تحسبًا لأن يكون ذلك الرجل المجنون محقًّا، وأن تلك كانت فرصتي الوحيدة، بقي جوليان مخيمًا عند سفح جبل سوسوا بينما ذهبت لأبحث عن مزيد من الذخيرة و... أخبار عن شقيقتي.

ومضت عينا جاين مثل المصابيح في عاصفة من الرياح الشتوية، ومات في حلقي سؤال ماذا حدث لها؟ ساد صمت قصير، وعندما عادت للحديث رن صوتها بنبرة فظة:

- عدت إلى مخيم جوليان، وطلب مني البقاء مجددًا، وضحكت في وجهه، لقد رأيت الوضع الذي أصبح عليه وطني، نساء بيضاوات يشاهدنني من نوافذ القطارات، وصيادون غير شرعيين يعتمرون قبعات سخيفة، ويلتقطون صورًا إلى جانب جثث الحيوانات، أطفال ذوو كروش يتسولون بالإنجليزية من فضلك يا سيدي، من فضلك يا سيدي. لا، لذا رافقني جوليان عائدين إلى الباب العاجي لنودع بعضنا، إلا أن شيئًا غريبًا كان ينتظرنا في الكهف.

كانت جاين تحدق إلى القبر بوجه شاحب:

- أكوام من العصي الرمادية مربوطة معًا، وأسلاك ممتدة، وصوت رذاذ خافت، صرخ والدك ودفعني بعيدًا ثم تهاوى كل شيء، انفجار أحرق الجهة الخلفية من ذراعي، ودفعنا نحن الاثنين إلى الأمام مثل أعواد الثقاب، لا أدري إذا فقدت الوعي، ولكني شعرت كأنما غضضت الطرف ثم فجأة كان هناك رجل يقف فوقي، يرتدي زيًّا بريطانيًّا قاتمًا، وخلفه حيث ينبغي أن يكون الكهف، لم يوجد سوى الركام والغبار، تحركت شفتاه، ولكن هناك خطبًا ما أصاب أذنيَّ، ثم سحب مسدسه وصوبه نحو جوليان، كان لا بد أن يصوبه نحوي، كنت أنا الشخص الذي يحمل سلاحًا، لكنه لم يفعل.

ارتعشت شفتا جاين:

- عندما يأتيني الموت أتمنى على الأقل، ألا أبدو متفاجئة للغاية.

لم أنظر إلى جثة هافيميير، ولم أفكر بشأن انتظام الفتحة التي ظهرت في صدره.

- لم أنتظر حتى أن يلمس جسده الأرض، ألقيت بنفسي عند سفح الجبل، أجرف بجسدي الأحجار والأرض، بحلول اللحظة التي أوقفني فيها جوليان، أصبحت يدي تشبه لحوم الطرائد، أمسكني وقال: «أنا آسف أنا آسف» حتى فهمت، لقد علقت هنا في هذا العالم إلى الأبد.

لم يسبق لي رؤية جاين تبكي، لكني أستطيع الشعور بنوع من الارتجاف المتواتر يسري خلالها، مثل غيوم رعدية تنطلق عبر الخليج، لم يتحدث كلانا لمدة من الزمن، وجلسنا فحسب في المساء البارد نستمع إلى غناء طائر مائي أجوف حزين عبر البحيرة.

- حسنًا، في هذا العالم، لا يمكنك أن تكون ذا بشرة سمراء وبقربك جثة رجل أبيض يرتدي زيًّا عسكريًا، استخدمت حجرًا لأهشم جسده وسحبته بالقرب من الركام، حينها لن يكون ثمة جرح رصاصة يتطلب وجود فرقة بحث، ثم هربنا، كنا على متن قطار متجه إلى الخرطوم عندما سألني والدك عن وجهتي التالية، أخبرته أنني أردت العثور على طريقة أخرى للدخول، باب خلفي، ابتسم بحزن لي، وأخبرني: «قضيت حياتي بأكملها أبحث عن باب آخر يقودني إلى عالمي، لكنني

سأعثر على بابك أيضًا، إذا فعلتِ شيئًا لأجلي» وطلب مني الذهاب إلى منزل رجل ثري في فيرمونت وحماية ابنته.

هزتها موجة صامتة أخرى، بقي صوتها منتظمًا تمامًا:

– أوفيت بجانبي من الصفقة، ولكن جوليان... لم يفعل.

تنحنحتُ:

– إنه لم يمت.

شعرت بها تسكن تمامًا إلى جانبي، يصيبها الأمل بالتوتر.

– أنهيت كتابه، عثر على **باب** في اليابان يقوده إلى عالمه، لكنه لم يعبر خلاله، حاول العودة من أجلي.

أشرقت تلك الشمس الصغيرة مجددًا، لفترة وجيزة ثم تراجعت.

– لكنه لم يصل قط، حسبما أظن. قال لي أن أخبرك...

ابتلعت ريقي أتذوق الخزي على لساني:

– إنه آسف.

همس الهواء عبر الفتحة في أسنان جاين.

– لقد وعدني، وعدني.

كان صوتها مختنقًا، تكاد تبتلعه العاطفة، من خيانة لاذعة وغيرة ونوع من الغضب يترك الأجساد في أعقابه، جفلت وطرفت عيناها تجاهي ثم اتسعت:

– انتظري يا جانيوري، لقد صنعتِ ممرًّا بين المصحة وهذا الكوخ، هل يمكن أن تفعلي ذلك لأجلي؟ هل يمكن أن تطوعي الكلمات لتعيديني إلى المنزل؟

لمع وجهها بأمل يائس كأنما تتوقع مني أن أخرج قلمًا من جيبي وأرسم لها بابًا في الهواء بيننا، كأنما توشك على رؤية عائلتها مجددًا، بدت أكثر شبابًا من أي وقت سبق أن رأيتها فيه.

وجدت أنني لا أستطيع النظر إليها بينما أجيب:

- لا، أنا... كتاب أبي يقول إن هناك أماكن حيث تحتك العوالم ببعضها بعضًا، مثل أفرع شجرتين، وذلك حيث تكون الأبواب، لا أظن أن بابًا هنا في فيرمونت قد يصل كل هذه المسافة حتى عالمك.

أصدرت صوتًا بَرِمًا رافضًا:

- حسنًا، لكن إذا ذهبتِ معي إلى كينيا، إلى بابي العاجي...

في صمت، نزعتُ الضمادة عن ذراعي اليسرى ورفعتها في مستوى عينيها، اهتزت وارتعشت بعد عدة ثوانٍ، وبعد بضعة ثوانٍ أخرى، أعدتها إلى جانبي.

- أظن أن فتح الطريق من المصحة إلى هنا كاد يقتلني.

أخبرتها برفق:

- وأن ذلك كان بابًا في العالم نفسه، لا أعلم ما قد يتطلبه الأمر لإعادة فتح باب بين عالمين، ولكني أشك أنني أمتلك تلك القدرة.

أطلقت جاين زفيرًا متمهلًا، بينما تحدق إلى يدي حيث تستقر على الأرض، لم تقل أي شيء، وقفت فجأة، تنفض تنورتها وتمد يدها إلى المجرفة مرة أخرى.

- سأنهي هذا، اذهبي لرؤية صامويل.

هربت حتى لا أرى جاين تبكي.

بدا كلٌّ من باد وصامويل كأنه مات ثم بُعث على يد ساحر أرعن؛ باد مرقط بالدماء الجافة، ومرقع بالضمادات والتقطيبات، يحشر نفسه في السرير بين صامويل والحائط، وفي تلك اللحظة ينام وذقنه مسنود بحب إلى كتف صامويل الذي اصطبغ جلده بلون بين الأبيض والأصفر يشبه المشروم ويوحي بالمرض، وكانت أنفاس صامويل تخرج أسفل اللحاف على نحوٍ متقطع ومرتعش.

فُتحت عيناه على شقوق غائرة عندما جلست إلى جانب السرير، وعلى نحو مفاجئ ابتسم:

- مرحبًا يا جانيوري.

- مرحبًا يا صامويل.

كانت ابتسامتي المقابلة لابتسامته خجولة مرتعشة.

رفع ذراعه وربت جانب باد:

– ماذا قلت لك؟ باد إلى جانبك.

اتسعت ابتسامتي:

– نعم.

– و...

قال برقة أكثر:

– ...أنا كذلك.

كانت عيناه ثابتتين تتوهجان بدفء بلا مصدر، وكان النظر إليهما أشبه بوضع يدي أعلى مدفأة تتراكم حولها الأحجار في شهر فبراير، أشحت ببصري قبل أن أقول أو أفعل شيئًا غبيًا:

– أنا آسفة على ما حدث، وما فعله هافيميير بك.

هل كان صوتي دائمًا عالي النبرة هكذا؟

هز صامويل كتفيه وكأن التعرض للخطف والتعذيب مجرد عقبة مضجرة:

– لكنك ستشرحين بالضبط من كان طبعًا، وماهية تلك الأبواب التي أغضبته إلى تلك الدرجة، وكيف جئتِ إلى هنا دون قيامي بعملية إنقاذ جريئة.

كان يتسلل من تحت الشراشف بينما يتحدث ويسوي نفسه أمام الوسائد على الرغم من أن كل جزء في جسده كان متورمًا.

– عملية إنقاذ جريئة؟

– كادت أن تصبح مذهلة.

تنهد في حزن.

– غارة بعد منتصف الليل، حبل عبر النافذة، هروب على ظهر أحصنة بيضاء، حسنًا، جراء رمادية، كانت ستصبح تمامًا مثل إحدى قصصنا الورقية، لقد ذهب كل شيء أدراج الرياح.

ضحكت للمرة الثانية ذلك المساء، ثم على نحو متقطع فوضوي، متخوفة من أن صامويل إما سيضحك وإما سيشفق عليَّ، أخبرته بكل شيء، أخبرته عن **الباب** الأزرق في الحقل المكسو بالعشب عن والدي ووالدتي، وكيف أن كليهما ليس ميتًا أو ربما كلاهما ميت، وعن جمعية نيو إنجلاند الأثرية وإغلاق **الأبواب** والعالم المحتضر، وأن السيد لوك يحتفظ بوالدي مثل كلب صيد مربوط برسن، وبي مثل طائر سجين، عالم المكتوب، وكيف أن أشخاص بعينهم ذوي إرادة يمكنهم إعادة كتابة الوجود، ثم بعد ذلك أخبرته عن العملة الفضية التي تحولت إلى سكين، وأريته الكلمات التي كتبتها على لحمي.

كان الجلد تحت ضمادتي شاحبًا ومجعدًا بقشرة تكونت حديثًا، مثل مخلوق بحيرة جريح جرفته المياه إلى الشاطئ، لمس صامويل تعرج حرف الـ «J» المحفور على جلدي.

– إذًا لم تحتاجي إلى عملية إنقاذ على ما يبدو.

قال بالتواءة مرحة في ابتسامته:

– Stregas ينقذن أنفسهن في كل القصص.

– Stregas ؟

أوضح:

– ساحرات.

– أوه.

بالطبع، كنت أطمح في شيء أكثر مجاملة لكنه صدقني دون أدنى ذرة شك، ربما عبثت بعقله كل تلك السنوات التي هرب فيها قصص الوحوش الشعبية حين كان ينبغي عليه إدارة المحل، مثلما قالت أمه، وربما وثق بي فحسب.

تابع صامويل متأملًا:

– دائمًا ما ينتهي الحال بالساحرات وحيدات، يعشن في الغابات أو الجبال أو محبوسات في أبراج، أظن أن الوقوع في حب ساحرة يتطلب رجلًا شجاعًا، والرجال غالبًا جبناء.

نظر إليّ مباشرة حالما أنهى جملته، بذقن مرفوع تنم عن جرأة وكأنه يقول أنا لست جبانًا.

وجدت أنني لا أستطيع التفوه بشيء على الإطلاق، أو حتى التفكير، بعد لحظة، ابتسم مجددًا وقال بلطف:

– إذًا أفراد الجمعية، سيواصلون البحث عنك، أليس كذلك؟ بسبب الأمور التي تعرفينها، والأشياء التي تستطيعين فعلها.

– نعم، سيفعلون.

جاء صوت جاين من خلفي، وقفت عند مدخل الباب، تؤطرها أشعة الغروب الحمراء، وفمها يأخذ وضعية خط كئيب، شيء ما حيالها ذكرني بوالدي، الطريقة التي أحنى بها الحزن كتفيه ونقش خطوطًا على وجهه، تحركت جاين متيبسة ناحية دلو الماء حتى تغسل ذراعيها المنقوعتين في القذارة، وقالت:

– نحتاج إلى خطة، ومكان للاختباء.

ربتت كتفها ساخرة:

– أقترح أركاديا، الاسم الذي منحني إياه والدك، لعالم مختبئ على الساحل الجنوبي لولاية ماين، يصعب الوصول إليها وغير مضيافة، أو هكذا أميل إلى الفهم، وهو ما يجعله موقعًا ممتازًا للهرب، أعرف الطريق.

كان صوت جاين محايدًا تمامًا، كما لو أن عالمًا فضائيًّا عدائيًّا هو وجهة اعتيادية مثل البنك أو مكتب البريد.

– لكن بالطبع لا نحتاج إلى...

قاطعتني.

– جانيوري...

– ليس لدينا مال، أو مكان نعيش فيه، أو عائلة، أنا سوداء بين أمة تكره اللون الأسود، غريبة في وطن يبغض الغرباء، وأسوأ ما في الأمر أنه يمكن تذكرنا، امرأة إفريقية وفتاة في المنتصف، شعرها جامح وفي ذراعها ندوب.

رفعت كفيها نحو الأعلى.

– إذا أرادت الجمعية العثور عليك سيفعلون، ولا أظن أن هافيميير هو أسوأ من فيهم.

تحرك صامويل أمام وسائده:

– لكنك تنسين، أن الآنسة جانيوري ليست بلا دفاعات، يبدو لي أنها تستطيع كتابة أي شيء تريده، حصن، باب إلى تمبكتو أو المريخ، حادثة مؤسفة تقع للسيد لوك.

بدا متفائلًا حيال تلك الاحتمالية الأخيرة، زمجر على نحو يشبه باد عندما أخبرته بشأن براتلبورو، ارتسمت على وجه جاين ابتسامة فظة:

– على حد معرفتي، قواها ليست بلا حدود.

شعرت بوخز من الدفاعية غارق في الخزي.

– لا.

ترددت على نحو مختنقٍ قليلًا:

– والدي يقول إن تطويع الكلمات له ثمن، لا يمكنني فحسب تمزيق الأشياء ثم أعيد تجميعها كيفما أشاء.

خطفت نظرة جانبية إلى صامويل بينما أخفض صوتي:

– أخشى أنني لست بساحرة.

سحب يده ووضعها بالقرب من يدي على الشراشف، وأطراف أصابعنا تكاد تلامس بعضها:

– جيد.

همس.

– أنا لست شجاعًا إلى هذه الدرجة.

تنحنحت جاين على نحو ملحوظ.

– حسنًا، الوصول إلى هناك سيكون صعبًا، أمامنا مائتا ميل نعبرها دون أن يتعرف علينا أو يتبعنا أحد، وقليل من المال لتنفيذ المهمة، أخشى ذلك.

ابتسمت ابتسامة مكتنزة هادئة:

- سيتعين على الآنسة جانيوري سكالر الاعتياد على مستوى مختلف من المعيشة.

لدغتني تلك الجملة.

- لقد سافرت قليلًا، كما تعرفين.

لديَّ أمتعة موسوم عليها اسمي على لوحة نحاسية صغيرة، وجواز سفري يشبه رواية اهترأت صفحاتها من كثرة التصفح.

ضحكت جاين، لم يكن صوتًا مبتهجًا للغاية:

- وفي كل أسفارك، هل قضيتِ ليلة واحدة في سرير هيأته لنفسك؟ أعددتِ وجبة واحدة؟ هل رأيتِ من قبل تذكرة طيران درجة ثانية؟

انعقد لساني على نحو مقيت، اكتفيت بالتحديق إليها.

- سننام في الغابات، ونتوسل للحصول على توصيلة، لذا اضبطي توقعاتك على هذا الأساس.

لم أتمكن من التفكير في رد ذكي بعينه، لذا غيرت الموضوع.

- أنا لست مقتنعة بأننا حتى ينبغي أن نذهب إلى ذلك المكان الذي يدعى أركاديا، اختفى والدي في اليابان، يجب أن نذهب للبحث عنه، على الأقل...

لكن جاين كانت تهز رأسها في تعب:

- سيتوقعون ذلك في المقام الأول، ربما يومًا ما بعد مرور بعض الوقت، عندما يصبح الأمر أكثر أمانًا.

فليذهب الأمن إلى الجحيم.

- ربما... ربما يمكننا اللجوء إلى السيد لوك طلبًا للمساعدة.

أطلق كلٌ من صامويل وجاين أصواتًا تقف بين الدهشة والغضب، قلت متصنعة، وكتفي في وضع الاستعداد:

- أعرف، أعرف... لكن انظرا، لا أظنه أراد أذية أو قتل أيٍّ منا أنا ووالدي، أراد فحسب أن يصبح أكثر ثراءً ويمتلك المزيد من الأشياء النادرة

ليضعها في صناديق العرض، بل ربما لا يعلم عن غلق الجمعية للأبواب، أو حتى لا يهتم... وأظنه أحبني، ولو بقدر ضئيل، يمكنه مساعدتنا على الاختباء، يعيرنا المال أو يوصلنا إلى اليابان...

تراجعت.

امتلأت عينا جاين بشيء قاتم ناز، إنه الشفقة، من المدهش كم يمكن أن تؤلم الشفقة.

– تريدين الانطلاق في مغامرة وإنقاذ والدك، مثل بطل في قصة خيالية، أتفهم ذلك، ولكنك يافعة مفلسة ومشردة، لم يسبق لك رؤية الجانب القبيح من العالم، سيبتلعك بالكامل يا جانيوري.

وإلى جانبي قال صامويل:

– ولو كان السيد لوك يحاول حمايتك سابقًا، فلقد فشل في عمله حتى الآن، أظنك ينبغي أن تهربي.

أطرقت بينما أشعر بمستقبلي يلتوي ويلتف تحت قدمي على نحو مثير للدوار، كنت أنتظر أن تعود حياتي إلى طبيعتها، كما لو أن كل شيء حدث منذ اختفاء والدي هو فيلم وقريبًا ستكتب كلمة النهاية على الشاشة، وسترجع الأضواء إلى الحياة، وأجد نفسي عائدة بأمان إلى منزل لوك أعيد قراءة روفر بويز في البر والبحر.

لكن كل ذلك سيبقى إلى الأبد في الماضي، مثل يعسوب محفوظ في حجر كهرمان.

– اتبعي جاين.

– حسنًا.

همست، وحاولت ألا أشعر وكأنني عدت إلى السابعة من عمري، أركض هاربة إلى الأبد.

– سنذهب إلى أركاديا، وهل... هل ستبقين معي هناك؟ أم ستعودين إلى المنزل؟

جفلت:

– ليس لدي منزل.

نظرت إلى عينيها ووجدت أن الشفقة بداخلهما تحولت إلى شيء يائس وغليظ، دفعني ذلك إلى التفكير بالأطلال العتيقة والأقمشة المتعفنة، الأشياء التي فقدت المغزى من وجودها.

تأرجحت للحظة على حافة قول المزيد، اتهامات مضادة أو توبيخ أو أشياء تندم عليها، ثم استدارت وغادرت الكوخ بظهر مستقيم.

ساد الهدوء بيني أنا وصامويل في غيابها، كانت أفكاري عبارة عن مجموعة من الطيور الثملة ترتد بين اليأس، -هل سيبقى كلانا مشردًا إلى الأبد؟ هل سأقضي حياتي هاربة؟- وإثارة طفولية محتدمة -أركاديا، مغامرة، هروب- والدفء المشتت ليد صامويل التي لا تزال مستلقية إلى جانب يدي على اللحاف.

تنحنح وقال متعمدًا إلى حد ما:

- أنوي الذهاب معك، إذا سمحتِ بذلك.
- ماذا... لا يمكنك ترك عائلتك، ومنزلك، وعملك... الأمر خطير للغاية.
- لم أكن لأصبح بقالًا جيدًا.

قاطعني باعتدال.

- حتى أمي تعترف بذلك، لطالما أردت فعل شيء آخر، شيء أكبر، وعالم آخر سيفي بالغرض.

أطلقت شبه ضحكة غاضبة:

- أنا حتى لا أعرف إلى أين سنذهب، أو إلى متى، مستقبلي متشابك وفوضوي، ولا يمكنك القبول بذلك كله، بدافع الإحسان أو الشفقة أو...
- جانيوري.

أصبح صوته منخفضًا وأكثر إلحاحًا، وهو ما جعل قلبي يدق على نحو غريب بين ضلوعي.

- لا أقدم هذا العرض بدافع الشفقة، وأظن أنك تعرفين ذلك.

أشحت ببصري إلى خارج نافذة الكوخ نحو المساء الأزرق، ولكن لم يتغير شيء، ما زلت أشعر بحرارة نظرته على وجنتي، أصدر الفحم المخزن شررًا واشتعلت فيه النيران.

- ربما...

قال متمهلًا:

- ربما لم أكن واضحًا من قبل، ولكن عندما قلت إنني إلى جانبك، قصدت أيضًا أنني أود أن أكون معك، أن أذهب معك إلى داخل كل باب وكل المخاطر، أن أركض معك عبر مستقبلك المتشابك، لـ...

جزء بعيد مني كان ممتنًا لملاحظة أن صوته أصبح متذبذبًا ومتوترًا.

- دائمًا إذا أردتِ.

الوقت، مخلوق عنيد لا يمكن الاعتماد عليه منذ ما حدث في المصحة، الآن تملص الوقتُ تمامًا مما يحدث، ترك كلينا طافيين بلا أي وزن مثل زوجين من ذرات الغبار معلقتين في ضوء ما بعد الظهيرة. وجدت نفسي بلا سبب محدد، أفكر في والدي، في الطريقة التي بدا فيها حالمًا، رحل عني في كل هذه المرات، كتفان محنيتان ورأس مطأطأ، ومعطف مغبر يتدلى طليقًا على جسده، ثم فكرت في السيد لوك، دفء يده على كتفي، دويُّ ضحكته الشابة، والشفقة في عينيه بينما يشاهدهم يخدرونني ويسحبونني من منزله.

في حياتي، تعلمت أن الأشخاص الذين يحبونك سيتركونك، سيتخلون عنك، ويخذلونك، ويخونونك، ويحبسونك وفي نهاية المطاف ستبقى وحيدًا مرارًا وتكرارًا وإلى الأبد، لكن صامويل لم يفعل ذلك، صحيح؟ عندما كنت طفلة محاصرة في منزل لوك بلا أي رفقة سوى ويلدا، دس لي القصص الورقية وجلب إليَّ أعز أصدقائي، وعندما كنت امرأة مجنونة محبوسة في مصحة بلا أي أمل أو مساعدة، دفع لي بمفتاح، والآن، وأنا هاربة وتلاحقني الوحوش والألغاز، قدم إليَّ نفسه، على الدوام. شعرت بجاذبية هذا العرض مثل خطاف خلف قلبي، ألَّا أكون وحيدة، وأن أكون محبوبة، ولديَّ ذلك الحضور الدافئ دائمًا بالقرب مني، حدقت بتوق إلى وجه صامويل متسائلة ما إذا كان وسيمًا على نحو خاص، مدركة أنني لم أعد قادرة على تحديد الأمر، كانت عيناه هي كل ما أرى، جمرتان مشرقتان لا تتزعزعان.

سيكون سهلًا للغاية الإجابة بنعم.

لكني ترددت، كتب والدي عن الحب الحقيقي كما لو أنه الجاذبية، شيء موجود ببساطة، خفي ولا مناص منه. هل الحب الحقيقي هو ما جعل نفسي يضيق وقلبي يتوقف؟ أم أنني ببساطة خائفة ووحيدة وأدور من الإجهاد وأتشبث بــصامويل مثل امرأة تغرق عُرض عليها طوق نجاة؟

كان صامويل يراقب وجهي، وما رآه جعله يبتلع ريقه:

– لقد أسأت لكِ، سامحيني.

تجمدت ابتسامته من الإحراج.

– كان عرضًا فحسب، لتفكري فيه.

– لا، لا...أنا فقط...

بدأت الجملة دون أن أعرف إلى أين ستتجه، شبه مذعورة من حيث يحتمل أن تنتهي، ولكن بعد ذلك، مع إحساس بالتوقيت يتجاوز الألوهية، عادت جاين، حملت حزمة من الحطب المكسو بالطحالب، بتعبير قاتم على وجهها، يشبه الجرح المخيط، رأتنا ثم توقفت، ارتفع حاجبها في تعبير مندهش يتساءل عما قاطعته، ولكنها تابعت طريقها إلى الموقد دون أي تعليق، ليباركها الرب.

بعد دقيقة أو اثنتين تنهدنا خلالها أنا وصامويل وأبعدنا أيدينا عن بعضها بعضًا، قالت جاين في اعتدال:

– يجب أن ننام مبكرًا الليلة، سنغادر في الصباح.

– بالطبع.

كان صوت صامويل منتظمًا تمامًا، رفع نفسه فوق السرير، يبذل مجهودًا في إخفاء وجهه، مطأطئًا رأسه بلباقة أمامي.

– أوه، لا، لا عليك... يمكنني النوم على الأرض...

تصنَّع الصمم، باسطًا بعض الشراشف التي تفوح منها رائحة الفئران في إحدى الزوايا، ثم زحف بداخلها، أدار وجهه تجاه حائط الكوخ، وكتفاه منحنيتان نحو الداخل.

– ليلة سعيدة يا جاين، وجانيوري.

نطق اسمي بحذر كما لو يخرج منه الشوك.

تسلقت السرير إلى جانب باد واستلقيت متيبسة ومتألمة ومتعبة للغاية لدرجة أنني لم أستطع النوم، شعرت بجفنيَّ ساخنين ومعلقين، وذراعي تنبض، أسندت جاين نفسها إلى الكرسي الهزاز أمام الموقد ومسدس السيد لوك في حجرها، لمع ضوء فحمي خافت من الموقد، يرسم ملامح وجهها بلون برتقالي ناعم.

تلبسها الحزن الآن على نحو أكثر انفتاحًا إذ لا يراقبها أحد، كان التعبير نفسه الذي رأيته مرارًا على وجه والدي، عندما يتوقف في أثناء الكتابة أو يحملق إلى النوافذ الرمادية كما لو يتمنى أن تنمو له أجنحة يطير بها.

هل مستقبلهما هو الوحيد الذي يمكنني التطلع إليه؟ هل حُكم عليَّ بالنجاة في عالم لا أنتمي إليه؟ مفجوعة وعالقة ووحيدة للغاية؟

أصدر باد واحدًا من تثاؤبات الكلاب الناعمة وتمدد إلى جانبي.

حسنًا، على الأقل لست وحيدة تمامًا، غفوت ووجهي ملتصق برائحة فرائه المشمسة. السفر برفقة جاين عبر نيو إنجلاند لا يشبه السفر برفقة السيد لوك، باستثناء أن كليهما يمتلك أفكارًا واضحة حيال من المسؤول، أصدرت جاين أوامر وتوجيهات بالثقة الهادئة لشخص اعتاد أن يرى أوامره مطاعة، وتساءلتُ هل سبق لها أن قادت فرقة من الصيادين في عالمها المُتبنَّى، ومدى الصعوبة بالنسبة إليها في انتحال شخصية خادمة في هذا العالم.

أيقظتني أنا وصامويل في أثناء عتمة ما قبل الفجر، كنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق عبر البحيرة قبل أن يزحف الخط العسلي الأول من ضوء الشمس فوق الأفق، تكدس أربعتنا في زورق عائلة زابيا بدلًا من مخاطرة المعدية وعيونها الفضولية، وتناوبنا على التجديف تجاه وهج ضوء مصباح الغاز الباهت القادم من الشاطئ، اكتشفت أن صعوبة التجديف توازي تجريف القذارة، قبل أن تخدش رمال الشاطئ هيكل الزورق، تقرحت يدي وأوشكت على النزف كان صامويل يتحرك مثل شخص أكبر بعدة عقود من عمره الحقيقي، جاين بدت في حالة ممتازة، باستثناء وسخ القبر والدماء التي لا تزال تلطخ تنورتها.

كان لا بد وأن أتوقع الطريقة التي سوف يهرع بها الناس بعيدًا عنا عندما نتسكع في المدينة، يتشبثون بقبعاتهم متمتمين، إذ شكل أربعتنا هيئة عصابة مثيرة للذعر؛ امرأة سوداء مسلحة، وشاب مريض، وكلب غاضب، وفتاة لبشرتها لونٌ غريب ترتدي ملابس غير متناسقة حافية القدمين، حاولت أن أسأل واحدة من النساء المهرولات عن الاتجاهات إلى أقرب محطة قطار، ولكن جاين داست على قدمي العارية.

- حسنًا، معذرة، لكنني أظن أنك قلتِ إننا سنستقل القطار.

أطلقت جاين زفيرًا في وجهي.

- نعم، لكننا لن نشتري التذاكر، من الأفضل ألا نجذب الانتباه إلينا.

هزت رأسها تجاه المحطة المتجهة شرقًا خارج المدينة

- اتبعوني.

انطلقت دون أن تنتظر أي تصديق منا.

نظرنا أنا وصامويل إلى بعضنا للمرة الأولى تقريبًا منذ حديثنا في الليلة السابقة، رفع حاجبيه، لمعت عيناه بالمرح وانحنى مشيرًا إليَّ بالعبور أولًا.

قادتنا جاين إلى باحة محطة قطار صغيرة شبه خالية، حيث تسكعنا على متن قاطرة كتب عليها «شركة مونبلييه للأخشاب» وانتظرنا، وفي غضون ساعة، كنا ننطلق نحو الشرق، يصم آذاننا هدير وحشرجة السكك الحديدية، يغطينا دخان الفحم والغبار، ونبتسم ابتسامة واسعة مثل الأطفال أو الأشخاص المجذوبين، ويتدلى لسان باد في الهواء.

اكتنف الضباب أحداث اليومين التاليين في ذاكرتي، ضاعا في ضبابية الحرارة والقدم المتألمة والخوف الحاضر بصفة دائمة من وجود عيون في مؤخرة رقبتي، تطاردني، أتذكر صوت جاين، هادئًا واثقًا، وليلة قضيناها مستلقين في حقل كثيف العشب، والسماء معلقة مثل لحاف لمّاع فوقي، وشطائر السمك الدسمة التي ابتعناها من محل على جانب الطريق، وتوصيلة من فلاح ينادي على توت بري إلى كونكورد في عربة يجرها بغل، وتوصيلة أخرى من ناقل بريد ثرثار في نهاية طريقه.

وأتذكر جاين ترفع وجهها إلى النسيم حالما عرجنا إلى طريق بلا اسم فوق خط ولاية ماين بالضبط، سألتني:

- هل تشمين الرائحة؟

نعم، أشم رائحة الملح والصخر البارد وعظام السمك، المحيط. سرنا في الطريق حتى تحول إلى حصى ناعم وأشجار صنوبر أصابها الملح بالتقزم، وصمتت خطواتنا تحت ضوء القمر، بدت جاين تسير حسب تعليمات والدي بدلًا من أي خريطة أو ذاكرة تحملها، تمتمت لنفسها، وأحيانًا تمد يدها لتلمس صخرة غريبة الشكل أو ترمق النجوم، اقترب صوت إيقاعات تلاطم أمواج البحر.

تحلقنا حول حائط كثيف من أشجار الصنوبر، نهبط منحدرًا قصيرًا، ثم إذا به هناك، ذهبت إلى ساحل البحر عشرات المرات، وتجولت على شاطئ جنوب فرنسا، وارتشفت الليمون على ساحل أنتيجوا، وركبت بواخر عبر المحيط الأطلنطي وشاهدت مفرق البحر النقي أمامنا، حتى العواصف بدت صغيرة وبعيدة من داخل فندق أو هيكل حديدي. كانت وجهة نظري عن المحيط أنه شيء لطيف وجميل، ونسخة أكبر نوعًا ما من بحيرتي المألوفة، لكن الوقوف هناك عند الحافة الصخرية والأمواج تتلاطم من تحتي، واتساع المحيط الأطلنطي يضطرب مثل المكونات القاتمة في مرجل ساحرة، بدا وكأنه شيء مختلف تمامًا، شيء جامح، شيء سري، شيء ربما يبتلعك بالكامل.

كانت جاين تختار طريقها أسفل ممر مصقول بالأشنة ويحتضن جانب المنحدر، لحقت بها أنا وصامويل، وباد ينبش أمامنا، شعرت فجأة برئتيَّ تضيقان، ونبضي يرتعد من الحماس، **باب، باب** حقيقي واقعي، أول **باب** أراه منذ كنت طفلة شبه جامحة تركض عبر الحقول.

باب تركه والدي مخبأً ومفتوحًا لأجلي، حتى في تلك اللحظة، وهو محاصر أو محبوس أو ميت على الجانب الآخر من الكوكب، لم يتخل عني، ليس تمامًا، أشاعت الفكرة الدفء في داخلي، مثل لهيب شمعة بقي في أمان أمام جلد رياح البحر، اختفت جاين في فجوة منخفضة رطبة، ملت نحو الأمام في شوق، لكن جاين عاودت الظهور تسحب خلفها كومة من الألواح والخيوط العفنة تصدر ضجة.

تنهدت في تثاقل:

– حسنًا، أظنه كان أمرًا مبالغًا فيه أن نتمنى صموده في هذا الطقس، ربما يمكننا تعويم المؤن إلى جانبنا بما تبقى منه.

ثم بدأت على نحو ممنهج وغير واعٍ إلى حد ما، تخلع ملابسها.

– جاين ماذا... أين **الباب؟**

لم تجب ولكنها أشارت فحسب إلى البحر، تبعت إصبعها ورأيت بقعة متكتلة رمادية على الأفق، إلى جانب رقعات من الصخور العارية التي تلمع باللون الفضي تحت ضوء النجوم.

– جزيرة؟ لكن بالطبع لا يمكننا... لن تسبحي إلى هناك.

– يتعذر الوصول إليها، إنها جزيرةٌ غير مضيافة، كما هو معلن عنها.

كانت نبرتها جافة، وبدأت بالفعل تعوم في البحر، ثيابها الداخلية تلمع باللون الأبيض، وأطرافها تختفي في الظلام، غاص باد بسعادة خلفها.

استدرت إلى صامويل بحثًا عن حليف ووجدته يفك زر قميصه.

– أراهنك على آخر رغيف خبز، أنني أستطيع هزيمتك.

هَمْهَم، وكأننا أطفال نلعب في البحيرة، ولسنا بالغين بائسين متعبين نقف على ساحل بحر بارد، نهرب من شيء لا يعلمه سوى الرب، ضحكت بلا توقف.

لمحت الانحناءة اللامعة من ابتسامته المقابلة، وشحوب صدره، ثم بعد ذلك اتجه خلف جاين وباد، لم يكن هناك ما أفعله سوى اللحاق به.

ما كان ينبغي أن أتفاجأ من البرودة، كنا في الصيف، ولكن الصيف في ماين هو مخلوق عابر حذر، يختفي حالما تغرب الشمس، لكنني لا أظنه أمرًا ممكنًا الغوص في ماء بمثل هذه البرودة دون الشعور بالمفاجأة، السباحة عبره تشبه السباحة عبر غيمة من الحشرات اللاذعة، تشبثنا بألواح المركب العفنة بأصابع متجمدة، نسحب متعلقاتنا إلى جانبنا، ونتنفس على هيئة شهقات ضعيفة، حتى باد كان يرفع رأسه عاليًا خارج الماء كما لو يحاول الارتقاء وليس السباحة.

تسرب الملح عبر ضمادتي، ينخر عبر الكلمات المنقوشة على ذراعي، لو أمكنني العودة، لو أمكنني الاستسلام والزحف نحو المنزل إلى المواقد الزهرية في منزل لوك؛ لفعلت، لكنني لم أستطع، لذا تابعت أمد ذراعي إلى البحر القاتم البارد، أواصل الاقتراب من الغشاوة الرمادية لليابسة.

ثم بطريقة ما، كانت الأحجار تخدش ركبتي، وجاين ترفع القارب على الشاطئ، أنفاس صامويل كانت أزيزًا صاخبًا إلى جواري، زحف بضع خطوات إضافية ثم انهار ككومةٍ من جلد الإوزة، ووجهه محشور في الشاطئ المرصوف بالحصى.

- لا...

شهق.

- ... أحب البرد من هذه اللحظة.

تذكرت وخز برودة لمسة هافيميير، ووجه صامويل الشاحب حالما سقط، فأرسلني الخوف أرتجف إلى جانبه، لمست ظهره بأصابع خدرة.

- هل أنت بخير؟

أسند نفسه على مرفق واحد ورفع رأسه متعبًا نحو الأعلى، طرف بعينيه إليَّ، يزيل الماء المالح عن عينيه، ثم فرغ وجهه من أي تعبير على نحو مثير للفضول، أدركت أن المحيط حوّل ملابسي الداخلية من أكياس قطنية عديمة الشكل إلى ما يشبه الطبقة الثانية من الجلد، متشبثة وشبه شفافة، لم يتحرك أحد منا، شعرت وكأنني متجمدة وواقعة في شرك عينيه الزيتيتين الفاحمتين، حتى وقف باد على بعد بوصات واهتز، يرشنا بالمياه الباردة المالحة.

أغلق صامويل عينيه متعمدًا، وأعاد جبهته إلى حصى الشاطئ.

- نعم، أنا بخير.

تنهد، ثم ترنح واقفًا وعرج نحو المركب، عاد وقميصه شبه جاف ثم وضعه على كتفي دون أن يسمح لأصابعه أن تلمسني، فاحت منه رائحة الدقيق والعرق.

- أوشكنا على الوصول، أعتقد أننا سنعبر قبل أن نخيم.

حتى جاين بدت متعبة.

تعثرت خطانا خلفها، نصل إلى نهاية الشاطئ، نتسلق منحدرًا منخفضًا على أرجل مرتعشة، هبت الرياح علينا تجففنا، تاركة قشرة بيضاء من الملح على جلدي.

على الجانب البعيد من الجزيرة، قابعًا مثل هيكل حارس متوفى منذ زمن بعيد، انتصب بنيان فنار مهجور، برجه مفكك، ومائل، وطلاؤه الذي كان يومًا ما أحمر وأبيض صارخًا أصبح لونه بنيًّا يشوبه الرمادي بفعل العوامل الجوية، يشبه لون الصخور المتناثرة أسفله، وحيثما ينبغي أن نجد بابًا، لم نجد سوى فتحة غائرةً، اختفت جاين عبرها أولًا، تختار طريقها فوق عوارض خشبية محطمة وألواح أرضية مفقودة، ثم تبعتها أنا وباد.

تشابه الوقوف في الفنار مع الوجود داخل قفص صدري متعفن لمخلوق بحري، مظلم وتتناثر فيه الأعشاب البحرية، لمع شعاع من ضوء القمر عبر الزجاج المهشم وأضاء **بابًا** عند الحائط الغربي حيث لم يكن ثمة **باب** من الخارج، ارتعش قلبي في صدري.

بدا **الباب** عتيقًا بل أعرق من الفنار المتحلل حوله، مبنيًّا من الخشب الجاف المجمع معًا وشرائط من العاج الملتوي، أصدرت نسمات هواء صفيرًا عبر الفتحات التي لها رائحة جافة حارة تشبه الحقول في شمس أغسطس.

سحبت جاين المقبض المصنوع من عظام الحوت، انساب بنعومة نحوها، صامتًا مغطى بالزيت، استدارت نحونا، وأظهرت أسنانها المجوفة عبر ابتسامة واسعة، ثم تقدمت نحو الظلام، وضعتُ يدًا واحدة على رأس باد، والأخرى تجاه صامويل باندفاع.

- لا تخف، ولا تفلت يديك.

نظر في عيني:

- لن أفعل.

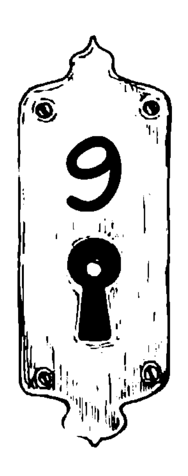
قالها، ثم لف أصابعه بإحكام حول أصابعي.

تجاوزنا العتبة، كان الخواء مرعبًا وفارغًا وخانقًا مثلما كان في السابق، ولكنه بدا أقل ضخامة بوجود صامويل وباد إلى جانبي، أبحرنا في الظلام

مثل ثلاثة مذنبات، ومجموعة نجمية متعددة الأرجل تدور في الليل، ثم سحقت أقدامنا عشبًا جافًا.

وقفنا في غسق غريب برتقالي لعالم آخر، كان أمامي ثانية وحيدة لأرى السهول الذهبية السرمدية، والسماء المفتوحة على اتساعها لدرجة أنها بدت محيطًا معلقًا فوقي، قبل أن يتحدث صوت أجش.

– يا إلهي، إنه موكب لعين، حسنًا يا رفاق سوف تتوقفون حيث أنتم ثم تستديرون ببطء شديد، وبعد ذلك ستخبرونني ما عملكم، وكيف بحق المسيح عثرتم على بابنا؟



الباب المحترق

عندما تخطو داخل عالم غريب، وأنت تشعر بالبرد وأطرافك واهنة، وترتدي نصف ملابسك، تميل إلى فعل ما تؤمر به، استدار ثلاثتنا ببطء.

في مواجهتنا رجل عجوز أشعث مديد القامة، يشبه فزاعة إذا نمت للفزاعات لحى بيضاء غير متجانسة ولوَّحت بالرماح، كان يرتدي معطفًا رماديًّا ذا لمحة قتالية على نحو غامض، وزوجين من النعال الخشنة المصنوعة من الحبل والمطاط، وريشة لامعة مدسوسة في تشابك شعره الأبيض، نخر بينما يوجه الرمح نحو معدتي.

رفعت يدي المرتعشة:

- من فضلك يا سيدي، نحاول فقط أن...

وبلا أي مجهود على الإطلاق، بدأت أصبح مذعورة ومثيرة للشفقة، لكن باد اقتطع التأثير نوعًا ما، إذ كان يصدر صوتًا يشبه محركًا خاملًا، ثائر

الغضب، سحبت جاين مسدس السيد لوك ووجهته مباشرة إلى صدر الرجل العجوز.

حدقت عينا الرجل إلى المسدس ثم نظر إليَّ، متصلبًا:

- هيا يا آنسة، لكن أراهن أنني أستطيع إخراج أحشاء هذه الفتاة قبل أن أنزف، هل تودين المراهنة على الشيء نفسه؟

ساد صمت موجز، تخيلت خلاله كم سيكون شنيعًا أن تنتزع أحشائي بواسطة رمح صدئ مصنَّع منزليًّا، وسببت والدي في صمت بسبب سوء حكمه، ثم حال بيننا صامويل.

مال بلطف نحو الأمام حتى غمز سن الرمح قميصه.

- يا سيدي، لا حاجة إلى ذلك، لا نقصد أي إساءة، أقسم لك.

أشار الرجل بحدة حتى تضع جاين سلاحها جانبًا، لكن جاين تجاهلته تمامًا.

- نحن نبحث عن... مكان لنختبئ فيه لفترة قصيرة، لم نقصد التطفل.

ظل الرجل مضيقًا عينيه اللتين يملؤهما الشك، زوج من الكرات الرخامية الزرقاء المبللة مقحمة في ثنيات عميقة من اللحم.

لعق صامويل شفاهه وحاول مجددًا:

- لنحاول مجددًا، هلَّا فعلنا؟ أنا صامويل زابيا من محلات بقالة عائلة زابيا في فيرمونت، وهذا السيد سندباد، وفي أغلب الأحيان يدعى باد، وهذه الآنسة جاين إيريمو التي ستخفض سلاحها قريبًا جدًّا، أنا متأكد من ذلك، والآنسة جانيوري سكالر، قيل لنا إن هذا مكان جيد لـ...

- سكولار؟

بصق الرجل الكلمة، يميل ذقنه ناحيتي، أومأت فوق كتف صامويل.

- أنتِ ابنة جوليان إذًا؟

وخزني جلدي بمجرد سماع اسم والدي، أومأت مجددًا.

- حسنًا، اللعنة.

أُلقي سن الرمح فورًا ناحية الأرض، مال الرجل بارتياح أمامه، يعبث في أسنانه الناتئة بظفر واحد، وينظر بودٍّ إلينا.

– آسف على إخافتك يا عزيزتي، إنه خطئي، لكن الغرض من واجب الحراسة هو الحراسة، أليس كذلك؟ ولا ضير من الحرص الزائد، لمَ لا تتبعونني جميعًا؟ سأجلب إلينا طعامًا ساخنًا ومكانًا لنجلس فيه، إلا إذا...

وهنا أشار باتجاه الشجرة المتشابكة التي هزمها الزمن وراءنا تمامًا، عند الباب الضيق المحتضن في جذورها:

– هل يحتمل أن يأتي شخص ما خلفكم؟

حدقنا أنا وصامويل إليه في صمت مندهش قليلًا، ولكن جاين قدمت وجهة نظر سليمة:

– ليس فورًا، لا أظن ذلك.

اختفى المسدس مجددًا بداخل صرتها المعقودة بإحكام، وتحولت زمجرة باد إلى تذمر متقطع، هز ذيله ببطء، وهو أمر لا يشير إلى الألفة كثيرًا بقدر ما هو وقف للعداء الصريح.

– حسنًا، تعالوا إذًا، ربما نعود عند العشاء إذا أسرعنا.

اتجه الرجل ناحية غروب الشمس، منحنيًا ليخرج عجلة حمراء صدئة من وسط العشب الطويل، وبدأ يقودها في طريق ضيق، أطلق صفيرًا بلا لحن في أثناء سيره.

تبادلنا سلسلة من النظرات تتنوع بين التعجب مما يحدث والامتنان لأنه لن يحاول قتلنا بعد الآن، ثم تبعناه، خضنا عبر السهل بينما تدفئ أشعة الغروب الحمراء وجناتنا، ساحبة برودة المحيط الأطلنطي من عظامنا، تناوب الرجل العجوز بين التصفير والدردشة، غير عابئ على الإطلاق بصمتنا المضجر الحاد،

عرفنا أن اسمه جون سولومون أيرز، يدعوه أصدقاؤه سول، وُلد في بولك كاونتي في ولاية تينيسي عام 1847، انضم إلى الفوج الثالث من سلاح مشاة تينيسي عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وهجره في العام التالي

حالما أدرك أنه من المرجح أن يموت تعيسًا جائعًا بالنيابة عن شخص ثري يزرع القطن لن يمنحه فلسًا مثنيًّا، واعتقله الشماليون على الفور، كان قد قضى بضع سنوات في سجن ماساتشوستس قبل أن يهرب ويجري ناحية الساحل، تعثر في هذا العالم وظل هنا منذ ذلك الوقت.

– وهل كنت وحيدًا تمامًا؟ حتى جاء والدي؟

شعرت أن الأمر سيفسر صفات سولومون الغريبة للغاية، تخيلته يقبع وحيدًا في زريبة متسخة، يصفر لنفسه، وربما يجتنبه السكان المحليون...

وأين السكان المحليون لهذا العالم؟ هل من المحتمل أن ينقضوا علينا في حشد هادر؟ نظرت إلى الأعلى نحو الأفق العاري لكن لم أر شيئًا مثيرًا للقلق أكثر من خط منخفض من السهول وخليط من الأحجار الرملية الملونة أمامي.

أجاب سولومون:

– يا إلهي، لا، أركاديا، هذا ما نطلقه عليها، من يدري ما كان اسمها، الآن على وشك أن تصبح مدينة حقيقية، وليس كأنني رأيت الكثير من المدن المشابهة، اقتربنا من الوصول الآن.

لم يجبه أحد، لكن وجه جاين عكس تشككًا عميقًا.

لاح الحصى على نحو أكبر بينما نسير، يتضخم إلى صخور تميل على بعضها بعضًا في زوايا غير مستقرة. بعض الطيور، نسور ربما أو صقور، لديها اللون الذهبي اللامع نفسه للريشة في شعر سولومون، تراقبنا بتوجس من مواقعها الصخرية، حلقت بمجرد أن اقتربنا، ويبدو وكأنها اختفت في السماء بفضل خدعة الضوء المتلاشي.

قادنا سولومون عبر ثغرة بين الصخرتين الكبيرتين اللتين شكلتا ممرًّا مظللًا به ستار لامع غريب معلق عبره، وعندما توقفنا أمامها فحسب أدركت أنها ليست مصنوعة من نسيج على الإطلاق، وإنما عشرات الريشات الذهبية مربوطة وتتدلى مثل أجراس رياح ناعمة، من خلالها؛ يمكنني رؤية الطرف الآخر من الأحجار المنتصبة، بعض السهول الفارغة، أعشاب مترنحة بلا نهاية، وآخر بريق وردي من الشمس في أثناء غروبها، لا توجد مدن سرية.

أسند سولومون عجلته على الصخرة ثم ثنى ذراعيه محدقًا إلى الريش وكأنه ينتظر حدوث شيء ما، أطلق باد أنينًا نافد الصبر، بدأت الحديث:

- معذرة يا سيد آيرز.

قال بغموض:

- سول ستفي بالغرض.

- حسنًا، معذرة يا سول، ماذا...

لكن قبل أن أستطيع العثور على طريقة مهذبة لأسأله إذا ما كان رجلًا مجنونًا حقيقيًّا يقضي وقت فراغه في حياكة ستائر من الريش، أو إذا كان لديه وجهة حقيقية في رأسه، سمعت وقع خطوات أقدام، تأتي من الظلام خلف الستار، لكن لم يكن هناك سوى صخور وأرض مغبرة...

حتى نحَّت الريش جانبًا يد عريضة، وظهرت من الهواء الفارغ امرأة بدينة ترتدي قبعة طويلة سوداء، ثم وقفت أمامنا، عاقدة ذراعيها ومضيقة عينيها، قالت جاين سلسلة من الكلمات التي لم أفهمها، لكنني متأكدة أنها كانت غير مهذبة.

كانت المرأة مستديرة داكنة البشرة، وشعرها يشوبه اللون الفضي، ترتدي مجموعة من الملابس المتنافرة تمامًا مثل سولومون، تضم معطفًا مذيلًا ذا أزرار فضية، وبنطالًا مخيطًا من الخيش، وقلادة ما لامعة مزخرفة، وبطريقة ما تمكنت من الظهور بهيئة مهيبة ليست مضحكة، حدقت إلى كل واحد منا تباعًا بعينين جفونهما ثقيلة.

- ضيوف يا سول؟

قالت كلمة ضيوف على النحو الذي قد تقول به براغيث أو أنفلونزا.

انحنى سولومون على نحو مبالغ فيه:

- اسمحوا لي أن أقدم قائدتنا المبجلة، لا تزجريني يا عزيزتي، تعرفين أنك قائدتنا، الآنسة مولي نبتون، هل تتذكرين يا مولي ذلك الرجل الأسمر ذا الوشوم، اسمه جوليان سكولار؟ جاء إلى هنا منذ عدة سنوات وتحدث عن ابنة؟

أدار كلتا كفيه ناحيتي مثل صياد يعرض صيدًا ضخمًا.

- جاءت أخيرًا للزيارة.

بدت مولي نبتون راضية قليلًا فحسب.

- حسنًا، وهؤلاء الآخرون؟

رفعت جاين ذقنها:

- رفاقها، مكلفون بإبقائها آمنة وعلى قيد الحياة.

رفاق. انظر إلى الانحناء في حرف «C» يشبه زوجين من الأذرع الممتدة! تلمح إلى ذلك النوع من الأصدقاء الذي قد يحارب التنانين أو يذهب في رحلات يائسة أو يقسم على يمين دموي في منتصف الليل، ابتلعت رغبتي في الارتماء على جاين معبرة عن امتناني.

مرت مولي بلسانها فوق أسنانها وأشارت:

- لا يبدو أنك نجحت في ذلك حتى الآن. إن جسدها مبتل حتى ثلاثة أرباعه، وهي نصف عارية، ومصابة في كل أنحاء جسدها.

تخشب فك جاين وحاولت سحب أكمام قميص صامويل إلى الأسفل حتى أغطي الضمادة الرمادية الملتفة حول رسغي.

تنهدت المرأة:

- حسنًا، لن أدعهم يقولون إن مولي نبتون لا تفي بوعودها.

وفي تباه ساخر، سحبت إلى الخلف الستار المكسو بالريش.

المنظر بين الأحجار، تلك الرقعة المثلثة الشاحبة من السماء والعشب، اختفت وحل محلها خليط من الأشكال الحائرة، طأطأ رأسي تحت ذراع مولي ثم دخلت إلى الممر القصير محاولة التحديق بتركيز إلى الصور؛ سلالم شديدة الانحدار ترتفع إلى سفوح التلال، أسطح مسقوفة بالقش وطوب من الطين، همهمات أصوات متعالية.

مدينة!

وضعت قدمي بداخل ميدان من الحجر الرملي فاغرةً فمي قليلًا، فجأة أصبحت السهول الفارغة مأهولة بتمدد فوضوي من المباني والشوارع، كما لو أن طفلًا ضخمًا رمى مكعباته في الوادي ثم تجول بعيدًا، كل شيء؛ الطرق

الضيقة والحوائط والمنازل الواطئة والمعابد ذات القباب، مبني من الطين الأصفر والعشب المجفف، توهجت باللون الذهبي في الغسق البارد، مدينة سرية تشبه مدينة إلدورادو[1] مخبأة في ساحل ماين.

إلا أن ثمة شيئًا يوحي بالموت على نحو غريب في هذه المدينة، كأنما نقف بين العظام المتبقية من المدينة بدلًا من مدينة بعينها، أحجار متساقطة ومبان على حافة الانهيار تنتشر على سفوح التلال، تحيط بها تماثيل محطمة لرجال مجنحين ونساء ذوات رؤوس نسور، وفي بقع أخرى، أشجار هرمة متجذرة بنفسها في أسقف متعفنة من القش، وحزم من العشب نبتت في الشوارع المتصدعة، ونوافير جافة تمامًا.

طلل، ولكنه ليس فارغًا، الأطفال يضحكون ويصرخون بينما يديرون إطارًا مطاطيًّا أسفل الزقاق، وتدرج الغسيل من نافذة إلى أخرى على ما يشبه أسلاك التلغراف، وعلى مستوى منخفض في الميدان تعلق دخان طهي دهني.

- مرحبًا بك في أركاديا يا آنسة سكولار.

كانت مولي ترمقني بنظرة متعالية قليلًا.

- أنا... ما هذا المكان؟ هل بنيتِ كل هذا؟

أشرت ببعض المبالغة إلى التماثيل ذات رؤوس النسور وصفوف المنازل الطينية، برز صامويل وجاين من خلفنا وعلى وجهيهما تعبيرات الدهشة نفسها.

هزت مولي رأسها قليلًا:

- لقد عثرت عليها.

رن جرس مرتين من مكان ما في المدينة، فقالت مضيفة:

- العشاء جاهز، هيا بنا.

---

(1) إلدورادو: هي واحدة من الأساطير الأكثر ديمومة في التاريخ، وهي مدينة سرية من الذهب مخبأة في مكان عميق في أمريكا الجنوبية.

سرت خلفها شاعرة بمزيج بين أليس وجاليفر[1] وقطة ضالة، طنت الأسئلة في رأسي، إن لم يبنِ هؤلاء الناس هذه المدينة، فمن فعل؟ وأين هم الآن؟ ولماذا يرتدي الجميع ملابس غريبة تجمع على نحو غريب بين مؤدي السيرك والمشردين؟ لكن غشيني إرهاق صامت وثقيل، ربما كان ثقل عالم جديد يضغط حواسي، أو ربما النصف ميل من المحيط الذي عبرته سباحةً هو المسؤول عن ذلك الإرهاق.

انضممنا إلى مسار من الأشخاص الآخرين الذين حدقوا إلينا في فضول، فحدقت إليهم بدوري، إذ لم أر في حياتي قط مثل هذه المجموعة من البشر المختلفة على نحو جنوني، ذكَّرني الأمر بمحطة قطار لندن عندما كنت طفلة، حديقة حيوان بشرية، كما أطلق عليها لوك.

كانت هناك امرأة صهباء لديها نمش، ترتدي فستانًا بلون الكناري وتحمل طفلًا على أحد وركيها، ومجموعة من الفتيات اللائي يقهقهن وشعورهن مجدولة في لفات متشعبة حول رؤوسهن، وامرأة سوداء يبدو عليها العجز تتحدث لغة ما تضم نقرات دورية ودقات، وزوجين من الرجال العجائز يسيران على مقربةٍ.

رآني سولومون بينما أحدق وأبتسم ابتسامة عريضة.

- هاربون كما قلت، كل نوع من الأشخاص الذي احتاج سابقًا إلى مكان يهرب إليه، انتهى به الحال في أركاديا ذات مرة أو أخرى، لدينا بعض الهنود، وبعض الفتيات الأيرلنديات اللاتي لم يعبأن كثيرًا بطواحين القطن، وبعض الأشخاص الملونين الذين قفز أجدادهم من السفينة في الطريق إلى المزاد العلني، وحتى بعض من الرجال الصينيين. بعد عدة أجيال، سوف نختلط معًا، انظري إلى الآنسة مولي، جدها كان طبيبًا شعبيًّا هنديًّا، ولكن أمها كانت أَمَةً جورجية فرت نحو الشمال.

بدا فخورًا للغاية وكأنه من اخترعها.

- إذًا لا أحد منكم ينتمي حقًّا إلى هنا، إلى هذا العالم.

---

(1) جاليفر: الشخصية الرئيسية في قصة "رحلات جاليفر" وتعتبر من أشهر أعمال الكاتب جوناثان سويفت.

كانت جاين تستمع على الجانب الآخر من سولومون وحاجباها متقاربان.

أجابت مولي:

– عندما عثر جدي في البداية على هذا المكان، كان فارغًا باستثناء النسور والعظام، لا يوجد مخلوق واحد حي، ولا وفرة في الطعام أو الشراب، وأيضًا لا يوجد أي رجال بيض البشرة، ناسبه المكان للغاية.

– على الرغم من أن بعضًا منا كأشخاص بيض البشرة تسللوا بطريقة غير مباشرة منذ ذلك الحين.

همس سولومون كأنه على خشبة مسرح، وجهت مولي ضربة إليه دون النظر خلفها لكنه تفاداها، وشيء ما حيال سهولة حركتهما دفعني إلى التفكير في أنهما أصدقاء منذ زمن طويل.

تناولنا طعامنا في الخارج، جالسين إلى سلسلة من الطاولات الطويلة المصنوعة من الخشب المقوى الذي بدا على نحو مثير للشك وكأنه ينتمي إلى أرضية الفنار، كنا مذهولين ومتعبين للغاية حتى إننا لا نستطيع أن نفعل ما هو أقصى من المضغ، وبدا سكان أركاديا مرحبين بتركنا وشأننا، تحدثوا وتجادلوا مثل عائلة كبيرة فوضوية، ويضحكون بينما يتبادلون أكوامًا من أوعية الطعام، وهو عبارة عن خبز أسمر قوامه يشبه الطوب غير المخمر، وبطاطا حلوة مخبوزة، ولحم لا يمكن تحديد مصدره على أسياخ أَعْجَبَ باد للغاية، ومشروب كحولي يقدم في علب صفيح، وحدها جاين هي من تجرأت وشربته.

أملت كتفي إلى كتف صامويل بينما تظلم السماء وتهب الرياح الباردة، ووجدت نفسي غير قادرة كليًّا على الابتعاد، كان أمرًا دافئًا للغاية ومألوفًا في هذا العالم الغريب، لم ينظر صامويل إليّ، ولكنني رأيت جوانب عينيه تتجعد.

قضينا تلك الليلة في واحد من المنازل التي ليس لها مالك، نرقد على الأرض الطينية في تجمع من الأغطية والشراشف المستعارة، استلقيت أحدق إلى النجوم اللامعة عبر كتل القش المفقودة، وتلك التجمعات النجمية الـتي لم أتمكن من تسميتها.

همست جاين، أصدَرَت صوتًا منزعجًا شبه نائم.

– إلى متى سنضطر إلى البقاء هنا قبل أن تيأس الجمعية منا؟ متى سيكون من الأمان الذهاب للبحث عن والدي؟

ساد صمتٌ قصير.

– أظن أنك يجب أن تنامي يا جانيوري، وتتعلمي التأقلم بما لديك.

ماذا لديَّ؟ كتاب أبي وسكين مصنوعة من عملة فضية، كلاهما ملفوف بإحكام في غطاء وسادة مسروق، يشخر باد بصوت منخفض إلى جانبي، وجاين، وصامويل، وكلماتي غير المكتوبة التي تنتظر أن تغير شكل العالم.

بالطبع، كل ذلك يفوق ما ليس لديَّ: أم، وأب، ومنزل، بالتأكيد سيكون كافيًا.

استيقظت بغتة، شاعرة بأن شيئًا ما جرفته الأمواج على الشاطئ وتُرك ليُشفى في الشمس، مملحًا، متعرقًا، وتفوح منه رائحة نتنة، ربما كنت أستطيع إجبار نفسي على العودة إلى النوم عبر قوة الإرادة، إلا أن باد صرخ محييًا.

– صباح الخير لك أيضًا أيها الكلب.

كان ذلك صوت مولي نبتون المتمهل الخشن.

جلست وكذلك فعل صامويل، قامت جاين بحركة انقلاب مثيرة للشفقة، مثل سمكة على الشاطئ، ثم ضغطت وجهها بعمق في الأغطية.

– إن ذلك أثر جعة سول، كانت تشرب الليلة الماضية، ستكون على ما يرام.

عبرت مولي العتبة، واستقرت مقرفصة على الأرض.

– ربما.

أخرجت جرتين من الخوخ ونصف رغيف من الخبز الكثيف.

– تناولوا الطعام، وبعدها سنتحدث.

– عن ماذا؟

أزالت مولي قبعتها الطويلة ونظرت إليَّ بقلق عميق.

– هذا ليس عالمًا يسهل النجاة فيه يا جانيوري، لا أعرف كم أخبرك والدك...

أقل من اللازم كالعادة.

– لكنها أرض جافة وقاسية، لا نستطيع الجزم بما حدث لسكانها الأصليين، ولكن جدي كانت لديه نظرية تفيد بأن هذه أرض الفجر الأصلية[1] التي تتحدث عنها قصصنا، وأن أجدادنا تناجوا من كثب مع هؤلاء الأشخاص، ربما، حينئذٍ، عانوا من الشرور والنقائص نفسها التي انتقلت إلينا باستثناء أنهم لم يرتكبوها.

هزت كتفيها.

– لا يهم حقًّا، لكن ذلك يعني أن كل شخص هنا ينبغي أن يقوم بنصيبه العادل ليمنعنا من الذهاب في الطريق نفسه، نحتاج إلى تقرير نصيبكم العادل.

شعرت بكربٍ من الشك مثيرٍ للغثيان، بأي شيء قد أساهم مع هؤلاء الأشخاص العمليين الحازمين؟ محاسبة؟ دروس لاتينية؟ لكن صامويل كان يومئ بارتياح.

– ما هو العمل الذي يمكنني المساعدة فيه؟

– أوه، مختلف الأعمال، ننقل الماء من الينبوع إلى الشمال، نزرع ما نستطيع، ونصطاد فئرانًا برية وغزلانًا، نصنع كل شيء نحتاج إليه تقريبًا.

نظرت مولي إلينا بعينين حادتين، حذرتين، كأنها تختبر ذكاءنا، لم أشعر بأنني ذكية.

– إذًا... ماذا ستفعلين؟ إن كان ذلك غير كافٍ؟

لكن صامويل هو من أجاب، أمسك الخوخ المعلب ورفعه إلى الضوء ومرر إبهامه على الزجاج المنقوش، يقول «برطمانات بول ماسون».

– يسرقون.

لم يبد منزعجًا بالتحديد من الأمر، تعمقت الأغطية حول عينَي مولي في سخرية قاتمة.

(1) أرض الفجر: هي أسطورة تخص شعب الأبيناكي.

- نبحث يا فتى، نجد، ونستعير، ونشتري، وأحيانًا نسرق، نظن أن عالمكم قد سرق بما يكفي منا، لن يضير إذا استعدنا القليل منه.

حاولت وفشلت في تخيل سكان أركاديا يتجولون بعفوية في مدن ماين الصغيرة، دون أن يلاحظهم أحد فورًا، ويعتقلهم وربما يسجنهم.

- لكن كيف...؟

أجابت مولي ساخرة:

- بحرص شديد، وإذا لم يسر الوضع حسب الخطة، لدينا هذه.

مدت إصبعين تحت ياقتها المزخرفة وأخرجت ريشة ذهبية لامعة.

- رأيتِ النسور في أثناء دخولكم، أليس كذلك؟ يلقي كلٌ منهم بريشة واحدة طيلة حياته، يبحث الأطفال في السهول عنها كل صباح ومساء، وعندما يعثرون على واحدة، نطلب عقد اجتماع على مستوى المدينة لنقرر من يحملها، إنها أغلى ما نملك.

مشطت مولي حافة الريشة برقة:

- إذا كنت مذعورة أو محاصرة، أو إذا نفخت في هذه الريشة، لن يصبح في استطاعتك رؤيتي، إنها تخدع العين بطريقة لا نفهمها، وبصراحة لا نهتم، كل ما نعرفه، أن الشخص يصبح شبه خفي بالنسبة إلى الناظر العابر.

ابتسمت.

- حلم اللصوص، لم يتبعنا أحد قط إلى الفنار.

كانت جاين التي وجدت صعوبة في الاتكاء على مرفق واحد تستمع الآن بمجهود شاق، نخرت مطلقة فكرة تنويرية:

- ولكن إذًا كيف وجدكم جوليان؟

سألت، بدا صوتها وكأن حلقها امتلأ بالرمال في الليل.

- حسنًا، لا تزال هناك بعض الشائعات، قصص حول أرواح شريرة تسكن الساحل، تسرق الفطائر من النوافذ، واللبن من الأبقار، عرف

جوليان كيف يتتبع مثل هذه القصص نحن محظوظون بوجود عدد قليل من الرجال أمثاله.

دفعت مولي نفسها للوقوف على قدميها، تزيل الغبار عن ذيل معطفها:

- بالكاد يمكننا إرسال ثلاثتكم إلى الخارج للاستكشاف إذا كنتم مجرمين مطلوبين.

- نحن لسنا...

بدأ صامويل الحديث.

لوّحت مولي إليه بيد منزعجة.

- هل يلاحقكم أشخاص ذوو نفوذ؟ أشخاص لديهم مال وسلطة وصبر؟

تبادلنا نظرات مضطربة.

- إذًا ستصبحون مجرمين عمّا قريب، إن لم تكونوا بالفعل، ونحن واثقون للغاية بأننا لا نملك من الريش ما نضيعه عليكم، سنجد عملًا آخر لكم.

أثبت هذا التهديد جديته وإلحاحه، إذ قضى ثلاثتنا الأسبوع التالي في العمل إلى جانب سكان أركاديا؛ أنا، باعتباري العضو الأقل امتلاكًا لمهارات عملية في المجموعة، أُرسلت للعمل مع الأطفال الذين استمتعوا بالأمر دون مبرر، علموني كيف أسلخ الفئران البرية وأحمل الماء بحماسة شبه مُهينة، وكانوا مسرورين باكتشاف أنني أبطأ وأكثر حمقًا من الطفل العادي الذي يبلغ من العمر تسع سنوات في أركاديا.

- لا تقلقي.

نصحتني فتاة داكنة البشرة ذات عينين رماديتَي اللون في صباح يومي الثاني، كانت ترتدي ثوبًا قذرًا من الدانتيل وزوجين من أحذية العمل الرجالية.

- استغرقت عدة سنوات لأصبح ماهرة في موازنة دلاء الماء.

قالت ذلك متظاهرة بالنضج والنبل، قاومت رغبة في ضرب رأسها بالدلو.

حتى باد كان مفيدًا أكثر مني، بمجرد أن شفيت قدمه بما يكفي لإزالة الجبيرة، تلقى دعوة للانضمام إلى جاين والصيادين، تجولوا خارجًا عبر السهول قبل الفجر كل صباح، مسلحين بمجموعة عشوائية من الأسلحة

والفخاخ، وعادوا بصفوف مترهلة من أجساد مكسوة بالفرو تتدلى فوق أكتافهم، كانت جاين متجهمة، ولكنها تحركت بسهولة افتراسية لم أرها من قبل في الردهات الضيقة بمنزل لوك، تساءلتُ إذا كانت تبدو هكذا بينما تطوف في غابات عالمها المفقود، في أثناء الصيد مع النساء النمرات، وتساءلت ما إذا كان بابها قد أُوصد إلى الأبد، أو إذا كان بإمكاني فتحه، لو كنت شجاعة بما يكفي لأحاول.

بدا صامويل يعمل في كل مكان مع الجميع في الوقت نفسه، رأيته يعيد إصلاح سطح مسقوف بالقش، ويعكف على مرجل نحاسي مبخر في حجرات الطعام، ويحشو المراتب أعشابًا مجففةً طازجةً، ويحرث الحدائق مرسلًا غيومًا من غبار أصفر في الهواء، كان دائمًا ما يبتسم، ودائمًا ما يضحك، وعيناه تلمعان كأنه يعيش في مغامرة ضخمة، خطر لي أنه ربما يكون محقًّا، لم يكن ليصبح بقالًا ماهرًا.

– هل يمكن أن تكون سعيدًا هنا؟ حقًّا؟

سألته في الأمسية الرابعة أو الخامسة، كان وقت ما بعد العشاء الذي يمر متمهلًا حين يستلقي الجميع وبطونهم ممتلئة، ويسحق باد بسعادة العظام الصغيرة للفئران البرية.

هز صامويل كتفيه:

– ربما، يتوقف الأمر على أشياء أخرى.

– على ماذا؟

لم يُجِبْ في الحال، لكن نظر إليَّ بعينين ثابتتين جادتين جعلتا ضلوعي تضيق.

– هل ستكونين سعيدة هنا؟

هززت كتفي أيضًا، بينما تهرب عيناي بعيدًا، بعدما ساد صمت قصير، ذهبت للجلوس مع ياموراي، الفتاة ذات العينين الرماديتين، وتملقتها حتى تجدل شعري، شعرت بالهدوء تحت شد ولف أصابعها المُنوم مغناطيسيًّا.

هل يمكن حقًّا أن أكون سعيدة وأنا لن أعرف مصير والدي على الإطلاق؟ وأنا لن أرى أبدًا بحار العالم المكتوب وسجلات مدينة نين؟ تاركة الجمعية

لمكائدهم الغامضة، وعمليات إغلاق الأبواب الخبيثة؟ لكن حينئذٍ، ماذا يمكنني أيضًا أن أفعل حقًّا؟ كنت مرفوضة وهاربة مثل الجميع هنا، ويافعة ورقيقة وبلا خبرة أيضًا، الفتيات أمثالي لا يطرحن أنفسهن في مقابل ثِقَل القَدَرِ الساحق، لا يصطدن الأشرار ولا يخضن مغامرات، لكن يلزمن أماكنهن ويبقين على قيد الحياة ويعثرن على السعادة أينما يستطعن.

هدر صوت الركض في الشارع وتجمدت إصبع ياموراي في شعري، توقفت ثرثرة سكان أركاديا المريحة، جاء ولد مندفعًا بسرعة كبيرة إلى المدينة، صدره يعلو ويهبط وعيناه جامحتان، وقفت مولي نبتون.

- هل حدث شيء يا آرون؟

كان صوتها همهمة ناعمة ولكن كتفيها أخذتا وضع الاستعداد على إثر القلق، انحنى الطفل، لاهثًا، وفي عينيه حلقة بيضاء.

- إنه... هناك سيدة عجوز أسفل الشجرة، شديدة الضيق، تقول إن رجلًا طاردها عبر الباب، ولا أثر له الآن.

سد الخوف حلقي مثل القطن البارد، لقد وجدونا.

لكن الفتى لا يزال يحاول الكلام، يتطلع إلى عينَيْ مولي ويحرك شفتيه بلا صوت.

- ماذا أيضًا يا فتى؟

ابتلع ريقه:

- إنه سول يا آنستي، قُطعت حنجرته بحدة، لقد مات.

إذا نجح السيد لوك أن يعلمني أي شيء، سيكون كيفية البقاء هادئة حينما أريد الصراخ أو العويل أو تمزيق الملصقات إلى شرائط، تصلبت أطرافي مثل زوائد محشوة علِّقت بمادة سيئة التحنيط، وساد رأسي صمت طنان، بذلت ما في وسعي حتى لا أفكر في أي شيء على الإطلاق.

بينما تصرخ مولي بالأوامر، وهب صامويل وجاين على أقدامهما للمساعدة، لم أفكر، يا إلهي، سولومون، لم أفكر في ريشته الذهبية الأنيقة، وملابسه التي تشبه الفزاعة، وغمزته اللطيفة.

عندما غادر حشد من الناس وتركوا الباحة فارغة تقريبًا باستثناء الأطفال وأمهاتهم، لم أشعر بالخوف يتسلل مثل الثعبان عبر معدتي، لم أفكر، هل سأكون التالية؟ هل هم هنا بالفعل؟

وعندما عادوا، عندما وضعت مولي نبتون بنفسها الجسد النحيل المغطى بالأبيض على الطاولة، وعيناها تشبهان القبور المفتوحة، لم أفكر، هذا خطئي، كله خطئي، مال باد بثقله الدافئ على قدمي وشعرت برجفة تسري خلالي، رعشة حزن. دخل صامويل الباحة متعثرًا منحنيًا، يقود امرأة تبدو عليها الهشاشة وترتدي تنورة رمادية طويلة، تشبثت بذراعه على نحو مثير للشفقة، تَطْرُف بعينيها الدامعتين فوق جذر أنفها الملتوي، أجلسها بحرص، وسوَّى لها شالها بحنان لدرجة أنني تساءلت هل يفكر في جدته، المرأة التي تشبه الغراب الثرثار، رأيتها تقبع في الشرفة الأمامية لمنزل عائلة زابيا، تتمتم بشتائم باللغة الإيطالية تجاه سيارة البويك التي يمتلكها السيد لوك عندما مرت إلى جانبها، تساءلت هل سيراها صامويل مجددًا يومًا ما، هذا خطئي.

انتقلت عينا المرأة من وجه إلى آخر حتى عثرت عليَّ، فغرت فاها، رطبًا وكريهًا، فجفلت، كان شعورًا مألوفًا، كم حدَّقت إليَّ سيدات عجائز وقحات بيضاوات البشرة لمدة سبعة عشر عامًا بينما يتجادلن إذا كنت من سايام أم سنغافورة، لكن الأمر صدمني هذه المرة، كنت قد اعتدت بالفعل رفاهية الاختفاء بين سكان أركاديا.

كانت جاين تتحدث بصوت منخفض مُلح مع مولي والصيادين الآخرين، يناقشون تناوب الدوريات، ومناوبات تستمر طيلة الليل، أحاط جمع من النساء بالمرأة العجوز، يتوددن إليها في شفقة، أجابت على أسئلتهن بصوت خجول ومرتعش: نعم، لقد كانت تجدف على طول الساحل، ولكنها ضلت الطريق. نعم، طاردها رجل يرتدي معطفًا داكنًا. لا، لا تعلم أين ذهب. كثيرًا جدًّا ما مرت بعينيها عليَّ بينما تتحدث، نظرت بعيدًا، ولكن ما زلتُ أشعر بإحساس عينيها النزق الذي يشبه خيوط العنكبوت على جلدي.

وجدت نفسي أبغضها، كيف عثرت أصلًا على الفنار؟ ولماذا اجتاحت هذه الجنة الصغيرة الهشة جالبة الموت في أعقابها؟ في النهاية، جاء صامويل ليأخذني مثل راعي أغنام يجمع خروفًا ضالًّا.

- لا يوجد ما يمكننا فعله الليلة سوى النوم.

مشيت خلفه في الظلام، والشوارع المتصدعة، ولعدة مرات، ظننت أنني سمعت وقعَ أقدامٍ يتنقل خلفنا، أو تنورةً طويلةً تسير على الحجارة، أو نَفَسًا يخرج من صدرٍ متقدمٍ في العمر، انتقدت نفسي، لا تكوني غبية، إنها امرأة عجوز غير مؤذية، حتى لاحظت باد يقف متيبسًا أمام تمثال نحاسي، يحدق خلفنا بشفاه ملتفة إلى الخلف، وزمجرة تتردد في صدره.

سرت في أعماقي رجفة باردة، مثلما يحدث عندما تغوص إلى أعماق البحيرة، وتوقظ المياه الشتوية الباردة الموجودة هناك، وكزت باد بركبتي، وفمي جاف.

- هيا يا فتى.

رقدت إلى جانب صامويل في الظلام الذي يقطعه ضوء القمر في منزلنا المستعار، أفكر في استحالة حدوث هذا الأمر، ثم أتأمل كلمة «مستحيل» وتقلباتها المفاجئة في الأيام الماضية وأواصل التحديق إلى السقف بلا نوم.

جاءت جاين في وقت ما بعد منتصف الليل، وزحفت إلى فراشها، انتظرت حتى يتعمق تنفسها، انتظرت صافرتها الرقيقة التي لا ترتقي إلى الشخير، ثم تسللت إلى جانبها، سحبتُ مسدس السيد لوك بحرص من تنورتها ودسسته تحت حزامي، بينما أغادر المنزل في الليل الأسود اللامع، رقد المسدس باردًا وثقيلًا في مقابل فخذي.

سرت في شارعنا حتى أعلاه وباد يمشي إلى جانبي، إلى أن تحول إلى عشب ممزق وحجارة محطمة، ارتفعت السهول من حولي، يلونها الهلال باللون الفضي. تجولت عبر الحشائش، محاولة تجاهل العرق الذي يوخز كفوفي، والرعشة في معدتي التي تقول إن ما أفعله هو فكرة غبية للغاية.

ثم توقفت، وانتظرت.

وانتظرت، تمر الدقائق، وتُقاس بدقات القلب شديدة السرعة، تحلي بالصبر، تحلي بالشجاعة، كوني مثل جاين، حاولت الوقوف مثلها، مشدودة ومستعدة مثل قطة صيد طويلة الساقين عوضًا عن الارتعاش والتشكك.

صدر صوت خطوات هامسة من خلفي، ناعمًا للغاية لدرجة أنه يمكن أن يكون مخلوقًا ما صغيرًا يجري عبر العشب، زمجر باد بصوت خفيض عميق، وأنا صدقته.

سحبت المسدس من تنورتي، واستدرت ثم صوبت نحو الجسد المنكفئ خلفي، رأيت انحناءة أنفها الطويل، والطيات المترهلة عند حلقها، ورعشة يديها عندما ترفعهما، اقتربت منها.

- من أنتِ؟

همست، يا له من أمر مبتذل على نحو مؤلم شنيع! حتى بينما ينبض الدم في رأسي ويضيق حلقي بالرعب، أدركت أنني كنت أقوم بتقليد سيئ للغاية لواحد من روفر بويز، إن كان قد سبق لروفر بويز أن هدد أي سيدة عجوز، لهثت السيدة العجوز وتلعثمت بفعل الخوف.

- اسمي... اسمي السيدة إيميلي براون، كنت أتجول قليلًا، أقسم، من فضلك لا تؤذيني يا آنسة، من فضلك...

كدت أن أصدقها، شعرت بنفسي أنكمش وأتراجع، إلا أن هناك شيئًا مريبًا حيال صوتها، لم يبد حقًّا مثل صوت امرأة عجوز، الآن وبما أنني أقف على مقربة منها، بدا وكأنه شخص يافع يقلد بوقاحة امرأة عجوز، منتشيًا ومرتعدًا.

بدأت يدها تزحف نحو تنورتها، ولا يزال صوتها يثرثر في رعب، لمع في وجهي شيء فضي من طيات الملابس السوداء، تجمدت، وانتتني رؤيةٌ مُدَّتها نصف ثانية عن مدى إحباط جاين إذا سمحت لامرأة عجوز أن تقطع عنقي، ثم ضربت يدها بعيدًا وسحبت السكين من جيب فستانها، قشر شيء ما أسود قاس نصل السكين.

ألقيت بها بعيدًا في الظلام وأعدت توجيه المسدس إلى صدرها، توقفت عن الثرثرة.

- من أنتِ؟

تردد الصوت على نحو أكثر وضوحًا هذه المرة، فيما يشبه التهديد، تمنيت لو توقف المسدس عن الاهتزاز، أغلقت المرأة فمها بخيط شنيع، حملقت للحظة، وضيقت عينيها، ثم قرقرت بلسانها في قرف، أخرجت سيجارة من جيبها وأشعلت عود ثقاب، ونفخت حتى توهجت السيجارة وأصدرت طقطقة، خرجت سلسلة من الدخان الأبيض من أنفها بينما تتنهد.

- قلت...

- أفهم الآن لماذا واجه كورنيليوس وهافيميير صعوبة معكِ.

أصبح صوتها الآن منخفضًا ورشيقًا، ودسمًا قليلًا.

- إنكِ شخص مثير للمشكلات، أليس كذلك؟

يا له من شعور غريب، أن تثبت صحةُ شكوك المرء الأكثر جموحًا، بالطبع، من المُرضي أن تكتشف أنك لست مجنونًا، لكنه أمر مخيب للآمال نوعًا ما أن تدرك أنك حقًّا مُلاحق من قبل منظمة مشبوهة، تستطيع الوصول إلى أي مكان على ما يبدو.

- من... أنتِ من الجمعية، أليس كذلك؟ هل قتلتِ سولومون؟

رفعت المرأة حاجبيها ونثرت رمادًا من سيجارتها في تصرف عفوي ذكوري.

- نعم.

ابتلعت ريقي:

- وأنتِ أحد أنواع اللصوص أو ما شابه؟

- يا إلهي، يا لها من مخيلة!

مدت يدها خلف رأسها وقامت بإشارة ملتفة في الهواء، كأنها تفك عقدة غير مرئية، و...

ترهل وجهها وسقط، أمسكته في يدها، إلا أنها لم تعد مجعدة أو مرقطة بفعل السن بعد الآن، والفم الذي يبتسم لي على نحو كريه، لم يكن فتحة رطبة، وحدهما العينان الدامعتان بقيتا كما هما.

كان الرجل الأصهب من لقاءات جمعية السيد لوك، المثير للقلق، نحيل الوجه، يرتدي بدلة سفر داكنة الآن بدلًا من التنورة الرمادية، انحنى أمامي على نحو مزيف سخيف في الظلام الفارغ لعالم ميت، ورفع القناع عاليًا في ضوء القمر الفضي، تدلى منه شعر الخيل في حبال متشابكة.

- شيء ما هندي، وجه مزيف، أهكذا يسمونه؟ جلبه والدك العزيز لنا منذ سنين من تصدع ما جنوب بحيرة أونتاريو، ووجدنا أنه شيء مفيد للغاية، النساء العجائز القبيحات مخلوقات غير مميزة على الإطلاق.

دس القناع في الجيب الموجود عند صدره. ابتلعت الصدمة، وحاولت أن أجعل صوتي يتردد مهددًا أكثر منه مندهشًا.

– وكيف عثرت عليَّ؟

– أنا بوجه عام، أحظى بإجماعٍ على أنني أفضل صياد، عندما تتطلب الأمور الصيد.

شمشم حوله بافتعال، يستنشق الدخان ثم ضحك، زمجر باد، تدحرج الصوت عبر السهول، وخفتت ابتسامة السيد إلفين الواثقة قليلًا.

مد يده نحو الجيب الموجود عند صدره مجددًا وأخرج شيئًا مزخرفًا لونه أخضر نحاسي.

– وكان لديَّ هذه بالطبع.

اتجهت نحو الأمام، وخطفتها ثم تراجعت مجددًا، كانت بوصلة من نوعٍ ما، باستثناء عدم وجود حروف أو أرقام حتى العلامات الصغيرة التي تشير إلى الدرجات، استقر السهم فجأة، مشيرًا إلى اتجاه كنت واثقة بما يكفي أنه ليس شمالًا، ألقيت بها على العشب، وسمعتها تتصادم مع سكينه.

– لكن لماذا؟

لوحت بالمسدس على نحو جنوني قليلًا وشاهدت عينيه تراقبانه في قلق.

– أنا لا أؤذيك لما لا تتركني وشأني؟ ماذا تريد؟

هز كتفيه متظاهرًا بالخجل بينما يبتسم من إحباطي وخوفي.

وفجأة، شعرت بأنني سئمت تمامًا من الأمر، من الأسرار والأكاذيب وأشباه الحقائق، الأشياء التي أعرف نصفها، وأشك في نصفها الآخر، ومن القصص التي جرى ترقيعها معًا، تلك القصص التي لم تسرد قط بالترتيب من البداية إلى النهاية، بدا وكأنه اتفاق صامت في العالم أن الفتيات الصغيرات اللائي لا يمتلكن المال أو أي موارد، هن ببساطة أتفه من أن يُحكى لهن كل شيء، حتى والدي انتظر حتى اللحظة الأخيرة ليخبرني بالحقيقة كاملة.

يكفي، شعرت بثقل المسدس في راحتي، سلطة حديدية عنت –للحظة فحسب– أنني أستطيع تغيير القواعد، تنحنحت:

– اجلس يا سيد إلفين من فضلك.

- معذرة؟
- يمكنك الوقوف إذا أردت، لكنك ستروي لي قصة طويلة للغاية، وأكره أن تؤلمك قدماك.

اقترب من الأرض ثم قرفص ووجهه محتقن.

- الآن.

ثبت فوهة المسدس مباشرة فوق صدره.

- أخبرني بكل شيء من البداية، وإذا قمت بأي حركة مفاجئة، أقسم بأنني سأجعل باد يلتهمك.

كانت أسنان باد ظاهرة لامعة بالأبيض والأزرق، تحرك حلق إلفين بينما يبلع ريقه:

- جاء مؤسسنا عبر هذا الصدع في القرن الثامن عشر، في إنجلترا أو إسكتلندا، لا أتذكر، امتلك قدرة خارقة على استمالة الأشخاص نحو ما يريد، لم يستغرق الكثير من الوقت حتى بلغ القمة في العالم، ورآه على ما كان عليه، عبث، وثورات، واضطرابات، وفوضى، ودماء مراقة، وتبذير، والسبب خلف كل ذلك هو الانحرافات، فتحات غير طبيعية تسمح بدخول كل أنواع الشرور، شرع في إصلاحها حيثما عثر عليها. في البداية، عمل المؤسس بمفرده، ولكن بعد فترة بدأ في تجنيد الآخرين، البعض ممن يشبهونه، وهم المهاجرون إلى هذا العالم، والبعض الآخر يشاركونه فحسب اهتمامه بزرع النظام.

تخيلت السيد لوك، شابًا طموحًا طماعًا، مثاليًا للتجنيد، لا بد وأنه كان أمرًا سهلًا.

- جعلناه معًا عملنا في تطهير العالم والحفاظ عليه آمنًا ومزدهرًا.
- ولسرقة الأشياء، بالطبع.

أضفت، عبس وجهه:

- وجدنا أن أشياء وقوى محددة عندما تستخدمها أيدٍ حكيمة بحذر شديد، قد تساعدنا في مهمتنا، كما تفعل المزيد من صور الثروة المادية، عملنا جميعًا لاكتساب مناصب من النفوذ والوجاهة، جمعنا

أموالنا وموّلنا رحلات استكشافية لكل مكان في العالم، بحثًا عن التصدعات. بحلول الستينيات، حصلنا على اسم ودور مرموق وهو جمعية نيو إنجلاند الأثرية.

صنع إلفين بيديه إشارة سحرية صغيرة وتابع بإلحاح صادق:

- ونجح الأمر، الإمبراطوريات تكبر، والأرباح ترتفع، والثوّار ومثيرو الشغب لا وزن لهم على أرض الواقع، ولا يمكننا، ولن نترك متطفلة صغيرة مثلك تدمر كل جهودنا، إذًا أخبريني يا فتاة، ما هي الأشياء أو القوى التي تملكينها؟

كانت عيناه الرطبتان اللامعتان مثبتتين عليَّ.

رجعت خطوة إلى الوراء:

- إنها... لا يهم، الآن، قف!

لم أكن واثقة ماذا سأفعل، هل أجعله يمشي عائدًا إلى المدينة وأسلمه لـجاين مثل قطة تحمل شيئًا كريهًا إلى مالكها؟ ولكن إلفين ابتسم فجأة.

- تعرفين أن والدك فكر في عرقلتنا، انظري ماذا حدث له.

طقطق بلسانه. توقفت عن الحركة، بل ربما توقفت عن التنفس.

- قتلته، أليس كذلك؟

تسربت النغمة الناضجة السلطوية من صوتي، واتسعت ابتسامة السيد إلفين أكثر وازدادت حدة مثل ابتسامة الذئب.

- عثر على تصدع في اليابان، كما أثق بأنك تعرفين، اعتاد عامةً التجول في الداخل ليوم أو يومين ليعود بعدها بحلي مثيرة للاهتمام لأجل لوك ويغادر، لكن هذه المرة أطال البقاء، ومللت من الانتظار، ومن ارتداء ذلك الشيء اللعين...

نقر على الجيب الموجود عند صدره فوق قناع المرأة العجوز.

- ذات يوم، لمحني عند سفح الجبل، وتعرف عليَّ.

هز إلفين كتفيه، معتذرًا على نحو مزيف.

- النظرة على وجهه! كنت لأقول إن وجهه تحول إلى ما يشبه الصفحة البيضاء، ولكن لون بشرته لن يسمح بذلك.... صاح والدك: «أنت! الجمعية!» حسنًا، حقًّا، تخيلي أن تندهشي بعد سبعة عشر عامًا من البقاء مربوطةً إلى رسنٍ ما، ثم قال أمورًا متطرفة متعبة، وهدد بفضحنا، من سيصدقه؟ أسألك، تحمس بشأن إنقاذ ابنته الصغيرة، وقال إنه سيبقي هذا الباب مفتوحًا حتى لو كان آخر شيء يفعله... كل هذه الأمور الدرامية.

همس نبضي:

- لا، لا، لا.

ارتعش المسدس مجددًا.

- ثم اندفع عائدًا إلى خيمته مثل رجل مجنون للغاية، تبعته.

- ثم قتلتَه.

الآن تحول صوتي إلى ما هو أضعف من الهمس، نفس مخنوق، بعد كل هذا التأمل والانتظار والجهل، بعد كل هذا، تخيلت جثته متجمدة ومنسية، تقتات عليها الطيور البحرية.

لا يزال إلفين يبتسم ويبتسم:

- كانت لديه بندقية، تعرفين، وجدتها في أشيائه لاحقًا، لكنه لم يحاول حتى الوصول إليها، كان يكتب عندما سحبته خارج خيمته، يكتب كما لو كانت حياته تعتمد على الأمر، قاتلني بضراوة فحسب ليعيد مفكرته إلى صندوقها. بصراحة، يجب أن تشكريني لأني خلصتك من ذلك الشخص المضطرب.

يمكنني تقريبًا رؤية يديه داكنتين، بوشوم ملتفة، تكتبان تلك الكلمات الأخيرة اليائسة: اهربي يا جانيوري، أركاديا، لا تثقي. حاول تحذيري.

الآن تشوشت ابتسامة إلفين في نظري وأصبحت مخروطية الأبعاد.

- أشعلت النار في الصدع، كان من خشب الصنوبر الجاف، نشبت فيه النيران مثل شعلة، انتحب والدك يا جانيوري وتوسل قبل أن أدفعه

عبر الصدع، لمحت يديه بإيجاز، ترفرفان عبر النيران، ثم لا شيء، لم يظهر مجددًا.

راقبني إلفين حالما انتهى من سرد القصة، تلمع عيناه بالشره، أراد دموعًا، أعرف ذلك، أراد حسرة ويأسًا، لأن أبي أصبح محاصرًا إلى الأبد في عالم ما آخر، وأنا أصبحت وحيدة على نحو شنيع إلى الأبد، لكنه...

حي، حي، حي، والدي على قيد الحياة، وليس ميتًا يتعفن عند سفح جبل أجنبي ما، لكنه حي، وعاد أخيرًا إلى وطنه الحقيقي، حتى وإن كنت لن أراه ثانية.

أغمضت عينيَّ وسمحت للأمواج المتوائمة من الخسارة والفرح أن تلاطمني، وتركت قدمي تعرج، وركبتي تنسحق إلى الأرض، شمشم باد بقلق عند رقبتي، بحثًا عن إصابات.

بعد فوات الأوان، سمعت صوت خطوات إلفين يتحرك، فتحت عينيَّ فجأة لأجده يخربش في الأرجاء بحثًا عن سكينه والبوصلة النحاسية.

- لا!

صرخت، لكنه كان يتجه بالفعل ناحية المدينة، ظل أحمر وأسود يعدو عبر العشب، أطلقت المسدس عاليًا عبر الليل، رأيته ينبطح، ثم سمعت دويَّ خطوات قدميه عبر الشارع الخالي، اختفى في تجمع من المنازل المهجورة.

انطلقتُ أنا وباد خلفه، بالكاد عرفت ماذا سأفعل إذا أمسكت به، المسدس يتدلى ثقيلًا في يدي، وصورة جسد سولومون المغطى بالأبيض تمر أمامي على نحو مثير للغثيان، لكني لا أستطيع أن أدعه يرحل، لا أستطيع أن أتركه يخبر الجمعية بمكاني، وبموقع أركاديا.

تحرك ظلان طويلان في الطريق أمامي، مدت جاين ذراعًا لتمسك بي:

- سمعنا رصاصة... ماذا...

- إلفين من الجمعية، ذهب في هذا الاتجاه، أظنه يحاول العودة إلى الباب...

تناثرت كلماتي بين شهقات الهواء، لم تنتظر جاين توضيحًا لكنها ركضت فحسب، تعدو عند سفح التلة في خطوات واسعة دائرية أسرع عدة مرات مني، بقي صامويل معي أنا وباد، يتعثر في الطوب والصخور المتناثرة.

انزلقنا إلى الباحة لنجد جاين رابضة أمام الممر ذي الستار المكسوّ بالريش، شفاهها ملتفة نحو الداخل في ابتسامة صياد منتصر، وقف إلفين على بعد عدة خطوات، عيناه جامحتان وفتحتا أنفه متسعتان في يأس حيواني.

قالت جاين في هدوء:

- أظن أن ذلك يكفي.

ومدت يدها نحو جيب تنورتها بحثًا عن مسدس السيد لوك، لكن بعد ذلك تكدر وجهها، واختفت ابتسامة النمرة، لأن المسدس ليس هناك، لأنني سرقته منها.

هناك لحظة ممتدة اندفعت فيها بالمسدس، وإبهامي المتعرق ينزلق على مدقته، شاهد إلفين يد جاين تبرز خالية من جيب تنورتها، ابتسم ثم انقض عليها.

كانت هناك قطعة فضية، لمعان شيءٍ ما رطب وبلون النبيذ في ضوء القمر، ثم اختفى إلفين، يرفرف الستار الذهبي من خلفه، سقطت جاين على ركبتيها مطلقة تنهيدة ناعمة ومفاجئة.

لا، لا أتذكر إن كنت صرخت، أو إن كانت الكلمة قد تمزقت في مقابل الأطلال الطينية وترددت عبر الأزقة، أو إن كنتُ سمعتُ حينها صرخات استجابة محذرة وأصوات ركض.

أتذكر انحنائي إلى جانبها، أتشبث في حواف الجرح الطويلة الغائرة، ورؤية يديَّ تسودَّان بالدماء، أتذكر تعبير جاين بالدهشة الباردة، أتذكر صامويل يربض إلى جانبها الآخر وهمسه الأجش: «نذل»، وأتذكر رؤية ظهره يختفي عبر الستار خلف إلفين.

ثم كانت هناك أياد تضغط إلى جانبي، أيادٍ خبيرة مختصة، ونظيفة، لها رائحة النعناع المسحوق.

- ستكون الأمور على ما يرام، يا فتاة أفسحي لي مجالًا فحسب.

انسحبت إلى الخلف، لأدع المرأة ذات الشعر الرمادي تنكفئ بالقرب من جاين، إلى جانبها مصباح قديم الطراز يشع نورًا، أمسكت يديَّ الملطختين بالدماء على نحو غريب بعيدًا عن جسدي، كما لو أنني أتأمل أن يخبرهما أحد بما تفعلانه.

طلبت المرأة قطنًا نظيفًا وماءً مغليًا وشخصًا ما مستعدًا لإطاعتها، كان صوتها هادئًا للغاية متمهلًا، لدرجة أن أصغر انحناءة أمل انشقت في معدتي.

- هل هي... هل س...

بدا صوتي هشًا مثل شيء قُشر حديثًا.

ألقت المرأة بنظرة متضايقة خلف كتفها:

- كل ذلك مجرد فوضى واستعراض يا فتاة، فهو لم يصب أي شيء لا يمكنها العيش من دونه.

طرفت بعينيَّ بينما أنظر إليها ثم لانت أساريرها:

- ستكون على ما يرام، إذا استطعنا منع حدوث الالتهاب.

تملكتني حالة من الراحة، وارتخت عضلاتي كأسلاك مقطوعة، دفعت كفيَّ النزقتين باتجاه عينيَّ، أضغط نحو الخلف الدموع الهستيرية التي خرجت لتوها من عينيَّ، وفكرت في أنها حية، لم أقتلها، بقيت على تلك الحال، شبه منهارة على ركبتيَّ، وواهنة تغمرني الراحة، حتى اهتز الستار المكسو بالريش مجددًا، كان صامويل وعرفت من خط فمه المتجهم أن السيد إلفين قد هرب عبر **الباب**.

لم ينظر صامويل إلى الناس الذين يملؤون الميدان الآن بهمسات خائفة، أو إلى وميض الدماء الياقوتي في ضوء المصباح، سار مباشرة تجاهي، حافي القدمين، وأزرار قميصه نصف معقودة، وعيناه تدوران بشعور قاتم، وفقط عندما وقف على مستوى أعلى مني مباشرة، أدركت أنه الخوف.

- تبعته حتى الشجرة.

قال برقة:

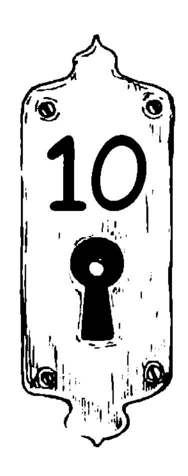
- حاولت أن أتبعه إلى مسافة أبعد، حاولت أن أعبر خلفه، ولكن...

ولكن عرفت ماذا سيقول، عرفته تمامًا كما لو أنني وقفت إلى جانبه على السهل الفارغ.

- لم يكن هناك شيء، لا توجد طريق للعبور.

ابتلع صامويل ريقه:

- الباب مغلق.



الباب المُوحش

تحدث صامويل برقة، صوته متعب أجش لكن المأساة تتميز بصوت شنيع، يدور ويتصدع، ويهز الأرض تحت قدميك، يطيل البقاء في الهواء مثل الرعد الصيفي.

تجمع سكان أركاديا في الباحة وصمتوا، اتجهت أعينهم نحونا في عشرات الأشكال من الرعب والدهشة، امتد الهدوء، مشدودًا جيدًا مثل خيط بيانو، حتى أطلق واحد من الرجال سبابًا مخنوقًا، ثم ضج صياح متصاعد من أصوات مذعورة.

– ماذا سنفعل؟

– أطفالي، يحتاج أطفالي إلى...

– سنجوع، كل واحد منا.

استيقظ طفل وانتحب بين ذراعي أمه التي نظرت نحو الأسفل إلى وجهه المتجعد في يأس فاتر، ثم تجاوزها جسد عريض وانتقل نحو مقدمة الحشد، لم تكن مولي نبتون تعتمر قبعتها الطويلة، وبريق المصباح المتجه نحو الأعلى رسم ظلالًا جوفاء على وجهها.

رفعت يديها قائلة:

– يكفي، إذا كانت الطريق مغلقة، سنعثر على طريق أخرى، سنجد طريقًا أخرى للنجاة، ألسنا جميعًا هنا ناجين بطريقة أو بأخرى؟

تفرست فيهم بنوع من الحب الضاري، تعيد القوة إلى أطرافهم المرتعشة.

– لكن ليس الليلة، الليلة سنرتاح، وغدًا سنخطط.

وجدت نفسي أميل إلى دمدمة صوتها، أسمح لها بصد مد الرعب والذنب الذي هدد بابتلاعي، حتى تلاقت أعيننا، وشاهدت كل الدفء ينساب من وجهها مثل طلاء يجري في المطر، لم تترك شيئًا خلفها سوى شعور الندم اللاذع، ربما ندم بأنها لم يسبق لها رؤية والدي، أو أنها لم تعرض أركاديا كملجأ، نادمة لأنها سمحت لي بوضع قدمي في مملكتها الهشة بينما تقتفي الوحوش أثري.

استدارت وخاطبت المرأة التي لا تزال منحنية فوق جاين:

– هل ستعيش يا آيريس؟

طأطأت رأسها:

– من المحتمل يا سيدتي، باستثناء أن الجرح عميق في بعض الأماكن وفوضوي و...

رأيت ذئبة لسانها الوردية بينما تبلل شفاهها، ووميض عينيها المذعورتين ناحية الستار المكسو بالريش.

– لقد نفد منا اليود، حتى ملح البحر ربما يتكفل بالمهمة، لكننا، لا نستطيع...

تحول صوتها إلى همس مُعذِّب.

أراحت مولي نبتون يدها برفق على كتفها وهزت رأسها:

- لا فائدة من القلق الآن، ستبذلين ما في وسعك لأجلها، هذا كل ما في الأمر.

نادت شابين للمساعدة في نقل جاين على ملاءة وحملها إلى منزل قريب، سارت آيريس خلفهما، بينما تتدلى يداها داميتين وفارغتين إلى جانبيها.

مشطتنا عينا مولي مرة أخرى وتموجت شفتاها كأنما أرادت قول شيء لكنها استدارت وتبعت آخر مجموعة من سكان أركاديا تتحرك في طريق عودتها إلى الشوارع المظلمة، الآن فقط، عندما لا يستطيع شعبها رؤيتها، هل سمحت لكتفيها بالانحناء في هزيمة؟

راقبتها حتى اختفت في أعماق مدينتها الجميلة الهالكة، تساءلت إلى متى يمكنهم الصمود دون مؤن من وطنهم، وإذا ما كانت مدينة أخرى ستفنى بين عظام المدينة الأولى.

أغمضت عينيَّ في مقابل ثقل الذنب المستقر على كتفيَّ، وسمعت طقطقة المخالب واحتكاك الأحذية المهترئة بمجرد اقتراب باد وصامويل، استقرا على جانبيَّ دافئين وثابتين مثل زوج من الشموس، ماذا سيحدث لهما وهما محاصران في هذا العالم الجائع؟ تخيلت باد بضلوع حادة وفراء شاحب، بينما بهتت الجذوة اللامعة في عينَيْ صامويل، وربما تبتلع الحمى جاين قبل حتى أن تشعر بقرصة الجوع اليائسة في بطنها.

لا، لن أدع ذلك يحدث، ليس وهناك فرصة، حتى وإن كانت ضئيلة وجامحة، لمنع حدوث الأمر.

- صامويل...

أمَّلت أن أبدو شجاعة وحازمة، ولكنني بدوت متعبة فحسب.

- هل يمكنك من فضلك أن تعود إلى المنزل وتجلب إليَّ كتاب والدي؟ وقلم حبر.

غمره الهدوء جانبي، وأعرف أنه فهم ما نويت فعله، تمنى جزء صغير خائن مني أن يمسك بيدي ويتوسل إليَّ ألا أفعل ذلك، كممثل في فيلم رومانسي، لكنه لم يفعل، افترضت أنه ليس متحمسًا كثيرًا للموت في أركاديا أيضًا، وقف وببطء وغادر الميدان، جلست تحت الهلال أحيط باد بيديَّ، وانتظرت.

عاد ومعه الكتاب المغلف بالجلد القديم ويقبض على قلم بين يديه، انتقلت إلى الحفيف الأخير للصفحات الفارغة في الخلف ومزقتها بلطف بعيدًا عما يربطها معًا، دون النظر إلى عينَيْ صامويل القلقتين الداكنتين، وفمه الجاد.

- هل ستأتي... هل يمكن أن تأتي معي؟

مد يده نحو يدي بحثًا عن إجابة، وترددت، لم أقبل دعوته قط، لم أجب بنعم قط، ولكن بعد ذلك فكرت في أن كلينا محاصر في عالم يحتضر لبقية حيواتنا القصيرة، وشبكت أصابعي بأصابعه.

مشينا معًا إلى خارج المدينة في الليل الأزرق العميق، بينما ينزلق باد مثل شبح ذي عينين بلون كهرماني على العشب أمامنا، كان الوقت قد تأخر للغاية لدرجة أن القمر كان يحوم بالقرب من الأفق، والنجوم بدت معلقة على مستوى منخفض وقريب حولنا.

برزت الشجرة من الظلام مثل يد ملتوية متعددة الأصابع تمتد نحو السماء، ورقدت ألواح خشبية أنيقة بين جذورها المنتفخة، تبدو على نحو غريب موحشة، **باب**، نزلت مرتبته الآن إلى مجرد باب، رائحة نتنة ثقيلة من الدخان والرماد مرت خلاله، وعرفت أن الفنار يحترق على الجهة الأخرى، تخيلت أن **باب** أبي الأخير كانت له الرائحة الجنائزية النتنة نفسها، مشيت حتى اقتربت للغاية إلى أن أصبح بإمكاني مداعبة خشب الباب المظلم ثم توقفت، وقفت بلا حراك، يداي متعرقتان أمام الأوراق المكرمشة، والقلم ثقيل في يدي.

سمح صامويل للصمت بالتمدد ثم سأل:

- ما الخطب؟

ضحكت، نفخة يائسة خالية من حس الدعابة، أخبرته:

- أنا خائفة، أخشى أن أفشل، وألَّا تنجح الخطة، وأنني...

توقفت عن الكلام، أثر الخوف الحديدي يملأ وجهي، تذكرت لدغة الإرهاق التي تبلغ أعماق العظام في أطرافي، والترنح المرضي للغرفة من حولي بعدما صنعت طريقي خارج المصحة بالكتابة، كم سيتطلب الأمر أكثر من ذلك لفتح طريق بين عالمين؟

قال والدي إن **الأبواب** توجد في أماكن بتردد معين لا يمكن تحديده، أماكن غلافها هش حيث يتلامس عالمان برقة، ربما يشبه الأمر إزاحة الستار عن شيء ما أو فتح نافذة، فرضية ضعيفة أراهن بها على حياتي، كان صامويل يحملق إلى الأعلى نحو النجوم، وعلى وجهه تعبير عفوي يقول:

- لا تفعلي ذلك إذًا.

- لكن جاين... أركاديا...

- سنعثر على طريقة للنجاة يا جانيوري، ثقي بنا إلى هذا الحد لا تخاطري بنفسك إذا لم يكن الأمر سينجح.

كان صوته منتظمًا وهادئًا، كما لو أننا نناقش احتمالية سقوط الأمطار وعدم موثوقية مواعيد القطارات، نظرت نحو الأسفل، غير واثقة وخجلة من انعدام يقيني.

لكن بعد ذلك شعرت بلمسة مترددة تحت ذقني، دفعة رقيقة، إذ رفع صامويل بإصبعين وجهي نحو الأعلى، كانت عيناه جادتين، وفمه نصف ملتوٍ بابتسامة جانبية:

- لكن إذا كنتِ على استعداد للمحاولة، فأنا أثق بك يا Strega.

أزّ فوقي دفء مسكر، كما لو أنني أقف في منتصف نار مشتعلة، لم أتعرف على هذا الدفء، أجهل ماذا أطلق عليه، لكن حينئذ، لم يكن أحد قد آمن بي من قبل، أو آمنوا بنسخة أخرى مني أكثر عجزًا، كل من لوك ووالدي وجاين آمنوا بجانيوري الخجولة التي سكنت منزل لوك، وتحتاج إلى حمايتهم بشدة، لكن صامويل كان ينظر إليَّ الآن كما لو كان يتوقع مني التهام النيران أو الرقص على الغيوم الممطرة، وكما لو كان يتوقع مني فعل شيء إعجازي وشجاع ومستحيل، بدا الأمر أشبه بارتداء بدلة واقية أو أجنحة ممتدة، تتجاوز حدود نفسي، شعرت أنه يشبه الحب كثيرًا، ولثانية أخرى نهمة، نظرت إلى وجهه، لأسمح لإيمانه أن يغرق جلدي، ثم وليت نظري ناحية الباب، استنشقت إلى داخل رئتيَّ الهواء الذي تمتزج فيه رائحة المحيط والدخان، وشعرت بثقة صامويل في ظهري مثل رياح دافئة تملأ شراع سفينة، ثم لمست الورقة بالقلم.

كتبت: يفتح الباب، وآمنت بكل حرف فيه، آمنت بلمعان الحبر القاتم في الليل، وبقوة أصابعي الملتفة حول القلم، وبحقيقة ذلك العالم الآخر الذي ينتظر فحسب على الجانب الآخر من ستار خفيٍّ، آمنت بالفرص الثانية والأخطاء المصوبة والقصص المعاد كتابتها، آمنت بإيمان صامويل.

هبت رياح بلا جلبة عبر السهل بمجرد أن رفعت القلم بعيدًا عن الباب، نبضت النجوم فوقي، ورسمت ظلال القمر أشكالًا جنونية في الوحل، شعرت بنفسي أبتسم، نحو مكان بعيد، ثم انزلق كل شيء جانبًا وشعت يدا صامويل دفئًا حولي.

– هل... هل أنتِ...

أومأت، لم يكن هناك داع للتأكد، فبالفعل يمكنني سماع تلاطم المحيط الأطلنطي الإيقاعي، يمكنني الشعور بفراغ العتبة السرمدي يمتد عبر الباب، تجمعت ضحكة منتصرة في صدر صامويل، تهدر في مقابل وجنتي، ثم أصبحت أضحك معه لأن الحيلة نجحت، نجحت، ولم أفقد حياتي، كان الأمر سهلًا غالبًا، بالمقارنة مع الكلمات التي حفرتها على ذراعي في براتلبورو، مثل إزاحة الستار عن شيء ما.

ترنحنا عائدين نحو المدينة، نشعر بدوار ممزوج بالراحة، نميل في ثمالة على بعضنا، يمكنني الادعاء تقريبًا أننا شابان عاديان يسرقان تمشية بلا مراقبة متجاوزين الساعات التي يحظر فيها تجولهم، بالطبع سيتحول الأمر إلى جحيم في الصباح، لكنهما كانا طائشين للغاية لدرجة أنهما لا يهتمان.

حتى قال صامويل في هدوء:

– هذا يعني أننا في أمان، يظنون أن هذا العالم سيختفي إلى الأبد، أليس كذلك؟ لذا لن يأتوا للبحث عنا، نستطيع البقاء ولو قليلًا.

تردد سؤال في صوته، ولكنني لم أجبه، تخيلت بوصلة إلفين تدور، وتخيلت الطريقة التي تنفس بها الهواء مثل كلب صيد يتمشى، سيعثر عليَّ مجددًا.

وعندما يفعل، هل سأكون مرتعدة في عالم آخر؟ أختبئ خلف حماية أناس أفضل وأشجع مني؟ دار شريط فيلم في رأسي وطقطق، صامويل يسقط

شاحبًا وبلا حياة على أرضية الكوخ، وسلومون تلفه ملاءة بيضاء، وجاين راقدة في دمائها وعيناها على النجوم.

لا، ربما أكون صغيرة وبلا خبرة أو مال وكل شيء آخر، لكني قبضت على القلم بيدي حتى تحولت مفاصل أصابعي إلى قمم بيضاء، لم أكن عاجزة، والآن أدرك أنه لا يوجد **باب** يُوصد حقًّا، نظرت جانبًا إلى ظل صامويل قرب بزوغ الفجر الرمادي. أجبته:

- نعم، بالطبع سنبقى.

لطالما أجدت الكذب.

كتبت هذه الخطابات الثلاثة قبل رحيلي:

عزيزي السيد لوك..

أريدك أن تعرف أنني على قيد الحياة، كنت على وشك عدم كتابة هذا الخطاب، لكن بعد ذلك تخيلتك قلقًا ومنفعلًا، تسرع الخطى في مكتبك، أو تصيح في السيد ستيرلينج أو تدخن الكثير من السجائر، وأدركت أنني أدين لك بهذا الخطاب.

وأريدك أن تعرف أيضًا أنني لا أكرهك، ربما أعتقد أنني يجب أن أكرهك إذ عرفت تاريخ والدي الحقيقي لكنك خبأته عني، أنت جزء من جمعية أثرية هي في الواقع عبارة عن طائفة شريرة، وطردت جاين، وسمحت لهم بأذية سندباد، وأرسلتني إلى بارتلبورو، ولكنني لا أكرهك، تمامًا.

لا أكرهك ولكنني بالتحديد لا أثق بك أيضًا. هل كنت تحاول حمايتي حقًّا؟ من مخلوقات مثل هافيميير وإلفين؟ إذا كان الأمر كذلك، يجب أن تعرف أن حمايتك

غير كافية بتاتًا، لذا سامحني على إخفائي عنك وجهتي القادمة الدقيقة.

أتمنى العودة إلى منزل لوك، إلى تلك الغرفة الرمادية الصغيرة في الطابق الثالث، لكنني لا أستطيع. وبدلًا من ذلك، سأتبع والدي، أنا عائدة إلى حيث أنتمي.

آسفة لأنه لم يعد بإمكاني أن أكون فتاتك المطيعة، لكنني لست شديدة الأسف.

محبتي

جانيوري

*****

جاين

تحسبًا فقط، أترك لك رسميًّا مجموعة كتبي كاملة، اعتبري هذا الخطاب، عقدًا قانونيًّا ملزمًا، ربما يومًا ما تستطيعين الوجود في أثناء مزاد ما، وتبرزين العقد لبائع المزاد ثم ترحلين ومعك النسخة الأولى من كتاب الأدغال أو السلسلة الكاملة من «الجرأة والحظ»[1].

إنه أمر مضحك، قضيت كل تلك السنوات أتوق إلى فرصة للهرب، لألقي بنفسي في الأفق السرمدي دون القلق حيال الحفاظ على تنورتي مكوية أو استخدام الشوكة الصحيحة أو جعل السيد لوك فخورًا، والآن... الآن أعتقد أنني ربما أبادلها ببعد ظهيرة ممطرة أخرى، أعيد فيها قراءة الروايات الرومانسية معك، مستلقية

(1) سلسلة الجرأة والحظ: مجموعة من قصص المغامرات الشعبية الأمريكية، صدرت للمرة الأولى عام 1898.

في أبراج منزل لوك مثل المسافرين خلسة في سفينة ما واسعة تتجه نحو اليابسة.

ولكن عند استرجاع ما مضى، أدرك أن كلتينا كانت تنتظر سرًّا، نمسك نفسينا في تعلق حذر ومؤلم مثل سيدات يقفن في المحطة، وأمتعتهن مُحزمة بعناية، ينظرن في ترقب إلى الأسفل نحو القضبان.

لكن والدي لم يعد قط لأجلي، أو لأجلك، والآن حان وقت التوقف عن الانتظار، اتركي الأمتعة في المحطة واهربي.

جاين، أنتِ محررة من الوعود التي قطعتها له، أنا حارسة نفسي الآن.

ربما تمنيت لو انتقلت إلى شيكاغو حيث تعثرين على عمل مريح كحارسة أمن في بنك أو تعودين إلى كينيا وتقابلين شابًّا لطيفًا يساعدك على نسيان ما مضى، ولكنني أعرف أنك لن تفعلي، أعرف أنك ستواصلين البحث عن **بابك** العاجي، موطنك.

وعلى الرغم من أن وعود عائلة سكولار لن تعني لك الكثير بعد الآن، أريدك أن تعرفي، أنني سأواصل البحث أيضًا.

محبتي

جانيوري

*****

صا...

أتمنى لو كان لدي المزيد

لطالما أحب...

إنه لتصرف معتاد مني أن أترك الخطاب الأكثر صعوبة إلى النهاية، كما لو أن الأمر سيصبح أكثر سهولة على نحو سحري، لا أمتلك مساحة كبيرة لذا سأختصر..

إجابتي هي نعم، على الدوام.

باستثناء أن هناك وحوشًا تطاردني، وتتعقب خطواتي، وتتنفس بالقرب من ياقتي. ولا ولن أستطيع وضعك في طريقهم، أنا قوية بما يكفي لأواجه الوحوش بمفردي، لقد أظهرت لي ذلك منذ بضع ساعات -اتضح أنه عندما أحبك فحسب أصبح شجاعة بما يكفي لأتركك، هنالك مفارقة شنيعة في الأمر، ألا تظن ذلك؟-.

عد إلى المنزل يا صامويل، عد إلى المنزل وكن سالمًا آمنًا وعلى قيد الحياة، وانسَ كل هذا الجنون الخطر عن **الأبواب** ومصاصي الدماء والجمعيات السرية، تظاهر أن الأمر برمته مجرد قصة أجنبية بعينها، شيء سنضحك منه عند شاطئ البحيرة، واعتنِ بباد، هلّا فعلت؟ لا يبدو أنني استطعت الاعتناء به إلى الآن، أظنه سيكون في أمان أكثر برفقتك.

جانيوري

ملحوظة: في الواقع سيرافقني باد، أنا لا أستحقه، لكن أليس هذا هو الحال مع الكلاب؟

*****

تسللت إلى غرف الطعام وسرقت كيسًا من الشوفان وأربع ثمرات تفاح وبضع قطع مملحة من فأر بري لباد، حشوت كل هذه الأشياء في غطاء وسادة مع سكيني المصنوعة من عملة معدنية وكتاب والدي ثم انزلقت عائدة إلى شوارع أركاديا التي تضيء الآن باللون الزهري في أثناء طلوع الفجر، كنت على وشك الوصول إلى الستار المكسوِّ بالريش، استوقفني صوت مرتبك:

- سترحلين سريعًا؟

تجمدت أنا وباد مثل زوجين من الغزلان كشفتهما المصابيح الأمامية لسيارة الطراز العاشر التي يمتلكها السيد لوك.

- أوه، صباح الخير يا آنسة نبتون.

بدت مولي وكأنها لم تنم أيضًا، الخطوط في وجهها كانت أنسجة عنكبوتية منحوتة بعمق، وشعرها مزيج من اللونين الأسود والفضي، ولكنها استردت قبعتها الطويلة وطوقها المطرز، حدقت إليَّ بعينين تشبهان الشرائح النارية.

- لن تصمدي ثلاثة أيام في السهول يا فتاة، لو كنت مكانك لبقيت.

كانت تظنني أتسلل إلى السهول أهرب بعيدًا من ذنبي، شعرت بكتفيَّ تشتدان وبابتسامة ترتسم على شفتيَّ.

- شكرًا لك، لكنَّ هناك أمورًا يجب أن أفعلها قبل العودة إلى المنزل، وهي العودة عبر **الباب**.

مراقبة الإدراك يستقر على وجهها كانت أشبه بمشاهدة امرأة تتقدم في العمر في الاتجاه المعاكس، عمودها الفقري مشدود، اتسعت عيناها بالأمل:

- لا.

سحبت نفسًا.

- لقد فتحناه الليلة الماضية.

أخبرتها بلطف.

– لم نرد إيقاظ أي شخص، لذا نحن... حسنًا، صامويل... كان سيخبرك في الصباح.

أغلقت مولي عينيها ودفنت وجهها في يديها، واضطربت كتفاها، استدرت لأغادر.

– انتظري.

امتلأ صوتها بالدموع وارتعش، على عكس زمجرتها المعتادة:

– لا أعرف من أو ماذا يطاردك، ولا أعرف كيف تبعك إلى هنا، لكن احذري، سول...

سمعتها تبتلع ريقها، وتكبح دموعها.

– ريشة سولومون التي يضعها في شعره... اختفت.

اخترق البرد عمودي الفقري بمجرد أن تخيلت الريشة الذهبية التي يمسك بها إلفين، رعب أن يطاردك شيء لا تراه، حملت نفسي على الإيماء بهدوء:

– آسفة على فقدان الريشة، شكرًا لك على تحذيري.

ضبطت كيس الوسادة على كتفي، دون النظر إليها.

– لا تخبري صامويل من فضلك، لا أريده أن... يقلق.

طأطأت مولي نبتون رأسها:

– حظًّا سعيدًا يا جانيوري سكولار.

تركتها تجلس في ضوء الشمس الدافئ، متطلعة إلى مدينتها مثل أم تراقب أطفالها النائمين.

بدا **الباب** أصغر نوعًا ما في النهار، مظلم وضيق وموحش للغاية، تلامس بلطف مع العشب، بمجرد أن سحبته وأغلقته خلفي، ووضعت قدمي في الفراغ بين العوالم، عندما تدفع أموالًا لتسافر، تتبع مسارًا ناعمًا مريحًا عبر العالم؛ عربات قطار مكسوة بالألواح الخشبية تقود إلى سيارة أجرة سوداء لامعة، التي توصل بدورها إلى حجرة فندقية ذات ستائر مخملية، كل خطوة تتبع التالية بلا مجهود، وعندما سافرت مع صامويل وجاين ازدادت الطريق ضيقًا والتفافًا، وفي أحيان كثيرة، رعبًا.

الآن أنا بمفردي، والطريق الوحيدة هي التي تركتها خلفي، توقفت أنا وباد للحظة في هيكل الفنار المحترق، ننظر عبر الضباب إلى الساحل المتضرر الوعر، شعرت وكأنني مستكشف على حافة عالم جديد مسلح فقط بالحبر والأمل، شعرت وكأنني مثل أمي.

باستثناء أنها لم يكن يطاردها وحوش خفية تبتسم مثل الذئاب، خفتت الابتسامة العريضة على وجهي، طرحت غطاء وسادتي على لوح غير محروق من الفنار وعدت إلى البحر المتجمد وباد إلى جانبي، استقرت الغيوم مثل مراتب وثيرة حولنا، ضباب مكسو بالريش ابتلع كل شيء، صوت المياه التي أنثرها، ومنظر الشاطئ، والشمس نفسها، فقط عبر خدش الحجر القاسي تحت أصابعي، أدركت أنني وصلت إلى الطرف الآخر.

تسلقنا الجرف على أقدام مرتخية، وعثرنا على الطريق ثم بدأنا السير، على الأقل هذه المرة كنت أمتلك حذاء، على الرغم من أنني وجدت صعوبة في تعريفهما كأحذية عندما قدمتهما مولي لي، لقد تشابها أكثر مع بقايا كائنات صغيرة تعيسة الحظ، فكرت لبرهة في الحذاء الجلدي اللامع الذي اشتراه لي السيد لوك في طفولتي، مع أصابعه الضيقة وكعبه المتيبسة، ولكنني لم أفتقده.

بحلول منتصف النهار، أدركت أن عددًا أقل من السيارات على استعداد للوقوف لفتاة تنتمي إلى معسكر بين-بين وكلبها شرير الهيئة، دون وجود بشرة صامويل المحترمة إلى جانبهما، انحرف الناس حولي دون أن يبطئوا، كان الأمر أشبه بالسقوط عبر التصدعات، والانزلاق نحو عالم سفلي خفي يفضل الناس المهذبون اجتنابه.

في نهاية المطاف، توقف حصان وعربة إلى جانبي، يرافق توقفها سباب وصياح:

- اللعنة يا روزي لقد قلت قفي.

كان السائق امرأة بيضاء شعثاء بلا أسنان تقريبًا، تنتعل حذاءً أصفر وترتدي معطفًا غريبًا مخيطًا منزليًّا، سمحت لباد بالركوب في العربة بين حبات البطاطس والفاصوليا، بل وأهدتني كيسًا منها عندما أنزلتني بالقرب من براتلبورو.

– لا أعلم إلى أين تذهبين، ولكنه يبدو مكانًا بعيدًا.

أخذت نفسًا ثم قالت:

– أبقي كلبك قريبًا، ولا تقبلي أي توصيلة من رجال في سيارات فارهة، ولا تشتبكي مع القانون.

ساورني شك بأنها سقطت عبر التصدعات أيضًا.

تمكنت من عبور حدود ولاية نيويورك بمجرد حلول الغسق، كنت قد أخذت توصيلة أخرى، حيث قبعت في مؤخرة شاحنة أشجار فارغة برفقة ما يقارب دزينة من الرجال المتبلدين الذين يغطيهم الغبار، ويبذلون ما في وسعهم لتجاهلي، أطعم واحد منهم باد القشور المتبقية من شطيرة اللحم المقدد خاصته، ورفع يدًا واحدة كنوع من التحية عندما تركوني واقفة عند مفترق الطرق.

نمت في تلك الليلة في حظيرة خراف ذات ثلاث جهات، أصدرت الخراف ثغاءً متشككًا تجاهنا، تراقب باد بأعين جانبية غريبة، وغفوت بينما أفتقد أصوات جاين وصامويل الدافئة جانبي، حلمت بأصابع بيضاء تمتد ناحيتي، وبابتسامة ذات أسنان ذئاب، وصوت السيد هافيميير يقول: لن يتوقفوا عن البحث عنك.

استغرقت خمسة أيام، وثلاثمائة ميل، وخريطة طريق مسروقة من محطة قطار ألباني، وعلى الأقل أربع محاولات نجاة بأعجوبة من قوى الأمن المحلية للوصول إلى الجهة الغربية من ولاية نيويورك، ربما سافرت أسرع لولا ملصق المطلوبين، توقفت عند مكتب البريد في الصباح التالي لأرسل خطاب السيد لوك، بعد القليل من التردد المثير لتعرق الكفوف خارج مكتب البريد، لكنه يستحق أن يعرف أنني لست محاصرة إلى الأبد في عالم غريب معزول، أليس كذلك؟ وإذا حاول السعي خلفي، سيقوده الخطاب إلى رحلة غير مريحة إلى اليابان، لا يعرف لوك أن هناك طريقًا أخرى نحو المنزل، **باب** خلفي ينتظر أن يُفتح.

دفعت الخطاب عبر الطاولة، ثم رأيته، ملصقًا أبيض حديثًا معلقًا على الحائط، يطل وجهي من خلاله، ومطبوعًا بلطخات من اللونين الأبيض والأسود.

طفلة مفقودة. الآنسة جانيوري سكالر. عمرها سبع عشرة سنة، اختفت من منزلها في شلبورن بولاية فيرمونت، يلتمس وصيها على نحو عاجل أي معلومات تخص مكانها، لديها تاريخ مع الاضطراب العصبي والتشوش ويجب الاقتراب منها بحذر، ربما تكون برفقة امرأة ملونة وكلب سيئ السلوك. تخصص مكافأة مجزية، يرجى التواصل مع السيد كورنيليوس لوك، 1611 شارع شامبلان، شلبورن.

كانت الصورة من حفلة السيد لوك، تلك التي لم تعجب أبي قط، بدا وجهي مستديرًا ويافعًا، وشعري مثبتًا بشدة لدرجة أن حاجبيَّ ارتفعا قليلًا، برز عنقي من ياقته المتيبسة مثل سلحفاة تبحث مبدئيًّا عن صدفتها. نظرت إلى انعكاسي في زجاج مكتب البريد، متسخ بالغبار وداكن من تأثير الشمس، شعري مربوط في عقدة غير مستوية من الجدائل واللفات، وفكرت في أنه من غير المرجح أن يتعرف عليَّ أحد.

لكن مع ذلك تسلل خوف بارد زاحف إلى عمودي الفقري مع فكرة أن كل شخص غريب في الشارع ربما يعرف اسمي، وأن كل رجل شرطة ربما يبحث عن الفتاة الخجولة في الصور، بدا لي أن الجمعية بالكاد تحتاج إلى أقنعتها وريشها وسحرها المسروق إذا كانوا يمتلكون كل آليات المجتمع المدني الرتيبة في متناول أيديهم.

التزمت بالطرق المعاكسة بعد ذلك، وأخذت توصيلات أقل، على الرغم من ذلك، قبل أن أصل إلى بافلو، كنت جائعة ومتعبة بما يكفي لأخاطر، ترنحت في المكتب الأمامي لمغسلة بافلو، وتوسلت للحصول على عمل، شبه متوقعة أن يطردوني في الشارع.

لكن على ما يبدو كانت هناك ثلاث فتيات متغيبات بداعي المرض، وكومة كبيرة من الأزياء التي وصلت مؤخرًا من مدرسة الإصلاح، لذا قدمت لي مالكة المكان مئزرًا أبيض متيبسًا، وأخبرتني أنني سأجني ثلاثة وثلاثين سنتًا ونصف سنتٍ في الساعة، ووضعتني تحت إشراف امرأة بيضاء عديمة الحس

الفكاهي ذات عضلات، تدعى بيج ليندا، راقبتني بيج ليندا بتعبير ينم عن الشك العميق، وجعلتني أنفض الملابس المبللة وأدرجها في المكواة.

أضافت:

- أبعدي يدك اللعينة عن العجلات إذا كنتِ تحبين أصابعك.

كان الأمر شاقًّا. -إذا كنت لا تظن أن الغسيل عمل شاق، فأنت لم ترفع قط عدة مئات من الأزياء الصوفية المبللة في غرفة الغسيل الحارة في أثناء شهر يوليو- بدا الهواء أشبه بشيء تشربه لا تتنفسه، أبخرة قطنية تجتمع وتنزلق في رئتيَّ، كانت ذراعاي تهتزان وترتعدان بعد ساعة، وتؤلمانني بعد ساعتين، وتصيران خدرتين بعد ثلاث ساعات، بعض من ندوبي التي لم تلتئم بعد انشقت ونزفت.

واصلت العمل لأن أسبوعًا من السفر علمني إلى حد ما كيف تواصل التقدم حتى لو آلمتك أردافك وتحول عرج كلبك إلى قفز ثلاثي الأرجل، حتى لو كان كل ما عثرت عليه للعشاء هو ثلاث ثمرات تفاح غير ناضجة، حتى لو ظننت كلَّ غريب وكلَّ هبة ريح عدوًا يلحق بك في نهاية المطاف.

وعلى الرغم من كل ذلك، هأنذا أتصبب عرقًا وأتألم في دواخل مغسلة بافلو لكنني على قيد الحياة، حرة، وعلى سجيتي تمامًا للمرة الأولى في حياتي، ووحيدة كليًّا. رأيت على نحو خاطف أفرع زيتون تومض في الظلام، وعيونًا قاتمة مشتعلة بتوهج السجائر، ثم شعرت بخواء مفاجئ في صدري، ألم يشبه الفضاء الذي يخلفه السن بعد خلعه.

لم يتحدث معي أحد خلال تلك النوبة بأكملها سوى امرأة داكنة البشرة، لها ابتسامة هلالية وتشدق جنوبي، اختفت ابتسامتها عندما رأتني، رفعت ذقنها في وجهي.

- وماذا حدث لكِ بالضبط؟

هززت كتفيَّ، نظرت إلى الأسفل نحو تنورتي الملطخة بالغبار، وهيئتي التي تشبه الفزاعة.

- أراهن أنك تسيرين منذ فترة ومعدتك خاوية.

أومأت.

- أمامك المزيد من السير؟

أومأت مجددًا. مصت أسنانها مستغرقة، وتركت كومة أخرى من الملابس في عربتي ثم غادرت بينما تهز رأسها.

أخبرتني بيج ليندا أنه يمكنني النوم عند كومة الخرق.

- ولكن الليلة فقط، تذكري أن هذا ليس فندقًا لعينًا.

ونمت أنا وباد ملتفين حول بعضنا بعضًا مثل زوجين من الطيور في عش معطر برائحة المحلول القلوي، استيقظنا على صوت رنين جرس أول نوبة في سواد ما قبل الفجر، واكتشفت شيئين ينتظرانني إلى جانب عشنا، عرقوب من لحم الخنزير لا تزال تتدلى منه الدهون والغضاريف لأجل باد، ووعاء كامل من خبز الذرة لأجلي.

عملت نصف مناوبة أخرى، بينما أقوم بعملية ضرب تقريبية في رأسي، ثم اتجهت نحو المكتب الأمامي وأخبرت المالكة أنني آسفة للغاية ويجب أن أرحل على الفور، وهل يمكنني الحصول على أموالي في صورة شيك، زمّت شفتيها وأفصحت عن أفكارها حيال المشردين والمتسكعين والفتيات اللاتي لا يميزن الشيء الجيد عندما يأتي إليهن، لكنها حررت الشيك.

في الزقاق الخارجي، أخرجت القلم الحبر من غطاء وسادتي ووضعت الشيك على جدار أسمنتي، وأضفت صفرًا متأرجحًا وبضعة أحرف إضافية، بينما أعض شفتيَّ. رفرف الشيك بفعل ريح مفاجئة لم تكن موجودة، تتشوش الكتابة وتتجعد، وأريح رأسي على الطوب الدافئ بفعل البخار، مصابة بالدوار، ما كان يجب أن ينجح الأمر، فالحبر بلون مختلف محشورًا بوضوح في المساحة الخالية، ومن سمع عن مالكة مغسلة تحرر شيكًا بأربعين دولارًا بدلًا من أربعة دولارات، لكنني صدقت بمجرد أن كتبته، وهكذا كان حال موظف البنك.

بحلول منتصف ما بعد الظهيرة، كنت أركب من خط سكك حديد نيويورك المركزي، أقبض بيدي على تذكرة قطار ثمينة عليها أحرف لويفيل كنتاكي، مطبوعة بحبر أحمر أنيق.

بدا غطاء وسادتي مبقعًا ووضيعًا إلى جانب الحقائب الجلدية اللامعة في رف الأمتعة مثل ضيف حفلة يرتدي ملابس لا تلائم المناسبة ويأمل ألا يلاحظه أحد، شعرت أنني نفسي ملطخة ووضيعة نوعًا ما، فكل الركاب الآخرين يرتدون ملابس كتانية مكوية عالية الرقبة، وقبعاتهم مثبتة على زوايا أنيقة وأحذيتهم تلمع بطلاء حديث العهد.

هزة هادرة انتقلت عبر العربة، مثل تنين يهز نفسه ليستيقظ من النوم، وخرج القطار من ظل محطة بافلو المركزية إلى ضوء الشمس الكسول في أثناء ما بعد ظهيرة صيفية، ضغطت بجبيني الزجاج الدافئ ونمت، حلمت أو ربما تذكرت فحسب، قطارًا مختلفًا يسير في الاتجاه نفسه منذ عشر سنوات، مدينة وعرة على ضفة المسيسيبي، **باب** أزرق ينتصب وحيدًا في حقل، مدينة تفوح منها رائحة الملح والأرز.

مدينة أبي ومدينة أمي إذا كانت لا تزال على قيد الحياة بصورة ما، هل يمكن أن تكون مدينتي يومًا؟ بفرض أني أستطيع فتح الباب مجددًا، على الرغم من أنه أصبح الآن مجرد كومة من الرماد، وبفرض أن الجمعية لم تمسك بي أولًا.

نعست واستيقظت، يقاطع نومي سير وتوقف القطار عند كل محطة، والإعلانات التي يصرخ بها الحمَّال، والمطالبات الدورية برؤية تذكرتي، وخلط الركاب الذين يغادرون ويصلون محطاتهم، لم يجلس أحد منهم إلى جانبي، ولكني شعرت بعيونهم عليَّ، أو ربما ظننت ذلك، لعدة مرات، حركت رأسي جانبًا محاولة الإمساك بهم يحدقون إليَّ، لكن وجوههم كانت تتفاداني في تهذيب، رقد باد متحفزًا عند قدمي، وأذناه منتصبتان.

دسست يدي في غطاء وسادتي وقبضت بإحكام على سكيني المصنوعة من العملة المعدنية.

وقف القطار بلا حراك لمدة نصف ساعة كاملة في سينسناتي بينما أصبحت العربة خانقة ومزدحمة بركاب جدد. في نهاية المطاف، جاء الحمَّال يجرف الممر، ربط سلسلة في نهاية العربة وعلق لافتة بيضاء منمقة كتب عليها «مقاعد الملونين».

السيد لوك ليس موجودًا الآن لحمايتي، لا توجد مقصورة خاصة تشمل وجبات يوصلها حمَّالون مبتسمون، لا وجود للستار المريح الذي يشكله المال بيني وبين العالم.

تراجع الحمَّال إلى نهاية الممر، يحث الناس بهراوة صغيرة: امرأة بنية البشرة وأطفالها الثلاثة، رجلًا عجوزًا لديه مسحة من الشعر الأبيض، زوجين من الشباب ذوي الأكتاف العريضة والتعابير الغاضبة، طرق الحمَّال بعصاه على رف الأمتعة:

- هذا القطار يلتزم بقانون الولاية يا شباب، والمحطة القادمة في كنتاكي، يمكنكم إما التحرك إلى الخلف وإما النزول والسير، ولا يهمني أيٌّ منهما.

عادت المجموعة إلى الخلف.

تردد الحمَّال عند مقعدي، يحملق إلى بشرتي المشتعلة باللون الأحمر كما لو يستشير مخطط ألوان عقلي، لكن بعد ذلك نظر إلى حاشيتي المتسخة وذراعي المشوهة وكلبي المشين للغاية، فهز رأسه نحو الخلف.

على ما يبدو، أنني من دون المال لم أكن استثنائية تمامًا أو أنتمي إلى معسكر بين-بين أو ذات لون غريب، كنت ملونة فحسب، شعرت بشيء بارد يستقر فوقي من الفكرة، ثقل من القواعد والقوانين والمخاطر تتعلق بأطرافي، وتضغط رئتيَّ. انتقلت إلى الخلف دون اعتراض، لم أخطط لأعلق في هذا العالم الأحمق مع هذه القوانين الغبية لمدة أطول على أي حال، تشبثت في نهاية مقعد شديد الازدحام في الخلف، بينما أصبحت العملة رطبة في قبضتي. بمجرد أن تحرك القطار مجددًا، لاحظت أن باد يحدق بثبات إلى الممر جانبي، وأضعف أزيز لزمجرة في حلقه. لم يكن هنالك أحد، لكنني ظننت أنني سمعت حفيفًا ثابتًا ناعمًا يشبه تقريبًا التنفس.

فكرت في ريشة سولومون الذهبية المفقودة وقبضت على غطاء وسادتي بإحكام، شعرت بزاوية كتاب والدي تضغط معدتي، ثبَّتُّ عينيَّ بحذر على مسار الريف الأخضر المزرق.

بعد أربعين دقيقة، صاح الحمَّال من مقدمة العربة:

– محطة تيرنرز، آخر توقف قبل لويفيل.

تباطأ القطار، وفُتِحت النوافذ، ترددت، بالكاد أتنفس، ثم اتجهت نحو المخرج برفقة باد يخمش خلفي، شعرت بكتفي تصطدم بشيء صلب في منتصف الهواء، وسمعت همهمة سباب...

ثم بعد ذلك ضغط شيء حاد وبارد على حلقي، تسمرت في مكاني.

– ليس هذه المرة.

همس صوت في أذني:

– لنذهب بعيدًا عن الزحام، هلَّا فعلنا؟

دفعني شيء نحو الأمام وتعثرت في الرصيف المغطى بالخشب، دُفعت للسير في المحطة، أنفاسه الساخنة أمام أذني، وطرف السكين ينخر في رقبتي، راقبني باد بعينين محدقتين قلقتين. ليس بعد، نقلت هذه الفكرة إليه.

وجهني الصوت عديم الجسد عبر باب أبيض مقشر مكتوب عليه «سيدات» وإلى داخل حجرة معتمة خضراء الأرضية.

– الآن استديري ببطء هناك، فتاة مطيعة.

باستثناء أنني لم أعد فتاة مطيعة، رفعت قبضتي نحو الأعلى ثم خلف كتفي، والسكين المصنوعة من العملة الفضية محشورة بين مفاصلي، حدثت فرقعة مبللة شنيعة تحت يدي وصراخ ممزق، انسحب النصل بعيدًا عن حلقي في خط ساخن ثم انزلق عبر الأرضية.

– اللعنة عليكِ.

يبدو أن باد قرر أن حتى المخلوقات الخفية يمكن عضها بما يكفي من المجهود، زمجر وعضعض في الهواء، أغلقت أسنانه على قضمة من شيء ما، ثم زأر في رضا، اتجهت نحو السكين، حملتها بحرص بيدين زلقتين من الدماء وناديت باد، انتقل إلى جانبي، يلعق لونًا أحمر من شفتيه محملقًا إلى فريسته الخفية.

باستثناء أنه لم يعد خفيًا بعد الآن، لو أنني حدقت يمكنني رؤية وميض مجهد في الهواء، وصدر يعلو، ووجه نحيل ينز بللًا قاتمًا، وعين وحيدة حاقدة مثبتة عليَّ.

- بوصلتك يا سيد إلفين، أعطني إياها.

همست في شر بصوت منخفض، لكنني رفعت السكين باتجاهه، فأخرج شيئًا نحاسيًّا من جيبه، وألقاه غاضبًا على الأرض، التقطته دون أن أبعد عينيَّ عنه.

- سأرحل الآن، وأنصحك ألا تتبعني مجددًا.

بالكاد اهتز صوتي، أطلق ضحكة ساخرة:

- وإلى أين ستهربين أيتها الفتاة الصغيرة؟ ليس لديك أموال أو أصدقاء باقون لحمايتك، أو أب...

- مشكلتكم أيها الناس...

تأملت.

- أنكم مؤمنون على الدوام، أن عالمًا منظمًا سيبقى على حاله، وأن بابًا مغلقًا سيظل مغلقًا.

هززت رأسي، أمد يدي نحو الباب:

- إنه تفكير... محدود للغاية.

ثم غادرت خارجة في نشاط المحطة الخفيف كبست كتفي على نحو عفوي مزيف أمام باب الحمام وأخرجت قلم صامويل من غطاء وسادتي، أحكمت قبضتي عليه للحظة، أشعر بتردد دفء مألوف ثم غرزت السن في دهان الباب المتقشر.

يغلق الباب، ولا يوجد مفتاح.

حفرت الكلمات بعمق في الدهان، تغرز عبر ذرات الخشب، دوى صوت الخربشة الباهتة للمعدن على معدن خلال الباب، كأنه نوعٌ مستديمٌ من الطقطقة، وأطلقت تنهيدة صغيرة من ثقل الإجهاد المفاجئ الذي يشد أطرافي. أملت جبهتي أمام الخشب، عيناي مغلقتان، ورفعت القلم مجددًا.

وكتبت: الباب منسي.

ثم طرفت بعيني أرفعها عن الأرض، وركبتاي تؤلمانني حيث سقطت، رقدت هناك لبضع لحظات، بلا حراك، متسائلة إذا جاء ناظر المحطة للتحقيق في انهيار الفتاة المشردة المسكينة على الأرض، أو إذا ما نمت لمدة ساعة أو أكثر، آلمتني عيناي، وكان حلقي متصلبًا بدماء جافة. لكن، نجح الأمر، أصبح باب الحمام مشوشًا وغير واضح، شيء عادي للغاية حتى إن عينيَّ لا تطيقان أن تطيلا النظر إليه، وبدا أن لا أحد في المحطة الصغيرة يرى الباب على الإطلاق.

أطلقت تنهيدة صغيرة، وتساءلت إلى أي مدى سيستمر الأمر، أظنها مدة طويلة بما يكفي لأهرب، وحتى أهيئ نفسي للنهوض.

سحبت نفسي نحو مقعد على الرصيف وانتظرت متشبثة بتذكرتي ذات الحبر الأحمر في يد واحدة، ركبت القطار التالي المتجه جنوبًا.

جلست، أراقب الريف يصبح أرضًا ثرية مبللة، والسهول تعلو وتهبط مثل حيتان خضراء عظيمة، بينما أفكر، ها أنا قادمة يا أبي.



باب أمي

انطوت الثلاثمائة ميل الأخيرة كأنني أنتعل زوجين من الأحذية السحرية التي تأخذك سبعة فراسخ إلى الأمام مع كل خطوة، أتذكرها باعتبارها سلسلة من الأصوات الغليظة المكتومة التي يصاحبها صرير.

صوت غليظ مكتوم ثم أترجل من القطار إلى الامتداد المتفرع من سكك حديد الاتحاد في لويفيل، السماء هناك أيضًا مكتظة فوضى متقاطعة من الخطوط الكهربائية وأبراج الكنائس وموجات الحرارة اللامعة، باد يضغط بالقرب من ركبتي، معبرًا عن كرهه لها.

صوت غليظ مكتوم ثم أقف في ساحة مغبرة خارج المحطة أتوسل حتى تقلني شاحنة مطبوع على جانبها «جعة بلو غراس» بحروف متكتلة سوداء، يخبرني السائق أن أعود من حيث أتيت، ويصدر صديقه أصوات قبلات فاحشة.

صوت غليظ مكتوم ثم نترنح أنا وباد غربًا في عربة تصدر صريرًا، يتجمع في الرأس مع سيقان القنب الطازجة وتفوح منها رائحة التربة، جلس رجل أسمر مهيب وابنته الصغيرة الجليلة على المقعد في المقدمة، تحمل ملابسهما ذلك المظهر المهجن غير المتماثل الذي لا يحدث سوى عندما يرقع النسيج ويعاد ترقيعه حتى لا يكاد يتبقى أي شيء أصلي، ونظرا إليَّ بعينين قلقتين منتبهتين.

صوت غليظ مكتوم ثم أصل إلى نينلي، أخيرًا.

لقد تغيرت ولم تتغير خلال العقد السابق، وكذلك العالم أيضًا كما أظن.

كانت لا تزال وعرة وخشنة المظهر، ولا يزال أهل المدينة يحدقون بنصف عيون غاضبة، لكن الطرق أصبحت ممهدة، وتجولت فيها السيارات صعودًا وهبوطًا، إلى جانب الأثرياء الجدد الذين يرتدون بدلات من ثلاث قطع مع ساعات جيب كبيرة على نحو محرج، كان النهر مزدحمًا بالبواخر التي تئز والقوارب المسطحة، ويستوطن الشاطئ الآن نوع من الطواحين، وهي شيء ضخم قبيح، يتعلق فوقنا الدخان والبخار اللذان حوَّلهما غروب الشمس إلى غيوم زيتية زهرية، كان السيد لوك ليقول عنهما إنهما يمثلان التقدم والرخاء.

لقد كنت مندفعة وملاحقة خلال رحلتي إلى هنا، لكن الآن بمجرد وصولي وجدت نفسي مترددة بغرابة في قطع الخطوات القليلة الأخيرة، اشتريت لنفسي كيسًا من الفول السوداني من مورد نهر جونيورز بما تبقى معي من أموال كسبتها من عملي في المغسلة، وعثرت على مقعد نحله التبغ كي أجلس عليه، بينما قبع باد مثل حارس برونزي على قدمي.

رن جرس المناوبة، وراقبت السيدات نحيلات الوجه يهرعن إلى داخل الطاحونة وخارجها، أصابعهن مثنية فيما يشبه المخالب السميكة إلى جانبهن، شاهدت ظهور الرجال المنحنية السوداء تحمل فحمًا على ظهور البواخر الراسية، وقوس قزح يلمع بالزيوت على سطح النهر. في نهاية الأمر، برز رجل قصير متعرق يرتدي مئزرًا ملطخًا من قاعة الطعام ليخبرني أن المقعد متوفر للزبائن الذين يدفعون أموالًا، ولمَّح بشدة إلى ضرورة مغادرتي لنينلي قبل حلول الليل إذا كنت أعرف مصلحتي، لم يكن ليحدث هذا لو كان السيد لوك برفقتي.

لكن لو حدث هذا، لو كان السيد لوك برفقتي، لربما ما أطلت البقاء بوقاحة على المقعد، أحدق إلى الرجل ويدي على مؤخرة جمجمة باد التي تطن، ولما وقفت واقتربت منه للغاية، واستمتعت بالطريقة التي انكمش بها مثل شيء تُرك لمدة طويلة على حافة النافذة، وبالتأكيد لما ثنيت شفتيَّ قائلة:

- كنت راحلة على أي حال يا سيدي.

هرع الرجل الصغير عائدًا إلى مطبخه بينما تسكعت متراجعة صوب وسط المدينة، التقطت لمحة مموجة لنفسي في زجاج النافذة، يكسوني الطين، وأنتعل حذاءً كبير المقاس، والعرق يرسم خطوطًا رطبة من غبار الطريق على صدغيَّ، وندوب بيضاء وردية تزحف جزافًا من رسغي وحتى كتفي، وخطر لي أن نفسي التي تبلغ من العمر سبع سنوات، تلك الفتاة العزيزة المندفعة، كانت لتنبهر بتلك النسخة مني البالغة من العمر سبعة عشر عامًا.

ربما تعرف عليَّ مدير فندق جراند ريفرفرونت أيضًا، لأنه لم يأمر بطرد نسختي المشردة على الفور من مؤسسته، أو ربما يجعل باد الناس يترددون حيال طردي من أي مكان.

- مساء الخير، أحاول العثور على... أوه، مزرعة عائلة لارسن، جنوبًا من هنا، أليس كذلك؟

اتسعت عيناه عند سماع الاسم، لكنه تردد كما لو كان يفكر في مدى أخلاقية توجيه مخلوق مثلي نحو عائلة بريئة.

- ما سبب مجيئك؟

توصل إلى مساومة مع نفسه.

- إنهم... عائلتي، من جهة أمي.

نظر إليَّ وكأنني لا أجيد الكذب، ولكن على ما يبدو أن نساء عائلة لارسن لم يزرعن ما يكفي من الولاء في أهل المدينة الذي يمنعه من توجيهي جنوبًا بعد الطاحونة، على بعد ميلين، هز كتفيه:

- في هذه الأيام، لم تعد تبدو كما كانت، لكنها ما زالت موجودة حسبما سمعنا آخر مرة.

بدا هذان الميلان النهائيان أطول من الأميال المعتادة، شعرت بامتدادهما وهشاشتهما تحت قدميَّ، كما لو أن وقع أقدام شديد الثقل سيمزقهما ويتركني محاصرة في مدينة اللامكان من العتبة، ربما أنا متعبة من السير فحسب، ربما أنا خائفة، أن تقرأ نسخة قصصية من حياة والدتك وتختار تصديقها هو أمر، وأن تطرق بابًا غريبًا وتقول مرحبًا لديَّ معلومات موثوقة تفيد بأنكن خالاتي الكبريات -الكبريات؟- هو أمرٌ آخر تمامًا.

تركت أصابعي تمسد عمود باد الفقري بينما نسير، استقر الغسق على أكتافنا مثل بطانية أرجوانية رطبة. النهر، الزبد وقعقعة حركة المراكب، وسكون المياه، الرائحة القوية لسمك السلمور والطين، كان تنسحب مرة أخرى ببطء أمام حشرات الزيز ونبات العسلة وبعض الطيور الأخرى التي تهدل بالثلاثة المقاطع نفسها في دائرة طربية، بدا الأمر برمته مألوفًا للغاية وشديد الغرابة، تخيلت فتاة ترتدي فستانًا قطنيًّا أزرق تجري عبر هذه الطريق بأقدام من عصي القرفة، ثم تخيلت فتاة أخرى، بيضاء ومربعة الفك تجري قبلها، أديلايد، أمي.

كنت لأفوته ما لم أكن منتبهة، طريق ضيقة قذرة تزدحم على جانبيها الأشواك والأفرع غير المشذبة، حتى بمجرد أن تبعت الطريق إلى نهايتها لم أكن واثقة، من سيعيش في مثل هذا الكوخ المكوم محني الظهر، الذي التهم نصفه اللبلاب ونوع ما من الورود البرية المتسلقة؟ تصدعات الألواح الخشبية حولتها الطحالب إلى اللون الأخضر، وتدمرت الحظيرة تمامًا، لكن لا يزال بغل عجوز وحيد يقف في الباحة على ثلاثة أرجل غافيًا، وبعض الدجاجات تصيح على أطلال الحظيرة، تنقنق ناعسة لنفسها، وضوء خافت تحجب أغلبه ستائر بيضاء قذرة، لا يزال يومض في نافذة المطبخ.

تسلقت الدرجات الأمامية الفوضوية، وتسمرت في مكاني أمام الباب الأمامي، وقف باد إلى جانبي مستندًا إلى قدمي، كان الباب قديمًا، مجرد سلسلة من ألواح رمادية عفا عليها الزمن لدرجة أن الخشب تحول بفعل العوامل الجوية إلى حواف تشبه دوامات بصمات الأصابع، والمقبض عبارة عن شريط من الجلود الزيتية القاتمة، يطل ضوء الشموع عبر الشقوق والفتحات مثل زوجة فضولية.

كان باب أمي، وباب أمها.

تنهدت ثم رفعت يدي لأطرق وترددت عند اللحظة الأخيرة، لأنه ماذا ما لو كان الأمر برمته كذبة جميلة، تعويذة في حكاية سحرية ستتحطم في اللحظة التي تلمس فيها يدي حقيقة هذا الباب الصلب، ماذا لو أجاب رجل عجوز وقال «أديلايد من»؟ أو ماذا إذا فتحت أديلايد نفسها الباب واتضح أنها عثرت على طريق العودة إلى هذا العالم بعد كل شيء لكنها لم تأت قط للبحث عني؟

انفتح الباب قبل أن أحمل نفسي على لمسه، وقفت امرأة عجوز للغاية، شديدة التبرم عند العتبة، تحملق إليَّ بتعبير مألوف على نحو مثير للدوار لا يصدق، كانت نظرة تحمل طابع الجدات ولسان حالهن «الشباب هذه الأيام»، متجعدة ومتشققة مثل الجوز، ساورني شعور مشتت بأنني رأيت هذه النظرة من نقطة أقل تميزًا، ربما في طفولتي...

ثم تذكرت، السيدة العجوز التي صادفتها عندما كنت في السابعة من عمري، المرأة التي حدقت إليَّ بتعبير يشبه شجرة صعقها الرعد وسألتني فحسب من أكون بحق الجحيم، هربت منها وقتئذ، ولكنني لم أهرب في هذه اللحظة.

عيناها حمراوان عند أطرافهما، باكيتان، مشوشتان بغيوم بيضاء زرقاء، نظرتا إلى عينيَّ ثم اتسعتا، التوى فمها:

– أديلايد يا طفلتي ماذا فعلتِ بشعرك؟

طرفت بعينيها متطلعة إلى الكتلة المتجمعة نصف المضفرة خلف رأسي، تحيط بها هالة حمراء فوضوية من الشعيرات الهاربة، ثم عبست مجددًا وأعادت التركيز في وجهي، تدور نظرتها مثل إبرة بوصلة غير قادرة على تحديد اتجاه الشمال الحقيقي.

– لا، لا، أنتِ لست أديلا...

– لا يا سيدتي.

خرج صوتي مرتفعًا أكثر من اللازم يرن مثل ناقوس يدق في الليل الهادئ.

– لا أنا جانيوري سكولار، أظن أنك خالتي، أديلايد لارسن هي، كانت، أمي.

أصدرت المرأة صوتًا وحيدًا، زفيرًا ناعمًا، كما لو أنها تلقت ضربة كانت تستعد لها، ثم انهارت ورقدت على العتبة بلا حراك متكومة مثل مجموعة من الملابس المغسولة الملقاة على الأرض.

تشابه الجزء الداخلي من منزل عائلة لارسن مع خارجه، متهالك وفقير الهيئة، يحمل برهانًا ضئيلًا على الوجود البشري، زحفت الكرمات إلى الداخل حول حواف النوافذ المتعفنة، ولمعت جرار من المحفوظات ببريقٍ ذهبي معتم خلال ضوء الليلة الماضية، اتخذ شيء ما عشًّا في العوارض الخشبية، وخلف لطخات بيضاء على ألواح الأرضية.

المرأة العجوز -خالتي- كانت تشبه الطائر بين ذراعيَّ، عظامها جوفاء وهشة، أجلستها إلى قطعة الأثاث الوحيدة غير المغطاة بقصاصات القماش أو الأطباق المتسخة، وهي عبارة عن كرسي هزاز عتيق للغاية لدرجة وجود تشققات لامعة متهالكة في الألواح الخشبية أسفله، وفكرت لبرهة في فعل شيء خطير ينتمي إلى الروايات الرخيصة حتى أوقظها، وهو إلقاء ماء بارد في وجهها، لكنني تركتها وشأنها.

وبدلًا من ذلك فتشت المطبخ، وهو ما تسبب في الكثير من الصراخ والصرير من ساكنيه، تبعه صوت سحق سريع كريه من فك باد، وجدت ثلاث بيضات، وبصلة عفنة، وأربع حبات بطاطس شديدة التجعد والانثناء لدرجة أنها تصلح للوجود بداخل خزانات السيد لوك الزجاجية -آذان مبتورة، أربعة قراريط، من غير المرجح أن تكون صالحة للأكل- همس في رأسي صوت شبيه للغاية بصوت جاين، هل سبق وأعددت وجبة واحدة بنفسك؟

ما مدى صعوبة الأمر؟

الإجابة هي أنه أمر صعب حقًّا، ربما قدرتك من عدمها تعتمد على تجربتك مع المقالي الصدئة، وضوء الشموع المترددة، ومواقد الطهي القذرة التي تكون إما فاترة وإما توازي حرارة الشمس نفسها، قطعت الخضراوات وجعلت باب الفرن يصدر قعقعة وفتحته مئات المرات حتى أشعل النار، جربت بتغطية وكشف المقلاة، لكن بدا الأمر بلا أي فائدة، أخرجت قطعة بطاطس ووجدتها نوعًا ما محترقة ونيئة، حتى باد تردد في أكلها.

كان الأمر كله تشويشًا شديد الفعالية، بالكاد كان لديَّ مساحة لأفكار شأن لا بد وأن أمي وقفت هنا، أو أتساءل: أما زالت على قيد الحياة، بطريقة ما، وإذا ما كان والدي قد عثر عليها، أو تمنيت لو أن أحدهما علمني كيف أطهو، بل نادرًا ما فكرت في **الباب** الأزرق، وحاليًّا أكاد أتخيل أنه يمكنني سماع رماده يهمس وينوح لنفسه.

– لا أستطيع أن أحكم ما إذا كنتِ تحاولين حرق المنزل أو إعداد العشاء.

أسقطت محرك النار من يدي، اندفعت نحو باب الفرن وحرقت نفسي واستدرت لأواجه المرأة العجوز، كانت لا تزال منهارة في الكرسي الهزاز، ولكن عيناها كانتا شقين تضيئهما الشموع، صرخت في وجهي، فابتلعت ريقي:

– أوه، أعد العشاء يا سيدتي...

– ستنادينني بالخالة الكبرى ليزي.

– نعم يا خالتي الكبرى ليزي، هل تودين بعض البطاطس مع البيض؟ هذه هي الرقائق البنية المحمصة، بين البطاطس، أظن أن الملح ربما يفيد.

وضعت الطعام في طبقين من صفيح وأفرغت بعض الماء من برميل على الطاولة، مذاقه عشبي ويشبه شجرة الأرز.

تناولنا الطعام في صمت باستثناء طقطقة الطعام المحروق بين أسناننا، لم أستطع التفكير في أي شيء لأقوله، أو فكرت في مئة شيء أقوله ولم أتمكن من الاختيار بينهم.

– لطالما ظننت أنها ستعود إلى البيت يومًا ما.

تكلمت الخالة ليزي بعد فترة طويلة من لعق باد لأطباقنا، وتحوُّل النوافذ من الأرجواني إلى الأسود المخملي.

– وانتظرت.

فكرت في كل الحقائق المختلفة التي يمكنني قصها عليها عن مصير ابنة أخيها، غارقة، منفصلة عن عالمها، ومحاصرة في عالم غريب، ثم استقررت على القصة الشفوق والأبسط:

– لقد ماتت عندما كنت صغيرة في حادثة مروعة، لا أعرف الكثير عنها حقًّا.

لم تجب ليزي، وأضفت:

– لكن أعلم أنها أرادت العودة إلى المنزل، حاولت المجيء إلى هنا، لكنها لم... تنجح في الأمر فحسب.

أصدرت المزيد من التنهيدات كما لو تعرضت للضرب في صدرها، ثم قالت:

– أوه.

وشرعت تبكي على نحو مفاجئ وبصوت عالٍ للغاية، لم أقل شيئًا، لكن قربت مقعدي من مقعدها ووضعت يدي على ظهرها المضطرب.

عندما تراجع النحيب إلى تلعثم وأنفاس مثقلة بالمخاط، قلت:

– كنت أتساءل إن كان بإمكانك... أن تخبريني عنها، عن أمي.

هدأت مرة أخرى لمدة طويلة لدرجة أنني ظننت أني أسأت إليها على نحو خفي، لكن بعد ذلك نهضت على قدميها، وأخرجت إبريقًا زجاجيًّا بنيًّا من الخزانة، وصبت لي كوبًا مدهنًا من شيء ما رائحته ومذاقه يشبهان زيت المصابيح، عادت إلى كرسيها الهزاز مع الزجاجة وأعادت توطين نفسها.

ثم بدأت تتحدث.

لن أخبرك بكل شيء قالته لي، لسببين، الأول لأن هناك احتمالية كبيرة أن تموت من الملل، لقد أخبرتني بقصص عن خطوات أمي الأولى والمرة التي تسلقت فيها علية الحظيرة وقفزت لأنها ظنت أنها تستطيع الطيران، وعن كرهها للبطاطا الحلوة وحبها لقرص العسل الطازج، وعن أمسيات يونيو المثالية التي قضتها نساء عائلة لارسن في مراقبتها تترنح وتتشقلب عبر الباحة، وثانيًا، لأن كل ذكرى من هذه الذكريات ثمينة ومؤلمة بالنسبة إليَّ على نحو سري لا يمكنني شرحه، ولست جاهزة لأعرضها على أي شخص بعد، أود الاحتفاظ بها لفترة في تيارات ذاتي الهادئة، حتى تصبح حوافها ناعمة مثل أحجار النهر.

ربما سأخبرك بها يومًا ما.

- كانت تحب الأفدنة الخلفية، وذلك الكوخ القديم العفن، قبل أن نبيعهم، وسأخبرك أن هذا شيء ندمت عليه.

- ماذا؟ بيع الحقل؟

أومأت ليزي ورشفت متأملة من مشروب زيت المصباح -بقي كوبي كما هو، الأبخرة بمفردها كفيلة بحرق حاجبيَّ-.

- كان المال وفيرًا، لن أكذب، لكن رجل المدينة الكبيرة لم يكن جيدًا، لم يفعل أي شيء بالملكية قط، جرف الكوخ فحسب وترك المكان ليتعفن، وتوقفت أدي عن الخروج في تلك الأنحاء لاحقًا، لطالما بدت وكأننا آذيناها بطريقة ما.

فكرت في إخبارها أنها باعت ملكيتها إلى رجل ما مشبوه من أعضاء الجمعية وأغلقت المنفذ بين طفلين ضربهما الحب، ملقية كليهما إلى حيوات من التجول اللانهائي.

أضفت في سخف:

- على الأقل ليس لديك أي جيران.

سخرت قائلة:

- حسنًا، لم يفعل قط أي شيء بها، لكنه واصل القدوم كل عشر سنوات أو ما شابه، قائلًا إنه يفحص استثماره، يا للقرف! أتعرفين في عام... ماذا 1902 أو 1903؟ تجرأ وطرق بابي وسألني إذا ما رأيت أي شخصيات مثيرة للشكوك في الأنحاء، قائلًا إن هناك نوعًا من الحركة في ملكيته، قلت له لا يا سيدي، وأضفت أن رجلًا يستطيع دفع ثمن الساعات الذهبية الفاخرة وصبغات الشعر -إذ دعيني أخبرك أنه لم يكبر في العمر يومًا ما منذ توقيعنا للعقد- يمكنه تحمل بناء سور لعين إذا كان قلقًا للغاية، بدلًا من أن يذهب لإزعاج السيدات العجائز.

تجرعت مرة أخرى من الزجاجة البنية وتمتمت لنفسها حتى الصمت، تشتكي من الأغنياء والشباب والمتطفلين والأجانب والشماليين.

توقفت عن الإنصات، شيء ما في قصتها يزعجني، يوخز الأعماق المتعبة من عقلي مثل مثقاب عالق في أنسجة القطن، كان هناك سؤال يتشكل، ويصعد إلى السطح.

- أقول فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

اختتمت ليزي حديثها، ولفَّت الغطاء مجددًا حول زجاجتها البنية الرديئة.

- حان وقت النوم يا فتاة، يمكنك النوم في الأعلى، وسأنام هنا.

ساد الصمت لوهلة، بينما لانت الجمل المريرة التي ستخرج من فم ليزي.

- خذي السرير تحت النافذة، على الجانب الشمالي، هلَّا فعلتِ، لطالما عزمنا على التخلص من ذلك الشيء اللعين، بمجرد أن فهمنا أنها لن تعود، ولكن بطريقة ما لم نفعل.

- شكرًا لك يا خالة ليزي.

كنت قد صعدت درجتين من السلم عندما قالت ليزي:

- غدًا، ربما يمكنك إخباري كيف لصبية ملونة لديها فوضى من الندوب وكلب لئيم المظهر أن ينتهي بهما الحال على عتبة بابي، ولماذا استغرقت كل هذا الوقت اللعين.

- نعم يا سيدتي.

غفوت في سرير أمي، وباد يضغط جانبي، ورائحة الغبار في أنفي، وذلك السؤال المبهم ما زال يلوح غير منطوق في رأسي.

راودني ذلك الكابوس عن **الباب** الأزرق والأيدي التي تحاول الإمساك بي، باستثناء أن هذه المرة لم تكن الأيدي بيضاء وعنكبوتية، لكن سميكة الأصابع ومألوفة، يد السيد لوك تحاول الوصول إلى حلقي.

استيقظت وأنف باد تشمشم تحت ذقني وضوء الشمس المخضر ترشحه النافذة التي التهمتها الكروم، رقدت لوهلة، بينما أداعب أذني باد، حتى سُمح لقلبي المضطرم بالهدوء، كانت الغرفة من حولي أشبه بمعرض في متحف قذر؛ ترقد فرشاة شعر متصلبة الأسنان على منضدة الزينة، تتخللها شعيرات بيضاء نحيلة لا تزال متشابكة حولها، وصورة شمسية مسنودة لجندي متمرد بلا ذقن، مجموعة من كنوز الأطفال -قطعة من الذهب المزيف وبوصلة

محطمة، صخرة مرصعة بحفريات بيضاء مملة، وشريط متعفن من السَّاتان- قبعت في خط منظم على حافة النافذة.

عالم أمي بأكمله حتى هربت للعثور على عوالم أخرى، هذا ما كانت تبحر باتجاهه قبل موتها، هذا المنزل المتهالك الذي تفوح منه رائحة امرأة عجوز ودهن لحم الخنزير، منزلها.

هل لديَّ منزل أعود مبحرة إليه؟ فكَّرت في منزل لوك، ليس في الردهات الفخمة الغبية التي تعجُّ بالكنوز المسروقة لكن مقعدي المتكتل المفضل، النافذة الدائرية الصغيرة من حيث أستطيع مراقبة العواصف القادمة عبر البحيرة، وبئر السلم الذي لطالما فاحت منه رائحة شمع العسل وزيت البرتقال.

لديَّ منزل حقًّا، لكني لا أستطيع العودة إليه فحسب، البنت لأمها.

اتضح أن فطور ليزي ما هو إلا قهوة لاذعة بشراسة، مغلية ومرشحة عبر قطعة قماش ذات بقع سوداء، لم يسبق لي تجربة تناول السيانيد، لكنني تخيلت أن شعور سائل ساخن حارق على بطانة المعدة هو أمر مماثل.

- لنسمع القصة إذًا.

قالت ليزي، مصدرةً إيماءة مشجعة، إذًا أخبرتها كيف انتهى الحال بفتاة عالقة أمام عتبة بابها بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على اختفاء ابنة أخيها.

لم أخبرها بالحقيقة، لأن قريبتي الوحيدة ستظنني حينها مجنونة، ولقد أصبحت متحسسة من أن يظنني الناس مجنونة، ولكنني حاولت ضمان أن تكون التفاصيل المهمة حقيقية؛ كان أبي أجنبيًّا -«يا للقرف» تمتمت ليزي- قابل والدتي بالصدفة البحتة في أثناء مروره بمدينة نينلي، عثرا على بعضهما مجددًا بعد سنوات من البحث ثم تزوجا قانونيًّا -«حسنًا، شكرًا للرب على ذلك»- وعاشا على أجر والدي بصفته أستاذًا للتاريخ -صمتٌ متشككٌ- كانا مسافرين عائدين إلى كنتاكي عندما وقعت حادثة مروعة وقُتلت أمي -صوت ضرب الصدر مرة أخرى-، وتبناني أنا ووالدي وصيٌّ ثري بطريقة أو بأخرى -المزيد من الصمت المتشكك-، قضى والدي عقدًا ونصف في إجراء أبحاث حول العالم، لم يتزوج مجددًا -أصدرت ليزي جلبة من الموافقة المُكرهة-.

– ثم نشأت في منزل لوك في فيرمونت، كان لديَّ كل شيء، أي فتاة قد تتمناه.

باستثناء العائلة أو الحرية، ولكن من يكترث؟

– سافرت في كل مكان مع، آه، والدي بالتبنّي، بل إنني أتيت إلى هنا ذات مرة، ولا أعرف إذا تتذكرين.

حملقت ليزي إليَّ، ثم أطلقت تنهيدة إدراك صغيرة:

– آه، لم أظن أنك حقيقية، اعتدت تخيل أديلايد في كل مكان، لكن لطالما اتضح أنها فتاة ما لديها ضفيرة شقراء أو رجلًا يرتدي معطفًا قديمًا، لقد كانت ترتدي معطفي في الأرجاء، أقبح شيء ترينه على الإطلاق... حسنًا، متى كان ذلك؟ كيف انتهى بك الحال هنا؟

– كان عام 1901، أتيت مع والدي بالتبني إلى...

تردد رقم 1901 على نحو غريب بمجرد أن تفوهت به.

الليلة الماضية، قالت ليزي إن المشتري الغامض لملكيتها عاد للظهور في عام 1901، أليس من الغريب أن يكون كلانا في نينلي في العام نفسه؟ بل ربما كنا هنا في الوقت نفسه، ربما تقاطعت طرقنا في فندق جراند ريفرفرونت، هل يمكن أن يكون المحافظ صاحب مجموعة الجماجم؟ حاولت تذكّر كيف وصفه كتاب والدي، شارب مقصوص، بدلة ثمينة، عينان باردتان، بلون الأقمار أو العملات...

تباطأت أفكاري، كما لو كانت تغرق عبر طلاء بعمق الخصر.

السؤال، ذلك الشبح الأسود عديم الشكل الذي يُطاردني طوال الليل، أصبح فجأةً في بؤرة التركيز، وأدركت بمجرد أن حدث ذلك أنه شيء أود التغاضي عنه باستماتة.

– آسفة، لكن... هل تعرفين الرجل الذي اشترى أفدنتك الخلفية؟ ماذا كان اسمه، هل ذكرتِه؟

طرفت ليزي بعينيها في وجهي:

- ماذا؟ حسنًا، لم نعرف اسمه الأول، وأليس ذلك شيء غريب، أن تبيع أرضك دون معرفة اسم رفيق مسيحي، لكن كان هناك شيء غريب حياله، وتلك العينين...

ارتعشت قليلًا، وتخيلت زوجين من الأعين الجليدية تضغط أمام وجهها.

- لكن اسم شركته موجود على العقد، دبليو. سي. لوك وشركاؤه.

من الصعب التذكر على وجه الدقة كيف كان رد فعلي.

ربما صرخت، ربما شهقتُ وغطيتُ فمي بيدي، ربما سقطت إلى الخلف في مقعدي نحو مياه باردة عميقة وواصلت السقوط، يخرج من فمي سلسلة وداعية من الفقاعات اللامعة نحو السطح...

وربما تنحنحت وطلبت من خالتي ليزي أن تعيد ما قالته فضلًا، السيد لوك، لقد كان السيد لوك هو من قابل نسخة والدتي التي تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا بعد قداس الأحد، وهو من استجوبها حول الفتى الشبح وأبواب الكوخ، وهو من اشترى الأفدنة الخلفية التي تمتلكها نساء عائلة لارسن، وأغلق **بابه**ن.

هل أنتِ متفاجئة حقًّا؟ تردد الصوت في رأسي ناضجًا لاذعًا، أظنه أثار نقطة عادلة، لقد عرفت بالفعل أن السيد لوك كاذب وسارق وشرير، عرفت أنه عضو في الجمعية ولهذا يكرس حياته لتدمير **الأبواب**، علمت أنه جنّد والدي بكل الأنانية القاسية لرجل ثري يشتري حصان سباق، واستفاد من عذابه لمدة سبعة عشر عامًا، عرفت أن حبه لي مشروطٌ وهشٌّ، وسيعتزله بسهولة توازي بيع تحفة في مزاد.

لكنني لم أعرف أو لم أسمح لنفسي بمعرفة أنه كان قاسيًا للغاية، قاسيًا بما يكفي حتى يغلق عن عمد **باب** والدي مرتين وليس مرة واحدة...

أو ربما لم يدرك أن **الباب** الأزرق كان شيئًا مميزًا، ربما لم يربطه قط بالغريب ذي الوشوم الذي عثر عليه بعد عدة سنوات. -أدرك الآن أن هذا كان أملًا يائسًا سخيفًا، كما لو أنني أستطيع اكتشاف دليل يفتدي السيد لوك ويجعله مجددًا الشخص البارد لكن المحبوب الذي كان يلعب دورًا يشبه دور الأب في طفولتي.

تخلصت من محتويات وسادتي الملوثة النتنة متجاهلةً صياح ليزي:

- ليس على طاولة المطبخ يا فتاة !

قبضت على الكتاب الجلدي القديم، كتاب والدي، الكتاب الذي أرسلني في هذا المسار الشريد المجنون عائدة إلى بداياتي، اهتز الكتاب قليلًا بين يدي.

اتجهت نحو الفصل الأخير، الجزء الذي ظهر فيه السيد لوك بمعجزة لإنقاذ والدي المعذَّب، وهناك في عام 1881، فتاة تدعى أديلايد لي لارسن، قطعًا تذكر السيد لوك الاسم والتاريخ، تصاعد في حلقي شعور بالرعب والحصار، مثل طفل صغير نفدت منه الأعذار.

لقد كان يعرف، لقد عرف لوك.

عندما قابل والدي في عام 1895، كان يعلم سابقًا بكل شيء حول عائلة لارسن وأفدنتهم الخلفية و**الباب** في الحقل، لقد كان الشخص الذي أغلقه على كل حال، لكنه لم يقل كلمة واحدة لوالدي المسكين الأحمق، ولا حتى... وفي هذه المرة شعرت بنفسي أشهق حقًّا، وسمعت لسان ليزي يطقطق منزعجة، ولا حتى عندما عثرت على **الباب** مفتوحًا مجددًا في عام 1901.

إذا أحب السيد لوك والدي أو أحبني على الإطلاق، لترك **بابي** الأزرق منتصبًا وأرسل إلى والدي برقية في غضون ساعة، عد إلى المنزل يا جوليان، توقف، لقد عثرنا على **بابك** اللعين، ولكان والدي عبر المحيط الأطلنطي مثل صخرة واثبة واندفع بداخل منزل لوك، ولكنت ركضت بين ذراعيه، ليهمس في شعري: «جانيوري حبيبتي سنعود إلى المنزل».

لكن السيد لوك لم يفعل أيًّا من تلك الأشياء، وبدلًا منها، أشعل النار في الباب الأزرق وحوَّله إلى رماد، وحبسني في غرفتي، وترك والدي محاصرًا لمدة عشرة أعوام أو أكثر.

أوه يا والدي، لقد ظننت نفسك فارسًا تحت رعاية بارون ثري كريم أو أمير، أليس كذلك؟ وفي الواقع كنت مجرد حصان مُلجم يجري تحت إمرة سوط.

ما زال الكتاب في يدي، ضغط إبهامي الصفحات حتى هربت الدماء منه وتحول إلى اللون الأبيض، تجمعت حرارة خانقة في حلقي، خيانة شنيعة قاطعة، حنق متضخم، وجزء بعيد مني كان خائفًا على الأغلب من ضخامته المطلقة.

لكن لم أملك وقتًا للغضب، لأنني تذكرت لتوي الخطاب الذي أرسلته إلى السيد لوك، لقد أخبرته أنني عائدة إلى المنزل، تخيلت عندما كتبته أن السيد لوك سيفترض أنني سأتجه نحو **الباب** الذي دمره إيفان في اليابان، أو حتى **الباب** الذي أغلقته الجمعية في كولورادو، فكرت في أنه لم يعرف أي شيء عن **الباب** الأول الذي أُغلق قبل عقود، إلا كمرجع عابر في قصة أبي.

أوه يا إلهي.

– يجب أن أذهب الآن.

كنت قد نهضت بالفعل، أتجه نحو الباب، وباد يخمش ليلحق بي.

– أي طريق يؤدي إلى ذلك الحقل القديم؟ لا عليك، سأجده، كان يطل على النهر، أليس كذلك؟

فتشت بحرية في أغراض ليزي بينما أتحدث، أسحب الأدراج العالقة في حرارة الصيف نحو الخارج، لأبحث عن... نعم، بضعة أوراق باهتة من جريدة، حزمتهم بداخل غطاء وسادتي برفقة الأشياء الأخرى، بوصلة إيفان الخضراء، سكيني المصنوعة من العملة الفضية، كتاب أبي، وقلم صامويل، يجب أن يكون ذلك كافيًا.

– انتظري يا فتاة، إنك مرتدية نصف ملابسك...

كنت مرتدية ثلاثة أرباع ملابسي على الأقل، كان ينقصني الحذاء، وأزرار قميصي مربوطة جانبيًّا.

– ماذا تريدين من ذلك المكان على أي حال؟

استدرت لأواجهها، بدت هشة ومنكمشة في مقعدها الهزاز، مثل شيء مقتنص من قوقعته ويتحلل ببطء، عيناها عليَّ، أطرافها حمراء وقلقة.

قلت لها:

– أنا آسفة.

أعرف شعور أن تكون دائمًا وحيدًا، دائمًا ما تنتظر عودة شخص ما إلى المنزل.

– لكن يجب أن أذهب، ربما تأخرت للغاية بالفعل، لكن سأعود لأزورك، أقسم على ذلك.

الخطوط المحيطة بفَمِها مالت إلى ابتسامة مريرة متألمة، كانت ابتسامة شخص سمع وعودًا قبل ذلك، وإدراكه على مستوى أعلى من أن يصدقها، أعرف ذلك الشعور أيضًا.

دون تفكير عدت إلى الكرسي الهزاز، وقبلت خالتي ليزي على جبهتها، بدا الأمر أشبه بتقبيل صفحة من كتاب عتيق، جاف وتفوح منه رائحة العفن.

أطلقت نصف ضحكة:

– يا إلهي، لكنك تشبهين والدتك تمامًا.

ثم سحبت نفسًا:

– سأكون هنا عندما تعودين.

ثم تركت منزل والدتي أقبض بإحكام على غطاء الوسادة وباد يحلق مثل سهم نحيل برونزي باتجاهي.



باب الرماد

قطعًا، كان ينتظرني بالفعل.

هل تعلم ذلك الشعور عندما تكون داخل متاهة، وتوشك على الخروج منها، ثم تنعطف عند الزاوية وفجأة، تجد نفسك عند المدخل؟ ذلك الشعور المشوه الشنيع بالعودة إلى الوراء في الزمن؟

هكذا كان شعوري عندما رأيت الحقل كثيف العشب، وظل البدلة السوداء ينتظرني في منتصفه، كأنني ارتكبت خطأ في مكان ما وعدت إلى اليوم عندما كنت في السابعة من عمري وعثرت على **الباب**.

باستثناء أن المنظر تغير على نحو غير ملحوظ. عندما كنت في السابعة من عمري، كان العشب برتقاليًا وجافًا من أثر الخريف، الآن هناك المئات من أطياف اللون الأخضر المرصَّع بدفعات صفراء من زهور عصا الذهب، وكنت

أرتدي ملابس قطنية أنيقة، وحيدة للغاية بخلاف مفكرتي الصغيرة الجميلة، الآن أنا حافية القدمين متسخة وباد يتمشى إلى جانبي.

وكنت أهرب من السيد لوك ولست أركض نحوه.

- مرحبًا يا جانيوري، يسرني لقاؤك دائمًا يا سندباد.

بدا السيد لوك في حالة مزرية قليلًا من السفر، لكن على خلاف ذلك، كان الشخص نفسه تمامًا، مربعًا، باهت العينين، شديد الثقة، أتذكر دهشتي، وكأنني توقعته أن يرتدي عباءة سوداء مخططة بالحرير الأحمر، أو يلف شاربًا طويلًا وترتسم على وجهه ابتسامة شريرة، لكنه كان السيد لوك المعتاد المرتاح فحسب.

همست:

- مرحبًا يا سيدي.

الرغبة في التأدب والحفاظ على السلوك المتحضر والنمط الطبيعي للأشياء، أمر قوي على نحو مخيف، أتساءل أحيانًا عن كمّ الشر المسموح بوجوده دون رادع لمجرد أن مقاطعته ستكون وقحة.

ابتسم على نحو لا بد وأنه ظنه ساحرًا ودودًا.

- كنت بدأت أشك في أنني ضيعتك، وأنك تتجولين بالفعل يعلم الله أين.

- لا يا سيدي.

ضغط رأس القلم المسنن راحةَ يدي.

- يا لحظي، ويا إلهي يا فتاة ماذا فعلتِ بذراعك؟

قال محدقًا:

- حاولت تقليد وشوم والدك باستخدام سكين جزار، أليس كذلك؟

توقف ردُّ «لا يا سيدي» التالي في حلقي ورفض الخروج، وقعت عيناي على دائرة الرماد كثيفة العشب التي كادت أن تختفي، وكانت في يومٍ من الأيام بابي الأزرق، ويقف أمامي الرجل الذي أحرقه وخان والدي وحبسني ولا أدين له بأي تصرفات حميدة، لا أدين له بأي شيء على الإطلاق.

حللت كتفيَّ ورفعت رأسي:

- لقد وثقت بك، كما تعلم، ووثق بك والدي أيضًا.

هرب المرح من وجه لوك، مثل دهان مهرج أزالته الأمطار، تحولت نظرته نحوي إلى مراقبة من كثب ثم ضيَّق عينيه، ولم يرد على ما قلته.

- ظننت أنك تساعدنا، ظننت أنك تهتم بنا... أنك تهتم بي.

في تلك اللحظة، رفع يده مسترضيًا:

- بالطبع أهتم...

- لكنك خنت كلينا في نهاية المطاف، استغللت والدي، وكذبت عليه، وحبسته إلى الأبد في عالم آخر، ثم كذبت عليَّ، وأخبرتني أنه ميت...

كان صوتي يعلو ويغلي بداخل صدري:

- أخبرتني أنك تحميني...

- لقد حميتك منذ اللحظة الأولى التي جئتِ فيها إلى هذا العالم يا جانيوري.

اقترب لوك نحوي، ومد يده كأنما ينوي وضعها على كتفي، تراجعت إلى الوراء، ووقف باد على أقدامه، غاضبًا بشدة، وشفتاه مزمومتان إلى الخلف، إذا لم يكن السيد لوك ضمن قائمة «من فضلك لا تقترب أبدًا»؛ أظن أن أسنانه لكانت غرزت في لحمه.

تراجع لوك.

- ظننت أن ثيودور تخلص من هذا الحيوان في البحيرة، لا يبدو أن الغرق حسَّن مزاجه كثيرًا، أليس كذلك؟

حدقت أنا وباد.

أطلق السيد لوك تنهيدة.

- اسمعيني يا جانيوري، عندما اصطدمت أنتِ ووالدك بذلك الباب في كولورادو، بينما كنا نغلقه، شركائي كانوا موافقين على سحق جمجمتيكما وتركك للموت عند سفح الجبل.

قلت ببرود:

- استنادًا إلى وصف والدي، لقد بذلت مجهودًا في المحاولة.

لوح لوك بيده رافضًا وكأنه يبعد ذبابة:

– أؤكد لك أنه سوء تفاهم، كنا هناك لأن أمك أثارت جلبة في الصحف، سخر الجميع من المرأة المجنونة وسفينتها في الجبال، لكننا شككنا أن هناك ما هو أكثر من ذلك، وكنا محقين، أليس كذلك؟

تنحنح:

– سأعترف أن مساعدي كان، حسنًا، متحمسًا أكثر من اللازم بشأن والدك، لكن الرجل المسكين كان يهدم منفذًا عندما عبرت من خلاله نصف سفينة لعينة، وعلى أي حال لم يحدث أي ضرر دائم، لقد اهتممت بكليكما بينما أتشاور مع الآخرين.

– تقصد الجمعية.

أحنى لوك رأسه على نحو أنيق.

– ونصحك الجميع بارتكاب جريمة قتل مزدوجة أليس كذلك؟ ومن المفترض أن أكون ممتنة لأنك لم تفعل؟

أردت أن أبصق وأصرخ عليه حتى يفهم كيف يبدو أن تكون صغيرًا وضائعًا وبلا قيمة.

– هل يقدمون ميداليات نظير عدم قتل الأطفال؟ ربما شهادة ظريفة؟

توقعت أن يصرخ في وجهي، ربما أمَّلت أن يفعل ذلك، أردته أن يتخلى عن ادعاء الحسنى والنيات الطيبة، والثرثرة باستمتاع، هذا ما يفترض أن يفعله الأشرار، هذا ما يمنح الأبطال رخصة كراهيتهم.

لكن لوك نظر إليَّ بجانب واحد من فمه الملتوي:

– أنتِ غاضبة مني، أتفهم ذلك.

شككت في الأمر بكل جوارحي.

– لكنكم مثلتم تمامًا ما سعينا بجهد لنمنعه، ما أقسمنا ضده؛ عنصر عشوائي أجنبي يمكنه التحريض على كل أشكال الفوضى والاضطراب، وهو ما ينبغي استئصاله.

- أبي كان باحثًا مكلومًا، وكنت رضيعة فقدت أحد والديها، أي نوع من المشكلات يمكننا التسبب فيه؟

انحنى لوك مجددًا، وزمّ ابتسامته قليلًا:

- لذا جادلتهم، جمعتهم حولي، ففي نهاية المطاف، أصبح مقنعًا للغاية عندما أريد.

أطلق ضحكة ساخرة صغيرة.

- شرحت ملاحظات وأوراق والدك، ودوافعه الشخصية الخاصة ليسعى نحو المزيد من التصدعات، واقترحت رعايتك بنفسي، ومراقبتك من كثب، لاكتشاف أي مواهب مفيدة غير اعتيادية، ثم تحويلها إلى أهدافنا، لقد أنقذتك يا جانيوري.

كم مرة أخبرني بذلك في أثناء نشأتي؟ كم مرة أعاد رواية قصة العثور على والدي المسكين وضمّه تحت جناحه، ومنحنا ملابس جيدة وحجرات واسعة، وكيف أتجرأ على التحدث بتلك الطريقة؟ وفي كل مرة كان يغمرني الذنب والعرفان مثل حيوان أليف انقلب على طبيعته.

لكني الآن أصبحت حرة، لي مطلق الحرية في كرهه والهروب منه، وكتابة قصتي الخاصة، أدرت القلم في يدي.

- اسمعيني يا جانيوري، أصبح الجو حارًّا.

وعلى نحو مسرحي، مسح لوك قطرات العرق اللامعة على جبهته.

- لنعد أنا وأنتِ إلى المدينة ونناقش كل شيء في أجواء أكثر تحضرًا، حسنًا؟ كل هذا ما هو إلا سلسلة من سوء الفـ...

- لا!

ساورني الشك في أنه يريدني أن أخرج من هنا، بعيدًا عن الحقل الأخضر الهادئ وبقايا الباب السوداء، أو ربما أراد فحسب أن يعود إلى المدينة حيث يمكنه الاتصال بالشرطة أو الجمعية.

- لا، أظن أننا انتهينا من الكلام في الواقع، يجب أن ترحل.

غلفت صوتي طبقة منزوعة العواطف لدرجة أنه يصلح أن يكون إعلان محصل التذاكر على متن قطار، لكن السيد لوك رفع يده مدافعًا:

- أنتِ لا تفهمين، لقد عانيتِ من بعض المصائب الشخصية، أعترف بذلك، لكن حاولي ألا تكوني أنانية، فكري بمصلحة العالم يا جانيوري، فكري بما تروج له هذه «الأبواب» أو التصدعات كما نطلق عليها أو الانحرافات، الاضطراب والجنون والسحر، إنها تلغي النظام، لقد شهدت عالمًا بلا نظام، يتلقى تعريفه من المنافسة المستمرة للحصول على النفوذ والثروة، وفظائع التغيير.

في تلك اللحظة، استطاع الوصول إليَّ، أراح يده مربِّتًا كتفي متجاهلًا زمجرة باد، حدَّق إلى عينيَّ بعينين باهتتين باردتين.

- أهدرت شبابي في عالم مثل ذلك.

ماذا؟ انزلقت يدي حول القلم، تحدث لوك ببطء، يقترب من الرقة:

- وُلدت في عالم بارد قاس لكنني هربت وعثرت على عالم أفضل؛ عالم أكثر لطفًا يزخر بالفرص، كرست حياتي والجزء الأفضل من قرنين لتحسينه.

- لكن، أنت، قرنين؟

ظهرت الآن في صوته شفقة، كشراب حلو المذاق متعفن.

- سافرت في شبابي، عثرت بالصدفة على تصدع في منتصف الصين القديمة، وكأس يشم شديدة الخصوصية، متأكد أنك سبق ورأيتها، بها خاصية إطالة عمر الإنسان، ربما إلى أجل غير مسمى، سنرى.

تذكرت ليزي وهي تقول إنه لم يكبر يومًا واحدًا، فكرت في شعر والدي الفضي، والخطوط التي تؤطر فمه، تنهد لوك وقال بلطف:

- جئت للمرة الأولى إلى هذا العالم في عام 1764، عند جبال إسكتلندا الشمالية، في إنجلترا أو إسكتلندا لا أتذكر.

ظننت أنني عدت إلى بداية متاهتي، ظننت أنني أعرف مكاني، لكن الآن كل شيء تشوه في نظري وأدركت أنني لا أزال أتجول في قلب المتاهة، تائهة تمامًا.

- أنت المؤسس!

همست، وابتسم السيد لوك.

تعثرت عائدة إلى الوراء أتشبث بفراء باد:

- لكن كيف... لا، لا يهم، لا أبالي، سأرحل.

تحسست أوراق الصحف، وأحكمت قبضتي حول القلم بأصابع مهتزة، اهربي، اهربي. لقد فرغت من هذا العالم وقساوته ووحوشه وخياناته وأقسامه الملونة الحمقاء في قطاراته الغبية...

- هل هكذا تفعلينها؟ نوعًا من سحر الحبر؟ كلمات مكتوبة؟ كان يجب أن أشك في الأمر.

كان صوت لوك لطيفًا هادئًا إلى حد ما:

- لا أظن ذلك يا عزيزتي.

تطلعت إليه، والسن المنقسمة تلمس الورقة بالفعل، وعيناه رصدتاني مثل خطافين فضيين.

- ارمي القلم يا جانيوري، ولا تتحركي.

سقط القلم والورقة من يدي، استعادهما لوك، ودس القلم في جيب معطفه، ومزق الورقة، وألقى البقايا خلفه، رفرفت مثل بعوض لونه أبيض وأصفر على العشب.

- ستسمعين ما سأقوله الآن.

خفق نبضي طنانًا مترددًا في رأسي، شعرت بالعجز مثل فتاة غير محظوظة من عصر ما قبل التاريخ، حُفظت إلى الأبد في الثلج.

- عندما تنتهين من الاستماع، ستفهمين العمل الذي كرست له حياتي، وأتمنى، أنك قد تساعدينني.

إذًا استمعت لأنني يجب أن أستمع، لأن عينيه كانتا كخطاطيف أو سكاكين أو مخالب مثبتة بإحكام في لحمي.

- كيف تبدأ قصصك دائمًا؟ في قديم الزمان كان هناك صبي صغير سيئ الحظ للغاية، وُلد في عالم مرير قاسٍ كريه، عالم مستغرق تمامًا في القتل بل قُتل ليسمي نفسه، سكّان عالمك أطلقوا عليه إفرين، ولاحقًا علمت أنه يعني الجحيم، إذا كان الجحيم مظلمًا ومتجمدًا.

على نحو غريب، تردد بين اللهجات، تنحرف نبرته بين السرد الجاف والغضب المرير، كان كما لو أن السيد لوك الذي نشأت معه، صوته وأخلاقه ووقفته؛ مجرد قناع في حفلة، يختبئ خلفه شخص أكبر سنًّا غريب.

– هذا الصبي تعيس الحظ قاتل في أربع معارك قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره، هل تتخيلين ذلك؟ صبيان وفتيات يرتدون جلود حيوانات رثة، أنصاف بريين، يتجولون بين الجنود مثل قطّاع الطرق الجائعين... بالطبع لا يمكنك. تعاركنا لقاء مثل هذه المكافآت الهزيلة، بضعة فدادين مغطاة بالثلج من أرض صيد جيدة، شائعة عن الكنز، والفخر. أحيانًا كنا لا نعرف لماذا نقاتل، باستثناء أن قائدتنا أرادت ذلك، كم أحببناها، كم كرهناها.

لا بد وأن تعبير وجهي تغير، لأن لوك ضحك، ترددت الضحكة بصوت عادي تمامًا، الدويُّ الصبياني نفسه الذي سمعته مئات المرات قبل ذلك، ولكنها جعلت الشعيرات الرفيعة على يديَّ تنتصب.

– نعم كلاهما، دائمًا كلاهما، أظن أنه تقريبًا نفس شعورك حيالي حقًّا، ولا تعتقدي أن السخرية تغيب عني، لكن لم أقسُ عليكِ قط مثلما فعل حكامنا.

والآن تحولت هذه النبرة إلى ما يشبه القلق، كما لو كان خائفًا أن أحدًا منا أو كلانا ربما لن يصدقه.

– لم أجبرك على فعل أي شيء ضد رغباتك قط، لكن في إفرين استخدمونا مثلما يستخدم الجنود الطلقات، كان الجو أشد برودة من العيش جائعًا بلا أي ذرية، لكن ربما حاولنا على أي حال لولا حق الميلاد.

سمعت حرف الـ «B» المكبّر يلح في وسط جملة لوك، يلقي بظلال منتفخة خلفه، ولكنني لم أفهمه.

– كان لا بد أن أبدأ مع حق الميلاد، لقد اختلطت الأمور كلها.

تعرقت شفتا لوك:

- هراء الحكي هذا أصعب مما يبدو عليه، أليس كذلك؟ حق الميلاد، عند بلوغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة، أظهر عدد من الأطفال في إفرين قدرة خاصة. في البداية، من السهل إساءة فهم الأطفال على أنهم متنمرون أو سحرة، لكنهم يمتلكون شيئًا أكثر ندرة، وهي القدرة على الحكم، واستمالة عقول الرجال، وثني عزائمهم كما يثني الحدادون المعدن الساخن... ثم بالطبع، هناك العينان، العلامة الأخيرة.

انحنى لوك نحوي واتسعت عيناه الباهتتان الجليديتان بينما يتفحصني، وبرقة سأل:

- أي لون ستطلقين عليهما؟ عندنا كلمة تعبر عن اللون لا تتوفر في اللغة الإنجليزية، تشير إلى نوع خاص من الجليد الذي يسقط ويُعاد تجميده، بغية تكوُّن طبقة شفافة رمادية عليه...

فكرت في قول لا، لكن الكلمة بدت ضعيفة وبعيدة في رأسي، كأن شخصًا يطلب المساعدة من مسافة بعيدة، وخز قوس قدمي العارية جذع عشب مكسور، ضغطته، وشعرت به يقشر نصف دائرة من الجلد، ثم شعرت بوخز الجرح المكشوف في الهواء الطلق.

ما زال وجه لوك قريبًا مني:

- أنتِ بالفعل تعرفين كل شيء عن حق الميلاد، بالطبع. يا لك من فتاة صغيرة عنيدة.

كما يثني الحدادون الحديد الساخن، رأيت نفسي لوهلة معدنًا متقوسًا يتوهج باللون البرتقالي الممل، طُرق مرارًا وتكرارًا، استقام لوك مرة أخرى.

- حق الميلاد هو دعوة للحكم، يُفترض إمّا أن نتحدّى قائدتنا الحالية في معركة إرادات، وإما أن نتسلل لتكوين ذريتنا البائسة. تحديتها فور استطاعتي، السافلة العجوز، تركتها تنتحب محطمة، وطلبت حقي في الميلاد عندما كنت في السادسة عشرة من عمري.

توحش صوته بالتشبع.

- لكن لا شيء يدوم في ذلك العالم، دائمًا ما توجد ذريّات جديدة، وقادة جدد، وحروب جديدة، ومن يتحدون حكمي، عصيان. وقعت غارة ليلية، معركة إرادات خسرتها، وهربت و... تعرفين ما وجدت بالطبع.

تحرك فمي بلا صوت: **باب**. ارتسمت على وجهه ابتسامة طيبة.

- أصبتِ. ثغرة في الجليد قادتني إلى عالم آخر، ويا له من عالم! ثري، أخضر، دافئ، يسكنه أشخاص ضعاف البصر يجنحون إلى أبسط اقتراحاتي، وكل شيء بعكس كوكب إيفرن، لم تمض سوى ساعات قليلة حتى عدت إلى التصدع وحطمته بيديَّ العاريتين إلى ركام.

شهقت، واتسعت عيناي، نهرني لوك:

- ماذا؟ هل تظنين أنه تحتم عليَّ تركه مفتوحًا على مصراعيه، حتى يستطيع لقيط ما من إيفرن التسلل خلفي؟ ويتمكن من تدمير عالمي الناعم اللطيف؟ لا.

كان جادًّا ومتمسكًا بمبادئه مثل قس يبذل ما في وسعه لإنقاذ رعيته الآثمة، باستثناء أن هناك شيئًا ما يخفق تحت الوعظ، شيء دفعني إلى التفكير في الكلاب المحاصرة والرجال الغارقين، نوعًا من الإرهاب ذي المخالب.

- هذا ما أحاول قوله لك يا جانيوري، تطلقين عليها أبواب، كأنها أشياء أساسية ضرورية، ولكنها على العكس تمامًا؛ تسمح بعبور كافة الأمور الخطرة. أمور مثلي، ومثلك.

عثرت على مدينة كبيرة بما يكفي لضمان حكم فردي مصغر، الطعام والملابس هي أمور يسهل الحصول عليها بالنسبة إلى رجل يمتلك حق الميلاد، وكذلك كان العثور على منزل لطيف، وإجبار شابة على تعليمي اللغة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة متعجرفة.

- حكت لي قصصًا عن ثعابين مجنحة عظيمة تعيش في الجبال مع خزائن من الذهب، وكيف لا يجب أن تنظر إليهم في أعينهم خشية أن يسرقوا روحك.

ضحك ضحكة مكتومة مجنونة.

- أعترف، لطالما أعجبتني الأشياء الجميلة، ما هو منزل لوك سوى خزانة لكنز تنين العالم السفلي ؟

بدأ لوك يسير في دوائر عشوائية، محاولًا التقاط سيجارة نصف ممضوغة من جيبه، ويومئ في مقابل سماء الظهيرة الزرقاء، أخبرني حول سنواته الأولى التي قضاها في دراسة اللغة والجغرافيا والتاريخ والاقتصاد، أسفاره إلى الخارج، واكتشافه للمزيد من التصدعات التي نهبها ثم دمرها على الفور، واستنتج أن عالمه الجديد لا يزال موبوءًا بكل أشكال الفوضى والتعاسة -أولًا الأمريكان، ثم الفرنسيين الملعونين، وحتى سكان هاييتي! واحدًا تلو الآخر- لكنه كان يتطوّر بانتظام تحت قيادة ممالك جديدة منظمة.

استمعت والشمس تنبض أمام جلدي مثل نبضة قلب صفراء، والكلمات لا تزال تدور في رأسي مثل المحتالين، شعرت وكأنني أصبحت في الثانية عشرة من عمري مجددًا، أتلقى محاضرة في مكتبه، وأحدق إلى مسدس الإنفيلد في حافظته الزجاجية.

انضم إلى شركة الهند الشرقية في عام 1781، ارتقى في المناصب سريعًا بالطبع.

- لا يعود الأمر برمته إلى حقي في الميلاد، أيضًا، لا تنظري إليَّ بهذه الطريقة.

كون لنفسه ثروة ضخمة، وسعى لتأسيس مشاريع تجارية تخصه، تقاعد وأعاد الانضمام إلى الشركة عدة مرات ليبدد الشبهات عن عمره، بنى لنفسه منازل في لندن، وستوكهولم، وشيكاغو، ومقاطعة خضراء في فيرمونت عام 1790. بلا شك، تنقل بين منازله، يبيعها ثم يعيد شرائها لبضع مرات، على مدار مدة طويلة،

ظنًّا منه أن هذا كافٍ، لكن بعد ذلك في عام 1857، نهضت مجموعة محددة من الأشخاص المتمردين الاستعماريين، أشعلوا النيران في بعض الحصون البريطانية، وفروا منتصرين عبر الريف لمدة تقارب العام قبل أن يخضعوا في قسوة مرة أخرى.

- كنت هناك يا جانيوري في دلهي، ذهبت إلى كل متمرد أستطيع العثور عليه، وهم ليسوا كثيرين، إذ يطلق القائد عليهم النيران من المدافع،

وجميعهم أخبروني بالقصة ذاتها، انزلقت امرأة بنغالية في ميروت عبر منفذ غريب وعادت بعد اثني عشر يومًا، تحدثت مع كائن حكيم أخبرها أن شعبها سيتحرر ذات يوم من الحكم الأجنبي، ولذلك حملوا السلاح ضدنا.

ارتفعت يد لوك في الهواء في سخط للذكرى.

- تصدع! باب ملعون ينبض أمام عيني مباشرة.

أطلق زفيرًا قسرًا، ودسَّ إبهاميه خلف حزامه، كما لو يريد تهدئة نفسه.

- وصلت لإدراك مدى إلحاح مهمتي، أهمية إغلاق التصدعات، أخذت على عاتقي مهمة تجنيد آخرين لقضيتي.

وهكذا تكونت الجمعية، تجمع سري لأصحاب النفوذ، رجل عجوز في فولغوغراد أبقى قلبه في صندوق صغير مخملي، ووريثة ثرية في السويد، ورجل في الفلبين تحول إلى خنزير أسود عملاق، وحفنة من الأمراء وعشرات من أعضاء الكونغرس، ومخلوق أبيض البشرة في رومانيا يتغذى على الدفء البشري.

الآن، استدار عائدًا لمواجهتي في أثناء سيره، يختطف عينيَّ بعينيه.

- لقد أدينا عملنا على نحو جيد، لمدة نصف قرن، عملنا في الظلال، للحفاظ على هذا العالم آمنًا ومزدهرًا، أغلقنا عشرات التصدعات ربما المئات، أسهمنا في مستقبل مشرق ومستقر ولكن يا جانيوري.

تكثفت نظرته.

- هذا ليس كافيًا، لا يزال هناك همهمات تعاسة، وتهديدات للاستقرار، وانحرافات خطيرة، نحتاج إلى كل مساعدة نستطيع العثور عليها، بصراحة، وبالأخص الآن بعد رحيل والدك.

سقط صوته في همس هادر:

- ساعدينا يا طفلتي العزيزة، انضمي إلينا.

بحلول تلك اللحظة، كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، وشرعت ظلالنا في الزحف بحرص من تحتنا، تنقسم إلى ما يشبه المغازل الداكنة على العشب

الطويل، صنع النهر وحشرات الزيز نوعًا من الاضطرام المتتالي تحت أخمص قدمي، كما لو كانت الأرض تدندن لنفسها.

وتنهد السيد لوك منتظرًا.

ضغطت الكلماتُ سقفَ فمي، كلمات مثل شكرًا ونعم بالطبع يا سيدي أو ربما امنحني بعض الوقت، كانت كلمات مديح بهيجة تنز بأسلوب يليق بالفتيات تفيد بأنه يحبني ويثق بي ويريدني إلى جانبه.

تساءلت إن كانت تلك الكلمات تخص السيد لوك أم تخصني، تصل إليَّ عبر نظرة عينيه البيضاء، أثارت الفكرة غثياني وحنقي وجعلتني أشعر بالدوار.

- لا، شكرًا لك.

همست بها عبر أسنان مضمومة.

أصدر لوك قرقرة بلسانه:

- لا تكوني طائشة يا فتاة، هل تظنين أنه سيسمح لك بالتجول بحرية، في ظل عادتك بفتح الأشياء التي يجب أن تبقى مغلقة؟ لن تتجشم الجمعية عناء حياة مثل هذه الشخصية.

- سبق وأوضح السيد إلفين الأمر على نحو كافٍ مثلما فعل السيد هافيميير.

أطلق لوك زفرة في إحباط.

- نعم، أعتذر بشدة على ثيودور وبارثولوميو، كلاهما خلص إلى حلول عنيفة ومتطرفة، أؤكد لك أن لا أحد سيفتقد هافيميير بهذا القدر، أعترف بوجود بعض المخاوف بشأن الآنسة أيًّا كان اسمها، وفتى البقالة الصغير، لكنني تعاملت معهما الآن.

تعاملت معهما، لكن من المفترض أن يكونا آمنين، من المفترض أن يختبئا في أركاديا، تردد في أذني صوت نحيب، كما لو كان أحدهما يبكي من مسافة كبيرة، تقدمت نحو الأمام، شبه متعثرة في شيء مدفون في كومة الرماد.

- جاين... ص... صامويل...

بالكاد استطعت نطق اسميهما.

– كلاهما في أفضل حال.

خارت قواي مع الراحة ووجدت نفسي أنحني في الرماد، بينما يسندني باد حتى أقف على جانب واحد.

– عثرنا عليهما يزحفان أسفل ساحل ماين خلفك، بالكاد لمحنا الآنسة أيًّا كان اسمها، إنها سريعة في استخدام قدميها على نحو مدهش، تلك الساقطة السارقة، لكننا سنجدها في نهاية المطاف، أنا متأكد، لكن الصبي كان متعاونًا إلى حدٍّ ما.

رن الصمت، همهمت حشرات الزيز واهتزت، همست.

– ماذا فعلت به؟

– يا إلهي، هل هذا إعجاب بعد سنوات من الآنسة الصغيرة التي لا تريد أن يزعجها أحد في أثناء القراءة؟

– إذا قتلته، سأكتب «سكينًا» على يدي أقسم إنني سأفعل...

– هدئي من روعك يا جانيوري، أساليبي في التحقيق أقل... همم، بدائية من هافيمير، سألته فحسب بضعة أسئلة عنك، وأدركت أنك أخبرته بطيش عن كل ما يخص الجمعية، وأخبرته أن ينسى العلاقة بأكملها، وهو ما فعله بلطف. أرسلناه مسافرًا في اتجاه البيت دون أدنى اهتمام.

ابتسم السيد لوك مطمئنًا واثقًا، وقال إنه لا يفهم ماذا فعل، لم يفهم رعب الأمر، الانتهاك، لم يفهم أن الدخول إلى عقل شخص ونحته كأنه صلصال حي هو نوع من العنف أسوأ بكثير من ممارسات هافيمير.

هل هذا ما فعله بي طوال حياتي؟ أجبرني على أن أصبح شخصًا آخر؟ شخصًا طيِّعًا محتشمًا وجيدًا لا يهرب إلى الحقول أو يلعب على شاطئ البحيرة مع ابن البقال أو فتاة تتسول أسبوعيًّا لتذهب في مغامرات مع والدها؟

كوني فتاة مطيعة والزمي مكانك. يا إلهي كم حاولت، كم جاهدت لأضع نفسي داخل الحدود الضيقة للفتاة التي طلب مني السيد لوك أن أكونها، كم انتحبت على المرات التي فشلت فيها.

لم يفهم كم كرهته في وقتها بينما أركع بين الرماد والحشائش الطويلة، ودموعي تتحول إلى عجينة طينية على وجنتيَّ.

- إذًا كما ترين، كل شيء تحت السيطرة، انضمي إلى الجمعية، وكل هذا الهراء سيصبح طي النسيان، الدعوة لا تزال قائمة، كما وعدت.

بالكاد تمكنت من سماعه فوق غضبي المزمجر وعويلي.

- ألا ترين أنه مقدر لك فعل ذلك؟ لقد ربيتك إلى جانبي، وسمحت لك برؤية العالم، وعلمتك كل شيء في استطاعتي، لم أشعر قط أنه سيكون من الحكمة الخالصة... آه.

سعل لوك في إحراج موجز.

- إنجاب طفل من صلبي، ماذا إذا حصل على حق الميلاد؟ ماذا إذا جاء ليتحدى حكمي؟ لكن انظري إليكِ، ابنتي المتبناة كبرت لتصبح تقريبًا عنيدة قوية مثل أي طفل وُلد من صلبي.

اشتعلت عيناه المثبتتان عليَّ فخرًا، مثل مالك يتعجب من أفضل أحصنته.

- لا أعرف بالضبط ما أنتِ قادرة على فعله، أعترف، لكن دعينا نكتشف ذلك معًا، انضمي إلينا، ساعدينا في حماية هذا العالم.

أعرف السيد لوك عندما يحمي شيئًا، يحبسه في مكان بعيد، يخنقه، ويحتفظ به مثل طرف مبتور في خزانة زجاجية، لقد كان يحميني طيلة حياتي، وكاد الأمر أن يقتلني، أو على الأقل يقتل روحي.

لن أدعه يستمر في فعل ذلك بالعالم.

لن أدعه، ولكن كيف أفعل ذلك عندما يثني إرادتي بمجرد نظره؟ دفنت يديَّ في الرماد كثيف العشب من حولي، انحشر في حلقي عويل بلا صوت.

وفي تلك اللحظة، أدركت اكتشافين مثيرين للاهتمام، الأول كتلة من الفحم أسفل الطبقة السطحية المكونة من الرماد والطين المرتشح من الأمطار، والاكتشاف الثاني هو البقايا المتعفنة المحترقة من مفكرتي الصغيرة، المفكرة التي وضعها والدي في الصندوق الأزرق منذ عقد، لأجلي فقط.

الغلاف الذي كان ذات يوم أرق جلد طبيعي، أصبح الآن جامدًا مشققًا لونه أسود محروقًا عند الحواف، يمكن رؤية فقط الحروف الثلاث الأولى من اسمي -انظر إلى المنحنى المنبسط لحرف «J»، يشبه حبلًا مُدلى من نافذة

سجن- أجزاء منها تجمعت وتناثرت بمجرد أن فتحتها، صفحاتها الداخلية قذرة التهمتها النيران.

- ما هذا؟ ماذا... ضعي ذلك جانبًا يا جانيوري، أنا جاد.

ارتبكت قدما لوك نحوي، أحضرت الفحم إلى الصفحة، وصنعت خطًّا واحدًا متعرجًا، يا إلهي، أتمنى أن ينجح الأمر.

- لا أمزح...

قبضت يد متعرقة على ذقني ورفعت رأسي نحو الأعلى بقوة، قابلت هاتين العينين الحادتين الشاحبتين.

- توقفي يا جانيوري.

كان الأمر أشبه بالغرق في نهر شتوي، سحقني نحو الأسفل ثقل لا يمكن تقدير وزنه، وضغطني، وتعلق في ملابسي وأطرافي، وحثهم نحو اتجاه واحد، أليس من الأسهل لو سمحت للنهر أن يسحبني، بدلًا من ضغط فكي والرفض، يمكنني العودة مرة أخرى إلى البيت، أستطيع الانثناء مجددًا في مكاني السابق كفتاة مطيعة، مثل كلب وفيٍّ عند أقدام سيده...

تحول الأمر إلى سؤال بينما أنظر إلى عينَي السيد لوك الباهتتين العاجيتين، عن مدى دقة نجاحه في تحويلي إلى فتاة مطيعة تعرف مِكانها، هل تغلبت إرادتُه على إرادتي تمامًا؟ هل حذف نفسي الحقيقية ولم يتبق شيء سوى نسخة دمية صينية؟ أو حشرني ببساطة في زي وأجبرني على لعب دورما؟

ودون مقدمات فكرت في السيد ستيرلينج، فراغه المريب كما لو أنه لا شيء ينبض على الإطلاق تحت قناع السائق الجيد، هل هذا مستقبلي؟ هل تبقَّى أي شيء من تلك الصبية المتعننة المندفعة التي عثرت على باب في الحقل منذ سنوات عديدة؟ فكرت في هروبي البائس من براتلبورو، العوم في منتصف الليل إلى الفنار المهجور، وتجولي في الطريق الخطرة جنوبًا، خطر ببالي كل مرة عصيت فيها ويلدا أو هرّبت قصة ورقية إلى مكتب لوك بدلًا من قراءة تاريخ ضعف وسقوط الإمبراطورية الرومانية[1]، والساعات

---

(1) تاريخ ضعف وسقوط الإمبراطورية الرومانية: كتاب تاريخ من تأليف المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون، يتتبع فيه مسار الحضارة الغربية.

التي قضيتها أحلم بالمغامرة والغموض والسحر، فكرت في نفسي هنا الآن، أنحني في قذارة منزل أمي متحدية هافيميير والجمعية والسيد لوك نفسه بل وشككتُ في الأمر.

هل يمكنني الآن اختيار من أريد أن أكون؟

اضطرب النهر واندفع نحوي، يجذبني نحو الأسفل، الأسفل، الأسفل، لكن كان الأمر كما لو تحوّلت إلى شيء ثقيل على نحو لا يصدق، تمثال من الرصاص لفتاة وكلبها يقفان معًا، لا يلقيان بالًا للنهر المتلاطم.

سحبت وجهي في مقابل يد لوك المثبتة على ذقني، وهربت من عينيه، تحرك الفحم على الورقة، وتعثر لوك عائدًا إلى الخلف، وسمعته يعبث في وسطه، تجاهلته.

ثم صدر الهدوء الناعم لمعدن على جلد والطقطقة الموجزة، عرفت ذلك الصوت، سمعته في كوخ عائلة زابيا قبل صوت الصاعقة التي قتلت هافيميير، سمعته في حقول أركاديا، عندما أطلقت النار بجموح خلف إلفين.

– يا جانيوري، أجهل ما تفعلينه، ولكن لا يمكنني السماح به.

من بعد، لاحظت أنني لم يسبق وأن سمعت صوت السيد لوك يهتز، لكن لم يبد أنني أبالي، شتتني ذلك الشيء في يده.

مسدس، ليس الإنفليد المحبوب الذي سرقته جاين، لكن بندقية أكثر نحافة وأحدث شكلًا، حدقت ببلاهة إلى الأسفل نحو النفق الأسود لماسورته.

– ضعيه جانبًا فحسب يا عزيزتي.

بدا هادئًا وسلطويًّا لدرجة أنه ربما يرأس اجتماع مجلس إدارة باستثناء الرعشة الخفية في صوته، كان خائفًا من شيء... أنا؟ أم الأبواب، والتهديد الحاضر على الدوام أن شيئًا أكثر قوة منه ينبض من الطرف الآخر؟ ربما كل الرجال أصحاب النفوذ جبناء في الواقع، لأنهم في أعمق نقطة من قلوبهم يعرفون أن السلطة مؤقتة.

ابتسم أو حاول الابتسام، امتدَّ فمُه بتجهُّم كاشفًا عن أسنانه.

– أخشى أن هذه الأبواب مُقدَّر لها أن تبقى مغلقة.

لا، غير صحيح، العوالم ليس من المفترض أبدًا أن تكون سجونًا، مغلقة وخانقة وآمنة، العوالم مقدر لها أن تكون منازل ضخمة مترامية الأطراف، نوافذها مفتوحة على مصراعيها، تندفع من خلالها الرياح والمطر الصيفي، وتحتوي على ممرات سحرية في الخزائن وصناديق كنز سرية في طوابقها العليا، قضى لوك وجمعيته قرنًا يندفعون بجنون حول هذا المنزل، يغلقون النوافذ ويوصدون **الأبواب**.

تعبتُ للغاية من **الأبواب** المغلقة.

هي تكتب بابًا من...

وبالنظر إلى الوراء، أظنني لم أكن خائفةً قط من السيد لوك كما يجب، رفض قلبي الطفولي تصديق أن هذا الرجل الذي جلس إلى جانبي على متن المئات من القطارات المختلفة والبواخر والعبارات، والذي تفوح منه رائحة السجائر والجلد والمال، ولطالما كان موجودًا عند غياب والدي، يمكنه حقًّا أن يؤذيني.

ربما كنت محقة، لأن السيد لوك لم يطلق النار عليَّ، وبدلًا من ذلك، رأيت وميض الماسورة الأسود يتأرجح ناحية اليمين. ثم توقف، مشيرًا إلى باد عند البقعة حيث تجتمع شعيراته في غرزة مجعدة أسفل صدره.

تحركت، التَهَمَ صوت انفجارٍ صرختي، ثم كان السيد لوك يصيح ويشتمني، بينما أمرر يدي على صدر باد هامسةً:

– لا، يا إلهي، لا.

وباد يئنّ لكن لا يوجد أيّ جرحٍ أو ثغرة، بشرته ناعمة وكاملة مثلما كانت في السابق، إذًا من أين تأتي هذه اللطخات الحمراء؟

– أوه.

– ألا يمكنك أبدًا، ولو لمرة واحدة، أن تلزمي مكانك اللعين...

جلست إلى الوراء على أعقابي، أراقب الدماء تنزلق من جلد ذراعي الداكن المتسخ في جداول منظمة، مثل خريطة شارع في دولة أجنبية، تدلّت شعيرات باد خلال تلك القنوات كأنما يتحرَّى الثغرة الداكنة في كتفي، تسطحت أذناه في قلق، حاولت مد يدي اليسرى حتى أطمئنه، لكن كان الأمر أشبه بشد خيط

دمية مقطوع، لم تؤلمني، أو ربما آلمتني ولكن الألم لم يود أن يكون ملحًّا بشأن الأمر، انتظر في أدب على حواف بصيرتي، مثل ضيف حسن التربية.

أسقطت الفحم الذي كنت أمسكه، استقرت جملتي غير مكتملة إلى جانب بركة صغيرة من اللون الأحمر تتشكل عند نهاية أطراف أصابعي.

حسنًا، لا بد أن ينجح الأمر، لأني بالتأكيد لن أطيل البقاء في هذا العالم الشرير المُكشر عن أنيابه حيث يستطيع من أحببتهم إيذاءك.

لطالما أجدت الهرب.

فردت أصابعي، على نحوٍ شِبْه كسول، ورسمتُ عبر بركة الدماء الموحلة، كتبت على الأرض نفسها، بحروف طينية حمراء لمعت خلال بعد ظهيرة صيفية، جعلت حشرات الزيز عظام يدي تطن.

هي تكتب بابًا من الرماد، ويُفتح.

آمنت بالأمر كما يؤمن الناس بالرب والجاذبية، بثبات راسخ، وهم بالكاد يلاحظون أنهم يفعلون ذلك، صدقت أنني مطوعة كلمات، وأن إرادتي يمكنها إعادة تشكيل انحناءات وخيوط الواقع نفسه، صدقت أن **الأبواب** توجد في أماكن ذات تردد، نادرة بين العوالم، حيث تتهامس سماوات كوكبين أمام أحدهما الآخر، صدقت أنني سأرى والدي مجددًا.

وفجأة هبت رياح شرقية من ضفة النهر، لكن لم تفح منها رائحة سمك السلور والرطوبة كما يُفترض، وبدلًا من ذلك؛ كانت رائحتها جافة وباردة ومعبأة بالتوابل مثل القرفة والأرز، اندفعت الرياح فوق كومة الرماد، ثم التفت مثل واحد من شياطين الغبار الغريب الذين تراهم أحيانًا يمارسون الحيل بالاختفاء في الهواء، وقذف الرماد والفحم الملطخ بالأمطار والقذارة بأنفسهم نحو الأعلى، تعلقوا للحظة بيني وبين السيد لوك، تشكل قوس عبر سماء الصيف الزرقاء، رأيت وجه لوك يسترخي وبندقيته ترتعش.

ثم بدأ الرماد... ينتشر! يذوب! كان الأمر كما لو أن كل ذرة غبار أو فحم هي في الواقع قطرة حبر في ماء، والآن تنساب الأجزاء الرقيقة نحو بعضها بعضًا، تترابط وتمتزج وتظلم وتشكل خطًّا معوجًا في الهواء حتى، تكونت

قنطرة أمامي، بدت هشة على نحو غريب، كما لو قد تنهار إلى رماد مرة أخرى من أقل لمسة، لكنه كان **بابًا**، يمكنني بالفعل شم رائحة البحر.

مددت يدي نحو غطاء وسادتي المهمل، ووقفت بثبات على قدميَّ، الإعياء يشوِّش عينيَّ، بقايا الغبار والعشب أصبحت جزءًا لا يتجزأ من غرفتي، رأيت السيد لوك يقبض على مسدسه مجددًا.

– الآن، توقفي فحسب، لا يزال بإمكاننا إصلاح الأمر، وما زلت تستطيعين العودة معي، عودي إلى المنزل... كل شيء سيكون على ما يرام...

تلك كانت كذبة، أنا خطرة وهو جبان، والجبناء لا يتركون الأشياء الخطرة تحيا في غرف نومهم الفائضة، في بعض الأحيان لا يتركونهم أحياء على الإطلاق.

تقدمت نحو باب الرماد، ونظرت إلى عينَي السيد لوك للمرة الأخيرة، كانت بيضاء وقاحلة مثل زوجين من الأقمار، انتابتني رغبة طفولية مفاجئة في أن أطرح عليه سؤالًا، هل أحببتني حقًّا يومًا؟ لكن بعد ذلك ارتفعت فوهة المسدس إلى الأعلى مجددًا، وظننت أنني لا ينبغي أن أسأله.

اندفعت عبر مدخل الرماد يرافقني باد الذي يقفز في أعقابي، وقلبي يضطرم في صدري، وصوت طقطقة طلقة ثانية يرن في أذني، تتبعني في الظلمة.



الأبواب المفتوحة

لقد دخلت العتبة أربع مرات سابقًا، وفكرت في أثناء سقوطي في الظلام المتردد، ربما أن المرة الخامسة لن تكون سيئة للغاية، وبالطبع كنت مخطئة، فكما لا تبهت زرقة السماء، عندما يزداد عدد المرات التي تراها فيها، ينطبق الأمر نفسه على الفراغ عديم الهواء والذرات في المسافة بين العوالم، إذ لا يصبح أقل رعبًا.

ابتلعني السواد كأنه كائن حي، انحنيت نحو الأمام، وأسقط ولا أسقط لأنه حتى تسقط لا بد وأن يكون هناك أعلى وأسفل، وفي العتبة لا يوجد سوى الفراغ الأسود السرمدي، شعرت بباد يندفع وقد تجاوزني، يجدف بقدميه دون جدوى أمام الظلام، ثم وضع ذراعي حوله. ثَبَّتَ نظره عليَّ، وخطر لي أن الكلاب ربما لا تتيه أبدًا في العتبة لأنها تعرف بدقة إلى أين تذهب دائمًا.

وكذلك فعلت أنا في هذه المرة، شعرت بكتاب والدي محشور بإحكام أمام ضلوعي، وتتبعت رائحة الأرز والملح التي تفوح من وطنه، ووطني، باتجاه تلك المدينة الحجرية البيضاء.

ما زال بإمكاني الشعور بسحب الظلام الشَّرِه، ولكن في نهاية المطاف بدا الأمر وكأن شيئًا لامعًا ومشرقًا بداخلي انتشر وملأني حتى أخمص قدمي. كنت ضعيفة، تدميني جراح الخيانة والهجر وثقب أسود صغير في كتفي، وشيء جديد خاطئ للغاية في فخذي الأيسر لا أريد التفكير بشأنه، لكنني كنت على سجيتي تمامًا، لا أخشى شيئًا على الإطلاق.

حتى شعرت بيد تحكم قبضتها على كاحلي.

لم أعتقد أنه سيلحق بي، أريدك أن تفهم أنني لم أقصد حدوث أيٍّ من ذلك، ظننته سيبقى في عالمه الصغير الآمن ويسحق بابي إلى رماد وهشيم، ظننته سيتنهد نادمًا، ويحذف وجودي من دفتر تسجيله العقلي (فتاة بين-بين ذات قوى خارقة مشكوك بأمرها، قيمة مجهولة) ثم يعود إلى شغفيه المتلازمين في تكديس الثروة وغلق الأبواب، لكنه لم يفعل.

ربما أحبني رغم كل شيء.

بل أظنني لمحت الحب عندما استدرت لأنظر إلى وجهه، أو على الأقل رغبة في التملك شرطية وغيورة، ولكنه سرعان ما اندثر تحت غضبه المتصاعد، لا يوجد ما هو أشبه بغضب رجل قوي يهدده شخص من المفترض أنه ضعيف.

غاصت أصابعه في جلدي، ويده الأخرى لا تزال حاملة المسدس اللامع، ورأيت إبهامه يتحرك، العتبة خالية من الأصوات، لكنني تخيّلت سماع تلك الطقطقة المشؤومة مجددًا، لا لا لا، يمكنني الشعور بنفسي أتباطأ وأتخبط في العتمة، الخوف يشوِّش هدفي...

لكنني نسيت باد؛ صديقي الأول، ورفيقي العزيز، وكلبي الشنيع الذي دائمًا ما رأى أن قائمة «من فضلك لا تقترب أبدًا» وثيقة قابلة للتفاوض.

تقوس نحو الخلف، بينما تلمع عينيه الصفراوين بالفرحة الضارية لحيوان يقوم بأكثر شيء يحبه، ودفن أسنانه في رسغ لوك، انفتح فم لوك

يصرخ بلا صوت، وأفلتني، وبعد ذلك صار يطفو ويسقط وحيدًا في فراغ العتبة الشاسع، وأصبحت عيناه في بياض واتساع أطباق الخزف الصيني.

أمام كل **الأبواب** التي أغلقها، تساءلت كم مضى من الوقت منذ أن عبر **بابًا**، ومنذ أن شَهِدَ عتبةً، بدا أنه نسي غضبه ووجهته والسلاح الذي في يده، الآن لا يعلو وجهه سوى الرعب الجنوني.

كان بإمكانه أن يتبعني.

لكنه كان شديد الخوف، يخشى التغيير وعدم اليقين والعتبة نفسها، والأشياء خارج نطاق سطوته، والأشياء التي تنتمي إلى معسكر بين-بين.

راقبت الظلام ينخر حوافه ببطء. اختفت يده اليمنى وسلاحه، ذراعه بالكامل، عيناه، النافذتان الباهتتان اللتان جلبتا له تلك الثروة والمكانة، وأخضعت الأعداء وأقنعت الحلفاء بل ولفترة مؤقتة أعادت ترويض الفتيات الصغيرات العنيدات، لكنهما كانتا عاجزتين في مواجهة الظلام.

استدرت، لم يكن ابتعادًا سهلًا، جزء مني لا يزال يريد أن أمد يدي إليه، لأنقذه، وجزء مني أراد مراقبته يختفي، جزءًا بجزء، حتى يدفع ثمن كل خيانة وكل كذبة، لكنني شعرت أن عالمي الأم لا يزال ينتظرني، مؤكدًا واثقًا مثل نجم الشمال، ولا أستطيع المضي قدمًا، إذا كنت لا أزال أنظر إلى الوراء.

لمست قدمي العارية صخرة دافئة صلبة، لم أدرك شيئًا سوى ضوء الشمس ورائحة البحر.

وعندما فتحت عينيَّ، كان وقت الغروب، بإمكاني رؤية الشمس تغرق مثل فحم أحمر مقرفص في المحيط الغربي، كل شيء كان رقيقًا عند الحواف، يضيئه بريق ذهبي وردي ذكرني بلحظة ناعسة تحت اللحاف الذي أهداني إياه والدي عندما كنت طفلة، أوه يا أبي، أفتقدك.

لا بد وأنني تنهدت بصوت عال، لأنه صدر جانبي انفجارٌ صغيرٌ لدرجة أن باد كان يقفز على قدمه كأنما أُطلق من مدفع في حجم كلب، هبط بغرابة على قدمه المصابة، نابحًا، مقنعًا نفسه بالتلوي في الأرجاء ودفن رأسه في رقبتي.

ألقيت بذراعيَّ حوله، أو حاولت ذلك، إذ إن ذراعي اليمنى هي الوحيدة التي أطاعت أوامري بحماسة حقيقية، بينما الذراع اليسرى تشبه زعانف سمكة

لا تحرك ساكنًا، كانت تلك اللحظة، بينما أحدق باستياء طفيف إلى ذراعي العاصية، لدرجة أن الألم المنتظر في أدب تنحنح، وتقدم نحو الأمام، وعرف عن نفسه.

قلت لنفسي بلباقة: «اللعنة». ثم، وبعد عدة ضربات قلب أخرى، شعرت خلالها بكل عضلة ممزقة في كتفي وكل عظمة مرتعدة في فخذي اليسرى. نقّحتُها: «تبًّا».

في الواقع، ساعدني ذلك بعض الشيء، منعني السيد لوك من السباب منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما أمسك بي أقول لفتى المطبخ الجديد أن يحتفظ بيده اللعينة لنفسه، تساءلت كم من الوقت سأستغرق قبل أن أتوقف عن اكتشاف هذه القوانين التافهة الصغيرة التي حكمت حياتي وما إذا سأكتشفها فقط عبر مخالفتها، لقد كانت فكرة مبهجة.

ثم تساءلت كم من الوقت سيمر قبل أن أتوقف عن رؤية الظلام المتجسد يلتهم السيد لوك، واستفقت قليلًا. تمالكت نفسي ووقفت على قدميَّ، ببطء وألم مصحوب بالكثير من السباب، ثم حشرت كتاب الأبواب العشرة الآلاف تحت ذراعي، تنبسط المدينة تحتي، كيف وصفتها لك من قبل؟ عالم من الماء المالح والحجر، تنتصب المباني في حلقات مطلية بالأبيض، خالية من دخان الفحم والحصى.

غابة من الصواري والأشرعة بطول الساحل، كانت لا تزال هناك، لم تتغير تقريبًا. أتساءل الآن، ماذا يعني إغلاق **الأبواب** بالنسبة إلى العوالم الأخرى وليس فقط عالمي المألوف.

- هيا بنا.

غمغمت لباد الذي قاد الطريق عبر التلة الصخرية، بعيدًا عن القوس الصخري والستارة الرثة التي عبرت من خلالها، بعيدًا عن بقع الدماء المتساقطة المتقطرة التي حمصتها أشعة الشمس على الأرض، إلى أسفل حيث مدينة نين.

كان الفجر قد حلَّ تمامًا عندما خطت أقدامنا للمرة الأولى شوارع المدينة المرصوفة، تسربت أضواء المصابيح عسلية اللون من الشبابيك، وأحاديث وقت العشاء انقضَّت عليَّ تبتلعني عبر الهواء، تتميز اللغة بإيقاع صاعد

وهابط، تقلُّب متراخٍ ذكّرني بصوت والدي، بدا العابرون القليلون مثله أيضًا، بشرة سوداء تشوبها الحمرة، وعيون سوداء، ودوائر من الحبر تلتف حول سواعدهم، كبرت وأنا أعتقد أن والدي في الأساس أجنبي وغريب الأطوار، على عكس الآخرين، الآن أراه رجلًا بعيدًا للغاية عن موطنه.

بناءً على التحديق والهمهمة والتعجل الذي يقوم به الناس، كنت لا أزال بعيدة عن المكان الصحيح، ليس صحيحًا تمامًا، تساءلت إذا ما كنت سأصبح عالقة في المنتصف وذات لون بشرة خاطئ أينما ذهبت، قبل أن أتذكر ارتدائي لملابس أجنبية تعتبر في حالة من الإهمال، حيث كنت أعرج أنا وباد، متسخين نازفين.

على نحو غامض، اتجهت نحو الشمال، أراقب النجوم تغمز لي بخبثٍ في تجمعاتها الغريبة. في الواقع، لم أكن أعرف إلى أين أتجه، لم يكن وصف منزل صخري على التلة الشمالية العليا عنوانًا دقيقًا أتجه إليه، لكن الأمر بدا عقبة من نوع بسيط يمكن التغلب عليها.

انحنيت في مقابل حائط حجري أبيض، وبحثت عن بوصلة السيد إلفين النحاسية الخضراء في حقيبتي، أحكمت قبضتي عليها وفكرت في والدي، دارت الإبرة غربًا، تشير نحو البحر الرمادي الهادئ مباشرة، حاولت مجددًا، التخيل عوضًا عن ذلك، مساء ذهبي مر منذ سبعة عشر عامًا عندما رقدت مع أمي على لحاف لفحته الشمس، حينما كان لديَّ منزل ومستقبل ووالدان يحبانني. ترددت الإبرة، مشوشة تحت الزجاج، وأشارت نحو الشمال قليلًا.

تبعتها، عثرت على مسار قذر بدا متوافقًا للغاية مع إبرتي النحاسية الصغيرة، وتبعتها تجاه الهلال الملون بلون القش، كان طريقًا مناسبًا للسفر لكنه منحدر، وتوقفت أحيانًا لأدع الألم يضرب بقدمه ويصرخ في أذني قبل أن أهدئه وأستمر في طريقي.

لمعت المزيد من النجوم، مثل حلقات مكتوبة متلألئة في السماء، ثم ظهرت أمامنا كتلة منزل مظللة واطئة، وقلبي تعثر في الحياة في صدري.

ولا أظن أن أي قلب على مدار العصور قد عانى مثل هذا الإرهاق والجفاف الذي شهده قلبي، أضاء الشباك بنور خافت، ووقف ظلان مستنيران، رجل

طويل عجوز منحني الظهر، شعره ينبت في خصلات بيضاء حول جمجمته، وامرأة مسنة، يلف شعرها وشاح، وذراعها يغمرها سواد الحبر حتى الكتفين.

كلاهما ليسا والدي أو والدتي، بالطبع، أنت لا تعرف حقًّا كم ترتفع آمالك حتى تشاهدهما يهبطان نحو الأرض.

لكان على شخص عاقل أن يستدير حينها، ويعود إلى المدينة ذاتها، ويتوسّل أو يمهّد سبيله نحو وجبة ساخنة ومكان ينام فيه وبعض العناية الطبية. بالطبع، لن يواصل طريقه نحو الأمام، بينما تنهمر دموعه في صمت على خديه، لن يقف أمام باب لا يخصه، هو عبارة عن لوح خشبي، يحفظه الملح، رمادي اللون، مقبضه خطاف حديدي، ثم يرفع يده السليمة ليطرق بها الباب.

وعندما أجابت امرأة، أمالت برأسها نحو الأمام متشككة، عيناها وديعتان ومحدقتان، لن ينفجر الشخص العاقل في حديث متلعثم بالبكاء.

- آسفة لإزعاجك يا سيدتي، كنت أتساءل فحسب إذا تعرفين الرجل الذي عاش في هذا المنزل سابقًا، لقد قطعت مسافة طويلة حقًّا، وأردت... أردت رؤيته، اسمه جوليان، يولي إيان، قصدت...

راقبت فم المرأة يتحول إلى خط رفيع، مثل جرح مقطب، هزت رأسها:

- لا.

ثم وعلى نحو غاضب تقريبًا:

- من أنتِ حتى تسألي عن عزيزي يولي؟ لم نره منذ عشرين عامًا تقريبًا.

أردت النواح للقمر أو أن أتمدد على عتبة الباب وأبكي مثل طفلة صغيرة ضائعة، لم يعد أبي إلى المنزل قط وكذلك والدتي، وما كسر لن يلتئم أبدًا، كانت كلمات المرأة العجوز حكمًا قاسيًا قاطعًا.

وعلى نحو غامض نوعًا ما، منطوقة باللغة الإنجليزية.

سرى تنميل سخيف خطير في أطرافي، كيف عرفت لغة تنتمي إلى عالمي؟ هل علمها شخص ما؟ وهل فقدت عقلي تمامًا، أم أننا نتشارك عظام الخد نفسها، وربما انحناءة الكتفين نفسها، لكن بعد ذلك صمت سيل الأسئلة.

يوجد شخص آخر في المنزل الصخري الصغير على التلة، انتصبت أذنا باد إلى جانبي.

لمحت حركة سريعة خلف ظل المرأة المسنة، بريق أبيض ذهبي في الظلام، يشبه قمح الصيف، ثم ظهرت امرأة أخرى تقف عند المدخل.

في هذه اللحظة، وبمساعدة تأثير الوقت المهدئ والتعود، يسهل أن أصفها لك، امرأة متعبة قاسية المظهر، انقلب شعرها الأشقر إلى اللون الرمادي عند مقدمة الرأس، بشرتها ممتلئة بالنمش لفحتها الشمس لدرجة قد تعتقد أنها من السكان الأصليين، لديها ذلك النوع من الملامح الحادة غير الجميلة التي يصفها الروائيون بالآسرة.

لكن في تلك اللحظة، الوقوف عند عتبة البيت الذي ولدت فيه، مع شعور بالاعتصار في صدري كأنما وصل شخص ما إلى ما وراء ضلوعي، واستولى على قلبي، نظرت إليها بعبثية، يداها غليظتا الأصابع، مخدوشتان ومهترئتان بندوب بيضاء لامعة، وتفتقدان ثلاث أصابع بالكامل، ذراعاها مفتولتا العضلات يغلفهما الحبر الأسود، عيناها ناعمتان باللون الأزرق الحالم، أنفها، وفكها المربع، وحاجباها المرتبان، كل هذه الأشياء تشبهني تمامًا.

بالطبع لم تتعرف عليَّ، من السخف تمني ذلك، بعد قضاء ما يقرب من سبعة عشر عامًا على كواكب مختلفة، ولكنني تمنيت الأمر على أي حال.

- مرحبًا يا أديلايد.

أكان يجب أن أدعوها أمي بدلًا من ذلك؟ قبعت الكلمة ثقيلة غريبة على لساني، عرفتها أكثر كشخصية من كتاب والدي، على أي حال.

تقوس حاجباها بالتعبير المتشكك لشخص لا يستطيع تذكر اسمك ولا يريد إحراجك، انفتح فمها لتقول شيئًا مثل عذرًا؟ أو هل سبق والتقينا؟ وأدركت أن الأمر سيبدو تمامًا مثل الإصابة بطلق ناري آخر، ألم دفين يسوء مع مرور الوقت، لكن عينيها اتسعتا.

ربما لأنني تحدثت بالإنجليزية، أو ربما ملابسي المألوفة الغريبة هي ما فعلت الأمر، لكنها بدأت تنظر إليَّ، تحملق إليَّ بنهم وجوع يائس على وجهها، راقبت عينيها تؤديان الرقصة المذعورة نفسها التي قمت بها قبل دقائق،

الكتلة الفوضوية من شعري المضفر، الدماء المؤكسدة على ذراعي، أنفي، ذقني...

ثم عرفتني.

رأيت الإدراك يحدث على نحو مدهش ومزرٍ، في ذاكرتي؛ لديها وجهان مختلفان تمامًا في اللحظة نفسها، مثل الإله الذي أسمتني تيمنًا به، على وجه منهما تبدو الفرحة الصاخبة تلفحني مثل الشمس نفسها، وعلى الوجه الآخر حزن عميق، وعويل، وألم حتى النخاع لشخص بحث طويلًا عن أمر ما وعثر عليه بعد فوات الأوان.

مدت يدها نحوي، ورأيت فمها يتحرك:

- جا-ني-وري!

تزعزع كل شيء، مثل اللقطات الأخيرة المهتزة من شريط فيلم، وتذكرت مدى صعوبة وألم التعب الذي عانيته، وكم تأذيت، وعدد الخطوات التي أخذتها لأصل إلى هذا المكان بالتحديد، كان أمامي وقت لأفكر، مرحبًا يا أمي، ثم تهاويت نحو ظلام خال من الألم.

لست متأكدة ولكني شعرت بأحدهم يمسك بي وأنا أسقط، أظن أنني شعرت بأذرع قوية عصفت بها الرياح، تلتف حولي وكأنها لن تفلتني مجددًا، شعرت بضربات قلب شخص ما أمام خدّي، شعرت بذلك الجزء المهشًم المكسور في منتصف روحي يلملم نفسه مجددًا، ويبدأ ربما في الالتئام.

والآن، أجلس إلى المكتب الأصفر وبين يديَّ قلم ورزمة من الأوراق المصنوعة من القطن ترقد منتظرةً، ناصعة البياض ومثالية لدرجة تجعل كل كلمة كتبت عليها كأنها ذنب، خطوة في ثلج تساقط حديثًا، وبوصلة غير موسومة تقبع على حافة النافذة، ولا تزال تشير بعناد نحو البحر، تتدلَّى فوقي نجوم مصنوعة من القصدير، تلمع وتدور في الشمس الصفراء التي تميل عبر النافذة، رأيت مسارات ضوئية صغيرة تتراقص حول الندوب المتلألئة على ذراعي، والضماد المربوط بإحكام على ذراعي، والوسائد المتراكمة بعناية حول فخذي، لا يزال يؤلمني، حرارة متوغلة، تنبع من العمود الفقري، لا تهدأ أبدًا، الدكتور فيرت بونميندر كما أظن أنهم دعوه، قال إنها ستظل مشتعلة دائمًا.

يبدو الأمر عادلًا نوعًا ما، أعتقد أنه ربما لو كتبت *افتح بابًا بين العوالم*، وأرسلت وصيك السجّان إلى ظلام العتبة، لا ينبغي أن تشعر تمامًا على النحو الذي اعتدته.

وعلى أي حال، سنصبح أنا وباد متماثلين، يمكنني رؤيته الآن؛ يحك ظهره أمام التل الحجري في حماس الكلاب الذي يجعلك تعتقد أنك ربما تجرب الأمر، عاد باد أنيقًا وبرونزيًا، من دون تلك القطب الزجزاجية والكتل التي كانت تكسوه، لكن قدمًا واحدة لا تبدو مستقيمة على طولها.

ومن خلفه أستطيع رؤية البحر، رماديًا وديعًا، حوافه ذهبية تحت ضوء الشمس، أضافت أديلايد هذه الغرفة إلى المنزل الصخري على التلة منذ عدة سنوات، لا أظنها صدفة أن النافذة تقابل البحر، حيث يمكنها إبقاء عينيها على الأفق دائمًا، تراقب، وتفتش، وتأمل.

مر ستة عشر يومًا على وجودي هنا، ولم يأت والدي.

أقنعت أدي -لا يزال من الأسهل قول أدي أكثر من أمي، وهي لا تصحح لي، لكن أحيانًا أراها تجفل، كما لو أن اسمها حجر قذفته عليها- ألّا تجهز قاربها وتبحر بحثًا عنه دون خرائط نحو المجهول، لكن الأمر كان وشيكًا، ذكرتها أن لا أحد منا يعرف أين ينفذ بابه إلى عالم المكتوب، وأنه ربما كافة أشكال المخاطر أسقطته في المنطقة البينية، وأنها حقًّا ستشعر بالغباء إذا أبحرت بعيدًا عن نين بينما يبحر والدي نحوها، لذا بقيت، ولكن جسدها بالكامل تحول إلى إبرة بوصلة تميل باتجاه البحر.

– الأمر لا يختلف كثيرًا حقًّا.

قالت لي ذلك في اليوم الثالث، كنا في العتمة الصخرية لحجرة نومها، خلال ساعات التنفس الأولى الناعمة قبل الفجر، كنت متكئة على الوسائد، تمنعني شدة حرارتي وألمي من النوم، بينما جلست هي على الأرض وظهرها يقابل السرير ورأس باد في حضنها، لم تتحرك من مكانها منذ ثلاثة أيام، بقدر ما يمكنني التخمين، ففي كل مرة فتحت عينيَّ، رأيت خط كتفيها المربع، وتشابك شعرها المشوب باللون الأبيض.

– سابقًا، كنت دائمًا أبحث عنه، أسعى إليه، والآن أنتظره.

تردد صوتها متعبًا.

- إذًا... حاولتِ...

لعقت شفتي المتشققة.

- العثور علينا.

بذلت مجهودًا حتى أبعد المرارة والألم عن صوتي، ونبرة أين كنت طيلة هذه السنوات وكنا نحتاج إليك، نعم أعلم أنه ليس عدلًا لوم أمي على كونها عالقة في عالم آخر طيلة حياتي، لكن القلوب ليست رقع شطرنج ولا تلتزم بالقواعد، ولكنها سمعت تلك النبرة على أي حال.

جفل خطُّ كتفيها الثابت، وانحنى نحو الداخل، ضغطت عينيها بكفيها:

- يا فتاة، لقد حاولت العثور عليكِ في كل يوم لعين لمدة سبعة عشر عامًا.

لم أقل شيئًا. في الواقع، لم أستطع.

بعد دقيقة، واصلت حديثها.

- عندما أغلق الباب... عندما أغلقه ذلك الرجل الحقير، وفقًا لكلامك... بقيت عالقة عند ذلك الجزء الصغير من الصخر لمدة... أيام وأيام، في الحقيقة لا أدري لكم من الوقت، بلا طعام، وقليل من الماء عثرت عليه طافيًا في الحطام، يؤلمني نهداي، ثم يسربان الحليب، ثم يجفان، ولم أستطع العثور عليك، لم أستطع العثور على طفلتي...

سمعتها تبتلع ريقها:

- بعد فترة، سطعت الشمس على وجهي، ثم بعد ذلك، بدأت أفكر ربما أستطيع النفاذ عبر الحجر لأجد طريقي إليك، إذا حاولت جاهدة بما يكفي، أظن أنهم وجدوني على هذه الوضعية، في حالة جنون تام، متشبثة بصخرة جامدة، أبكي.

طوت يديها إلى صدرها، تخبئ أصابعها المفقودة، آلمني ذلك الشيء الملتئم حديثًا.

- كان صيادان من مدينة بلم هما من رأونا نبحر بعيدًا، وساورهما القلق عندما لم نعد، أخذاني وأطعماني، واحتملا الكثير من الصراخ

والسباب، وأبقيا حبلًا مربوطًا حول خصري، أظن حتى لا أعود إلى البحر، لا... أتذكر الكثير من ذلك الوقت.

لكنها في نهاية المطاف، تحسَّنَتْ، أو على الأقل أصبحت بخير على نحوٍ كافٍ لتضع الخطط، أبحرت عائدة إلى مدينة نين، وأخبرت والدي يولي إيان بما حدث...

– قلت الحقيقة كاملة، كالغبية، لكن كل ما أدركوه أن ابنهم وحفيدتهم ضاعا في البحر، وعزما على النحيب.

توسلت وسرقت لتحصل على ما يكفي من الأموال لإعادة المفتاح إلى حالته الطبيعية، وأبحرت بحثًا عن طريق جديدة إلى المنزل.

مضت السنوات الأولى جافة وجنونية، لا تزال هناك قصص عن الأرملة المجنونة، التي شحبت بالحزن، وأبحرت بلا نهاية بحثًا عن حبها الضائع، تقصد الأماكن النائية، وكهوف المحيط، ومناجم مهجورة، وأطلالًا منسية، تنادي على طفلتها، تعثرت في العشرات من **الأبواب**، رأت قططًا مجنحة تتحدث بالألغاز، وتنانين بحرية ذات أصداف من عرق اللؤلؤ، ومدنًا خضراء تطفو في الغيوم العليا، رجالًا ونساء مصنوعين من الجرانيت والمرمر، لكنها لم تعثر على الباب الذي أرادته قط، لم تكن حتى متأكدة من وجود ذلك الباب، أو أنها ستعثر على زوجها وابنتها على الجانب الآخر منه -ظننت أنها تاهت في المنطقة البينية، ظننت أنه ينبغي أن أغوص بعدك في بعض الأحيان-.

في نهاية المطاف، أخذت وقتًا صغيرًا محاولةً شَقّ طريقها عبر المكتوب، نالت سمعة كبحارة عازمة على الذهاب بعيدًا بأموال قليلة أو أحيانًا مقابل قصة جيدة أو اثنتين، والتي تغيب أحيانًا لأيام أو أسابيع لكنها تعود ببضائع غريبة وعجيبة للبيع، لم تجنِ قط الكثير من الأموال لأنها رفضت العبور في الطرق المعتادة نحو الأماكن نفسها، مثلما سيفعل أي بحار عاقل، لكنها لم تسقط فريسة للجوع.

وواصلت البحث، حتى عندما أدركت أن ابنتها ستبلغ العاشرة والثانية عشرة والخامسة عشرة، غريبة كليًّا عنها، حتى بعد أن لمَّح والدا يولي إيان بلطف إلى أنها ربما تنجب طفلًا آخر إذا تزوجت قريبًا، وحتى بعد أن نسيت شكل يدي يولي إيان الدقيقتين حول قلمه، الطريقة التي يعكف بها على

عمله، أو الطريقة التي تهتز بها كتفاه عندما يضحك -هل سبق ورأيته يضحك بهذه الطريقة؟-.

- عدت إلى هنا بضع مرات في السنة، بين الأعمال، أنام في بيتي، أتذكر كيف أستقر، أزور عائلة جوليان، اللذين انتقلا إلى هنا بعدما تخلت تيلسا عن محل الوشوم الخاص بها، لكن على الأغلب واصلت المضي... قدمًا فحسب.

كانت الشمس قد أشرقت بحلول تلك اللحظة، زحف خط من الضوء الليموني عبر الأرض، شعرت وكأن شيئًا حدث مؤخرًا، ونُظف بعناية، ثم أعيد تشكيله، باستثناء أنه لم يبق شيءٌ في مكانه، لا تزال بعض المرارة طافية في الأرجاء هنا، القليل من الجرح، ولكن هناك شيئًا أيضًا لامعًا خفيفًا كريشة، الغفران ربما، أو العطف.

لم أتحدث لفترة طويلة، لدرجة أن صوتي صدر عنه أزيزٌ مثل مفصلة غير مستعملة.

- لطالما حلمت بحياة مثل هذه، أتجول في الأرجاء بحرية.

أطلقت أمي من أنفها زفرة حزينة لضحكة:

- متجولة بالفطرة، مثلما قلت دائمًا.

داعبت رأس باد، تحك منطقته المفضلة تحت ذقنه، تحول إلى بركة من الفراء البرونزي في حضنها، يخمش برفق في الهواء.

- لكن اسمعيني، الحرية لا تساوي شيئًا لعينًا واحدًا إذا لم تُشارك، أمضيت وقتًا طويلًا أتمنى لو أننا لم نبحر عبر ذلك الباب يا جانيوري، ولكن في أقبح لحظاتي وأكثرها أنانية، تمنيت لو كنت أنا التي أقف في مقدمة السفينة معك، على الأقل، كنتِ برفقة جوليان.

كان صوتها رقيقًا للغاية لدرجة أنني بالكاد سمعته، اختنقت بسبعة عشر عامًا من الألم المرير.

فكرت في أبي، وقلة المرات التي رأيته فيها، وكيف أن وجهه يعلوه التعب الأجوف نفسه الذي يسكن وجه أمي، وكيف أن عينيه تعبران على وجهي سريعًا كما لو أنه قد يتألم إذا أطال النظر.

– أنا... نعم، كنت برفقته، ولكنني لم أكن كافية.

وعلى نحو غريب، اعتاد ذلك الأمر أن يشعرني بالغضب الشديد، لكنه الآن أصبح مائعًا لينًا مثل شمع سائل.

أطلقت أمي زفرة خشنة غاضبة:

– اللعنة، كان يجب أن تكوني كذلك! هل كان... هل...

عرفت أنها ستسأل هل كان أبًا جيدًا؟ ووجدت أنني لا أريد الإجابة، بدا الأمر قاسيًا دون داع.

– هل كنت سأكفيك؟

وسألتها عوضًا عن ذلك.

– هل كنت ستكفين عن البحث عن والدي؟

سمعتها تلتقط أنفاسها، ولكنها لم تجب، لم تكن في حاجة إلى ذلك.

– هنا...

تخبطت في الأنحاء بين وسائدي ولحافي، وجدت الغلاف الجلدي الدافئ لكتاب الأبواب العشرة الآلاف.

– أظنكِ ينبغي أن تقرئيه، حتى تستطيعي... مسامحته... أن تفهميه.

أخذته. لا أزال أمسك بها تعيد قراءة فقرات، وتمرر أصابعها على الكلمات المطبوعة كأنها معجزات أو تعويذات سحرية، وشفتاها تتحركان بشيء يشبه كثيرًا الصلاة، أعتقد أن الأمر يساعد، حسنًا، لا يساعد، أظنه مؤلمًا بشدة أن تعيد قراءة سردية حياتك، بما فيها من الوعود المنقوضة والفرص الضائعة، أن تقرأ عن الرجل الذي تحول إليه والدي والاختيارات التي سلكها، لكنها تابعت القراءة. أفترض أن ذلك دليل ما، أنه لا يزال على قيد الحياة ويحبها، وأنه يسعى جاهدًا حتى يعود إليها، وأن ما تحطم سيلتئم مجددًا.

إذًا الآن، أصبح هناك شخصان يحدقان تجاه البحر، ينتظران، يأملان، يراقبان السفن تبلغ ذروة انحناءة الأفق، ويقرآن دوائر الأدعية السوداء المخاطة بأشرعة السفن، تترجمهم أمي لي، أحيانًا، بوفرة الأسماك السمينة، أو الصفقات المربحة للطرفين، الرحلات الآمنة والتيارات القوية.

في أحيان أخرى، تجلس جدتي برفقتنا وتراقب أيضًا، لا نتكلم كثيرًا، ربما لأننا مشغولات بكوننا مندهشات من وجود أحدنا الآخر، ولكن يعجبني الشعور بوجودهما قربي؛ جدتي تيلسا، غالبًا ما تمسك بيدي، كأنها ليست مقتنعة تمامًا أنني حقيقية. أحيانًا، عندما نكون بمفردنا أنا وأمي نتحدث. أخبرتها عن منزل لوك والمصحة، وأبي وجاين وبالكثير عنك، أخبرتها عن العمة ليزي التي تعيش بمفردها في مزرعة لارسن. -«يا إلهي، أود رؤيتها» تنهدت أمي، ذكرتها أن الباب مفتوح، وتستطيع العبور من خلاله في أي يوم من الأسبوع، اتسعت عيناها، ولكنها لم ترحل، وواصلت التحديق نحو الأفق-.

في أغلب الأحيان الآن، نحن هادئات، هي تصلح الأقمشة الممزقة، وتعيد قراءة كتاب والدي، أو تقف على التلة حيث تجفف الرياح المالحة العذبة مسارات الدموع على وجهها.

وأنا أكتب وأنتظر وأفكر فيك.

في هذه اللحظة، ظهر شراع يرفرف في الأفق، كقمر حاد الأسنان، تبريكاته ملتوية وخشنة المظهر، كأنما خيطت بسرعة جنونية على يد شخص لا يعرف كيفية استخدام إبرة وخيط.

وبمجرد أن اقتربت السفينة أدركت أنني لا أحتاج إلى ترجمة هذه التبريكات، أستطيع قراءتها بنفسي؛ أبسط أشكال اللغة الإنجليزية، إلى الوطن، إلى الحب الحقيقي، إلى أديلايد.

أستطيع رؤيتها، هل يمكنني ذلك؟ أم أنني أتخيل؟ عند مقدمة السفينة يظهر ظل بحار وحيد واقفًا، ينحني نحو المدينة، نحو المنزل الحجري على التلة، نحو رغبة قلبه.

أوه يا أبي، لقد عدت إلى المنزل.

والآن، ألتف في قلب سفينة المفتاح، أكتب على ضوء القمر المكتمل الأجنبي الفصيح، يفوح من الخشب رائحة القرنفل والعفص ونبيذ العرعر، رائحتها مثل غروب الشمس في آفاق غريبة، ومجموعات أبراج بلا اسم، وإبر بوصلات تدور، وحدود الأراضي المنسية عند حافة العالم، من المستحيل أن تكون مصادفة أن سفينة أمي رائحتها مثل كتاب والدي.

حسنًا، لا أظنها سفينة أمي بعد الآن، أليس كذلك؟ لقد أهدتها لي أنا وباد.

- أعتقد أنها تستحق رحلة أخيرة ممتعة.

قالت ذلك وابتسمت على نحو حزين التفَّت ذراع والدي حول كتفيها بإحكام، وعدلت الابتسامة من وضعها مثل طائر نورس ينسحب من الغوص، ويحلق نحو الشمس.

بدا كلاهما شابًّا بينما كنت أبحر مبتعدة عنهما، أراداني أن أبقى بالطبع، لكنني لم أستطع، جزئيًّا، ويحظر عليك إخبار أي شخص بذلك، لأن الوقوف إلى جانب والديَّ لا يختلف كثيرًا عن الوقوف إلى جانب فرن منصهر مفتوح. عندما أتحول عنهما، أشعر أن وجنتيَّ نيئتين ومسفوعتين، وعيناي تحرقانني وكأنني كنت أحدق مباشرة إلى الشمس.

لقد كان الأمر هكذا منذ اللحظة التي ترجل فيها والدي من السفينة، أنا وباد ما زلنا نعرج ببطء عبر الشوارع الحجرية، دبقين متعرقين من حرارة ما بعد الظهيرة، بينما كانت أمي بالفعل على رصيف المرفأ، تتمشى حافية على الألواح، وشعرها يرفرف مثل راية خلفها، تعثر شبح مظلم في طريقه إليها، مرتديًا معطفًا مألوفًا عديم الشكل، ذراعاه مرفوعتان ويداه ملفوفتان في ضمادة خشنة، تحرك أبي وأمي وكأنهما متحدان معًا بقانون فيزيائي، مثل نجمين يندفعان مسرعين نحو تصادم، ثم ترنح أبي حتى توقف.

كان على بعد قدم من والدتي، مال نحوها، ورفع يدا ملفوفة بخرقة لتتأرجح حول انحناءة وجنتيها، لكنه لم يلمسها.

توقفت عن الحركة، أراقبهما على بعد مئة قدم، أهمس تحت أنفاسي «هيا، هيا، هيا». لكن والدي ولسبب ما كان يقاوم الشيء الذي أبقاه متحركًا على نحو يائس لمدة سبعة عشر عامًا، وسحبه عبر عشرة آلاف عالم وأخيرًا جلبه إلى هنا، واقفًا في مدينة نين في عام 1911 بحساباتي، أو 6938 حسب تقويمه، ناظرًا في عينَيْ حبه الحقيقي اللتين تشبهان السماء الصيفية، بدا وكأن قلبه انشطر نصفين وشن حربًا ضد نفسه.

ثنى يده بعيدًا عن وجه أمي، انحنى رأسه إلى الأمام، وتحركت شفتاه، لم أستطع سماع الكلمات، ولكن لاحقًا أخبرتني أمي بما قاله:

- لقد تركتها، تركت ابنتنا خلفي.

رأيت عمود أمي الفقري يستقيم، ورأسها يميل إلى جانب واحد. نعم، وقالت له: «إذا ظننت أن بإمكانك الزحف عائدًا إليَّ دون ابنتنا الصغيرة، وسيكون كل شيء على ما يرام، فيجب أن تعيد التفكير».

طأطأ رأسه نحو الأرض، ويداه المسكينتان المحترقتان تتدليان عاجزتين إلى جانبيه.

ثم ابتسمت أمي، وأكاد أشعر بالفخر المتوهج الصادر عنها حيث أقف، قالت: «لحسن حظك أن ابنتنا أخذت زمام الأمور بين يديها».

لم يفهم بالطبع، لكنها كانت اللحظة التي دخل فيها باد إلى المشهد يعرج، ورآه والدي، وشاهدته يتجمد في مكانه مثل رجل واجه لتوه معضلة رياضية ويجد صعوبة في فهم كيف أن حاصل جمع اثنين واثنين يساوي خمسة فجأة، ثم تطلع نحو الأعلى، أضاء وجهه بأمل جنوني...

ورآني، وبعد ذلك انهار على رصيف الميناء باكيًا، نزلت والدتي على ركبتيها إلى جانبه، تحيط بكتفيه المضطربتين بذراعيها القويتين المسفوعتين نفسيهما اللتين لفتهما حولي في ليلتي الأولى، وضغطت جبهته بجبهتها. ربما كان الأمر في رأسي فقط أن قصفًا رعديًا صامتًا تدحرج فوق الأمواج، لدرجة أن كل شخص في شوارع مدينة نين توقف عن أداء عمله ووقف ينظر ناحية الشاطئ، وشعر بدقات قلوبهم في صدورهم. ربما.

ولكن القصة التي أرويها الآن هي قصتي، أليس كذلك؟

أظنني تطورت نوعًا ما في سرد القصص، عندما أخبرت والدي أخيرًا بقصتي، نظر إليَّ بقوة لدرجة أنه نسي أن يرمش لأن دموعه ظلت تنهمر على جانبي أنفه وتتساقط على الأرض بهدوء.

لم ينبس ببنت الشفة عندما انتهيت، لكن مد يده ليتتبع الكلمات المحفورة على ذراعي، وجهه الذي لا يزال نحيلًا جائعًا على الرغم من أيام من طبخ والدتي السيئ، اعتراه الذنب.

- توقف عن ذلك.

أمرته.

رمش في وجهي:

- أتوقف عن...؟

- لقد فزت، كما ترى، هربت من براتلبورو وهافيميير وإيفان، ونجوت من السيد لوك...

قاطعني والدي بشتائم من عدة لغات، وبعض الأمنيات التي بدت عنيفة لحياة السيد لوك الأبدية.

- توقف، هذا ليس الهدف، المقصد أنني كنت خائفة ومجروحة ووحيدة أحيانًا، لكن في النهاية ربحت، أنا... حرة، وإذا كان هذا ثمن الحرية، سأدفعه.

توقفت إذ يتملكني بعض الشعور بالدراماتيكية:

- وأود مواصلة دفعه.

حدق والدي إلى وجهي لعدة ثوان غامضة، ثم تجاوزني ناظرًا إلى أمي، انزلق بينهما شيء تخاطريٌّ على نحو مزعج، ثم قال برقة:

- لا يجب أن أكون فخورًا لأنني لم أربِّكِ، لكنني فخور.

أصدر ذلك الشيء الملتئم حديثًا صوت قرقرة في صدري.

بعد ذلك، لم يحاولا بشدة منعي من الرحيل، حسنًا، كان لديهما مخاوفهما -والدي وجدتي توسلا إليَّ حتى أبقى وأتدرب مع مطوع كلمات حقيقي، على اعتبار أنني فعلت أشياء قوية ومستحيلة بكلماتي، وينبغي أن أتلقى التعليمات المناسبة، احتججت أنه من الأسهل كسر قواعد الواقع عندما لا تعرف بالضبط ماهيتها، وعلى أي حال لقد فرغت من المذاكرة والدروس-، لكنهما لم يحاولا حبسي، وبدلًا من ذلك، منحاني كل شيء أحتاج إليه لأفعل ما أنوي القيام به، وعلى الرغم من كونه خطرًا، ومرعبًا، وربما مجنونًا بعض الشيء.

أعطتني جدتي عشرات من كعكات العسل المسطحة التي خبزتها بنفسها، وعرضت أن تخبئ الندوب تحت وشوم إذا أردت ذلك، فكرت في الأمر، متتبعة آثار الخطوط البيضاء للكلمات على جلدي: تكتب *بابًا من الدماء والفضة. يُفتح الباب لها فقط.* وهززت رأسي، ثم سألتها إذا كان يمكنها رسم وشوم حول الندوب دون أن تغطيها، الآن توجد أجزاء متفرقة من كلمات تزحف على

ذراعي، تربط بين الحروف المتشكلة من جروح بيضاء مثل أفرع كرمات سوداء: جانيوري، مطوعة الكلمات، ابنة أديلايد لي لارسن ويولي إيان سكولار، وُلدت في مدينة نين، وتتجه نحو المنطقة البينية، عساها تتجول ولكن تعود إلى المنزل دائمًا، وعسى كل كلماتها المكتوبة تتحول إلى حقيقة، ويفتح أمامها كل باب. أعطتني أمي المفتاح وثلاثة أسابيع كاملة من دروس التدريب على الإبحار، حاول والدي معارضة الأمر لفترة قصيرة، كونه البحار الأكثر خبرة، وينبغي أن يعلمني، لكن والدتي تطلعت إليه بتلك النظرة السطحية التي يكون فيها فكها مربعًا وقالت:

- ليس بعد الآن يا جوليان.

فابتعد في هدوء، ولم يقاطعنا مجددًا.

أعطاني والدي كتابًا بعنوان «حكايات بحر الأماريكو»، مكتوبًا بلغة لا أتكلمها، وبحروف لا أفهمها، ولكن بدا أنه يظن اللغات أشياء يلتقطها المرء فحسب، مثل الحليب في أثناء التسوق. وأعطاني أيضًا معطفه عديم الشكل المرقع الذي كان ملكًا لأمي، لأنه كان يدفئه في الأماكن البعيدة ودائمًا ما شهد عودته بأمان إلى المنزل، وربما سيفعل الأمر عينه بالنسبة إليَّ. وإلى جانب ذلك، قال إنه فرغ من التجول الآن.

- ويا جانيوري!

تردد صوته نحيلًا متوترًا، وكأنه شيء قادم من مسافة بعيدة جدًّا.

- أنا آسف، على تركك في كل تلك المرات، ولأنني تركتك في تلك المرة الأخيرة، ح... حاولت العودة أخيرًا، أ... أحب...

توقف، مختنقًا بالدموع، وأغلق عينيه في خزي.

لم أقل لا بأس أو سامحتك، لأنني لم أكن متأكدة من ذلك أو أنني سامحته فعلًا. بدلًا من ذلك، قلت ببساطة:

- أعرف.

ثم ارتميت في حضنه مثلما اعتدت أن أفعل في طفولتي عندما يعود من رحلاته إلى الخارج، مثلما لم أفعل عندما كنت في السابعة من عمري، وبقينا

على هذا الوضع لبعض الوقت، وجهي مدفون في صدره، وذراعاه تطوقانني بإحكام، حتى عدت إلى الوراء.

فركت وجنتيَّ:

- على أي حال، لن أغيب إلى الأبد، سأزوركما، حان دورك في الانتظار.

بقية عائلتي -انظر إلى حرف «F» المطوي مثل ورقة شجر تنبسط تحت ضوء الشمس- منحوني جميعًا الطعام والماء الطازج في حاويات من الصلصال، ومخطوطات لبحر الأماريكو، وبوصلة تشير إلى الشمال على نحو موثوق به، ومجموعة من الملابس الجديدة المخيطة من أقمشة الأشرعة إلى ما يشبه السراويل والقمصان على يد خياطات لم يرين مثل هذه الملابس في حياتهن قط، إنها أزياء غريبة من معسكر بين-بين، خليط مثالي من عالمين، أظنها تناسبني للغاية.

فعلى كل حال، أنوي قضاء بقية حياتي أخرج وأدخل من العالم البيني الشرس، لأعثر على الأماكن الشاحبة المهملة التي تربط العوالم، وأتتبع مسارات **الأبواب** المغلقة التي خلفتها الجمعية موصدة ثم أفتحها مجددًا بالكتابة.

وأسمح لكل الجنون الجميل الخطير أن يطفو مجددًا بحرية بين العوالم، وأحول نفسي إلى مفتاح حي وأفتح **الأبواب** كما قال والدي -هذا هو السبب الثاني خلف عدم تمكني من البقاء في نين مع والديّ بالطبع-

أراهن أنك تستطيع تخمين الباب الذي سأفتحه أولًا، باب الجبل الذي أبحرت والدتي عبره في عام 1893، ودمره السيد لوك في عام 1895، الباب الذي مزق عائلتي الصغيرة إلى أجزاء صغيرة، وأرسلنا جانحين وحيدين في الظلام المخيف، إنه خطأ قديم يتحتم تصحيحه، ورحلة بعيدة بما يكفي لدرجة أنني ربما أنهي هذا الكتاب اللعين في الوقت المناسب -من كان يعرف أن كتابة قصة قد تكون مرهقة إلى هذا الحد؟ أصبح عندي احترام حديث العهد تجاه كل مؤلفي الروايات الرخيصة الذين يتلقون نقدًا حازمًا ومؤلفي الروايات الرومانسية-.

تتساءل لم كتبتها من الأساس، لماذا أنا هنا، منكبة على حزمة من الأوراق التي يضيئها ضوء القمر، ويدي تتشنج، ولا شيء حولي سوى كلبي وظل المحيط الفضي الواسع، أكتب كأنما تعتمد حياتي على الأمر. ربما إجبار عائلي.

ربما الخوف فحسب، الخوف من السقوط في أغراضي النبيلة بلا أي أثر خلفي، فعلى كل حال، الجمعية منظمة لشخصيات نافذة وخطرة للغاية زحفت عبر التصدعات إلى عالمنا، وجميعهم يريدون للأبواب أن تبقى مغلقة، وسيكون من الحماقة افتراض أن عالمنا هو الوحيد الذي يجذب مثل هذه المخلوقات أو يشعل مثل هذه الأفكار. في كوابيسي، أجد نفسي في ردهة احتفال بلا نهاية تعج بنسخ من هافيميير، يمدون أيديهم البيضاء نحوي عبر ألف مرآة، وفي كوابيسي شديدة السوء، تمتلئ المرايا بعيون شاحبة، ويمكنني الشعور بإرادتي تتحلل داخلي.

كل ما أقصده أن الأمر خطر، لذا كتبت هذه القصة كنوع من بوليصة التأمين الممتدة في حال أخفقت،

وإذا كنت غريبًا تعثر في هذا الكتاب بالصدفة، ربما كان يتعفن في كومة قمامة أجنبية أو حبيس صندوق سفر مغبر أو نشرته مؤسسة صحفية مغمورة مضللة، ووضعته بالخطأ على رف الأعمال الخيالية. أتمنى باسم كل إله أن تفعل ما يتحتم عليك فعله، أتمنى أن تعثر على التصدعات في العالم وتزيد من اتساعها حتى يتسلل من خلالها ضوء الشمس، أتمنى أن تحافظ على العالم جامحًا فوضويًا زاخرًا بالسحر الغريب، أتمنى أن تعبر كل **باب** وتحكي القصص عند عودتك.

ولكن ليس هذا السبب خلف كتابتي لهذا بالطبع، لقد كتبته لأجلك، حتى يمكنك قراءته وتذكر كل الأمور التي أخبروك أن تنساها.

تتذكرني الآن، أليس كذلك؟ وتتذكر العرض الذي قدمته لي؟

حسنًا، على الأقل الآن يمكنك النظر بعينين صافيتين إلى مستقبلك، وتختار، البقاء آمنًا وعاقلًا في الوطن كما سيفعل أي شخص عاقل، وأقسم إنني سأتفهم.

أو ستهرب معي نحو الأفق المجنون اللامع، لنرقص عبر البستان الأخضر الأبدي حيث يتدلى عشرة آلاف عالم ناضجين وجاهزين للقطف، وتتجول معي بين الأشجار، نرعاها، ونزيل العشب، وندع متنفسًا للهواء.

ونفتح **الأبواب**.

النهاية

باب في الضباب

في أواخر شهر أكتوبر، حينما تزحف خطوط الصقيع الرفيعة وتزدهر على كل لوح زجاجي، ويلتف البخار من البحيرة، فشتاء فيرمونت متلهف.

عند الفجر، يحمل شاب أكياسًا من دقيق واشنطن ميلز بيرليس الأبيض في شاحنة سوداء مصقولة، مزخرفة بحروف ذهبية مرسومة على الجانب، الشاب ذو بشرة سمراء وعينين رصينتين، يسحب قلنسوته نحو الأسفل أمام الضباب البارد الذي يلمع عند مؤخرة رقبته.

يعمل بالوتيرة المرتاحة لشخص اعتاد العمل الشاق، لكن هناك خطوطًا تعيسة شاحبة مجتمعة حول فمه، يبدو أنها حديثة العهد، كأنما وصلت للتو وليست متيقنة كيف تتصرف، تجعله هذه الخطوط أكبر سنًا.

تعزيها عائلته إلى تعافٍ بطيء من مرضه خلال الصيف؛ ذات ليلة في نهاية شهر يوليو، اختفى ببساطة، بعد بعض السلوكيات ومحادثة ملحة مع امرأة إفريقية من منزل لوك، وترنح عائدًا إلى المنزل بعد أسبوعين تقريبًا، في حالة من التشتت وفقدان الشعور، بدا أنه لا يتذكر أين كان أو لماذا، والطبيب -في الواقع طبيب الحصان الذي وصف الكثير من المقويات الصارمة بنصف ثمنها- تكهن أن حمى شديدة ربما غلت دماغه، ونصح بملينات ومنحه الوقت.

ساعده الوقت إلى حد ما، تبدد ارتباك يوليو الدوّار إلى شك غامض، غيوم طفيفة في عينيه، وميل إلى التحديق إلى الأفق كما لو أنه يأمل ظهور شيء

أو شخص من هناك، حتى قصصه الورقية المحببة لم تعد تشد انتباهه لوقت طويل، تظن عائلته أن الأمور ستعود إلى طبيعتها في نهاية المطاف، ويأمل صامويل نفسه أن يخفت الألم في صدره أيضًا، وذلك الشعور المزعج بأنه فقد شيئًا عزيزًا عليه ولكنه لا يستطيع تذكر ماهيته.

قبل ثلاثة أسابيع، حدث شيء زاد الطين بلة، اقتربت منه امرأة في أثناء قيامه بتوصيل طلبية إلى حانة شلبورن، من الواضح أنها كانت أجنبية، سمراء بلون التربة، وتبدو مألوفة للغاية بالنسبة إلى شخص غريب جدًّا، قالت الكثير من الأشياء التي لم يفهمها، أو في الواقع، كانت منطقية ثم فقدت منطقيتها بعد ذلك، كما لو أن الكلمات تترهل وينسلخ جلدها في عقله، وبالكاد استطاع صوت يقول له «انس كل شيء يا فتى...»، وفي النهاية أصابها الضيق منه.

ووضعت قصاصة ورق في يده، مدون بها عنوان مخطوط بالحبر الأحمر، وهمست:

- تحسبًا فقط.

- تحسبًا لماذا يا سيدتي؟

تساءل.

- في حال تذكرت.

تنهدت، ودفعه شيء في تنهيدتها للتساؤل إذا ما كان لديها ثقب في قلبها أيضًا.

- أو في حال رأيتها مجددًا.

ثم رحلت.

منذ ذلك الحين، وهو يشعر بألم في صدره مثل شباك مفتوح في الشتاء.

يزداد الألم سوءًا في صباحات مثل هذه، عندما يكون وحيدًا ونعيق الغربان باردًا وجافًّا، يفكر بلا أي سبب على الإطلاق في الجراء الرمادية التي قادها في صباه، والاهتزاز في الطريق إلى منزل لوك، ثم النظر إلى نافذة الطابق الثالث ليرى... إنه لا يتذكر على الإطلاق ما الذي تمنى رؤيته.

يحاول فقط التفكير في طرق التوصيل والدقيق، والطريقة المثلى لوضع الكيس المعطوب حتى لا يتسرب منه الدقيق. أفزعته حركة ما، برز فجأة

ظلان من الضباب في نهاية الزقاق المُرقع؛ كلب ضخم الفك، لونه ذهبي لامع، وشابة.

طويلة القامة، تميل بشرتها إلى اللون البني، وشعرها مجدل وملفوف بطريقة لم يسبق له رؤيتها، وترتدي ملابس تمزج بين المشردين والمبتدئات، تنورة زرقاء جميلة مثبتة بأزرار من اللؤلؤ، وحزام جلدي يتدلى فوق خصرها، ومعطف عديم الشكل يبدو أكبر منها بعقود.

تعرج قليلًا في مشيتها، وكذلك الكلب.

ينبح الكلب مبتهجًا لرؤيته، وانتبه صامويل إلى أنه يحدق، يطرف بعينيه عابسًا نحو أكياس الدقيق، ولكن هناك شيئًا حيالها، خفيًّا، نوعًا من الوهج، مثل ضوء مشع حول باب مغلق...

يتخيلها مرتدية عباءة بلون الشمبانيا، ولآلئ متدلية، يحيط بها ضجيج وتموج حفلة فاخرة، تبدو تعيسة في هذا التخيل، مثل شيء محبوس.

الآن لا تبدو تعيسة، في الواقع، إنها متوهجة، تلمع ابتسامتها بتوهج النيران، مصحوبة بالقليل من الجموح. استغرق الأمر منه لحظة حتى يدرك أنها توقفت عن السير، وأنها تبتسم له.

– مرحبًا يا صامويل.

قالت وبدا صوتها مثل طرقة على ذلك الباب الموصد.

– سيدتي.

أجابها وأدرك على الفور أنه أخطأ القول، إذ خبت قليلًا ابتسامتها المتوهجة بلهيب النيران، الكلب غير مكترث، يهتز نحو صامويل كما لو أنهما صديقان قديمان.

يشوب الحزن ابتسامة المرأة، ولكن صوتها نبرته حيادية:

– لديَّ شيء لأجلك يا سيد زابيا.

تخرج من معطفها حزمة ضخمة من الأوراق مربوطة بشيء يبدو أنه خيط بني، خرقة، وشريط من سلك السياج.

– أعتذر عن الفوضى... لم أصبر بما يكفي حتى أطبعه وأغلفه.

يأخذ حزمة الأوراق إذ لا يوجد أي شيء آخر يفعله، ويلاحظ بينما يأخذ الأوراق أن رسغها الأيسر عبارة عن متاهة من الحبر والندوب.

- أعرف أن هذا كله ربما يبدو غريبًا لك، لكن من فضلك اقرأه فحسب، كنوع من المعروف لي، على الرغم من أنني أظن أن هذا لم يعد يعني الكثير.

تنفخ المرأة ما يُقارب الضحكة:

- اقرأه على أي حال، وحالما تفرغ منه، تعال واعثر عليَّ، كما تعرف... لا تزال تذكر موقع منزل لوك، أليس كذلك؟

يتساءل صامويل إذا كانت هذه الشابة مجنونة قليلًا.

- نعم، ولكن السيد لوك غائب منذ بضعة أشهر الآن... المنزل خالٍ، وبدأ العمّال يرحلون... سرت إشاعات عن وصيته، وعودته...

لوحت المرأة بيد غير مكترثة:

- أوه، لن يعود، ووصيته تم، أوه، اكتشافها حديثًا.

تتسم ابتسامتها بالخبث والشر، والتواءة انتقام طفيفة عند حوافها.

- بمجرد أن ينتهي المحامون من توقيع الأشياء ويستنزفون أموالًا بقدر ما يستطيعون، سيصبح المنزل ملكي، وأعتقد أنه سيناسب أهدافي على نحو جيد، حالما أتخلص من مجموعاته الشنيعة.

يحاول صامويل تخيُّل هذه الشابة الجامحة وريثةً شرعيةً لثروة لوك، لكنه يفشل، ويتساءل إذا ربما كانت مجنونة أو مجرمة، ويتعجب لم لا تزعجه هذه الاحتمالية أكثر.

- أظن أنه ينبغي إعادة أشيائه إلى ملاكها الأصليين، قدر الإمكان، وهو ما سيتطلب الكثير من السفر إلى أماكن غريبة ومدهشة.

لمعت عيناها وتوهجت بمجرد التفكير في الأمر.

- أولًا، سنذهب إلى شرق إفريقيا، بالطبع، وسنحتاج من جاين أن ترينا البقعة بالضبط، لكن أظن أنها ستظهر... هل رأيتها بالمناسبة؟

تواصل الحديث قبل أن يستطيع صامويل الإجابة:

- سأفتقدها بشدة عندما تعود إلى وطنها، لكن ربما يمكنني فعل شيء حيال الأمر... هناك الكثير من الأبواب في منزل لوك، على كل حال... من يمكنه التكهن بالمكان الذي تقود إليه؟

تحول عينيها مثل امرأة تعيد تزيين ردهتها.

- رحلة إلى إفريقيا، ورحلة إلى كنتاكي، وربما رحلة إلى كوخ بعينه عند الطرف الشمالي من البحيرة، إذا أردت، سيكلفونني، لكنهم يستحقون هذا الثمن، أظنني أصبح أقوى.

قال صامويل:

- آه.

عادت إليها ابتسامة الصيف المشرقة، تلمع كشمس صغيرة:

- اقرأه بسرعة يا صامويل، لدينا عمل نقوم به.

وبجرأة شديدة، مدت يدها، ولمست وجنته. أصابعها جمر دافئ على جلده البارد، وأصبحت الآن قريبة منه للغاية، وعيناها مشتعلتان، بينما الثقب في قلبه يعوي ويصطك ويتألم، ثم يرى وجهها، لدقيقة فحسب، يحدق نحوه إلى الأسفل من الطابق الثالث في منزل لوك، جانيوري. هذه الكلمة هي باب يُفتح مصدرًا صريرًا في صدره، ويدفق الضوء في تلك الوحشة الشنيعة.

قبلته، سرت في جسده حرارة ناعمة، سريعة الزوال، لدرجة أنه ليس متأكدًا إذا ما كان يتخيل، ثم استدارت، يجد صامويل نفسه عاجزًا تمامًا عن الكلام، ويراقب المرأة وكلبها يرحلان عبر الزقاق، تتوقف وترسم بإصبعها على الهواء كما لو كانت تكتب شيئًا على السماء، فيتموج الضباب ويلتف حولها مثل قطة شاحبة ضخمة، ثم يتحول إلى ما يشبه قوسًا أو بابًا، تعبر خلاله ثم تختفي.



شكر وتقدير

الكتب مثل الأطفال، تحتاج إلى عشيرة. عبر مزيج من الحظ والامتياز والشعوذة، تصادف أنني أمتلك العشيرة الأفضل في تاريخ العالم، وأخشى أن هذه معادلة بسيطة.

أنا ممتنة لوكيلتي كايت ماكين التي أجابت على كل رسائل البريد الإلكتروني بصبر وكياسة، حتى تلك الرسائل التي تحتوي على نقاط وترميز بالألوان وإحصاءات تاريخية غريبة، ولنيفيا إيفانز، محررة تعرف الفارق بين الأبواب و**الأبواب**، وعملها الرئيسي يبني المزيد من **الأبواب** للقراء حتى يعبروا من خلالها، ولإيميلي بايرون، وإيلين رايت، وأندي بول، وإيمي شنايدر وكل فريق أوربت/ ريدهوك، الذين يعرفون كيف يجعلون تلك **الأبواب** تلمع على الرف، ولجوناه ساتون-مورس، وزيف ويتيز، ولورا بلاكويل، أول أناس قرؤوا هذا الكتاب ولم يكونوا ملزمين تعاقديًّا على اللطف سواء برابطة الدم أو الزواج، لكنهم كانوا لطفاء على أي حال، لقسمَي التاريخ بجامعتَيْ فيرمونت وبيريا، اللذين لا ينبغي مساءلتهما على استغلالي الخيالي للوقائع، لكن ربما ينبغي إلقاء اللوم عليهما بشأن الملاحظات. لأمي، لأنها منحتنا عشرة آلاف عالم لنختار بينها، الأرض الوسطى ونارنيا، وتورتال وهيرول وبراير وجيب وبيرن، ولأشقائي لأنهم رافقوني في أثناء التجول خلالها، ولوالدي

لإيمانه بأننا نستطيع بناء عالمنا، ولوقوفه إلى جواري في ذلك الحقل المكسوّ بالعشب في كنتاكي الشرقية.

ولفين الذي جاء إلى العالم بالضبط في منتصف هذا الكتاب، وفيليكس الذي وُلد في نهايته، ولم يساعدني كلاهما بأدنى طريقة، سوى بالتجول في قلبي، والإطاحة بالجدران، والسماح بدخول الضوء.

وإلى نيك، أولًا وأخيرًا ودائمًا، لأنك لا تستطيع التعبير عمّا في قلبك بالكتابة حتى تجده أولًا.

احتلت قائمة جريدة لوس أنجلوس تايمز للكتب الأكثر مبيعًا، وترشحت لجوائز هوغو ونيبولا ولوكوس وجوائز عالم الخيال لعام 2020.

"رسالة حب جميلة ومؤلمة إلى القصص ورُواتِها، والأبواب التي يقتادونا عبرها، إنها رواية ساحرة للغاية".

- كريستينا هنري.

"حكاية رائعة للغاية، وذكية، ورقيقة متداخلة عن عوالم بداخل عوالم، وقصص داخل قصص، وقوة الكلمات الخارقة للحواجز".

- ميليسا ألبرت.

"رسالة حب إلى الخيال والمغامرة والكلمة المكتوبة وقوة ألوان الحب المختلفة".

-Kirkus Magazine.



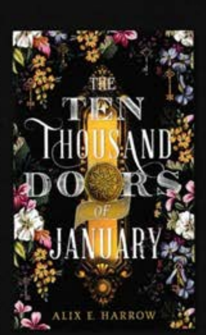
ألِيكس إي. هارو

أديبة أمريكية عملت مؤرخة وأكاديمية في جامعة كنتاكي الشرقية قبل تفرغها للكتابة، حصلت على جائزة هوغو للقصص القصيرة، وترشحت روايتها الطويلة الأولى "جانيوري والأبواب العشرة الآلاف" للحصول على جائزة هوغو واحتلت قائمة الروايات الأكثر مبيعًا حسب جريدة لوس أنجلوس تايمز.



جانيوري والأبواب العشرة الآلاف

في بداية القرن العشرين، تنطلق امرأة شابة في رحلة خيالية من اكتشاف الذات بعد ما عثرت على كتاب غامض ضمن أحداث هذا العمل الروائي الشاعري الآسر.



في قصر مترامي الأطراف يعج بالكنوز الفريدة، تبرز جانيوري سكالر كتحفة فنية في ذاتها، وكونها تحت وصاية السيد لوك الثري، تشعر بأنها مختلفة قليلًا عن القطع الأثرية التي تزين الردهات، فهي مصانة بعناية، لكن تعاني إهمالًا حادًّا، ولا تنتمي إلى هذا المكان على الإطلاق.

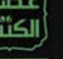
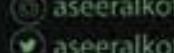
ثم تعثر على كتاب غريب يحمل عبق عوالم أخرى، ويروي حكايات عن الأبواب السرية والحب والمغامرة والخطر. ومع كل صفحة تُطوى، تظهر حقائق مستحيلة عن العالم، وتكتشف جانيوري قصة متشابكة مع عالمها على نحو متزايد، وتكتشف جانيوري أنها من الممكن أن تهرب من قصتها، وتغرق في قصص أخرى.

خيال خصب وثري، وقصة عن الرحلات المستحيلة، والحب الذي لا يُنسى، والقوة الكامنة في القصص المرتقبة ضمن أحداث العمل الروائي الأول الساحر للكاتبة أليكس إي. هارو.

telegram @soramnqraa







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb